فكر علمي . . . ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

411 - 410
آذار 2020

مقالات
هاشم نعمة
صالح ياسر
أحمد محمد الموسوي
قاسم حنون
عماد جاسم
سجاد سالم حسين
سلام حربه
جين غابرييل غانسكا

ملف العدد: مدني صالح
طه جزاع
علي المرهج
افراح لطفي عبد الله
فوزي حامد الهييتي
قاسم المحبشي
محمد فاضل عباس
رائد جبار كاظم
رحيم محمد الساعدي
قاسم جمعة

نصوص قديمة
بواكير الحركة الوطنية والتقدمية في العراق (القسم الثاني)

حوارات
(الثقافة الجديدة)
تحاور الدكتور اثير الجاسور

ادب وفن
حسب الله يحيى
صبيح الجابر
جواد مطر الموسوي
يوسف أبو الفوز
حنون مجيد
نجم حيدر
حي أم كويتزي
صادق الطريحي
رنا صباح خليل
كريمة الربيعي

التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 410-411
آذار: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- العدالة الاجتماعية... مقاربات فكرية ..... هاشم نعمة
19- أزمة طائفية أم صراع اجتماعي؟ مجددا..الحاجة ملحة لضبط المفاهيم ..... صالح ياسر
27- انتفاضة تشرين 2019..الجذور والسمات ..... أحمد محمد الموسوي
33- انتفاضة اكتوبر.. جيل جديد ومبادرات خلاقة ..... قاسم حنون
41- الاعلام.. صناعة ثورة وترسيخ السلام ..... عماد جاسم
45- واسط.. شرارة الانتفاضة وإدارة الاحتجاج ..... سجاد سالم حسين
51- الثورة الشبابية في المدن العراقية..بابل انموذجا ..... سلام حربه
65- الذكاء الاصطناعي.. لقاء مع جين غابرييل غانسكا ..... ترجمة : فؤاد الصفار

ملف العدد: مدني صالح

64- مدني صالح ..المكتفي بذاته! ..... طه جزاع
68- مدني صالح حكيم عراقي معاصر ..... علي المرهج
78- فيلسوف كشف الخراب الفكري ..... افراح لطفي عبد الله
85- الفلسفة بعد خرابها .. هل من إصلاح؟ ..... فوزي حامد الهييتي
95- مدني صالح الذي علمني الحكمة والحلم والحب ..... قاسم المحبشي
106- شيء من مدني صالح والفلسفة ..... محمد فاضل عباس
111- خطاب الما بعد عند مدني صالح ونقد الهيمنة الغربية ..... رائد جبار كاظم
122- المقامات الثانية لمدني صالح .. قراءة عشوائية للأدب الساخر ..... رحيم محمد الساعدي
127- فلسفة الكتابة عند مدني صالح ..... قاسم جمعة

نصوص قديمة

132- بواكير الحركة الوطنية والتقدمية في العراق ..... القسم الثاني

نصوص مترجمة

156- اهمية كارل ماركس لسياسة اليسار اليوم.. بقلم زابينا لايدغ ..... ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

170- (الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور اثير الجاسور

أدب وفـــــن

186- في البدء..الجدوى واللا جدوى في الكتابة ..... حسب الله يحيى

رأي
187- الق الثقافة يضيء خيمات المستقبل ..... صبيح الجابر

شخصيات
190- عباءة قضاة التاريخ.. وعبدالجبار ناجي ..... جواد مطر الموسوي

تجارب
196- المُعَلَّمُ! ..... يوسف أبو الفوز

مسرحية
200- الغرباء ..... حنون مجيد

تشكيل
210- المجرب الأول/ كاظم حيدر .... الانسان: توجه ابداعي ومعرفي ومخيلة ..... نجم حيدر

قصة قصيرة
216- أكاذيب ..جي أم كويتزي ..... ترجمة: جودت جالي

نصوص
220- سيرتُك الأولى ..... صادق الطريحي

قراءة
223- الجسد بوصفه سلطة ..... رنا صباح خليل
228- وجهاً لوجه مع الشاعرة والكاتبة المصرية فاطمة ناعوت ..... كريمة الربيعي

كلمة العدد

انتفاضة تشرين.. عنفوان متجدد!

يكاد العراقيون يجمعون على ان انتفاضة تشرين 2019 جاءت لتمثل حدا فاصلا بين زمنين، فحكم البلد وتصريف شؤونه بالآليات والسياقات القديمة اصبح شيئا من الماضي. كما ان الزمن قد عفا على تلك الاساليب المعتمدة في ادارة وتوجيه الصراع السياسي والاجتماعي. لكن الاجماع غير المعلن حول هذا، ينتهي عند هذا الحد.

المحاصصة الطائفية ـ الإثنية.. نهج مدمر

لقد مزقت الانتفاضة كل اردية "القداسة"، وأزالت كل بقايا الحُجب، لتبرز بوضوح حجم انانية القوى السياسية المتنفذة القابضة على السلطة والثروة والنفوذ ومدى تمسكها بمصالحها ونفوذها على حساب كل ابناء وبنات الشعب العراقي. وما أزمة تشكيل الحكومة الانتقالية المؤقتة المفترض بعمرها ان لا يدوم إلا عدة شهور، إلا دليل واضح عن تشبث هذه القوى بالحكم وبمنهج المحاصصة، وتعبير عن حالة الاستعصاء السياسي المستمرة التي يمر بها البلد. فهذه الازمة ما هي إلا انعكاس لعمق ازمة البلد البنيوية المتعددة الصُعد، ولحجم ازمة منظومة الحكم ومنهجها، وبالتالي فهي تأكيد مباشر على مأزق نهج المحاصصة الطائفية – الاثنية، لذا لن يلوح حلٌ في الافق، والبلد في أسار هذا النهج المدمر. لقد اشرت الانتفاضة بوضوح على ضيق افق سياسي مزمن، تعانيه "النخب" السياسية الحاكمة؛ فكل محاولاتها وخياراتها التي استحدثتها، بعد ان استنفذت كل ترسانتها من الاساءة والتزييف والقمع والاغتيال، ثبت للقاصي والداني أنها ليست سوى محاولات لإدامة سلطتها ونهجها في الحكم.

ان الصراع المحتدم بين القوى السياسية المتنفذة في سبيل الخيارات المطلوبة للخروج من النفق المظلم الذي حشرتها الانتفاضة فيه، يؤكد ذلك. فمهما ارتفع الصراخ من اجل فرض أو ترجيح احد هذه الخيارات، ومهما جُمّلت وزوقت بعبارات تمتلئ بكلمات من قبيل: الوطن والوطنية والديمقراطية وفرض القانون او حتى السلم الاهلي، فهي ليست سوى محاولات لفرض حلول ترقيعية، وتنازلات هامشية، لإعادة انتاج نفس المنظومة السياسية التي تؤمن لهم مصالحهم. فهي في جوهرها ليست سوى محاولات لإعادة تأسيس وبناء البيوتات الطائفية او الاثنية، المتصدعة اصلا بفعل الصراعات الداخلية لأطرافها، قبل ان تقوضها الانتفاضة. ومن اجل ذلك يتم التلويح بل وحتى الشروع في بعض الاحيان في فتح صراعات داخلية او خارجية.

انتفاضة تشرين.. تعيد المعنى إلى الحقل السياسي

ها هي انتفاضة تشرين تدخل شهرها السادس، وهي بسبب من عنفوانها وعمقها الاجتماعي والشعبي، ولطول امدها وثبات قدرتها على المطاولة وتنوع قواها وأساليبها تمثل الاحتجاج الأكثر فعالية وتأثيرا منذ نشأة الدولة العراقية الحديثة. اكدت الجماهير طيلة هذه الشهور انها لا يمكن ان تتهاون في واحد من اهم دوافع انتفاضتها، ألا وهو الخلاص الفعلي من نهج المحاصصة السياسي الذي يسود في اختيار المسؤولين في البلد وعلى كافة المستويات. وهذا اكبر دليل على ان الانتفاضة على مستوى وعي سياسي ومطلبي عالٍ وعلى قدر المسؤولية والكفاءة كان قادرا على كشف زيف كل محاولات القوى المتنفذة الساعية الى

فرض حلول او شخصيات لا تتوافق مع مطالب المنتفضين. ان وعي الانتفاضة قائم اساسا على ادراكها لضرورة اعادة بناء وتشكيل هوية وطنية عراقية معاصرة، جامعة لكل الهويات الفرعية، هوية وطنية قائمة على اساس دولة المواطنة والقانون والحريات، لا على اساس أية خصائص "جوهرانية" حقيقية او متخيلة.

والخلاصة، يجب القول ان انتفاضة تشرين المجيدة ولكونها تمثل عصارة للتجارب والصراعات والجدالات والنظريات التي واجهت او عبرت عن مجمل النضال والاحتجاج الاجتماعي السابق، فهي وريثة كل النضالات السابقة، بنجاحاتها وإخفاقاتها وصعوباتها. وباستثناء الغبش والغموض الذي يسود بعض الرؤى والطروحات وتلك العدمية السياسية وذلك التقديس الفظ للعفوية ولـ"اللاإنتماء" السياسي، فقد كانت الانتفاضة دوما على مستوى خطابها السياسي وشعاراتها. حيث انها أكدت على علوية أدوات التغيير والضغط الشعبية من اسفل، على كل اساليب "الاصلاح" وألاعيب السياسة وأحابيلها بين "النخب". وبالتالي فان واحدا من اهم انجازاتها هو إعادتها المعني إلى الحقل السياسي، واستنهاضها الجماهير مرة اخرى، للنضال في سبيل انتزاع حقوقها المسلوبة، مزيلة كل الادعاءات الباطلة، من ان الشعب وبسبب العقود الطويلة من القمع والضغط والحروب وبتأثير قوي من ريعية الدولة فإنه قد جُبل بسمات الاستكانة، ودُجن بثقافة الخضوع.

ان تاريخ البشرية يحدثنا ان احداثه المهمة غالبا تحدث مرتين او أكثر، وإذا كان التاريخ يكرر احداثا مأساوية بأخرى كوميدية، فإنه دوما ما كان ليُعيد مآثر التضحيات إلا بوقائع بطولات أعظم.

لآذار هذا العام حلاوة خاصة

ولان العدد 410-411 يصدر في نهاية آذار 2020، فان لهذا الشهر حلاوة خاصة لتعدد مناسباته.

أولى هذه المناسبات هي يوم الثامن من آذار عيد المرأة العالمي.. فمن معين الحياة نروي زهور الربيع ونقدمها اضمامات عاطرة الى المرأة العراقية، وكل نساء العالم في يومهن العالمي للنضال من اجل المساواة الحقة. ونتطلع لان يتواصل نضال المرأة العراقية من اجل انتزاع حقوقها المشروعة في الحرية والمساواة والعدالة. لقد اعطت المشاركة الفاعلة للمرأة العراقية في انتفاضة تشرين، طعما خاصا وروحا جديدة... فتحية لها في عيدها، وعلى روحها الوثابة وهي تقتحم صفوف المنتفضين غير هيابة بالمخاطر.

ومن المعين نفسه، ينبع الاحتفال بعيد نوروز، تمجيدا لانتصار الشعب الكردي على الاستبداد. انتصار "كاوة الحداد" وهو يرفع مطرقته على الملك الجائر "ضحاك". ففي الحادي والعشرين من آذار كل عام، تتوهج النيران على ذرى جبال كردستان، مبشرة بالربيع، ومضيئة دروب الكفاح ضد اشكال الجور والظلم.

وهذا العام، كما الاعوام السابقة له ايضا حلاوة خاصة اضافية، ففي آذار وكل عام يوقد الشيوعيون العراقيون وأصدقاؤهم وكل انصار الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في بلادنا، شمعة جديدة في تاريخ الحزب، وها هو في هذا العام يحتفي بذكراه السادسة والثمانين، عمر النضج والحكمة.

ومنذ لحظة التأسيس في 31/ آذار/ 1934 راح الشيوعيون العراقيون يوسعون تحركهم وسط الجماهير وقيادة كفاحها السياسي والاجتماعي. ومنذ ذلك الحين أيضا ومآثر شعبنا لا تُذكر إلا ويذكر معها الحزب الشيوعي العراقي ونضاله المتفاني في وثبة كانون 1948 وانتفاضتي 1952 و1956، وفي معركة كاورباغي وإضرابات عمال الميناء والسكك، وغيرها الكثير من النزالات المشهودة التي مهدت لانتصار ثورة 14 تموز 1958، ثم مقاومة انقلاب شباط الاسود عام 1963 والنظام الدكتاتوري المقبور طوال عقود عدة. كما لا يمكن لأي منصف ان ينكر التضحيات التي قدمها الحزب منذ العام 2003 وحتى الآن، وهو يناضل بلا هوادة، من اجل بناء عراق جديد حر وسيد نفسه.

وفي ظل الظروف الراهنة التي تواجه بلادنا، حيث تتفاقم الأزمة البنيوية العميقة، على مختلف الصُعد بفعل نظام المحاصصات الطائفية – الاثنية والأفق المسدود الذي وصل إليه الامر، الذي يؤكد مجددا، ان البلاد تحتاج الى بديل عابر للطوائف والاثنيات، يراهن على الوطنية العراقية، وهو ما جسدته مطالب انتفاضة تشرين، وما زالت تواصل النضال من اجل تحقيقه.

مقـــــالات

العدالة الاجتماعية.. مقاربات فكرية

د.هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه، التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية العام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب، وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

مقدمة

العدالة الاجتماعية مصطلح واسع الاستخدام، يتضمن مسائل خلافية على مستوى المفهوم والتطبيق. وهو محل لصراع فكري وأيديولوجي، منذ وقت بعيد، لأنه يعكس جانبا هاما من الصراع ذي المضامين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لذلك نراه قد انعكس في كتابات مفكرين وباحثين من فروع معرفية مختلفة ممن اهتموا بهذه الموضوعة وما يرتبط بها من مفاهيم. الغرض من هذه المقالة هو مناقشة أبرز المقاربات الفكرية لهذه الموضوعة، لعلها تكشف لنا عن بعض المضامين الفكرية والأيديولوجية التي ارتبطت بها.

هناك الكثير من التعاريف للعدالة الاجتماعية، لكن اخترنا هنا إيراد تعريف الأمم المتحدة لعله يضمن منحى محايدا؛ إذ فسرت مفهوم العدالة الاجتماعية العام 2006، باعتباره توزيعا منصفا ورحيما لثمار النمو الاقتصادي. وإن هذه العملية يجب أن تضمن احترام النمو المستدام الذي يندمج مع البيئة الطبيعية، وترشيد استخدام الموارد غير المتجددة، وأن تتمكن أجيال المستقبل من التمتع بأرض جميلة ومعطاء. بعد ذلك تم تحديد ست نقاط خلل رئيسة، والتي يمكن أن تضعف بشدة من استمرارية العدالة الاجتماعية والسلام. تشمل هذه النقاط، التفاوت في توزيع الدخل والممتلكات، فرص الحصول على العمل، والمعرفة، والصحة والأمن الاجتماعي، بالإضافة إلى المشاركة والارتباط المدنيين.

وقد نجحت اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا التابعة للأمم المتحدة في العام

2014، من الوصول إلى إجماع إقليمي حول تعريف العدالة الاجتماعية، يشمل حقوقا متساوية والوصول إلى الموارد والفرص للرجال والنساء، مؤكدة على الاهتمام الخاص بإزالة العوائق التي تعيق تمكين المجموعات المحرومة من استثمار إمكانياتها للمشاركة في صنع القرار الذي يحكم حياتها. في هذا التعريف تتركز العدالة الاجتماعية في مبادئ المساواة والإنصاف والحقوق والمشاركة[1]. وهكذا نرى أن هذا التعريف ذو طابع قانوني، وبالرغم من أهميته الراهنة إلا أنه لا يعكس الأسباب الحقيقية للتفاوت الاقتصادي والاجتماعي الذي هو جذر ضعف أو انعدام العدالة الاجتماعية.

وفقا لتايلر وسميث (1998)، هناك علاقة قوية بين تصور أو فهم العدالة الاجتماعية وبين شعور الناس وحكمهم على ما هو "صواب" و"خطأ"، "أخلاقي" و"غير أخلاقي". فعندما يشعر الناس أن القرارات عادلة، فهم يكونون سعداء للتعاون مع بعضهم البعض، يدعمون المجموعة ويقبلون قرارات السلطة، وعندما يشعر الناس بالظلم والحيف، فإن استجابتهم يمكن أن تكون الاحتجاج أو الثورة أو التخريب[2]. وهناك الكثير من الأمثلة عبر التاريخ بمراحله المختلفة تؤكد هذا الاستنتاج.

المقاربة الليبرالية

الليبرالية رؤية للإنسان والمجتمع والسياسة والاقتصاد، وهي تعتمد في رؤيتها هذه على نظرة خاصة للإنسان تتصف بكونها ذرية أو تفتيتية، حيث ترد المجتمع إلى أفراد، وتنظر إلى هؤلاء الأفراد على أنهم ذرات مستقلة عن بعضها. ولا تختزل المذاهب الليبرالية، المجتمع إلى أفراده وحسب، بل هي كذلك تحمل تصورا خاصا عن الفرد. فالفرد لديها كائن بيولوجي بصفة رئيسية، يصدر عنه سلوك مشروط بالرغبة في حفظ بقائه. ولذلك كانت نظريات توماس هوبز (1588 - 1679) وجون لوك (1632 - 1704) حول الطبيعة البشرية الإرهاصات الأولى لعلم النفس التجريبي في القرن التاسع عشر[3] وما تلاه من كتابات سارت على ذات النهج.

مجتمع القرن السابع عشر الذي عاش فيه هوبز ولوك هو أول مجتمع يضفي على الرغبة قيمة ملزمة، وينظر إليها على أنها عقلانية ومشروعة. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الظرف الاجتماعي والتاريخي آنذاك كان في حاجة إلى تبرير التغيرات الجديدة الحادثة على مستوى الاقتصاد والتي كانت تتطلب من الفرد الزيادة الكبرى في ثروته والسعي نحو الحصول على المزيد منها باستمرار، ذلك لأن قيم الزهد والتقشف والقناعة والرضا بالقسمة والنصيب لم تكن تصلح في مجتمع برجوازي ناشئ، يسعى لزيادة الثروة. وبذلك كان النظام الاقتصادي الناشئ بحاجة إلى محفزات فردية للعمل، ولم يكن هناك أصلح من النظرة الليبرالية عن الطبيعة الإنسانية باعتبارها رغبة لا متناهية، والتي تترجم اجتماعيا إلى الرغبة في الامتلاك اللامحدود[4] والتراكم المستمر للثروات.

تضم الليبرالية الاقتصادية في إطارها الواسع الفكر السياسي لليبراليين الإنكليز في القرن السابع عشر، وعلى رأسهم توماس هوبز وجون لوك، والاقتصاد السياسي

الكلاسيكي وخاصة مدرسة آدم سميث التي تضم ريكاردو وجيمس ميل وابنه جون ستيوارت ميل، وتوماس هل جرين، كما تضم الاقتصاد النيوكلاسيكي كله المعروف بالمدرسة الحدية[5] ابتداء من بداياته الأولى لدى المدرسة النمساوية التي أسسها كارل منجر ويوجين فون بوم، والجيل الثاني من هذه المدرسة والذي يضم فون ميسز وهايك، ومؤسسي الاتجاه النيوكلاسيكي من غير النمساويين أمثال جيفونز ومارشال في انكلترا ووالراس في العالم الناطق في الفرنسية، بالإضافة إلى المدرسة الأمريكية في الاقتصاد النيوكلاسيكي والتي تضم جون بيتس كلارك وميلتون فريدمان وبول صامو يلسون [6].

لقد أسس العقد الاجتماعي[7] لنظام سياسي يتساوى فيه الناس (المواطنون) أمام القانون، أي يتساوون في التمتع بالحقوق السياسية من دون تمييز بحسب الدين أو الجنس أو الأصل الاجتماعي. لكن الليبرالية التي اهتدت إلى هذا الحل، الذي فتح الباب أمام التطور الديمقراطي، تركت مسألة الحقوق الاجتماعية - الاقتصادية للمنافسة، أي لم تؤمن للجميع الحقوق الاجتماعية بمثل ما أمّنت الحقوق السياسية. لذلك كان للماركسية الفضل في أنها شددت على أن المواطنة التي تساوي المساواة السياسية، لا تكتمل إلا بالمساواة الاجتماعية، أي المساواة في الحقوق الاجتماعية - الاقتصادية[8]. وسنعود إلى المقاربة الماركسية للعدالة الاجتماعية بشيء من التوسع.

عالج مفكرون معاصرون العدالة الاجتماعية باعتبارها فرعا للتوزيع. واحد من الأنصار الأكثر شهرة لهذه الفكرة هو جون رولز في كتابه "نظرية العدالة"؛ إذ اعتبر فكرة العدالة إنصافا وكانت مركز نظرته الفلسفية للعقد الاجتماعي. وقد طور بعض المنظرين أكثر هذه الفكرة عن طريق ربطها بالحاجيات التي يحتاج إلى توزيعها وأنماط هذا التوزيع. وآخرون ناقشوا بأن العدالة الاجتماعية تتطلب التخلص من الهيمنة المؤسساتية والظلم[9] الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

يقول رولز في هذا الصدد "أردتُ التوصل إلى تصور في العدالة يقدم بديلا نظاميا معقولا عن المذهب النفعي، الذي ساد بشكل أو بآخر لفترة طويلة في التقليد الأنكلو - ساكسوني من التفكير السياسي. والسبب الرئيس الذي دفعني لإيجاد مثل هذا البديل هو الضعف، كما أعتقد، في العقيدة النفعية كأساس للمؤسسات الديمقراطية الدستورية. على وجه الخصوص، لا أعتقد أن المذهب النفعي يستطيع تقديم تفسير مرض للحقوق والحريات الأساسية للمواطنين كأفراد أحرار ومتساوين، وهو متطلب ذو أهمية أولى مطلقة من أجل تفسير المؤسسات الديمقراطية"[10]. وقد تصدى للمذهب النفعي بالنقد أيضا مفكرون وباحثون كُثر خصوصا الباحثين الماركسيين.

ويشير رولز الى، ان العدالة إنصافا ليست نظرية تعاقدية تامة؛ إذ أنه من الواضح أنه يمكن التوسع بالفكرة التعاقدية إلى اختيار نظام أخلاقي كامل، بمعنى نظام يتضمن مبادئ جميع الفضائل وليس العدالة فقط. إن الوضع الأصلي[11] هو الوضع الاجتماعي المبدئي المناسب الذي يضمن أن تكون الاتفاقات الأساسية التي يتم التوصل إليها منصفة. هذه الحقيقة هي التي تقود إلى

تسمية "العدالة إنصافا". ومن ثم يعد الوضع الأصلي، هو التأويل الفلسفي الأكثر تفضيلا لوضع الاختيار المبدئي من أجل تحقيق الغرض وهو القيام بصياغة نظرية في العدالة[12].

بوصف رولز مفكرا أمريكيا معاصرا، فإن نظريته عن العدالة الاجتماعية لا تنفصل عن السياق الليبرالي الغربي العام، ولا سيما أنها "صورة للمذهب الليبرالي السياسي"، كما يشير إلى ذلك. فقد أدت الليبرالية، بفعل تناقضاتها وفلسفتها النفعية، إلى تعاظم كثير من مظاهر الظلم المتمثل في التفاوت الحاد بعد تصاعد التوجه الليبرالي الجديد وبداية التراجع عن برامج الرعاية الاجتماعية. وبات كل من الاستقرار الاجتماعي والسياسي، موضع قلق ما دفع رولز إلى التفكير بنموذج تعاقدي جديد، يتم التوافق فيه على مبادئ عامة للعدالة التي يرجى من العمل وفقا لمقتضياتها، التخفيف من حدة المظالم المتراكمة، بالانتقال بفلسفة العقد الاجتماعي إلى مستوى أكثر تجريدا عبر ما سماه "الوضع الأصلي"[13]. وهذا التجريد يجعل من كتاباته في العدالة الاجتماعية، هلامية وغير ملموسة.

إن تأثير كانت في رولز وجهه نحو اتخاذ موقف "الأنانة" أو "الذاتية الحتمية" الذي يفيد التركيز الحصري على المجتمع الأوروبي-الأمريكي واتخاذ نظرة محدودة إلى الواقع الإنساني ككل؛ فهو يسعى فحسب إلى معالجة الصعوبات التي يعانيها المجتمع الليبرالي من دون أن يأخذ بالاعتبار كون هذا المجتمع لا يشكل سوى جزء من العالم المتعدد الثقافات.

العدالة مرتبطة ارتباطا وثيقا بموازين القوى في المجتمع، أي طبيعة العلاقات الاجتماعية. الاستغلال، واستغلال دول لأخرى، والرأسمالية المعولمة والمتوحشة كما نعيشها اليوم، هي كلها شرور تسكت عنها نظرية رولز للعدالة وتُغّيبها عن النقاش، مثلما أنها لا تخصص سوى حيز ضيق للفئات الاجتماعية الثلاث الراجحة في النقاشات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية: "الأعراق - الطبقات - النوع"[14].

مثّل السجال الفكري بين الماركسيين وأنصار نظرية رولز، واحدا من أغنى النقاشات في الفلسفة السياسية المعيارية في العقود الثلاثة الأخيرة. فبعد نشر كتاب نظرية العدالة لرولز اعتبر الكتاب اليساريون (ولا سيما الفلاسفة الماركسيين) أن منظور رولز لم يذهب بعيدا كفاية، ما جعل تصوره للعدالة التوزيعية على وجه الخصوص، محور هجوم شرس. إذ أكد المعارضون الماركسيون لرولز، أن مقترحاته المؤسساتية لا تمثل سوى تبريرات للترتيبات الاجتماعية القائمة، ما دامت اقتراحاته للمؤسسات العادلة لا تُبنى سوى على إجراءات "إعادة توزيع الدخل"، لا على "إعادة توزيع رأس المال"[15].

ظل التناغم الليبرالي الداخلي غير متحقق دائما، ولم تكن البدائل المطروحة لحل المشكلات الناجمة عن مبدأ عدم تدخل الدولة بمنأى عن التناقضات، ولا سيما أن تطبيق مبدأ عدم التدخل على المستوى الاقتصادي من شأنه التأثير سلبا في قيمة المساواة، التي لا شك في أن عدم مقاربها يفقد قيمة الحرية معناها، ويحول دون الانتفاع منها. الأمر الذي جعل مشكلات الليبرالية وتناقضاتها مرتبطة، في جانب كبير منها، بالاقتصاد وعلاقته بالدولة؛ إذ يجب أن تمتنع الدولة عن

التدخل في الشؤون الاقتصادية، وفق مبدأ "دعه يعمل"، وهو ما من شأنه العمل وفقا لقوانين السلوك البشري التي تمتلك آلياتها التنظيمية الطبيعية. ويسري ذلك على السوق التي تنظم ذاتها تلقائيا وفقا لآلياتها، ولا سيما آليتي العرض والطلب. لذا لا حاجة، والحال هذه، إلى تدخل الدولة لأن "يدا خفية" بحسب تعبير آدم سميث (1723-1790)، من شأنها تحقيق العدل والخير الكلي للمجتمع من دون أن يكون ذلك من ضمن مقاصد المشاركين في النشاط الاقتصادي، فهم يتصرفون بدافع الحرص على مصالحهم الخاصة، لا الحس بقيم التضامن والغيرية. فكل شيء ما عدا الجيش ومؤسسات إنفاذ القانون، يجب أن يترك لاتفاق وتعامل المواطنين، والذي عبر سميث عن إمكان الوصول إلى أبعد منه، عندما قال إن "الدولة تحتمل قدرا كبيرا من الدمار"[16]. لقد أثبتت الأزمة المالية والاقتصادية التي اندلعت العام 2008 والتي ما زالت تداعياتها مستمرة بطلان نظرية الليبرالية الجديدة، بل ظهرت أصوات حتى الرسمية منها في الولايات المتحدة وبلدان أوروبية تطالب بالمزيد من تدخل الدولة لوقف تداعيات الأزمة.

عالجت نظريات الحركات الاجتماعية الجديدة على وجه الخصوص شروط تشكل الهوية الجماعية، وانبثاقها والعمل الجماعي لحركات العدالة العالمية في العالم المعاصر. هذه النظريات ظهرت استجابة للتغيرات في الأهداف، والاستراتيجيات. وقد ظهر جمهور أنصار الحركات الاجتماعية، نتيجة للعولمة ذات التوجه الليبرالي الجديد. وعلى الرغم من أن الحركات الاجتماعية قد لا تزال تسعى من أجل الأهداف السياسية والاجتماعية، لكن بالنسبة إلى الحركات الاجتماعية الجديدة هناك تأكيد كبير على بناء الهويات الجماعية وإضفاء الشرعية عليها من اجل التضامن، وتقوية العزيمة للتعبير عن المقاومة. وقد جرى التنظير للقاعدة التنظيمية للحركات الاجتماعية الجديدة، والذي أشار بأنها أكثر تشتتا، وتنوعا، وسيولة وتعقيدا في بنيتها مقارنة بالهياكل الأكثر تحديدا وثباتا العائدة للمنظمات الحركية السابقة مثل الحركات العمالية[17] وغيرها من الحركات على المستوى الوطني والعالمي.

المقاربة الماركسية

حديثا، كان هناك الكثير من الجدل تركز بشأن ماركس والعدالة الاجتماعية؛ إذ أصبحت مسألة ما إذا كان ماركس لديه نظرية بشان العدالة الاجتماعية أم لا مسألة مركزية في النقاش. حتى الآن، تركز كثير من النقاش عموما بشأن تفسير وتعريف ضيق جدا للعدالة. لذلك، كان هذا التعريف، هو الذي قرر مسار مناقشة هذه الموضوعة، بداهة.

هناك من يرى أن ماركس لم يناقش العدالة بحد ذاتها، إذ لا توجد نظرية موسعة بشأنها، لكنه استخدم مصلحات أخلاقية مثل "نهب"، "سرقة" "استغلال"، وهكذا، لوصف استيلاء الرأسمالي على فائض القيمة. ومن خلال استخدام أوصاف الإدانة الأخلاقية يمكن أن نرى نظرية ضمنية للعدالة الاجتماعية تستند إلى معايير أخلاقية متعالية وعالمية تتعلق بالأحكام الاجتماعية ونقدها. علما ان ماركس انتقد العدل وصلته القريبة بالآليات القسرية لأجهزة الدولة، وانتقد فكرة حياد

الدولة، وذلك عندما تستند مبادئ العدل على معايير أخلاقية، غير قانونية، وعامة[18].

وإذا عدنا إلى "البيان الشيوعي" الذي كتبه ماركس وانجلز والذي صدر العام 1848 واخترنا منه بعض المقولات، نرى أنها تشير إلى مفاهيم ترتبط بصميم العدالة الاجتماعية منها: "البرجوازية... حولت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم، إلى أجراء في خدمتها"، "الفروق في الجنس والسن لم يعد لها شأن مجتمعي بالنسبة إلى الطبقة العاملة، لم يعد هناك سوى أدوات عمل تختلف كلفتها باختلاف السن والجنس"، "العامل، ما أن يستغلّه صاحب العمل، وما أن يدفع له أجره، حتى تنقض عليه القطاعات الأخرى من البرجوازية: مالك البيت والبقال والمرتهن إلخ..."، "الشرط الأساسي لوجود الطبقة البرجوازية ولسيطرتها، هو تكديس الثروة في أيدي خواص، تكوين الرأسمال وإنماؤه. وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور"، "الشيوعية لا تجرد أحدا من تملك منتجات مجتمعية، بل تنتزع فقط القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملك"[19].

انتقد ماركس نظرية الدولة العائدة إلى هيغل في "مساهمة في نقد فلسفة القانون لهيغل" (1843) وكانت هذه واحدة من أولى كتاباته الرئيسة والتي ركّز فيها على تأسيس نظريته في العدالة الاجتماعية. ووفقا لماركس، لم يبحث هيغل أبدا في طبيعة الدولة الحديثة في المجتمع الليبرالي، لكنه فقط حلل مفهوم أو جوهر الدولة، كما هو متصور في الوعي، وكما هو فكرة مثالية في العقل. وإن هيغل لم ير التناقضات العميقة بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي. وبواسطة دمج العناصر الطبقية للمجتمع المدني بالوظائف المختلفة للدولة، يفترض هيغل بأنه تغلب على التضاد في وحدة الدولة وانسجامها[20].

رفض ماركس في كتاباته الأولى، كلا من المثالية السياسية لهيغل والنظرية الليبرالية والحقوق الطبيعية لهوبز ولوك، عندما بدأ بتطوير الخطوط العريضة لنظريته، بشأن العدالة الاجتماعية. وفي نقده الدقيق للحقوق الطبيعية والتحرر السياسي، سيرفض ماركس الحقوق الاقتصادية والملكية، في حين يقبل الحقوق السياسية للمواطنين والمشاركة في الدولة الليبرالية كبداية للتحرك نحو رؤية أوسع واشمل لتحرر الإنسان ونيل حقوقه. وإن روح الأخلاق التي توحد المواطنين مع الجنس البشري ليست هي الدولة الليبرالية، وإنما الاشتراكية والديمقراطية. وسيستخدم ماركس رؤيته هذه في الديمقراطية في وضع نظريته في القانون الطبيعي والعدالة الاجتماعية[21]. علما ان ماركس استخدم التعريف القانوني الأول للعدالة، والذي طوره لوك، والذي يؤكد الحقوق الطبيعية والعدالة القانونية كأساس في نقده الجوهري في رأس المال، في حين استخدم الفلسفة المتعلقة بالعدالة الاجتماعية كأساس أيضا في نقده الدائم لرأس المال من خلال كتاباته [22] الغزيرة والتي غطت موضوعات كثيرة.

قضى ماركس الكثير من وقته في الرد على لوك وغيره من الكتاب بشأن طبيعة الدولة البرجوازية ليبيّن عدم جدوى أي تحرر سياسي أو سن قوانين تتعلق بالمواطنة بالنسبة إلى حالة اليهود؛ إذ ذكر أن أي حرية في فرنسا أو ألمانيا لن تكون سوى تحرر السوق ورأس المال تجاه زيادة الإنتاجية والتفاوت الطبقي. تركيز ماركس كان واضحا؛ إذ الغرض الحقيقي من وراء

نقده لتحرر اليهود هو إيصال رسالة بأن الحقوق الطبيعية للإنسان والتحرر السياسي، هي ببساطة أمور قليلة جدا. وإن التحرر السياسي يختزل الإنسان، من جانب كعضو في المجتمع المدني، مستقل وكفرد أناني. ومن جانب آخر، يختزله إلى مواطن، شخص معنوي. في النهاية، هم (يقصد اليهود) فقط يتحررون إنسانيا نحو شكل جديد من العبودية الاقتصادية أو الإكراه الاقتصادي، وبأن الحيف أو الظلم لا يعكس حقيقة وصدق الإنسانية. كان ماركس واضحا عندما قال إن فشل الثورة الفرنسية يقع في الرغبة بتغيير طبيعة القوانين والحقوق في الدولة، لكن ترك العلاقات الاجتماعية للمجتمع المدني دون تغيير. ويشير الى أن المشاركة الكاملة للناس تحدث فقط من خلال تجاوز تناقضات الليبرالية، عندما يشارك كل عضو في المجتمع في الحياة الاقتصادية والسياسية بشكل كامل، وعندما يكون هناك توازن منسجم بين الحاجيات الإنسانية والقوة مع مجتمع أخلاقي (فضيلة) وديمقراطية. لقد شكلت نظرية الحقوق السياسية وحقوق الإنسان الأولية فقط بداية بحث ماركس للعدالة الاجتماعية[23] والتي يشير كثير من كتاباته إليها ضمنا.

خلال حياة ماركس، سيوسع فهمه لحقوق الإنسان وتحرره، وهو يتحرك من الحقوق السياسية للمواطنين (الاجتماع وحرية التعبير وحرية الفكر)، إلى الحقوق الاقتصادية للمجتمع الديمقراطي (حقوق متساوية، توزيع عادل يستند إلى حاجيات الإنسان، الحق في إنشاء تعاونيات، ملكية العمال)، إلى الحقوق الاجتماعية للاشتراكية (التعليم، دولة الرعاية الاجتماعية، الضمان الاجتماعي، والبنية الاقتصادية التحتية)، وبأن الحقوق تشكل الجزء الأساسي من العدالة الاجتماعية، وهي لا تهبط من الله، ولكنها موجودة في الطبيعة الأخلاقية والديمقراطية الاقتصادية والسياسية. وتكون الحقوق بدون المجتمع المدني جزءا من تحرر الإنسان التي تؤكد على الحرية باعتبارها تقرير مصير مبدع وخلاق في مكان العمل والمشاركة الديمقراطية. وعلى الرغم من أن الحقوق تعد مهمة عند ماركس منذ وقت مبكر، لكنها تمثل فقط جزءا صغيرا من نظريته الواسعة بشأن العدالة. وقد أهتم كثيرا ببحث التضمينات الواسعة للقانون الطبيعي العلماني. على الرغم من أنه لم يستخدم التعبير ربما بسبب دلالاته اللاهوتية والفلسفية[24] لأن مفهوم العلمانية نشأ في البداية في داخل الكنيسة، لكنه تطور وتخلص في ما بعد من مضامينه السلبية.

ربما في إمكان المرء القول إن ما يؤسس الاشتراكية، في نظر غرامشي، ليس التحول الاشتراكي بالمعنى الاقتصادي - أي الاقتصاد المخطط والمملوك للمجتمع - على الرغم من أن ذلك هو بوضوح أساسها وإطارها، وإنما ما يؤسسها هو التحول الاشتراكي بالمعنى السياسي والاجتماعي؛ أي ما قد أطلق عليه عملية تشكيل عادات الإنسان الجمعي التي ستجعل السلوك الاجتماعي تلقائيا، لكنه واع أيضا، وتنفي الحاجة إلى جهاز خارجي يفرض تلك القيم[25]. ويمكن أن نقول إن هذه الرؤية تنطبق على تجربة البلدان الاشتراكية، وهي أحد أسباب فشلها.

في الفكري الكلاسيكي القديم، كان يتعذر التمييز بين المجتمع المدني والدولة، حيث إن كليهما يُشير إلى نموذج من الترابط السياسي

يحكم الصراع الاجتماعي. وكان هيغل في مقدمة النقاد الأوائل الذين ركزوا على اللامساواة والصراعات التي احتدمت بين المصالح السياسية داخل المجتمع المدني، وتطلبت رقابة دائمة من الدولة كي يبقى المجتمع "مدنيا". وقد تناول ماركس هذا الموضوع بشكل أوسع، ورأى أن المجتمع المدني ما هو إلا أداة ثانية لتوسيع نطاق مصالح الطبقة السائدة في ظل الرأسمالية. وتلاه في ذلك غرامشي الذي "قد يكون بمفرده هو المسؤول عن إحياء مصطلح المجتمع المدني في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية". ومع أن غرامشي عبّر عن فكره في إطار الماركسية، إلا أنه توصل إلى بعض النتائج المختلفة عن معلّمه الفكري. فالمجتمع المدني من وجهة نظر غرامشي هو موقع التمرد ضد ما هو تقليدي، بالإضافة إلى كونه ساحة لإقامة هيمنة ثقافية وأيديولوجية، تتجلى من خلال العائلات، والمدارس، والجامعات، ووسائل الإعلام والجمعيات الطوعية أيضا. وقد بلغ المجال العام أعلى مستويات الوضوح في أوروبا خاصة، من خلال عمل يورغن هابرماس الذي جمع بين التقليد الماركسي الذي يكشف عن الهيمنة في المجتمع المدني والتقليد الليبرالي الذي يؤكد على دوره في حماية الاستقلال الفردي، وحاك نسيجا من هذه الخيوط المختلفة في سلسلة معقدة من البُنى النظرية حول "الفعل التواصلي" و"الديمقراطية الاستطرادية" و"استعمار عالم الحياة". فبالنسبة إلى هابرماس وآخرين من المنظرين النقديين، يعرف المجتمع المدني السليم بأنه المجتمع "الذي يسيّره أفراده من خلال معانٍ مشتركة" تُرسى ديمقراطيا عن طريق بُنىً تواصلية في المجال العام. وتتردد أصداء هذه الأفكار اليوم لدى مُنظرين وناشطين يساريين يعتبرون المجتمع المدني حلبة للسياسة التقدمية أي أنه "الأساس الاجتماعي لمجال عام ديمقراطي يمكن من خلاله تفكيك ثقافة اللامساواة"[26]. لذلك يتم التركيز على العمل وسطه في النضالات المطلبية والسياسية من قبل قوى اليسار العالمي.

التفاوت

عندما تُبحث العدالة الاجتماعية، لا بد من بحث التفاوت الاجتماعي والاقتصادي، لأنه يشكل جوهر هذه الموضوعة، ومؤشرا بالغ الأهمية على مدى تحقق العدالة الاجتماعية من عدمه. وعبر التاريخ تم بحث التفاوت من زوايا مختلفة، ومن مفكرين وباحثين مختلفين، انطلاقا من مرجعيات فكرية متعددة تعكس جانبا من الصراع ذي الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وسنركز هنا على مشهد التفاوت في الفترة المعاصرة.

على الرغم من أن مسألة كيفية قياس التفاوت في الثروة والدخل تبقى أيضا موضوعا للنقاش. لكن هناك اتفاق واسع بأنه بعد فترة من انخفاض التفاوت استمرت حوالي أربعين سنة خلال القرن الماضي، كان التفاوت قد شهد ارتفعا حادا في الولايات المتحدة في الثلاثين سنة الماضية[27]. فقد قال ألن غرينسبان الرئيس السابق للبنك المركزي الأمريكي (2007) "إن تزايد النمو كان في مصلحة الفئات ذات الدخول العالية في المقام الأول، أما العمال الذين يحصلون على دخول لا تزيد على المتوسط المتعارف عليه، فإنهم في وضع لا يحسدون

عليه أبدا. إن هذه الظاهرة يمكن أن تؤدي إلى توترات اجتماعية عظيمة، لا بل يمكن أن تفضي إلى انقلابات اقتصادية جذرية"[28]. وجاء هذا التحذير قبل اندلاع الأزمة المالية والاقتصادية بقليل العام 2008.

وفي ألمانيا، في الوقت الذي كشف فيه استطلاع للرأي على أن ثمانين في المئة من رؤساء الشركات يؤكدون أن الأمور تتسم بالعدالة في ألمانيا، يرى ثلاثة أرباع المواطنين أن الأوضاع السائدة لا تتسم بالعدالة أبدا. ويرى أحد ممثلي "مراكز الرأي" في برلين ما يراه المواطنون. ويبني هذا الشخص، وجهة نظره هذه على الأحاديث الكثيرة التي أجراها مع كبار موظفي الشركات. فوفق وجهة نظره، فإن كثيرا من هؤلاء فقدوا الروح الضرورية لمشاركة المجتمع في أحاسيسه. فهدف هؤلاء الرؤساء يتمحور حول الربح - في المقام الأول - ونادرا ما يدور حول المسؤولية الاجتماعية. وحين يلومهم المرء على طرائق تفكيرهم هذه، فإنهم يبررون موقفهم بزعم مفاده أنهم: مجبرون على الانصياع لحركة أسواق المال[29]. وهذه الحالة لا تنطبق على ألمانيا فقط، إنما تنطبق على البلدان الرأسمالية عموما خاصة بعد تبني مذهب الليبرالية الجديدة.

وعلى مستوى العالم وخصوصا النامي منه، تشير تقديرات منظمة العمل الدولية إلى أن حوالي ملياري شخص يعيشون حالياً في أوضاع هشة، متأثرة بالنزاعات، منهم أكثر من 400 مليون تتراوح أعمارهم بين 15 و29 سنة. كما تشير إلى أن خلق فرص عمل وتوفير نوعية أفضل من المهن وتحسين فرص الوصول إلى الأشغال لـ 40 في المائة ممن هم في أمس الحاجة للعمل، كفيل بزيادة الدخل العام والمساهمة في بناء مجتمعات أكثر تماسكاً وإنصافاً، عصيّة على الصراعات العنيفة وقادرة على التصدي للتحديات التي تلي الصراعات.

علما أنه لا يمكن أن يُدرَس الفقر منفصلا عن العدالة الاجتماعية، سواء تم التركيز على المقاربة النفعية "توافر الخيرات" أم على المقاربة الاقتدارية "توافر القدرات". وإذا لم يكن في الإمكان تجاهل أبعاد الفقر الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، فإن فهم الظاهرة فهما سليما يهدف إلى إلغائها أو الحد منها على الأقل، باعتبارها مسألة سياسية. يعني وجود الفقر يمثل فشل السياسة أو انعدامها، فما عسى أن يكون فشل السياسة غير انعدام العدالة الاجتماعية على وجه الخصوص؟[30].

هناك من يرى أن التفاوت الاقتصادي يمثل إشكالية بالنسبة إلى العدالة، ما لم تضبط أو توازن تأثيراته من قبل قوى أخرى. القوى الأخرى يمكن أن تشمل الضريبة وأنظمة تحويل الملكية التي تضمن معيارا أساسيا لائقا للحياة للجميع (وتخفض التفاوت بشكل مباشر)، سياسات الاقتصاد الكلي التي تعزز العمالة الكاملة، القوانين التي تحدد أو تقيد المبالغ التي يمكن أن ينفقها المرشحون في الانتخابات، أو القوانين التي تحدد حقوق الملكية وتجعل صفقات الأسواق قانونية وبطرق تمنع التفاوت الحالي، من أن يمنع الأقل ثروة من المنافسة اقتصاديا[31] وبالتالي زيادة مستوى التفاوت.

إن إعادة توزيع الاستهلاك، هي حاجة ملحة في مجتمعات فيها ناس كُثر غير قادرين على كسب دخل كاف لحمايتهم من العوز، كما بينت تجربتا الأرجنتين والبرازيل

الحديثتان فإن السياسات الاجتماعية التي تدعم استهلاك الفقراء، يمكن أن يكون لها أثر قوي في الحد من الفقر، لكن إعادة توزيع الاستهلاك، ليس لها أثر يمكن تمييزه في توزيع إمكانيات كسب الدخل.

إذن، هناك حاجة لإعادة صياغة أجندة البحث المتعلق بتوزيع الدخل؛ إذ إن التركيز شبه الحصري على إعادة التوزيع من خلال الضرائب والتحويلات يعد عملا مضللا فكريا وسياسيا، ما نحتاج لفهمه هو كيف يتغير توزيع إمكانيات الكسب مع الوقت، ولماذا تستمر حالة عدم مساواة إمكانيات الكسب بعناد لفترات زمنية طويلة؟ نحن بحاجة للتركيز ليس على "إعادة التوزيع" بل على المساواة، كما أن مثل هذا التركيز يستدعي فحص جميع السياسات العامة وليس فقط سياسات التوزيع التي تستهدف التأثير في عمليات توزيع الدخل المستقبلية. إن الشعارات الصائبة هي "النمو الداعم للفقراء"، "تنمية مع مساواة". إذ يلزم التفكير بسياسات التنمية التي تركز على زيادة دخل الفقراء(32) وعدم استبدالها بسياسات مساعدة الفقراء.

***

أخيرا، بالنسبة إلى العراق فإن الأحزاب الإسلامية الحالية لا تؤمن بالعدالة الاجتماعية لا من حيث المفهوم ولا من حيث التطبيق، وذلك استنادا إلى مرجعيتها الفكرية، والدليل على غياب العدالة الاجتماعية اندلاع انتفاضة تشرين الأول 2019 العارمة التي هزت بعمق كامل المنظومة السياسية والفكر الاجتماعي، وتخطت البُعد الطائفي لتؤكد أن البعد الطبقي هو مفتاح التغيير. إن إلحاح الحزب الشيوعي العراقي على طرح هذه الموضوعة أمر صائب، لكن بدون أن تتغير موازين القوى لصالح القوى المدنية الديمقراطية، يصعب الحديث عن تحقيق جوانب أساسية من العدالة الاجتماعية، ويبقى الضغط الشعبي والاحتجاج والتظاهر أساليب لا بد من ممارستها لإجبار القوى المتنفذة على تبني - على الأقل - بعض السياسات الداعمة للعدالة الاجتماعية ومن ثم تقليل مستوى الفقر والعوز.

الهوامش:

1 - ESCWA, Social Justice Matters: A View from the Economic and Social Commission for Western Asia, Beirut, 2019, pp. 3-4.

2 - Paul Kriese & Rondall E. Osborne (eds.), Social Justice, Poverty and Race, Amsterdam/ New York: Rodopi, 2011, p. 44.

3 - أشرف منصور، الليبرالية الجديدة: جذورها الفكرية وأبعادها الاقتصادية، القاهرة: رؤية، ط 1، 2008، ص 19 - 20.

4 - منصور، ص 21.

5 - تذهب نظرية المنفعة الحدية إلى أن أول وحدة من السلعة تحوز أعلى قيمة؛ إذ يكون الاحتياج لها شديدا وبالتالي يكون سعرها أعلى، ويقل احتياج الفرد مع الوحدة الثانية والثالثة من السلعة نفسها، وبالتالي تقل قيمة كل وحدة زائدة حتى نصل إلى وحدة أخيرة تحوز أقل نفع، وبالتالي أقل سعر ممكن تصوره. ويذهب الاقتصاد النيوكلاسيكي إلى أن الإنتاج ينظم حسب أقل سعر وفق هذه النظرية. راجع منصور، ص 117 - 118.

6 - منصور، ص 14 - 15.

7 - نسبة إلى كتاب جان جاك روسو، العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي الذي صدر عام 1762.
8 - عبد الإله بلقزيز، "في الماركسية: مراجعات أولية"، النهضة، العددان 17 - 18 شتاء - ربيع 2019، ص 62 - 63.
9 - ESCWA, pp. 3-4.
10 - جون رولز، نظرية في العدالة، ترجمة ليلى الطويل، دمشق: وزارة الثقافة، 2011، ص 12.
11 - للمزيد حول الوضع الأصلي راجع أيضا: جون رولز، العدالة كإنصاف، إعادة صياغة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 105 - 111.
12 - رولز، نظرية في العدالة، مصدر سبق ذكره، ص 45 - 46.
13 - محمد عثمان محمود، العدالة الاجتماعية الدستورية في الفكر الليبرالي السياسي المعاصر: بحث في نموذج رولز، ط 1، بيروت: 2014، ص 55 - 56.
14 - مراد دياني، حرية - مساواة- اندماج اجتماعي: نظرية العدالة في النموذج الليبرالي المستدام، بيروت، ط 1، 2014، ص 153، 155 - 156.
15 - مراد دياني، المصدر السابق، ص 135 - 136.
16 - محمود عثمان محمود، العدالة الاجتماعية الدستورية....، مصدر سابق، ص 61 - 62.
17 - David Fasenfest (ed.), Engaging Social Justice: Critical Studies of 21st Century Social Transformation, Leiden|Boston: Brill, 2009, p. 51.
18 - Georg E. McCarthy, Marx & the Ancients, Savage, MD: Roman & Littlefield, 1990, pp. 249, 251.
19 - كارل ماركس وفريدريك أنجلز، بيان الحزب الشيوعي، ترجمة عصام أمين عن الألمانية، 1987.
20 - Georg E. McCarthy, Marx and social Justice, Leiden: Brill, 2018, p. 106.
21 - Ibid., pp. 108-109.
22 - Ibid., p. 111.
23 - Ibid., pp. 148-150.
24 - Ibid., p. 151.
25 - إريك هوبزباوم، "غرامشي والنظرية السياسية"، ترجمة محمود هدهود، تبيُن، العدد 26، المجلد 7 خريف 2018، ص 120.
26 - راجع: مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، ترجمة عبد الرحمن عبد القادر شاهين، ط 1، بيروت، 2015، ص 24، 26 - 28.
27 - Helen M. Stacy & Win-Chiat Lee, Economic Justice: Philosophical and Legal: Perspectives, Dordrecht: Springer, 2013, pp. 161-162.
28 - أولريش شيفر، انهيار الرأسمالية: أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة، الكويت، 2010، ص 311.
29 - شيفر، المصدر السابق، ص 322.
30 - للمزيد حول الفقر راجع: منوبي غبّاش، "فكرة الفقر وواقع الفقراء"، عُمران، العدد 30، خريف 2019، ص 83-82 وما بعدهما.
31 - Helen M. & Win-Chiat, pp. 161-162.
32 - أدام بسيفورسكي، "الديمقراطية وإعادة التوزيع والمساواة" ترجمة حسن بحري كامل، الثقافة العالمية، العدد 170، مايو - يونيو 2013، ص 77 - 78.

أزمة طائفية أم صراع اجتماعي؟ مجددا .. الحاجة ملحة لضبط المفاهيم

د .صالح ياسر
باحث اقتصادي

منذ أن هندس ''الحاكم المدني لسلطة الائتلاف المؤقتة'' بول بريمر و''مستشاريه'' نظام المحاصصات، وإيديولوجيو هذا النظام ينافحون، بمناسبة أو بدونها، على انه ''احسن ما كان''. ويبدو أن لهذا الطرح الإيديولوجي مهمات عدة من بينها، بل ربما أهمها، السعي لحرف الصراع المجتمعي وجعله يتخذ وجهة ''طائفية'' يمكن السيطرة عليها باتفاقات متبادلة بين صقور أو حمائم الطوائف المتصارعة على السلطة والثروة والنفوذ. وطبيعي أن اعتماد هذه المقاربة (الطائفية) للأزمة **يهدف**، في نهاية المطاف، الى **التعتيم** على التناقض الرئيسي في الأزمة، وهو كما معروف **تناقض سياسي بامتياز**، وبالتالي منع بلورة البديل السياسي الحقيقي (وليس الاصطفاف على أساس طائفي او اثني او قومي)، وتساعد، بشكل أو بآخر، في **إطالة** عمر نظام المحاصصات السيئ الصيت.

فمن أجل الهروب من مواجهة المشاكل الاجتماعية الفعلية للمجتمع في لحظة تطوره الملموسة، تؤسس إيديولوجيا الخطاب الطائفي نسقا مجردا، وتساهم بالتالي في تعطيل او التعتيم على فهم حركية الواقع الاجتماعي وتناقضاته الكبرى من خلال التأكيد الدائم، بشكل مضمر تارة ومكشوف تارة أخرى، على أن مشكلة العراق اليوم هي مشكلة طائفية وليس مشكلة سياسية – اجتماعية، وأن حلها يعني حلا لكل مشكلات العراق الأخرى. هكذا يتم اختزال أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل في جواب أحادي الجانب هو ''التمييز الطائفي''، وان إلغاء هذا التمييز كفيل بحل مشكلات العراق!

ليست الأزمة البنيوية الراهنة المتعددة الصُعد التي تعيشها بلادنا أزمة طائفية، بل هي في الجوهر أزمة اجتماعية حقيقية، ناجمة عن الاستراتيجيات التي اعتمدها النظام الديكتاتوري السابق وعن استراتيجيات الاحتلال بعد 2003 وعن ممارسات القوى المهيمنة في الطوائف ''المتصارعة'' التي منعت لحد هذه اللحظة، تبلور دولة ديمقراطية عصرية تقوم على فكرة المواطنة؛ فالتصور أن جوهر المشكلة هو الخطر الذي تواجهه ''الطوائف'' إنما هو تصور وهمي، وبالمقابل فإن التركيز

على العامل الطائفي، رغم خصوصيته في بلادنا، دون نظرة نسبية الى ذلك، سيساعد على إخفاء العوامل الأخرى، الأكثر فعالية في التطور الحقيقي لبلادنا.

لا بد من التأكيد على أن الإطار العام للخطاب الطائفي هو انه يقوم بوظيفة إيديولوجية بعينها، بيد أن هذا الإطار الذي يتناثر في خطابه بناء على "قوانينه" في ترتيب المقولات والمفاهيم، لا يكون في كل الأحوال معلنا عند الدارس لهذا الخطاب، بالنظر الى وجوده في النصوص المختلفة مضمرا ومخفيا في أقمطة وملامح لا حصر لها، وإن بدا واضحا في بعضها بطرحه تصورا محددا للعمل واتجاها معينا للممارسة، ولكنه مغلف بلغة مخاتلة "مقتدرة" وقادرة على اجتذاب بسطاء الناس، ليس بناء على تعريفهم بخصومهم الطبقيين الفعليين، ولكن بخصومهم من "الطائفة أو الطوائف الأخرى". قد تكون هذه اللعبة الإيديولوجية حاذقة في لحظة ما، ولكنها ستستمر الى حين تزول غمامة الوعي الزائف أو المفوّت ليحل محله الوعي الصحيح، **وعي الصراع الاجتماعي** ومعرفة واكتشاف قوانينه، والنضال من اجل حل تناقضاته المتوترة دوما. ولعل انتفاضة تشرين المجيدة 2019 قد كسرت بعض "المحرمات" في هذا المجال.

ولأن ايديولوجيا الخطاب الطائفي مثالية في رؤيتها للتناقضات، فقد اعتمدت مرحلة ماضية، وتحولت الى ايديولوجيا ما قبل تاريخية تقوم على الارتداد القسري على الواقع والحاضر الرأسمالي التبعي في بلادنا، حيث تتشكل الطبقات، وبالتالي تتبلور الصراعات الاجتماعية، وتتخذ طابعا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ملموسا وليس طابعا طائفيا (وان اتخذ الصراع، في لحظة ما، شكل طائفيا، ولكن هذا الأخير لا يعبر عن جوهر الصراعات الاجتماعية الفعلية).

ومنعا لأي التباس في فهم المضمون الفعلي لهذه الملاحظات، لا بد من الإشارة الى القضايا التالية:

1. **من الضروري النظر الى الخطابات الطائفية، وما يرتبط بها من ممارسات ملموسة باعتبارها خطابات سياسية، وليس نصوصا لا يجوز الاقتراب منها**. ويعني هذا المدخل أن هناك حاجة ماسة لمساءلة هذه الخطابات من خلال دراستها **كفعاليات فكرية** تتوجه توجها معيناً، وتستهدف غايات محددة في الواقع الاجتماعي. وتعني هذه الملاحظة كذلك أن حضور السؤال هنا ينفي محاولة تثبيت الخطاب أو عزله عن محيطه الاجتماعي؛ وإلغاء ارتهانه بالسيرورة الاجتماعية التي أنتجته تاريخيا، والنظر إليه في ذاته كمعطى ثابت، منفصل عن الزمان والمكان، بذريعة تساميه الى مثل وقيم اعلى من "أشياء" الواقع الاجتماعي وشؤونه، لا كانعكاس لهذا الواقع وعلاقاته.

2. وارتباطا بالملاحظات الواردة في **الفقرة أعلاه يمكن طرح السؤال التالي: كيف ينظر صائغو الخطابات الطائفية بعين أيديولوجياتهم الطوائفية، الى القضية العراقية وسبل حل الأزمة البنيوية في بلادنا** ؟ ولا شك أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب رسم معالم هذه الإيديولوجيا في خطوطها العريضة، وعرض المفاهيم الأساسية التي تنتظم بها في بناء فكري، "قد يكون متماسكا وقد لا يكون، بحسب

الضرورة السياسية التي تحكمه في تأمين وظيفته الطبقية المحددة، اكثر منه بحسب ضرورته المنطقية الداخلية"، كما أكد على ذلك الشهيد مهدي عامل[1].

3. ولذا فإن من المفيد **إطلاق النقاش بصدد الوضع الراهن في بلادنا،** من جميع نواحيه الإيديولوجية والسياسية ....الخ، على أساس تقدير آليات التوسع الذي بلغه نظام المحاصصات، دون الاقتصار على ظواهر الصراع الإيديولوجي/ الطائفي – مثلا بين "الطائفة الشيعية" وبين "الطائفة السنية"، وإلا لن ندرك طابع الأزمة البنيوية التي تواجهها بلادنا ومجتمعنا، اليوم، ووسائل الخروج منها.

4. ولعل من المفيد التذكير بأن هذا **الخطاب "الطائفي" لا يمكن أن يقرأ إلا باعتباره أحد أشكال منظومة الخطاب السياسي للقوى المتصارعة حول الثروة والسلطة والنفوذ،** وهو ما يعني أن قراءته تستهدف الكشف عن علاقة بنيته الفكرية بحركة المجتمع العراقي وتناقضاته الفعلية وقواه الاجتماعية. ولهذا فإن دراسة الخطاب ينبغي أن تتم في إطار المجتمع الذي أنتجه، بهدف اكتشاف بنية الخطاب الداخلية، وما تحويه من مقولات ومفاهيم، والأطر المرجعية لسياقها، بهدف استنتاج دلالاته، وتوجهاته ومراميه، وكيفيات إدراكه للواقع.

5. تقتضي هذه القراءة الإحاطة إذن بالقضايا التالية:

- ضرورة التعامل مع هذا الخطاب في إطار شروطه التاريخية – الاجتماعية التي أنتجته، والتي تعد بمثابة المناوب الرئيسي لمحتوياته، بهدف تأكيد فهمه من ناحية، واختبار صحة معالجته البنيوية من ناحية أخرى.

- الإحاطة بالإيديولوجي الضمني المثبت في ثناياه، عبر منظومة المقولات والمفاهيم التي يحتويها، والتي لم تقتصر على مجرد كونها وحدات قاموسية، بل صوبت الى مهام من الفعل والممارسة، واشارت الى كيفيات إدراك واقع وتاريخ طائفة محددة.

6. وارتباطا بذلك، لا بد من التحذير من قراءات منقوصة:

- القراءة التي تستند الى التقسيم الآلي لكلية الخطاب الطائفي، ومعالجة إشكاليته معالجة تجزيئية، بغية إبراز بعض وجوهه وعناصره المكونة له، والحصول منها على معرفة "مفصلة" على حساب الشكل العام الذي اتخذه هذا الخطاب في بنائه الكلي.

- دراسة الخطاب الطائفي دراسة جامدة، تعزله عن سياقه الاجتماعي والتاريخي وتتعامل معه كظاهرة نصية خالصة، أو كثمرة "عبقريات" فردية لمنظري هذا المذهب أو ذاك أو شخصياته العلمية والاجتماعية.

ارتباطا بالملاحظات السابقة يمكن القول أن صائغي الخطابات الطائفية، رغم الصياغات الأنيقة، يضعوننا أمام خيار وحيد دائما: أما القبول بمقارباتهم للإشكالية الاجتماعية ضمن رؤيتها بمنظار مقلوب باعتبارها مشكلة بين طائفتين دينيتين متصارعتين، أو اتهام خصومهم بالوقوف مع الطائفة الأخرى! منذ البداية نحن إذن أمام دور واضح هنا، هو مصادرة التحليل والمقاربة التي ترتكن الى رؤية اجتماعية للمشكلات التي يواجهها مجتمعنا العراقي في لحظة تطوره الملموس، ليتم بعدها

تكريس المقاربة الطائفية التي تستبعد أصلا الجماهير ونضالاتها الاجتماعية (وليس الطائفية)، وتعيق طرح الأسئلة الحقيقية عن المشكلات الحقيقية التي تواجه نضال المجتمع اليوم، ذلك النضال الهادف الى بناء بديل وطني – مدني – ديمقراطي وليس استبدال هيمنة طائفة بأخرى.

هكذا إذن وفي لجة الخطابات الطائفية المتصارعة تتراجع الى المرتبة الثانية مفاهيم مثل: الحرية، والشعب، والديمقراطية، والنضال السياسي، والطبقات الاجتماعية لتحل محلها مفاهيم أخرى من قبيل: التمييز الطائفي، الاضطهاد الطائفي، مظلومية هذه الطائفة أو تلك... الخ.

هناك بعض هذه الخطابات تقول إن "ما وصل إليه العراق من أزمات كان نتيجة سياسة التمييز الطائفي للأنظمة الحاكمة". وإذا دفعنا هذا القول الى نهايته المنطقية أمكننا، طبقا لهذا الطرح، بلورة الملاحظات التالية:

أ. إن الأزمات التي مرت بها بلادنا هي نتيجة لسياسات "التمييز الطائفي" أساسا.

ب. واستنادا الى ذلك فإن "فرادة" هذه الأزمات تقوم على أساس انتفاء وجود طبقات اجتماعية في بلادنا.

لقد حلّت – بحسب هذا الطرح – "الطوائف" محل الطبقات الاجتماعية، في تحديد تركيب المجتمع العراقي.

ج. واستنادا الى القول أعلاه، فإن الصراع بين "الطوائف" يحل محل الصراع بين الطبقات، ويكون بالتالي هو المحرك لتاريخ التشكيلة العراقية منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة!

د. **إن أي حل للأزمة الراهنة، بحسب هذه المقاربة، يجب أن يقوم، إذن، على تحقيق التوازن بين الطوائف المتصارعة!** أي أن فكرة "التوازن الطائفي" يجب أن تكون ركنا جوهريا في أي برنامج لحل المشكلات التي تواجه بلادنا الآن وفي المستقبل، وهي على أي حال مشكلات ليست طائفية بل سياسية – اجتماعية فعلية. إن لهذا التمويه الإيديولوجي عاقبة مهمة هي **تغييب سؤال السلطة وطبيعتها**، بوضعها خارج النظر والتحليل، أو إضفاء طابع "طائفي" عليها، رغم أنها القضية الجوهرية في التحليل، كما في النضال.

وطبيعي أنه تترتب على هذا التحليل، نتيجة هي أن إلغاء وجود الطبقات، بقرار إيديولوجي، وإحلال "الطوائف" محلها، هو، بالتحديد، الذي يقود، منطقيا، الى إلغاء الشعب العراقي! كأن في إلغاء هذا الشعب، كشعب، يعد شرطا أساسيا لديمومة سيطرة الائتلاف الطبقي الحاكم (الذي يضم طبعا ممثلين للطائفتين الكبريين، إضافة الى "المكونات" الأخرى). هكذا يتأمن للائتلاف الطبقي السائد وحدة تماسكه، وتتأمن له ديمومة سيطرته على "طوائف" لا تشكل خطرا على نظام هيمنته الطبقية إلا بمقدار ما تتفكك كـ "طوائف" لتتماسك ضد هذا الائتلاف، كطبقات كادحة في حركة صراعاتها الطبقية.

لعل **سؤالا مهما** يطرح نفسه باستمرار **وهو أين تكمن ضرورة الهيمنة "الطائفية"؟ هل تكمن في بنية العلاقات بين "الطوائف"، أم أنها تكمن في بنية الدولة "الطائفية" من حيث هي دولة برجوازية، وفي طبيعة العلاقة بين هذه الدولة وبين البنية الاجتماعية في بلادنا؟ وبأي فكر**

تقارب تلك الضرورة: بفكر "طائفي"، أم بفكر نقيض؟ على حد قول الشهيد مهدي عامل. سؤال بحاجة الى إعمال الذهن بصدده، لإعادة التحليل الى السكة المنهجية الصحيحة، وبما يمكن من رؤية المشكلات الحقيقية لمجتمعنا، وهي مشكلات اجتماعية – سياسية صرفة، وليس مشكلات انعدام التوازن بين "الطوائف".

إن هذه المقاربة الخاطئة تولد الوهم عند القوى التي تتحدث باسم هذه الطائفة أو تلك بأن لهذه المجموعة قوة سياسية لأنها "طائفة"، وأن قوتها السياسية هذه هي قوة ممثليها "السياسيين" الذين يتحدثون باسمها. والحقيقة أن تلك القوة السياسية التي يستمدها الزعماء التقليديون (شيوخ عشائر، رجال دين، تجار....الخ) من تمثيلهم لـ "طوائفهم" ليست "طائفية" وليست فردية. إن هذه القوة تتمظهر هنا على أساس من إخفاء طابعها الطبقي الفعلي، وعلى أساس من إخفاء شرط وجودها الذي يكمن في انعدام وجود قوة سياسية لـ "الطوائف". لقد أشار الشهيد مهدي عامل الى ملاحظة مهمة جدا وقوامها (إن الوظيفة الأساسية لنظام سيطرة البرجوازية هي .... في ضبط تطور البنية الاجتماعية القائمة، بحيث تتحقق آليا عملية إعادة إنتاج علاقات الإنتاج القائمة دون أي عائق. وهذه العملية تتحقق على هذا الشكل ما دامت الطبقات الكادحة لا تمثل، فعليا، قوة سياسية مناهضة للبرجوازية. لذا كانت وظيفة ذلك النظام السياسي في أن يحول هذا النظام دون تكوّن هذه الطبقات الكادحة في مثل هذه القوة السياسية المستقلة. ومن هنا أتت الضرورة، بالنسبة للبرجوازية المسيطرة، في أن يكون نظام التمثيل السياسي نظاما "طائفيا"، لأن الطبقات الكادحة تظل بهذا النظام "الطائفي من التمثيل السياسي"، في وجودها السياسي كـ "طوائف"، وتظل، بالتالي، في تجددها كـ "طوائف"، بلا قوة سياسية)[2].

نقطة مقتل التحليل الطائفي، إذن، هي اختزاله العلاقات الاجتماعية - الطبقية الى علاقات بين "الطوائف". وهكذا بدلا من توصيف النظام السائد توصيفا سياسيا/ طبقيا دقيقا وبالتالي الكشف عن القوى المسيطرة فيه، وطبيعة التناقضات الناظمة له في لحظة تكوره الملموسة، يجري النظر إليه باعتباره نظاما "طائفيا". ومن المؤكد أن هذا النظام "الطائفي" ليس سوى الشكل الاجتماعي المحدد الذي يتمظهر فيه النظام السياسي السائد في البلاد في اللحظة التاريخية الملموسة.

والخطأ الثاني لهذا التحليل الطائفي هو افتراضه التعبير عن "رؤية أغلبية الطائفة" وهو افتراض غير دقيق لأسباب عديدة، من أهمها أن الطوائف عندنا ولجملة أسباب مقسّمة الولاءات، وانه لا توجد أية علاقة خطية بين انتماء أي شخص الى طائفة بعينها، كمواطن عادي، وبين انتمائه الى "الأحزاب الإسلامية"؛ إذ تشير التجربة التاريخية الى أن قطاعات واسعة من أبناء مختلف الطوائف تمارس مثلا العمل السياسي، ضمن أحزاب أخرى علمانية وليس "إسلامية".

وما دمنا اشرنا هنا الى الطائفية، لا بد من التأكيد على أن أحد الأسباب الكبرى التي حالت دون فهم الطائفية، وتجنب آثارها هو اختلاط مفهوم الطائفية نفسه وعدم ضبطه، مما أساء أيضا إلى فهمها كظاهرة اجتماعية

وسياسية، وبناء تعريف واضح وصحيح لها أيضا.

فقد مال معظم الذين أثاروا مسألتها، في الأدبيات المعاصرة، إلى الخلط بشكل كبير بين:

- **التعددية الدينية**، أي انطواء المجتمع على تنوع ديني كبير، يتسم إلى حد أو آخر من الانسجام أو الصراع،

- **وسيطرة إحدى هذه الفرق او الجماعات الدينية على مقاليد الأمور في السلطة أو على مواقع رئيسية منها في سبيل تأمين منافع استثنائية وخاصة لا يسمح بها القانون.**

أي انه هناك خلط **بين الطائفية في المجتمع والطائفية في الدولة**، وهما من طبيعتين مختلفتين تماما وليس لهما النتائج ذاتها. الأول يتعلق بطريقة اشتغال المجتمع، والثاني بطريقة اشتغال الدولة الحديثة، ولا قيمة له إلا من منظور بناء هذه الدولة[3].

وانطلاقا من ان "الطائفية علاقة سياسية محددة بحركة معينة من الصراع الطبقي، في شكل منها، محدد بشروط تاريخية خاصة ببنية اجتماعية معينة. ولأنها كذلك، فهي، اذن، قائمة بالدولة، لا بذاتها، في البنية الاجتماعية، وفي شروطها التاريخية المحددة التي هي شروط حركة الصراع الطبقي فيها" [4]، فانه يمكن القول ان الطائفية تنتمي إلى ميدان السياسة، لا إلى مجال الدين والعقيدة، وأنها تشكل سوقا موازية، أي سوق سوداء للسياسة، أكثر مما تعكس إرادة تعميم قيم او مبادئ أو مذاهب دينية لجماعة خاصة.

وتعني الملاحظات اعلاه ان التحليل المادي للطائفية كظاهرة اجتماعية يقتضي القول بان جذورها مادية، بمعنى انها تمتد في القاعدة المادية للبنية الاجتماعية القائمة في حاضرها الراهن. فعلى سبيل المثال يرد الشهيد المفكر اللبناني الراحل مهدي عامل المسألة الطائفية، الى جذورها المادية التي تكمن في القاعدة المادية للبنية الاجتماعية القائمة، أي في بنية علاقات الانتاج الكولونيالية الخاصة بالبنية الاجتماعية اللبنانية[5].

واذا دفعنا الملاحظات السابقة الى نهاياتها القصوى فانه يمكن بلورة استنتاجين على الاقل:

الاول، هو ان ربط الايديولوجيا الطائفية ببنية علاقات الانتاج الكولونيالية يضيء الاساس المادي لهذه الايديولوجيا، ويحدد طابعها الطبقي البرجوازي؛

الثاني، انه يساعد تمييزها من الايديولوجيا الدينية، وعلى اقامة الفارق بين الاثنين[6].

ويرى بعض الباحثين ان الطائفية تشكل تمردا على المجتمع الحديث ومعايير الحداثة. فالمجتمع الحديث يقضي الاعتراف بالارادة المجتمعية وبالعقلانية والديمقراطية. وتأتي الطائفية لتقييم تناقض بين ارادة الطائفة وارادة المجتمع، ولتدمر معايير العقل الموضوعية باسم معيارية التعاليم الطائفية، ولتحطيم مفهوم الديمقراطية باسم التعايش المستحيل بين الطوائف المنغلقة على ذاتها.

فيقسم الوعي الطائفي المجتمع الى **طوائف متجانسة**، وتكون احدى الطوائف الخير كله، وما عداها الشر كله، أي يكون التناقض الشامل **هو شكل العلاقة الوحيد بين الطوائف**، فلا يعترف ببعضها الا متقاتلة، لان التقاتل هو شرط وجود الطوائف.

ملخص القول، يأخذ الوعي الطائفي شكلا مضمرا أو سافرا، ويكون الشكل المتحقق محصلة لميزان القوى السياسي – الايديولوجي القائم، في شرط محدد.

لا يدور السؤال الاساسي، بالتأكيد، حول وصف أو توصيف الوعي الطائفي بل يجب أن يدور حول اسباب صعوده لان الجوهري ليس معرفة "كيف" يتكون الوعي الطائفي، فهذا وصف خارجي للظاهرة. انما المطلوب هو معرفة "لماذا" تكّون هذا الوعي. وعندها يصل السؤال الى القوى الاجتماعية المسيطِرة، التي تتكئ على جملة ادوات وشروط لصياغة وعي زائف.

وبشأن اشكالية الخطاب "المعتدل" والخطاب "المتطرف" الذي تطرحه القوى الطائفية فانه يمكن الاتفاق مع الراحل د. نصر حامد ابو زيد على أن "**الفارق بين هذين النمطين من الخطاب هو فارق في الدرجة لا في النوع. والدليل على ذلك ان الباحث لا يجد تغايرا أو اختلافا، من حيث المنطلقات الفكرية أو الآليات، بينهما**"[7].

نكرر ما قلناه سابقا في اكثر من مناسبة، ليست الأزمة البنيوية الراهنة التي تعيشها بلادنا أزمة طائفية فقد اكدت ذلك باقصى قدر من الوضوح انتفاضة تشرين المجيدة 2019، فهي أزمة اجتماعية حقيقية ناجمة عن ثلاثة عوامل اساسية (اضافة الى عوامل ثانوية اخرى طبعا):

- الاستراتيجيات التي اعتمدها النظام الدكتاتوري السابق وهي معروفة، ولا تحتاج الى تفصيل اضافي هنا؛

- استراتيجيات الاحتلال التي اعتمدها بعد 2003 علما ان الولايات المتحدة وحلفاءها هم من هندسوا وروجوا خلال عقد التسعينات لفكرة نظام "المكونات" في مسعاهم الى التأسيس لنظام يقوم على فكرة الهويات الفرعية، من اجل تقاسم الثروة والسلطة والنفوذ بين هذه "المكونات". ولعلنا نتذكر الاطروحة التي شقت طريقها كالسهم بعد 2003 والقائلة بأن "الديموقراطية التوافقية" هي الصيغة الامثل التي تحفظ لبلد المكونات المتعدد الطوائف والمذاهب كالعراق توازنه، وتمنع طغيان طائفة على أخرى! غير ان منطوق "الديموقراطية التوافقية" وآلية عملها قد انتج "نخباً" حاكمة فئوية لا تتسع آفاقها لما يتعدى الجماعة التي تنتسب اليها. كما ادى ايضا الى ديكتاتورية النخب الاكثر طائفية على طوائفها. كما في نظام الحصص، وعلى صعيد ادارات الدولة ومؤسساتها التي تعمل عليه النظرية التوافقية وتعتمده في توزيع المناصب، وانه يعطي الاولوية لانتساب الفرد الى طائفته على حساب الكفاءة والمؤهلات الشخصية، وهذا ما ينعكس سلباً على طبيعة عمل اي مؤسسة او ادارة من النمط الحديث، والتي يرتكز مبدأ نشاطها على العقلانية والتخطيط والفاعلية، بينما يقود نظام الحصص الى سيادة المحسوبية والهدر والتضخم.

انها، أي "الديمقراطية التوافقية"، عبارة عن "ديموقراطية" صورية تلفيقية فوقية لا تعكس سوى مصالح وآراء نخب طبقية طائفية متواطئة في ما بينها على اختزال الدولة والاستئثار بمؤسساتها وتقاسم سلطاتها.

- وعن ممارسات القوى المهيمنة في الطوائف "المتصارعة" التي منعت لحد هذه اللحظة تبلور دولة ديمقراطية

عصرية تقوم على فكرة المواطنة. فاللعبة السياسية لهذه القوى تقوم في اساسها، على قاعدة تغييب الصراع الاجتماعي/ الطبقي، هادفة بذلك الحيلولة دون تحول الجماهير الشعبية الى قوة قادرة على تعطيل تلك اللعبة. ان الايديولوجيا المسيطرة تحاول ان تظهر السيطرة الطبقية كانها سيطرة الطوائف بذاتها على ذاتها. فتظهر، بالتالي، سلطتها السياسية، كانها سلطة الطوائف او "ديمقراطية" الطوائف.

ان مطلب نقد دولة الطوائف دون التاسيس لدولة جديدة، مدنية ديمقراطية عصرية هو مطلب اعمى، كما الحديث عن دولة جديدة دون تركيز الحديث على نقد للدولة، هو نقد اعرج. ومن هنا ضرورة تجنب الفصل بين النقد والحلول.

الهوامش:

1 - مهدي عامل، القضية الفلسطينية في إيديولوجية البرجوازية اللبنانية، مدخل الى نقض الفكر "الطائفي". مركز الابحاث، بيروت 1980، ص 9.

2 - مهدي عامل، القضية الفلسطينية ....، المصدر السابق، ص 114.

3 - فيصل درّاج، الوعي الديني والوعي الطائفي، (في:) الاسلام السياسي. الاسس الفكرية والاهداف العملية، موفم للنشر، الجزائر 1995، ص 76 ولاحقا.

4 - انظر: مهدي عامل، في الدولة الطائفية (بيروت: دار الفارابي، 1986)، ص 97.

5 - المصدر السابق، ص 140 – 141.

6 - لمزيد من التفاصيل قارن: النظرية والممارسة في فكر مهدي عامل- مواد ندوة فكرية نظمها مركز البحوث العربية بالاشتراك عدد من الباحثين والكتاب (بيروت: دار الفارابي، 1989)، ص 379.

7 - انظر: د. نصر حامد أبو زيد، الخطاب الديني المعاصر ومنطلقاته الفكرية. موفم للنشر، الجزائر 1995، ص 42 ولاحقا.

انتفاضة تشرين 2019 .. الجذور والسمات *

أحمد محمد الموسوي
ناشط مدني/ النجف

هل كانت موجة الاحتجاج التي انطلقت في غرة تشرين الأول 2019 امتداداً للموجات السابقة، وحلقة أخرى من حلقاتها؟ أم أنها كانت لحظة قطيعة وتحول عن خط الحراك الاحتجاجي المتواصل منذ 25 شباط 2011؟

سؤال ربما يقودنا للبحث في أوجه الشبه والاختلاف في طابع الحراك الذي امتازت به الحركة الاحتجاجية سابقاً، وصولاً إلى لحظة انتفاضة تشرين المجيدة. أقول (انتفاضة) وأنا مدرك أن هذه هي واحدة من نقاط الاختلاف – ربما – بينها وبين سابقاتها.

ولكن قبل أن نخوض في المختلف، ربما من الأولى أن نتصفح أوجه التشابه، أو الصفات المشتركة بين هذه الموجات، وقبل هذا وذاك علينا أن نقرَّ حقيقةً بدت واضحة وجلية تفيدنا في فهم الحركة الاحتجاجية، هي أنها حركة تصاعدية تصعيدية منذ بدايتها، وإلى لحظة اندلاع الانتفاضة، كيف ذلك؟ هذا ما سنوضحه هنا:

من المعلوم أن تظاهرات 25 شباط 2011 كانت في مجملها تظاهرات تطالب بتوفير الخدمات وتحسين فرص العيش، وهي جاءت بعد تظاهرات الكهرباء التي شهدها صيف 2010 في محافظات النجف والبصرة التي كانت محدودة عدداً واتساعاً إذا ما قيست بتظاهرات 25 شباط 2011.

وصفة المطلبية التي ذكرناها لا تعني بأن هذه التظاهرات لم تكن تحمل مطالب وأهدافا سياسية تستهدف شكل النظام أو جوهره، ولكنها لم تكن بارزة أو طاغية على المشهد العام للمطالب، إذ رفع المتظاهرون في أكثر من مرة لافتات تشير إلى محاربة المحاصصة والفساد وتدعو للدولة المدنية الديمقراطية.

وهذه النقطة هي دليل على تصاعدية الحركة من المطالب الخدمية إلى المطالب السياسية التي تمس جوهر النظام الحاكم وشكله، كما تابعناها وعشناها في 2013 التي انطلقت من المطالبة بتحسين رواتب الموظفين المتقاعدين إلى المطالبة بإلغاء الرواتب التقاعدية للبرلمانيين والدرجات الخاصة، لتتطور بعد ذلك في العام 2015 إلى مطالبات واضحة استهدفت جوهر النظام حينما رفع شعار (خبز حرية دولة مدنية) في ساحة التحرير، وفي باقي الساحات ليكون الشعار الأبرز للموجة الاحتجاجية الثالثة، وليؤطر من بعد ذلك

طبيعة الحراك بشكل عام - بالرغم من وجود خلافات فكرية سياسية بين الجمهور في الساحات - ويطبعه على أنه حراك مدني مستقل عن أحزاب السلطة الطائفية ضد نظام المحاصصة والتقسيم ومنحاز تماماً إلى مفاهيم الحرية والمدنية والعدالة الاجتماعية في بناء الدولة، وصولاً إلى تظاهرات صيف 2018 التي أكدت هذه المفاهيم ورسختها. وكذلك نستطيع أن نرصد أيضاً تصاعداً في المقابل وتصعيداً في وسائل القمع من الحكومة في تعاطيها ومواجهتها للحركة الاحتجاجية بالتوازي مع تصاعد موجات هذه الحركة ومطالبها.

إذاً، وضمن هذا المشهد هل بإمكاننا أن نقول بأن انتفاضة تشرين كانت موجة أخرى ضمن موجات الحراك الاحتجاجي؟ وأنها لحظة تصاعد وتصعيد فيها؟

لنؤجل الإجابة على هذا السؤال إلى حين بحث أهم خصائص ومميزات الحركة الاحتجاجية في العراق، فلعلنا من خلال هذه الخصائص والمميزات نستطيع الإجابة على السؤال بشكل أوضح.

طابع الحركة الاحتجاجية في العراق (الخصائص والمميزات)

منذ انطلاق الحركة الاحتجاجية في العراق كان لها ميزات وسمات اتسمت بها، بعض منها كان أصيلاً وثابتاً، والبعض الآخر كان طارئاً ومؤقتاً ومتبدلاً إلى حدٍ ما، وعلى أهمية الإشارة إليها ودراستها جميعاً إلا أننا سنكتفي بالإشارة إلى الأصيلة والثابتة منها فقط لقربها من موضوع البحث:

- **السلمية**: وهي الميزة الأكثر وضوحاً التي رافقت الحركة الاحتجاجية منذ انطلاقها بالرغم من كل وسائل القمع والعنف والتخوين التي استخدمتها السلطة وميلشياتها ضد الحراك بشكل عام وضد الناشطين فيه بالخصوص. وتجلّت هذه الميزة في الوسائل اللاعنفية الاحتجاجية التي اتبعها المحتجون، من تظاهرات ووقفات ومذكرات وحملات توقيع ومؤتمرات واعتصامات...الخ، وكانت ردود الفعل على عنف السلطة تأتي دائماً للتأكيد على السلمية واعتبارها الخيار الاستراتيجي والقاعدة المتينة للاحتجاج، فلم يتورط المحتجون في استخدام السلاح بالرد على انتهاكات السلطة بالرغم من اشاعته في المحيط الاجتماعي، ولم نشهد ردود فعل عشائرية عنفية على حالات القمع والاغتيال التي تعرض لها عدد غير قليل من المحتجين بالرغم من انتمائهم لأصول وامتدادات عشائرية معروفة، وكان كأن المشهد السلمي العام لا يتيح لمثل ردود الفعل هذه أن تظهر، بالرغم من أنها حاضرة في مناحي الحياة الاجتماعية بشكل عام، وبالرغم من قناعة بعض المحتجين بالعنف كوسيلة أنجع لمواجهة السلطة الفاسدة، وكانوا لا يتوانون عن التصريح بهذا الرأي جهاراً في الساحات وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، ولكنه بقي مجرد رأي خاضع للجدل ولم يجد طريقه للتبني من قبل الحراك بشكل عام، بالإضافة إلى طابع الفعاليات الاحتجاجية السلمي التي دأب المحتجون على اقامتها.

سؤال: لماذا تبنى المحتجون مبدأ السلمية وركزوا عليه؟

الجواب هو ما يخبرنا به المتظاهرون أنفسهم من خلال منشوراتهم وكتاباتهم

وتعليقاتهم التي يركزون فيها، على أنهم يؤمنون بالنظام الديمقراطي والتداول السلمي، والتغيير (الإصلاح) يجب أن يكون من داخل العملية السياسية، ولذلك فهم يعتقدون أن أي حركة عنفية ربما ستسلم البلد إلى مصير مجهول، وستقوّض الجوانب الإيجابية المكتسبة ـ على قلتها ـ في العملية السياسية، وربما تسهم في إعادة مشهد الديكتاتورية البائدة.

ـ **المدنية**: وهي ليست شعاراً رفع ويرفع في الساحات فقط، وإنما تعدى ذلك إلى طبيعة الخطاب الاحتجاجي بشكل عام (التصريحات، البيانات، الشعارات، البحوث والمقالات)، هذا الخطاب الذي رفض أي صيغة للدولة والحياة الاجتماعية تخالف الصياغات المدنية المعاصرة، وقد تجلى أيضاً في أنماط السلوك الحضاري للمحتجين داخل ساحات الاحتجاج من خلال المبادرات المدنية، وقوة تأثير الناشطين المدنيين والعاملين في منظمات المجتمع المدني على عموم الأنشطة والفعاليات التي تقام في الساحات، والسلمية هي واحدة من ملامح المدنية وتطبيقاتها المهمة.

ـ **العفوية**: والتي لا تعني غياب التنظيم بالضرورة، ولكنها تشير إلى عفوية الحراك من ناحية عدم هيمنة جهة أو فئة مهما كان عنوانها على هذا الحراك، بالرغم من وجود جهات حزبية وفئات اجتماعية فيها، منها من لها إمكانيات تنظيمية غير قليلة، كالتيار الصدري والحزب الشيوعي العراقي وبعض الأحزاب المدنية ومنظمات المجتمع المدني. إلا أنها بقيت ـ أي الحركة الاحتجاجية ـ محافظة على عفويتها خصوصاً في لحظات انطلاقها الأولى. ولرب سائل يسأل؛ هل معنى ذلك أن الصدفة وحدها هي من كانت تخطط لموجات الحراك ولديمومته؟ وكيف يمكن لحركة غير منظمة أن تقود حراكاً ـ يفترض به أن يكون منظماً ـ للتغيير؟ والجواب بالتأكيد سيقودنا إلى البحث عن أدوات الحراك وقوته المنظمة، فالقاعدة تقول أنْ لا عمل منظم بدون تنظيم وأدوات تنظيمية، ولكن وقبل أن نتوصل لهذه القوة وتلك الأدوات علينا التأكيد مرة أخرى، أنها لم تُفقد الحراك عفويته. إن هذه القوة التنظيمية تمثلت في وسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصاً صفحات الفيسبوك، وحجم تفاعل الشباب في العراق معها، وما وفرته من فرص واسعة للعمل خارج سلطة القوى الاجتماعية التقليدية؛ إذ أتاحت للشباب المستقلين من جهة، والجهات الحزبية من جهة أخرى، القوة ذاتها للتأثير في بلورة الرأي العام وصناعته، إضافة إلى تعددية الإعلام الفضائي، التي أتاحت عدم هيمنة خطاب معين على الذهنية العامة، ووفرة المعلومة واتساع رؤية التحليل للأحداث. وفي بعض الأحيان كان الإعلام الشخصي لبعض الناشطين من خلال التواصل الاجتماعي يتفوق على الإعلام الجهوي والحكومي ليصل إلى مئات الألوف من المتابعين، لذلك شهدنا ظاهرة ما يسمى بشراء الصفحات النشطة لقاء مبالغ مغرية من شخصيات متنفذة وأحزاب سياسية. إذاً فالعفوية سمة واضحة ولصيقة في الحركة الاحتجاجية على الرغم من وجود جوانب تنظيمية فيها تبقى غير طاغية، وربما هي ما يلعب دور عامل الموازنة بين العفوية وبين الفوضوية.

ـ **الشعبية والجذور الطبقية للصراع**:

الشعبية صفة ترتبط وتتفاعل مع العفوية تفاعلاً جدلياً، وتتجلى بتنوع الحضور الاجتماعي في ساحات الاحتجاج وعدم اقتصارها على طبقة معينة دون أخرى، إذ تمتد من الطبقة الوسطى إلى العمال والفلاحين، والمهمشين والفقراء والمعدمين، وأصحاب المهن الحرة، و(البرجوازيين) وإن بأعداد قليلة، وهم يمثلون البرجوازية الوطنية المتضررة من نمو واستفحال البرجوازية البيروقراطية الطفيلية التي ضربت مصالح أصحاب المشاريع والمعامل الصغيرة والمتوسطة باعتمادها سياسة اغراق السوق المحلية بالبضائع والمنتجات الأجنبية قليلة الكلفة، قياساً بالمنتج العراقي، على أن الطبقة الوسطى بقيت هي الأكثر فاعلية في الحراك. وقد تعمق الصراع الطبقي وازداد حضوراً في الحراك طردياً مع ازدياد أزمة النظام الريعي وانخفاض أسعار النفط التي أدت إلى انخفاض معدلات الدخل القومي وفشل سياسات الدولة التي فرضت سياسات تقشفية على الطبقات الفقيرة في المجتمع وأثقلتها بالضرائب، في حين أبقت على امتيازات رموز السلطة وبطانتها.

- **الاستمرار والانتشار**: وهي ميزة مهمة، وشكلت نقطة قوة للحراك، وسببت احراجاً للسلطة والأحزاب الحاكمة، فكانت ممتدة امتداداً زمانياً ومكانياً، فهي لم تشهد انقطاعاً كلياً في لحظة ما، وإنما كانت بخط بياني متذبذب من ناحية الشدة والاتساع، ولكنه متواصل وغير منقطع، وامتدت جغرافياً أيضاً لتشمل محافظات العراق كافة – هذا إذا ما احتسبنا الحركات الاحتجاجية في كردستان التي وجهت بقمع شديد من السلطات هناك، والاعتصامات في المنطقة الغربية، التي أفضت إلى سيطرة داعش وسقوط أربع محافظات بيده، بعد انسحاب الجيش والقوى الأمنية العراقية منها، وانتشرت الحركة الاحتجاجية أيضاً انتشارا ديموغرافياً في المجتمع؛ إذ استقطبت معظم – إن لم يكن كل - فئات المجتمع (من ناحية العمر والجندر والحالة الاجتماعية)، إضافة إلى التظاهرات والاحتجاجات القطاعية المطلبية التي تندلع بين مدة وأخرى تبعاً لحاجات هذه القطاعات ومشاكلها، مثل تظاهرات الفلاحين، والعمال، وحملة الشهادات العليا، والخريجين، والمرأة، وذوي المهن الصحية، والمحاضرين المجانيين...الخ، إذ حققت هذه التظاهرات تواصلاً أفقياً وعمودياً مع الحركة الاحتجاجية واستطاعت أن تملأ الفراغ ما بين الموجات الاحتجاجية الكبرى، وأدامت توقد المزاج الجماهيري المحتج، وخلقت استمرارية وتواصلاً زمانياً بالحركة الاحتجاجية، حافظ فيه الحراك على ديمومة اجتماعية ضاغطة، راكمت ثقافة الاحتجاج في الحس الشعبي، وبدا معه المشهد الاحتجاجي بشكل عام في العراق، خطاً واحداً لم ينقطع منذ شباط 2011.

- **التصاعد والتصعيد**: وليس بعيداً عن (الاستمرار والانتشار) تأتي هاتان الصفتان لتكمّلا المشهد، فالتصاعد لصيق الاستمرار، ويتجلى في تطور الأهداف والغايات والآليات بتتابع الزمن وتجاهل الحكومة وقمعها، من البسيط إلى المعقد، ومن المطالب الخدمية والإصلاح، إلى المطالب السياسية التي تستهدف التغيير في بنية النظام السياسي. فيما يأتي التصعيد

رديفاً لتصاعد الأحداث ومقابلاً لبطش أجهزة النظام ولا مبالاتها. والتصعيد هنا متقابلاً وجدلياً ما بين السلطة والمحتجين، فكلما صعّد المحتجون في شعاراتهم وآلياتهم، صعّدت السلطة في وسائل قمعها ومواجهتها لهم، والعكس صحيح أيضاً.

- **وحدة الأهداف (الوحدة في التنوع):** وعلى الرغم من تنوع المطالب والشعارات المرفوعة، سواء في التظاهرة الواحدة جغرافياً وزمانياً، أو ما بين تظاهرة وأخرى بافتراقهما جغرافياً وزمانياً، بقيت هذه المطالب والأهداف تعبّر عن تقارب في الرؤى والمنطلقات، فهي كلها تقريباً تعرب عن رغبة في تجاوز نظام المحاصصة الطائفي الفاسد ومحاربة الفاسدين وبناء دولة مدنية ديمقراطية تحقق العدالة الاجتماعية. ومن الجدير بالملاحظة هنا أن التعبير الأيديولوجي عن هذه المطالب كان يرسم في بعض الأحيان حدوداً (واهية غير حقيقية) في ما بينها، أي بين عامة الجماهير وبين الجمهور الأيديولوجي في الساحات، فكانت هذه نقطة الضعف التي تهدد الوجهة العامة لوحدة وعي الجماهير المحتجة، التي بنت بسببها جداراً سميكاً أمام الحزبية بشعارها الشعبوي (كلا كلا للأحزاب)، إذ كانت ترمز إلى تخوفها من الخطاب الأيديولوجي وخطورة سرقة الاحتجاج لصالح الأحزاب، رغم يقينها بأن لا حياة سياسية ديمقراطية بدون أحزاب، وربما هي كانت تعبر عن فوضى الحياة الحزبية في العراق التي تتيح العمل في حقل السياسة لأكثر من دورتين انتخابيتين بدون قانون أحزاب، وتسمح لأحزاب في السلطة أن تملك أجنحة مسلحة ولجانا اقتصادية بلعت بها الدولة وأجهزتها الأمنية والاقتصادية، وربما هناك سبب آخر تركز في غياب مشهد المعارضة السياسية الحزبية للمؤمنين في العملية السياسية في العراق بعد 2003، فكان الكل في السلطة والكل خارجها في آن واحد، ولم تنجح كثيراً أحزاب الأقلية التي كانت بعيدة عن السلطة في أن تنأى بنفسها تماماً عن التورط بها، فكانت تقبل بمناصب سياسية بسيطة رغم أنها تعلم علم اليقين عدم مقدرتها على التأثير في البرنامج الحكومي للأغلبية الحاكمة. ولكن بالرغم من ذلك كله بقي متاحاً للراصد أن يرى وحدة الهدف في الساحات، من خلال هذا الاختلاف وهو يجمع المحتجين ضمن إطار مطلب التغيير والإصلاح وتوفير الخدمات.

- **الوعي**: وميزة هذا الوعي أنه لم يولد خارج الحركة الاحتجاجية، ولم يكن دخيلاً عليها، بل كان نتاجها ووليد رحم أحداثها، وتشكل بتشكل مساراتها. فالحراك انطلق من الحاجات الأساسية الحقيقية من الواقع الحياتي اليومي للمواطن، مطالباً الحكومة والقوى المهيمنة بتحقيقها. وفي الأثناء كان يتشكل في المسار ذاته الوعي بضرورة معالجة هذا النظام واصلاحه ليتسنى تحقيق هذه المطالب، لأن تحقيقها يصطدم دائماً ببنية النظام القائمة على أساس توازنات المحاصصة وتقاسم المغانم ما بين القوى المتنفذة، فأزمة الكهرباء - على سبيل المثال - لا يمكن أن تنتهي من دون اصلاح بنية النظام الفاسد وهيمنة قوى الفساد في الوزارات، وعلى مشاريع الإعمار والبنى التحتية، فأولويات النظام كانت دائماً هي مصالح الأحزاب والكتل والشخصيات المتنفذة، ولم يكن المواطن في سلم هذه

الأوليات، إلا تالياً لها جميعاً، وربما غير موجود. ولهذا فالوعي الاحتجاجي كان أصيلاً في الحراك، ولم يكن مستوردا، لا من جهة أيديولوجية ولا من فئات لها غايات سياسية معينة، ولذلك كسبت الحركة الاحتجاجية عامل قوة كانت عاصماً لها من طعون أحزاب السلطة بانتماء الحركة إلى جهات داخلية وخارجية (مثل اتهامها بالبعثية، والإرهاب، والارتباط بأمريكا، أو حتى باتهامها بالشيوعية).

وأخيراً امتاز هذا الوعي بصفة التراكمية في الحركة والوعي، فكان يظهر دائماً في الموجات اللاحقة بصورة أتم ورؤية أشمل وشعارات أكثر عمقاً وشمولاً، إلى لحظة الأول من تشرين الأول 2019 الذي جاء جلياً بشعار (الوعي قائد).

وهنا نستطيع أن نجيب على السؤال السابق (هل بإمكاننا أن نقول بأن انتفاضة تشرين كانت موجة أخرى ضمن موجات الحراك الاحتجاجي؟ وأنها لحظة تصاعد وتصعيد فيها؟).

نعم، إنها موجة أخرى من موجات الحراك الاحتجاجي، ولكنها تمتاز بكونها نقطة التحول في سلسلة التراكمات الكمية في الحركة الاحتجاجية، فكان أن تفجر المزاج الشعبي الاحتجاجي دفعة واحدة، وهو يستحضر سلسلة الحراك بكل حلقاتها منذ 2011.

*** تواصل مجلة (الثقافة الجديدة) متابعتها لمسارات الانتفاضة وتطوراتها، وتنشر في هذا العدد عدة مقالات تتعلق بخصوصيات وسمات الانتفاضة في محافظات عدة، ونستهدف من وراء ذلك اطلاع قراء المجلة على التنوع الثري للأشكال التي اتخذتها مسارات الانتفاضة وخصوصياتها في كل محافظة، وما هو المشترك و المختلف أيضا. وننشر في هذا العدد بعض المقالات مرتبة حسب المحافظات المنخرطة في الانتفاضة والحراك المجتمعي عموما.**

انتفاضة اكتوبر .. جيل جديد ومبادرات خلاقة

قاسم حنون/ البصرة
محلل سياسي وناشط مدني

كأننا على غير موعدٍ وحدثٍ مثير, حدثٍ ليس ثمة ما يشبهه في تاريخنا الممتد لعقود منذ تأسيس الدولة العراقية, أربك هدأة القابعين في مكاتبهم الأنيقة وقلاعهم المحصنة الذين حسبوا أن الشعب طوع أوهامهم وارادتهم, كأنها لحظة أفاق الشباب في أول آذار 1991 على هزيمة الجيش المدوية في حرب الخليج، متبرمين بما آل اليه حال البلاد بعد مغامرة الضم البسماركي باجتياح الكويت في صيف 1990, كنت أبصر بحشود الشباب في البصرة في تشرين الأول 2019، وهي تتجه من ساحة أم البروم في العشار الى ميدان التظاهر في المعقل غير عابئين بنداءات أصحاب الحافلات لتنقلهم هناك, شباب من مختلف الأعمار تملؤهم الحماسة وتستحثهم ارادة التغيير, لعلهم جاءوا للتوّ من طقوس التعزية في أربعينية الإمام الحسين ولكنهم عادوا الى رحاب الوطن والمستقبل...

الأعوام تمرّ وشقاء العراقيين يتسع ويتراكم. حلموا بدولة حديثة فاذا هي كيان هش تتلاعب به أهواء الزعامات وأمراء الحرب وتتحكم به قوى اقليمية ودولية. وحلموا بالديمقراطية والتعددية السياسية والثقافية فاستحالت البلاد الى بيئة للتطرف الأصولي والأحادية الدينية والمذهبية, ورغم ما أنفق من أموال طائلة تقدر بعدة مئات المليارات من الدولارات، فقد ذهبت تلك الأموال في غير صالح الشعب، ولم تسهم في اعمار بنية تحتية متهالكة وتأمين احتياجات المواطنين, حتى تفجر غضب البصريين الذين ضاقوا ذرعا بما آلت اليه أحوال مدينتهم الغنية بالثروات, ففي بقعة تعوم على احتياطي نفطي هائل غرب القرنة تنعدم الخدمات البلدية وترتفع معدلات البطالة بين أبنائها سوى قنوات الانخراط في القوات المسلحة والأجهزة الأمنية وتشكيلات الحشد الشعبي وتتزايد وتائر الفقر والحرمان، فيما تملأ النيران المنبعثة من الحقول النفطية سماء الأحياء والقرى المحيطة في مؤشر لافت على تمايز عالمين عالم رأس المال المعولم الذي

يكتسح الحدود ويقيم مستوطناته الباذخة على حساب عالم محلي مهمش ومقصي من حساب الحكومات الاتحادية المتعاقبة, لا تتذكره الا كخزان أصوات في صناديق الاقتراع خلال الحملات الانتخابية حيث تسوق الأوهام والوعود التي لا تلبث ان تزول مع فوز (ممثليهم) بمقاعد البرلمان أو في مجالس المحافظات... في هذه البقعة المخترقة بالفقر والتهميش وشروط العيش اللاإنسانية تفجر غضب شعبي عارم للمطالبة بفرص العمل في أوائل تموز 2018 إلا إن القوات الأمنية متمثلة بقيادة عمليات البصرة وقد أسكرتها المغانم المتحصلة من حماية قلاع الشركات الكبرى، ردت بالقوة واطلاق الرصاص على حشد المتظاهرين السلميين، فسقط الشاب سعد المنصوري شهيدا مع عدد من الجرحى, لتندلع انتفاضة شعبية في عموم البصرة مترافقة مع أزمة ملوحة وتلوث المياه الناجمة عن قلة اطلاقات المياه في دجلة والفرات، ما تسبب في تمدد اللسان الملحي في شط العرب، صعودا حتى باتت هذه المشكلة مصدر سخط شعبي واسع؛ اذ بلغت اصابات التسمم جراء تلوث المياه بالآلاف من المواطنين في مناطق مختلفة من البصرة.. لم يعد الصمت على ما يجري مقبولا بكل المقاييس, وكانت زيارة رئيس الوزراء السابق حيدر العبادي وفريقه الحكومي للبصرة في تموز العام 2018 وتشكيله خلية الأزمة إشهارا لعجز حكومي صادم. المعالجات والأفكار التي قدمت لحل المشاكل ومراجعة المطالب التي صدح بها المتظاهرون كانت عقيمة وباعثة على الاستياء والتذمر الشديد، الى أي مدى تكشف الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية عن الجهل المطبق بمشاكل المحافظات والتحديات الاستراتيجية التي تواجه البلاد في مجالات المياه والأمن الغذائي والطاقة وانهيار البنية التحتية وتدهور الخدمات؟ بدت قرارات خلية الأزمة تعبيرا عن خلل منهجي في إدارة الدولة.. هل يعقل أن تحل مشكلة تلوث المياه وملوحتها التي يعانيها أغلب مناطق البصرة بعدة عشرات من السيارات الحوضية؟ وهل أن عشرة آلاف فرصة عمل أعلن عنها رئيس الوزراء، وتبين أنها كذبة سافرة قصد منها تهدئة الغضب المشروع للعاطلين الذين يقدرون بعشرات الآلاف، تمثل حلا لمشكلة البطالة؟ يبدو أن الحيرة عقدت ألسن المتنفذين، وهم يبصرون شباب البصرة المطالبين بمحاكمة رموز الفساد وانصاف مدينتهم والدعوة لمراجعة أسس العملية السياسية وكشف تلاعب الفاسدين بالمشاعر الدينية وتأجيج الحس الطائفي, لذا جوبهت الانتفاضة الشعبية بعنف بوليسي سقط جراءه عدد من الشهداء والجرحى مما عمق الفجوة بين المتظاهرين السلميين والحكومتين الاتحادية والمحلية، بينما سكتت الفضائيات ووسائل الاعلام الممولة بالمال العام عن التغطية الأمينة والصادقة للأحداث في البصرة بل انساقت مصادر حكومية لتشويه مطالب المتظاهرين ودوافعهم والايحاء بوجود (قوى خارجية) داعمة للغضب الشعبي والمطالب المشروعة والعادلة التي تتفق مع أحكام الدستور في محاولة لوصمها والإساءة اليها, وثمة من يردد بلا دليل على وجود مندسين لدفع التظاهرات نحو أهداف أخرى, واذ لا ننكر أن حشود

المتظاهرين لا تخلو من أفراد لهم حساباتهم ودوافعهم إلا أن الاتجاه الغالب هو المطالبة بتحسين مستوى الخدمات وحل مشكلة البطالة ومكافحة الفساد واصلاح النظام السياسي، متمثلا بنظام المحاصصة سيء الصيت اضافة الى حل مشكلة البصرة الخطيرة المتمثلة بملوحة المياه التي مازالت تمثل تحديا خطيرا يواجه جهاز الدولة التنفيذي، وكل تلك المطالب عادلة ومشروعة، ولا تتعارض مع الدستور, ولقد كشفت التظاهرات الأخيرة ان وعيا جديدا يتبلور في قطاعات واسعة من الشباب خارج التشكل البيروقراطي والايدلوجي للمنظومة السياسية السائدة، وهو يخطو من العفوية وردود الأفعال والسخط المتراكم الى مرتبة من الوعي السياسي والانحياز لمصالح الشعب وكرامة الوطن، جراء الفشل الحكومي المزمن منذ 15 عاما والفساد المستشري في جهاز الدولة ونمو فئات طفيلية وبيروقراطية، تتغذى على المال العام المتحصل من الموازنات السنوية للحكومة الاتحادية والحكومات المحلية في المحافظات، وليس غريبا أن يطالب المتظاهرون بحل مجالس المحافظات التي ثبت فشلها وعدم قدرتها على النهوض بقطاع الخدمات والاستجابة لحاجات المواطنين, ليست البصرة في حساب المتنفذين وقوى السلطة غير ناقلة نفط عملاقة تدرّ عائدات ضخمة هي ما يكون الدخل القومي للبلاد، فضلا عن نصيب وافر لأحزاب السلطة، وتم تجريدها من امكاناتها في الزراعة بإهمال الأراضي الصالحة لإنتاج مختلف المحاصيل، كما عطلت منشآتها الصناعية الضخمة التي يمكن أن تسهم في تعزيز التنمية وانهاض الاقتصاد الوطني وتنويع روافده، وظلت البصرة خلال السنوات السابقة مرتعا خصبا لقوى الجريمة المنظمة التي تستبيح الثروة النفطية بوسائل مختلفة ومبتكرة ما يلحق الضرر بالعائد الرئيسي للبلاد، ويضعف هيبة الدولة ويجعلها في مرمى اللصوص والجماعات الموازية، وقس على ذلك ما يجري في المنافذ الحدودية التي يمكن أن تدرّ عائدات كبيرة لخزينة الدولة، بينما تستولي عليها جماعات مدعومة من قوى نافذة ومافيات متمرسة في تمرير الصفقات المشبوهة والتغول على المال العام غير آبهة بالقوانين والأنظمة النافذة، رغم وجود آلة عسكرية كبيرة متمثلة في عمليات البصرة والقوات الأمنية وتشكيلات الحشد الشعبي... لقد بلغت الاستهانة بالدم العراقي مدى خطيرا؛ اذ لم تكترث الحكومة بمن فيها رئيس الجمهورية حامي الدستور، ولا القوى السياسية - وأعضاء البرلمان - سوى عدد ضئيل ولا الزعامات الدينية لمصرع ستة عشر شابا بصريا، سقطوا برصاص القوات الأمنية وتبعت ذلك موجة من الاعتقالات بتهم مفبركة.. ليست البصرة استثناءً فيما تعانيه ويكابده أبناؤها، فأغلب المحافظات بما فيها العاصمة بغداد، تعاني من اهمال شديد في المرافق العامة والخدمات ويسوء العيش فيها يوما بعد يوم، وتتضاءل مكانتها وجاذبيتها بالمقارنة مع المدن في دول المنطقة... ومع العهد الجديد وقرب تشكيل الحكومة الجديدة في خريف 2018، كانت الملايين تتطلع الى اصلاح حقيقي والى مشروع وطني يتوافر عليه البرنامج الحكومي لإنقاذ البلاد وتوجيه

الموارد لصالح الشعب وتقديم مراجعة جادة وجريئة للحكومات المتعاقبة، وتعرية مواطن الخلل واعتماد استراتيجية فعالة في مكافحة الفساد واسترداد الأموال المنهوبة وتبني سياسة اقتصادية، تهدف الى الانعتاق من انشوطة الريع النفطي واملاءات المؤسسات المالية الكبرى ووصايا الليبراليين الجدد...

في مفتتح تشرين الأول 2019 انطلقت في بغداد ومدن الجنوب والوسط تظاهرات عارمة قوامها الشباب الغاضب الذي تمحورت مطالبه حول مكافحة الفساد والنهوض بالخدمات ومعالجة البطالة والفقر الذي ارتفعت معدلاته بحسب مصادر حكومية الى مستويات مخيفة تهدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي، ولم تنفع نداءات المخلصين والقوى الوطنية والديمقراطية بتدارك الأخطار والتحديات التي تواجه المنظومة السياسية، بفعل استحكام نظام المحاصصة الذي جرى تكريسه لاقتسام المناصب والأدوار لحساب القوى المتنفذة، ولم تستطع الحكومات المتعاقبة منذ 2005 تنفيذ برامج انمائية للنهوض بالواقع الاجتماعي والاقتصادي وأهملت آمال الشعب بالنهوض والحياة الكريمة وتحول العراق في ظل التنافس الاقليمي والدولي الى ورقة في المساومات والتسويات على حساب مصالح البلاد ..ولقد كان العراقيون يأملون أن يسفر الانتصار على التنظيم الارهابي (داعش) وانتزاع المحافظات والمدن من سطوته سيفضي الى استقرار البلاد والبدء بمشروع تنموي لإعمار البنية التحتية ومن بينها المناطق المحررة ومغادرة النهج الذي اعتمدته الحكومات السابقة ومكافحة الفساد على نحو فعال يضمن تعقب الاثراء غير المشروع وتنامي دور الفئات الطفيلية والبيروقراطية واستعادة الاموال المنهوبة، بل انساقت الحكومة السابقة في اجراءات غير رشيدة في مفاقمة الدين العام والتغاضي عن فتح ملفات الفساد الذي استنزف موارد الدولة ،وواصلت نوافذ البنك المركزي بيع العملة الصعبة الى شركات صيرفة ومصارف أهلية دونما ضوابط ومستندات صحيحة بينما أغرقت السوق العراقية بالبضائع المستوردة وجرى اهمال الصناعة المحلية والتفريط بالزراعة التي تلقت أضرارا فادحة في ظل تجاهل وقصور حكومي لافت، كما شهد قطاع التعليم في مختلف مراحله انتكاسة وترديا فاضحا تمثلت في انخفاض نسب النجاح وهبوط مخرجاته، وكذا الأمر في المؤسسات الصحية التي تفتقر الى المقومات والمستلزمات الضرورية لتأمين الاحتياجات المتنامية، مما يضطر آلاف العراقيين للسفر الى بلدان أخرى سنويا طلبا للعلاج والاستشفاء ويعاني غالبية الشعب من نقص الرعاية الطبية، وثمة قصص مرعبة عن استشراء الفساد الذي تقوده مافيات مدعومة من قوى متنفذة ويقطع الطريق على مسار التحقيق القضائي، وتتواطأ كثير من مكاتب النزاهة والمفتش العام مع الوزارات والمديريات العامة في التستر على جرائم الفساد وحماية الفاسدين حتى شغل العراق مراتب متقدمة في المعايير الدولية لغياب الشفافية وتفاقم الفساد في جهاز الدولة ... وقد ألقت الاخفاقات والأخطاء المميتة بظلالها على حياة قطاعات الشعب المختلفة وتسببت

بخسائر بشرية وكلف مادية باهظة، يبدو أن المتنفذين وقد أسكرتهم نشوة الفوز في الانتخابات التشريعية والهيمنة على مجالس المحافظات بفعل التجييش الطائفي وافتعال المعارك والخصومات السياسية والاتكاء على دور اقليمي محدد حسبوا أن السبيل مسدود لتداول سليم للسلطة والخروج من مأزق المحاصصة والتقسيم الطائفي لمواقع السلطة والنفوذ والثروة، حتى داهمت انتفاضة الشباب الغاضب قوى السلطة الغارقة في الآثام وزعزعت هدوءهم وحاصرت حصونهم وصدحت بإرادة شعبية لا تلين في ساحات الاحتجاج والتظاهر في جموع هادرة لم يألفها شعبنا منذ عقود، الا إنها غير مقطوعة الصلة مع الحركات الاحتجاجية في شباط 2011 وفي صيف 2015 وفي خريف 2018 التي نددت بالفساد وتسييس القضاء وتبني مشروع اصلاح حقيقي يقوم على مراجعة العملية السياسية والتخلي عن منهج المحاصصة في بناء الدولة، ولعل ارتفاع نسبة المقاطعة للانتخابات التشريعية في العام 2018 وشبهات التزوير والفساد التي حامت حولها، مرورا بمفاوضات تشكيل الحكومة الجديدة، والتسويات التي أسفرت عن تكليف رئيس وزراء لا يحظى بدعم تمثيلي في البرلمان، ما جعله أداة غير فعالة لتنفيذ برنامج حكومي طموح، وما يتردد في أوساط الرأي العام من تحكم قوى خفية من خارج الحدود.. ما يميز انتفاضة الأول من تشرين 2019 وتتمتها في 25 /10 واستمرارها الى أشهر لاحقة، هو قاعدتها الاجتماعية من الشباب المتحمس المكتوي بمظالم التهميش والبطالة وغياب الأمل، والمشاركة الطلابية الواسعة وبضمنها حضور نسوي، يبعث على التفاؤل, لإحداث تغييرات في النظام السياسي واعادة بناء منظومة السلطة السياسية على أسس ومعايير جديدة، وهي بالتأكيد تعني اسقاط منظومة الاسلام السياسي التي تكشف زيفها وخداعها وانخراطها في الفساد والفتن الداخلية والنفخ في أوتار الطائفية المقيتة والفشل في بناء دولة المواطنة والمؤسسات وتفريطها بالمصالح الوطنية، كما تكشف هذا الدور التضليلي والأصولي المتشدد لدى جماعة الاخوان المسلمين في مصر التي سرعان ما أسقطها الشعب المصري في انتفاضته التصحيحية في حزيران 2013... ويقينا أن انتفاضة تشرين الأول تنتسب الى الإرث الكفاحي، لشعبنا لعقود طويلة، منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة من أجل الاستقلال السياسي والتقدم والحياة الحرة الكريمة، وتمثل اضافة خلاقة الى نضال القوى الديمقراطية، من أجل بناء الدولة المدنية الديمقراطية دولة المواطنة والمؤسسات والعدالة الاجتماعية الضامن الوحيد لتحقيق مطامح شعبنا...

وبعد أشهر من انتفاضة الشعب بدا ما كان عصيا على التحقق ممكنا؛ اذ أن النظام الذي تواطأت عليه قوى اقليمية ودولية ونفذه فاعلون محليون، هو الآن قيد الاضطراب والتحول, فيما الطغمة الحاكمة وقاعدتها الطفيلية والبيروقراطية، تنظر الى المستقبل بتوجس وخوف, فهي تقرّ بالمطالب العادلة للمحتجين، وفي مواقف أخرى تتهمهم بتنفيذ مؤامرة خارجية معادية، وهي لم تتورع عن استخدام السلاح الحي والقنابل الدخانية

ضد المتظاهرين، وتنفيذ أعمال هجومية منسقة ضد التجمعات، كما جرى في السنك ببغداد وفي الناصرية والبصرة وكربلاء والنجف، ولم يتردد أنصارها في ممارسة الخطف والاغتيال للناشطين المدنيين، وقد تسببت بقتل زهاء 700 شهيد وأكثر من عشرين ألف مواطن في تعدٍ سافر على أحكام الدستور الذي يكفل حرية التظاهر والاضراب وعلى مبادئ حقوق الانسان, لقد نهض الحلم من أسره وتملك فئات كانت مغيبة عن الحقل السياسي، استطاعت أن تهزّ نظاما محميا بوسائل العنف الشرعي والبترودولار، فضلا عن وسائل وأسلحة الكيانات الموازية من مليشيات وجماعات مسلحة.. العفوية التي تبدت فيها الانتفاضة، لم تلاقِ من القوى السياسية على اختلافها تفهما كافيا، واذ يتربص بها الاسلاميون وينظرون اليها على أنها أثر لتحريض خارجي، مستخدمين نعوتا وأوصافا للنيل منها والانتقاص من رسالتها في تصحيح العملية السياسية واعادة بنائها، فإن قوى اليسار التي شاركت في أحداث الانتفاضة منذ أيامها الأولى، انحيازا منها لمصالح الشعب والمطالب المشروعة فوجئت، هي الأخرى، بهذا الزخم الشعبي الكاسح والروح الاقتحامية في مقارعة سلطة الفساد والتبعية والفشل؛ اذ ان شباب الفئات الوسطى والمفقرة هو من يدفع بها دون أن يمتلكوا وعيا سياسيا أو فكريا كافيا أو رؤية البديل الضروري أو القدرة على تنظيم الحشود الشعبية، ولعل ذلك ثمرة استبداد طويل وتضليل مارسته شبكات اعلام وقنوات فضائية وتدمير ممنهج للتعليم والثقافة وتغول الفكر الطائفي والصراع الهوياتي التي ابتسرت الصراع في الحقل المجتمعي الى دوافع وغايات إثنية ضيقة.. لقد تمردت الجماهير على الوضع المزري الذي عاشته لسنوات خلت، بعد اسقاط الدكتاتورية بفعل خارجي، دون أن تكون قادرة على بلورة البديل الذي يحلّ مشكلاتها، فهي عاطلة عن العمل دون أن تطرح الحلول والمعالجات الصحيحة لمشكلة البطالة المليونية، وهي تتطلع لبناء منظومة سياسية بديلة دون أن تحدد خصائصها ومرجعياتها الفكرية والسياسية.. السؤال الذي يطرح الآن، وكان قد طرح بعيد ثورات الربيع العربي: لماذا لم يتوقع اليسار انفجار الثورات والانتفاضات الشعبية؟ ألأنهم ارتهنوا لمنطق سياسي لا يعنى إلا بالسياسة في مستواها الرسمي، أي الدولة والسلطة والأحزاب؟ وفي السياسة لم يكن الوضع يشي بإمكانية الثورة أو انخراط قوى جديدة في المعترك السياسي، ولذا ما كان يطرح هو الاصلاح كهدف أعلى مع ابقاء التوازنات السياسية على حالها، والتركيز على مكافحة الفساد ونبذ المحاصصة ومجموعة اجراءات في الحقل الاقتصادي، وتعديل قانون الانتخابات والاحزاب وما الى ذلك، أي الانحباس في الحقل السياسي دون الحقل المجتمعي الذي يتراكم فيه الاحتقان، بسبب الفقر والبطالة وتردي الخدمات العامة، الانحباس في المستوى السياسي يفقد القدرة على فهم واقع الناس وطبيعة مشكلاتهم وهو ما فرض أن لا تتوقع النخب السياسية حدوث الثورات لأنها لم تكن تتلمس الاحتقان المتنامي في المجتمع، وليست على معرفة كافية بما

يعانيه المحرومون والعاطلون عن العمل، ونمط حياة المهمشين في حزام الفقر الذي يحيط بالمدن العراقية، فإذا كانت الأحزاب تبدأ من الدولة والسلطة، فإن الشعب يبدأ من الواقع المعيش، المتطلبات البيولوجية تسبق الميول والأفكار والاختيارات، كما يعلمنا الفهم المادي للتاريخ، وان التحولات والسياسات التي أدت الى تمركز الثروة وبروز فئات جديدة، أدت هي الأخرى الى افقار الطبقات الشعبية، مما يجعلها غير قادرة على العيش الى أمد غير منظور. ومن غير الممكن أن يتحقق تغيير حقيقي من خلال الانتخابات التشريعية، وعلى وفق الآليات المعتمدة لسنوات خلت، دون نقض المؤسسات والبنى القائمة والتشريعات المؤسسة واعادة بنائها من قبل الفئات الثورية، ودون أن تتبلور الأحزاب والتيارات المعبرة عن روح الثورة التي تحمل مطالبها، وان المرحلة الانتقالية التي نتطلع اليها هي من أجل ذلك بالتحديد، أي القطع مع المنظومة السياسية التي ثبت افلاسها وخيانتها لمصالح الشعب والوطن وتدشين عهدٍ جديد...

ينطلق سلامة كيلة في تحليل ثورات الربيع العربي من فهم الأساس الاقتصادي الذي تشكل بعد انهيار المشروع التحرري العربي وتحقق الانفتاح الاقتصادي أكثر من التركيز على الاستبداد والدكتاتورية وموجة الدمقراطية التي أعقبت انهيار المنظومة الاشتراكية لأن موجة الدمقرطة اقترنت باللبرلة الاقتصادية التي أتت بالتهميش والافقار والبطالة التي أصبحت سمة عامة في البلدان العربية المصنفة الأكثر تهميشا وفقرا، ونسبة بطالة في العالم. وبات النمط الاقتصادي، وليس نمط الانتاج، يتسم بالريعية بعد أن أفضى الانفتاح الاقتصادي (أو عوامل أخرى تتصل بالعراق) الى تدمير كل البنى المنتجة ليس الصناعية فقط، بل الزراعية وهو ما أدى الى تصاعد معدلات البطالة والفقر بشكل غير مسبوق والتفاوت الطبقي الصارخ والارتفاع الجنوني في أسعار السلع والخدمات وتفاقم مشكلة السكن، بعد أن أصبحنا جزءا من عالم العولمة، هكذا أصبحت الكتلة الأساسية من الشعب مهمشة ومحرومة، وباتت أقلية محدودة تعيش حياة البذخ كما أصبحت الشركات الاحتكارية الامبريالية (في القطاع النفطي على وجه التحديد)، تنهب قدر ما تستطيع وتشكلت طبقة رأسمالية ولكنها مافياوية الطابع، تعتمد على النهب من خلال قنوات الاقتصاد الريعي، وفي العلاقة مع الطغم المالية الامبريالية *،لا بد من العودة الى الماركسية لفهم الثورات والانتفاضات الشعبية، فهي تنطلق من الاقتصاد والطبقات في تحليل الظواهر السياسية والثقافية، وهي تنظر الى أثرها في حياة المجتمع دون الاكتفاء بالنظر الى المؤسسات والبنى البيروقراطية، وما يتصل بالمجتمع السياسي (الدولة)، لذا نحن بحاجة الى دراسة الصراع الطبقي في أشكاله المختلفة والتناقضات الاجتماعية وتجنب التعويل على ثنائيات متعارضة:مدني، ديني، اسلامي، علماني، وتكريس النضال في ظلالها حسب، وهي ثنائيات تضرب بجذورها في الحقل الثقافي، ولا صلة مباشرة لها بمعاناة القطاعات المتضررة من السياسات الاقتصادية للحكومات المتعاقبة

بعد 2003 وركوبها موجة الليبرالية الجديدة، وهي تبشر بالخصخصة والتكييف الهيكلي للاقتصاد العراقي، كحلٍ لمشكلاته المزمنة والعديدة، بينما أهدرت الأموال الطائلة المتحصلة من عوائد النفط لسنوات عدة في مشروعات وهمية وقنوات انفاق بذخي على جهاز الدولة المتضخم، وتنمية قاعدة اجتماعية من الفئات البيروقراطية والطفيلية تعتاش على آليات هدر عشوائي غير منضبط, ولا تتوفر معطيات دقيقة عن مصير عشرات المليارات من الدولارات التي جرى انفاقها دون بيانات واضحة، وتخضع مكافحة الفساد لآليات التوافق والمحاصصة، لأن المتورطين فيها من أقطاب السلطة والنفوذ السياسي ليتعطل دور القضاء وهيئات النزاهة، بينما روائح الفساد تزكم الأنوف...

فجرت انتفاضة تشرين 2019 في العراق ولبنان جدلا في الأوساط الثقافية والسياسية وتنوعت مسمياتها أهي انتفاضة أم ثورة أم حراك شعبي؟ هناك من يمدّ المصطلحات بشحنة ايدلوجية دون أن ينفق جهدا في تأمل مسار الحدث والعنفوان الذي تبدى فيه.

يمكن القول إنها انتفاضة وثورة وحراك في آن معا؛ فهي انتفاضة في الشكل الذي اتخذه هذا النشاط متمثلا في التظاهر الشامل وأشكال المشاركة الشعبية، وهي حراك لأن ما يجري تعبير عن مستوى من الإرادة والتعبئة الشعبية، وهي ثورة لأنها نشاط يستهدف اسقاط منظومة سياسية تسببت في زيادة الفقر والحرمان والفساد وبؤس العيش, في تحديده الأولي أنه حراك له جذوره في السنوات السابقة (في العراق 2011، 2015، 2018) لكن عنفوانه وزخمه واندفاعه المثابر في التمرد على السلطة والتصدي لإسقاطها يجعله ثورة في شكل تظاهرات شعبية عارمة قوامها الشباب في محافظات عديدة بضمنها العاصمة بغداد، اتخذ صورة الانتفاضة متوالية الموجات والحضور المتجدد المرتبط بتوقيتات واشعارات عبر وسائل التواصل الاجتماعي. ليس محتما أن تنتصر الثورة أو حتى أن تكون شاملة كل قطاعات المجتمع وكل مدن البلاد، وليس بالضرورة أن تقوض علاقات انتاج قديمة لتحلّ مكانها علاقات انتاج جديدة، وليس لزاما أن يقودها حزب بمفرده أو مجموعة أحزاب منتظمة في تحالف سياسي، الثورات يمكن أن تكون عفوية أو منظمة، والنقلة من العفوية الى التنظيم تقررها موازين القوى السياسية وقدرة الانتفاضة على المضي في مشروعها الثوري وتحقيق أهدافها.

*** سلامة كيلة: زمن الثورة.. الأزمات والفرضيات الأولى/ كتاب الهلال 2015**

الاعلام.. صناعة ثورة وترسيخ السلام

عماد جاسم
باحث واعلامي/ بغداد

لم يعد الاعلام حكرا على الصحفيين او ممن لهم قدرة الحصول على فرصة النشر في الصحف او الظهور في برامج تلفزيونية، اذ بات من الممكن جدا لأي فرد ان يمارس الاعلام بمختلف تفرعاته وفنونه، بعد ان اتاحت التكنلوجيا الحديثة فرصة مثالية لإبراز المواهب والقدرات الاقناعية والتأثرية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي والهواتف والحواسيب الذكية التي تعين الكل على ترجمة ما يبتغي دون حدود عبر الكتابة او الصوت او التصوير. لكن المهم هو فهم الدور الامثل لاستثمار هذه الفرص الذهبية والتعرف إلى اخلاقية الخوض في غمار العمل الاعلامي المهني الذي لا بد ان يصب في خدمة المجتمع، فقد اشارت الدراسات الحديثة الى ان ما يقرب من ثمانين بالمائة من مستخدمي التقنيات الرقمية الحديثة في العالم العربي غير مؤهلين اجتماعيا للعب دور ايجابي في تطوير مجتمعاتهم، وهي نسبة مقلقة تعطي انطباعا عن حجم الخسارات في الجهد والوقت لشرائح واسعة من المجتمع، تضيع من وقتها في التواصل غير المجدي والبحث عن سعادات مؤقتة او متع مزيفة او اشباع غريزة الظهور او المناكفات والتذاكي على حساب المضمون او الجدوى، بينما يؤكد متابعون ان هناك نسبا محدودة اتقنت هذا الدور المحوري عبر تمكنها من نشر رسائل الخير والإصلاح المجتمعي. والأمر لا يتوقف عند الصحفيين فقط وإنما هناك عدد كبير من المدونين والناشطين المدنيين والشباب المتنورين الذين ساهموا ويساهمون اليوم في ترسيخ قيم المواطنة والمشاركة المجتمعية الايجابية وإسناد الحراك الاحتجاجي في الثورة العراقية التي اندلعت منذ تشرين من العام الماضي. فثمة ايقونات جمالية خرجت عن اطار المعتاد او الصورة النمطية شكلت ملمحا واضحا في ساحات التظاهر، يمكن وضعها في حقل التجديد والتجدد، الخارج من اتون الغضب الثوري والذي عبر عنه جيل يبحث عن هوية المواطنة، مستعينا بتراكم الخيبات وتعدد التجارب المعرفية المكتسبة من جدية التعاطي مع عوالم الاتصال ضمن العوالم الافتراضية والتي ألهمت جيل المحرومين من صناعة فن خطابي شديد الخصوصية، حمل بصمتهم ووثق مطالبهم بالقول والصورة والمقال القصير والرسم الساخر والمادة الفلمية والبوستات والتغريدات والشعارات والاهازيج والمقاطع التمثيلية والمقابلات المنفذة بحرص لتعرض في مواقع التواصل الاجتماعي. والملاحظ ان اللاعب الرئيس في توحيد اهداف هذه الثورة هو ذلك الشاب الذي يثابر

في منح الاعلام الجديد دورا مضافا تجسد في اقامة الجسور بين الشرائح المجتمعية الثائرة بانتقاء شعارات افلحت بان تكون شرارة ملهمة وحدت المحتجين المطالبين بإنقاذ البلاد من براثن الفاسدين. ولعل الشعار (نازل اخذ حقي) الذي امسى احد اهم الايقونات الاقناعية في الثورة التشرينية، يعد من المحركات الاولى المولدة لأهداف تطابقت في المحتوى والمعنى مع الشعار المختصر والذي ترجم بحرفية مطالب المحرومين ببلاغة تفرع عنها ولادات مماثلة لشعارات وأهازيج، اتسمت بعمق الدلالة وبساطة التداول (السهل الممتنع). فكان لهذا الاجماع، الشرارة التي اوقدت شعلة متعاظمة الصيرورة ضمن حيز تشاركي مفهوم النوايا، ومنها سجلت ساحات التحرير براءات اختراع تحسب لهذا الجيل الذي مزج المرارة بالسخرية، منطلقا من اسئلة الوجود الفلسفية عبر رسومات وأناشيد ومشاهد مسرحية كانت تنفذ بشكل يومي تفصح عن مكامن الوجع والاغتراب في نفوس صناعها، ويبدو ان هذه الابداعات والفنون اختارت لنفسها هوية مستحدثة فرضها واقع الحال فقد كانت مادة اعلامية وتأثيرية وإقناعيه اكثر من كونها مادة امتاعية.

هل بإمكان الإعلام أن يزرع مفاهيم السلم الأهلي؟

نحن ازاء هجمات ظلامية لقتل الروح الوطنية وتحجيم دور المثقف في التصدي لكل مظهر من مظاهر التخلف والعنف المجتمعي، ونعتقد بما لا يقبل الشك ان هناك نظرة سلبية اخذت تتوسع في اذهان الناس حول صعوبة أن يكون هناك تأثير ايجابي للإعلام العراقي الذي يفترض انه يدار من قبل نخب ثقافية وطنية في ظل التناحر والصراع السياسي والقلق من الانزلاق إلى حروب أهلية من خلال توجيه المجتمع نحو تبني خطاب التهدئة وزرع أسس السلم الأهلي وقيم التسامح.

ولأننا نحاول الخروج من طائلة التشكي وجلد الذات مع التحلي بقدر معقول من الموضوعية والتعقل، علينا ان لا نبتعد من الحقيقة وفي ذات الوقت نتسلح بروح المثابرة وتفهم الصورة المجتمعية التي ترشدنا الى آليات البقاء على قيد الامل، لأننا محكومون بالأمل كما يقول الكاتب العربي الراحل سعد الله ونوس، ولانه صيرورة بقائنا في مواجهة قوى التطرف. فالعمل المدني من وجهة نظرنا يستند على ركائز شجاعة المواجهة وتحليل وتقييم القدرات. لذا نحن نقول إن بإمكان الإعلام أن يلعب هذا الدور الايجابي في زرع مفاهيم السلم الاهلي عندما تكون هناك بيئة مناسبة لعمله الموضوعي، وعندما يستطيع أن يخرج الإعلامي العراقي من عباءة السياسيين منطلقا من مبدئية ثابتة أساسها احترام القيم المهنية والأخلاقية للعمل الصحفي، لكننا على يقين أن هناك موانع عديدة تحول دون ذلك، تتمثل بالفوضى السياسية وعدم وجود قيم مهنية.

ولا بد من التذكير مرارا بأهمية الإعلامي العراقي الآن باعتباره احدى اللبنات الأساسية في إشاعة مفاهيم السلم الأهلي، على أن يخرج من دائرة الهويات الفرعية الحزبية أو الطائفية أو القومية نحو تبني آليات ترسيخ الهوية الوطنية. ومن هذا المنطلق تكون للصحفي قدرة تأثير ايجابي في المجتمع، وتحويل اتجاهاته نحو احترام القيم الإنسانية النبيلة، والتخلي عن الخطابات الطائفية والتحريضية.

ومع الاعتراف الضمني، أن قدرة الصحفيين محدودة التأثير في المجتمع في ظل حالات العنف المتزايد لمجتمع محكوم بسلطة أحزاب

ترفض لغة التعقل والحوار، بات من واجب الصحفيين الوطنين المتشبعين بثقافة احترام الآخر المختلف التصدي للغة التصعيد التي تتبناها وسائل إعلام مغرضة، وتعمل تحت تأثير أجندات سياسية.

نعم، نكرر اعترافنا ان هناك صعوبة بالغة للصحفيين العراقيين في تأسيس سلم أهلي وإشاعة قيم التسامح والتعايش مع وجود هكذا خطابات متشنجة تكفر الآخر، لكن بإمكان مؤسسات حكومية ومدنية مهنية ووطنية ان تستثمر نشاط الصحفيين المنتمين إلى ضمائرهم، إلى مسؤوليتهم التاريخية والأخلاقية والوطنية، لتعمل على خلق وتأسيس قيم السلم الأهلي. غير انه وللأسف لم تتخذ تلك المؤسسات الممولة من قبل الدولة، لعب دور ايجابي بهذا الصدد، لغياب الخطط والرؤية الموضوعية للأحداث والمشهد العام، ونحن في هذه المناسبة. لذا نكرر دعواتنا بضرورة تعميق جسور التواصل مع العاملين في الحقل الإعلامي وإشراكهم في ندواتنا وحواراتنا، ونسعى لكسبهم ونتوقف عن لغة التخوين المباشرة او المبطنة؛ نتوقف من السخرية التي باتت لا تليق برؤيتنا التجديدية والتنويرية. نحن نعي حجم التدهور والتراجع الذي أصاب اغلب مفاصل المعرفة والثقافة العراقية والتحدي الأكبر هو كيفية تبني مشاريع تنهض بمؤسساتنا الإعلامية وخطاب يرتقي بتوجهاتنا المدنية والإنسانية.

هل من بيئة مناسبة للعمل الصحفي المهني في العراق ؟

يعتقد الكثير من الصحفيين والعاملين في الحقل الإعلامي، ان في العراق لا تتوفر بيئة مناسبة للعمل الصحفي المهني، الذي يستند على وجود مرتكزات، لعل من اهمها توفير مناخ الحرية وحق الوصول الى المعلومة وضمان الرعاية والحماية للصحفيين، وعدم فرض الضغوطات.

والاسباب تكمن في عدم وجود بيئة مناسبة للإعلام المهني، وفي ضعف الأجهزة الحكومية التي تطبق وتراقب القانون مع تعاظم ما، ويوصف بالتناحر السياسي الذي ينعكس على صعوبة خلق مناخ حقيقي للإعلام الحر.

كذلك بغياب القوانين التي تتيح للصحفي إمكانية الوصول إلى المعلومة مع وجود ضغوط تمارس من قبل الحكومة، تعيق الأداء السليم للكثير من الصحفيين الذين لا ينصاعون إلى تهديدات أو إغراءات المسؤولين، على حد تعبيرها.

اذ ان الصحفيين يمارسون عملهم في العراق بصعوبة بالغة، بوجود تهديدات متعددة من قبل الميليشيات، ومن قبل الأجهزة الأمنية أيضا التي ما زالت تفتقر الى لغة التفاهم المتعقل مع الصحفيين، بالإضافة إلى تهديدات تخيف الصحفي من قبل المؤسسة التي يعمل بها.

وتتعاظم الشكوى من غياب المنظمات والنقابات الساندة لعمل الصحفي، حيث تسهم في تراجع العمل الاعلامي المهني، اذ لا يتلقى الصحفيون التدريب المهني اللازم مع ندرة المؤسسات الإعلامية الرصينة.

الثقافة الوطنية في مواجهة التطرف ودور الإعلام بالترويج لها

لا يخفى على الكل حجم المخاطر التي تحيط بالبلد، وهي تتمثل بتهديدات أمنية ومجتمعية داخلية وخارجية، ولا بد من الاعتراف بعجز الدولة ومؤسساتها في مواجهة هذه المخاطر بمفردها وبمحدودية قابليتها في ظل تراجع مناسيب الثقة بين المواطن والدولة وعزوف

المثقفين من لعب دور تنويري حقيقي، يتجه نحو الإصلاح، ونقد المظاهر السائدة بروح من الجرأة والثورية التي لا بد أن تلازم محبي التغيير.

ولأن وسائل الإعلام بمختلف حقوله هي الميدان الأرحب لإيصال صوت ومفاهيم النخب الفكرية والثقافية، بات من المهم استثمار تلك الوسائل المتاحة لتكون جسورا تعريفية لمنابع القوة في ذواتنا والمتمثلة، بحب عميق ومبدئي للوطن، يتجسد بآلية مهنية تعتمد أساليب التشويق وتتجاوز الهويات الفرعية لترسيخ الهوية الأم، الا وهي الهوية الوطنية، عبر تأصيل ممنهج يحترف الإعلامي المثقف ذو النزعة الوطنية الإنسانوية بتطويعها، لتكون مادته المبتغاة والهدف الأسمى، بعيدا عن أية تنازلات فئوية، تحيد المسار عن ترسيخ مفاهيم محبة الوطن وتجميع الشتات حول رأيته التي من الممكن ان تكون حامية لتنوعنا وحافظة لوحدتنا، وبالتالي فهي الوسيلة المثلى في مواجهة الأفكار الظلامية المتطرفة، التي تشتعل بلهيب وشرارة القطبية المقيتة التي تتمركز وتتمحور بالانتماء الكلي للعشيرة والمذهب والطائفة والقومية. ومن هنا تبرز خطورة انتشار الإعلام المنتمي الى غايات فرعية وفئوية، ينقاد بشكل اعمى لتوجهات خارجية تهمل أولوية التوحد والوطن، لتكون موجهة بأفكار قيادات شرعت واجتهدت في الاستحواذ على مكاسب سياسية ومادية، لها بريق اخاذ، استسلم له الضمير المهني والوطني. وبات التنافس الميدان الواسع لتبادل الاتهامات وتحقير الآخر المختلف بكل الأدوات ليتحول الصراع عبر المنابر الإعلامية إلى صراع مجتمعي، يتناسل في كل مرافق المجتمع ليلغي حلم الدولة المدنية بوجود حواضن للتعصب والقبلية، ومن ثم للتطرف الذي يتغذى بالحوارات المحمومة التي تسلب العقل إرادته بحكم انفعال غريزي تأسس على اقتتال غير منضبط، يدار من مؤسسات إعلامية تفتقر إلى روح وطنية، وتجنح إلى تجهيل الناس وتحويلهم إلى فرق متناحرة ومتصادمة بحكم حجم الانفعالات وانتقاء الاتهامات اليومية، متناسية ان دورها ليس في جذب المشاهد المتوتر والمحبط، وإنما إشاعة ثقافة النقاش الجدي المعمق والمستند الى أفكار تعيد صياغة المشهد السياسي برؤية مهنية وتبصيرية.

ولا بد أن تتوجه النخب الوطنية إلى تبني خطاب متعقل يضع أولوية الإصلاح منهجا، ويعيد النظر بدور المثقف العامل في وسائل الإعلام ليكون مرشدا فاعلا وحكيما، يسهم في إعادة العافية للعقل المحنط بأفكار الطائفيين أو المشتغلين في بزار الطائفية الكثير الربح في زمن غياب المسؤولية الوطنية.

ولا بد من إعلان تثقيف وتدريب ذائقة المتلقي على أن تكون ذات إرادة وطنية عبر برامج تحذير تتجه بحرص لتذكر إن نواة التطرف، تبدأ من الزائر اليومي لبيوتنا ألا وهي وسائل الإعلام المتمثلة في الاعلام المرئي والمسموع ووسائل التواصل الاجتماعي التي تلعب دورا رئيسيا في توجيه مسارات الرائي العام، وصار لزاما على كل الأكاديميين ترك دور المتفرج المتكاسل واليائس ليكون مبادرا فاعلا في برامج توجيه المجتمع، عبر ما متاح من وسائل إعلام وطنية ومهنية، لتكون ملاذ الشباب العراقيين الذين فقدوا بوصلة غاياتهم، بحكم افتقار الخطط الإصلاحية التي تحتاج إلى روح تضامنية تشترك ببلورتها النخب الثقافية والإعلامية الوطنية.

واسط.. شرارة الانتفاضة وإدارة الاحتجاج

سجاد سالم حسين/ واسط
محامي وتدريسي في كلية القانون/ جامعة واسط

رغم السمة الوطنية التي ميزت هذه الانتفاضة، وكونها حدثاً أيده اغلب الشعب العراقي بمختلف فئاتهِ وشرائحه الا أن تسليط الضوء على التفاصيل المختلفة في المحافظات وكيفية تعامل الجماهير المنتفضة فيها مع الاحتجاج ومواجهة المخاطر وكيف سعت إلى ادماج شرائح وفئات جديدة في الحراك الجماهيري منذ تشرين الأول، مهم لإغناء التجربة في كل الوطن، في النهاية ليس للمنتفضين الا هذه التجربة للتعلم منها والإفادة من نجاحها وتجنب عثراتها.

تناقش هذه المقالة بعض النقاط المهمة في الجانب الميداني والحقوقي للانتفاضة في واسط، وتنطلق من الاختلاف الجزئي الحتمي للبيئات المحلية في العراق، وان لكل بيئة خصوصية معينة، واختلافاً ينقص أو يزيد في مزاجها الجماهيري الثوري عن البقية، وطابعاً ديموغرافياً وحراكاً سياسياً وواقعاً طبقياً يدفعها إلى إدارة احتجاجها بوسائل وطرق مختلفة واستخدام تكتيكات مختلفة لإدامة الزخم الجماهيري لانتفاضة تشرين، والتركيز على شعاراتها العامة المتفق عليها وطنياً وتكييف هذه الشعارات والمبادئ الوطنية في التعامل مع قضايا محلية ملحة فرضها الواقع.

البدايات من واسط

نؤشر في هذا الاحتجاج على واقعتين، تتيحان لنا فهم المجتمع وكيف ان النظرة الشائعة غير المستندة على عوامل موضوعية قاصرة، يُشاع عن المدينة وبعض المدن الأخرى سكوتها وقبولها الظلم، خلافاً لمدن أخرى تميزت بطابعها الثوري في تاريخ العراق الحديث.

هذا الفهم السطحي والبسيط يتهاوى مع اول تشخيص على ارض الواقع، رغم ان هذا الطابع العام للبشر يخلفه الاستبداد في الشعوب، اذ يشخص ذلك عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد): ”الاستبداد يقلب الحقائق فى الأذهان.. فيسوق الناس إلى اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مُطيع والمُشتكي المُتظلم مُفسِد، والنبيه المُدقق مُلحد، والخامل المسكين صالح، وتصبح الحميّة حماقة، والرحمة مرضا، كما يعتبر أن النفاق سياسة والتحايل كياسة“.

كانت أولى الاحتجاجات الشعبية الهادفة لبناء الدولة المدنية والمطالبة بالعدالة الاجتماعية عام 2011، اذ اتفق الشعب رغم الترهيب والقمع ان يخرج يوم 25 شباط من ذلك العام في ساحة التحرير وفي بقية

المحافظات للتنديد بسياسات النظام الظالمة.

لكن واسط كانت على موعدٍ مبكر، تتقدم الشعب في مطالبه والسبق في نيل طموحاتهِ، خرجت حينها مدينة الكوت يوم 16 شباط في مظاهرة عارمة، جرس إنذار مبكر للحكومة المحلية التي لاذت بالفرار، ذلك الإنذار الذي لم يفهمه الفاسدون الذين يبحثون الآن عن مخرج آمن من ورطتهم، اتقاء المحاكمات والملاحقات القانونية.

ان الثورات خط تراكمي وجهود حثيثة دائبة كما تعلمنا التجارب الثورية وحركة التاريخ، لذا لا يمكن فهم ثورة تشرين 2019 دون الإشارة الى ما سبقها من حراك جماهيري او "بروفات ثورية" خاصة في أعوام 2011 و2015 وفي كل هذه المنعطفات التاريخية المهمة يبرز دور مدينة الكوت في وقوف أهاليها بجرأة للمطالبة بحقوقهم الخاصة وبالقضايا الوطنية الكبرى.

اما في ثورة تشرين عام 2019 فقد انطلقت بوعيها الوطني الطبقي بشرارة الشهيد وسام الجعيفري (بو عزيزي العراق) شهيد لقمة العيش الذي لم تصل رسالته للسلطات القمعية المحلية الا عبر التضحية بحياته بعد أن وصل قمة اليأس وهو يرى تعدي السلطات على رزقه وقوت عياله.. لكنه كان يأساً ملهماً أو أنه اليأس الذي يطهر الشعب من لعنة الجبر كما يقول مظفر النواب.

ما يهمنا حقاً هو هذا الدرس الثوري الذي نتعلمه يوميا في ساحة الاحتجاج: ان الشعب قادر على اجتراح المعجزات، وان الإنسان لا يبقى خانعا طول حياته، حالنا كحال بقية الشعوب وبقية محافظات العراق، ما أن يتحقق الظرف الموضوعي وتتوفر الإرادة سترى شعباً غير الشعب الذي تفاقمت في ذمهِ الأفكار السلبية، الخاطئة بالضرورة.

خلاصة الدرس ان الثقة بجماهير الشعب وقدرتها على التغيير ليست خاطئة.

مصادرة الحريات وخرق القانون

يمكننا إرجاع جزء مما حدث لسبب حقوقي، يُتيح لنا فهم كيف جرت الأمور بهذه الشاكلة والاستعمال غير المبرر للعنف.

فرغم ان الدستور العراقي هو أسمى وثيقة قانونية، وقد نصت المادة 13 من الدستور العراقي عام 2005 "اولاً: يُعدُ هذا الدستور القانون الاسمى والاعلى في العراق، ويكون ملزماً في انحائه كافة وبدون استثناء. ثانياً: لا يجوز سن قانون يتعارض مع هذا الدستور. ويُعد باطلاً كل نص يرد في دساتير الاقاليم، أو اي نص قانوني آخر يتعارض معه".

وان الدستور العراقي بموجب المادة 38 قد نص على ان الدولة تكفل حرية الاجتماع والتظاهر السلمي وتكفل حرية التعبير عن الرأي بكافة الوسائل، الا ان هذه الحرية للتظاهر السلمي تم تقييدها بموجب أوامر صادرة من سلطة الاحتلال الأمريكي بعد العام 2003 أو ما يعرف بأمر سلطة الائتلاف رقم 19 لسنة 2003 والذي فرض قيودا غير مبررة على حرية التجمعات وأوقاتها وأماكنها وضرورة حصولها على الترخيص من السلطات المخولة بذلك.

وهذه السلطات في المحافظات هي اللجنة الأمنية العليا في المحافظة التي يرأسها المحافظ.

ان أوامر سلطة الائتلاف العام 2003 قد قيدت النص الدستوري الصادر العام 2005 وصادرت حق التظاهر والتعبير عن الرأي والتجمع السلمي، اضافة إلى ذلك ان سلوك بعض القوى الأمنية المرتبط بقرار سياسي وعدم حصر السلاح بيد الدولة والانفلات الأمني والفساد المستشري في المؤسسة الأمنية، قد خرق كافة والقوانين والمواثيق الدولية التي تنص على الحريات العامة.

ما كان ليحصل ما حصل من عنف غير مبرر، وهذا العدد الهائل من الشهداء والجرحى وحالات التغييب القسري والاعتقال غير القانوني، لو تم السماح للمتظاهرين بحرية التجمع السلمي اولاً والتعبير عن آرائهم، لكن المتنفذين فضلوا الحل الأمني منذ اول يوم معتبرين ان ما يواجهونه ليس مطالب مشروعة، بل تهديد لمكاسبهم ومغانمهم، وتهديد لمنهج المحاصصة القائم منذ العام 2003.

هذه الخروقات اضافة إلى خروقات أخرى قانونية، يمكن إجمالها عموماً، لا على سبيل الحصر بالاتي:

* قيام الحكومة بمنع التظاهر السلمي للمواطنين وعدم منحهم اجازة للقيام بالمظاهرات وهذا ما يخالف المادة 38/ ثالثًا من الدستور العراقي التي نصت "ثالثاً:- حرية الاجتماع والتظاهر السلمي، وتنظم بقانون"؛ اذ تشكلت الكثير من الحواجز والموانع قبل ساحات التظاهر لمنع دخول المتظاهرين اليها.

* اعتقال المتظاهرين العراقيين خارج وداخل ساحات التظاهر، دون امر قضائي، وهذا يخالف المادة 37/ أولًا/ ب من الدستور العراقي التي نصت "ب- لا يجوز توقيف أحد أو التحقيق معه إلا بموجب قرارٍ قضائي". والمادة 19/ ثالث عشر التي نصت "تعرض أوراق التحقيق الابتدائي على القاضي المختص خلال مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة من حين القبض على المتهم، ولا يجوز تمديدها إلا مرة واحدة وللمدة ذاتها". إذ يتم القبض على الناشطين العراقيين خارج ساحات التظاهر من قبل الأجهزة الأمنية العراقية ويتم تغييبهم لعدة أيام أو تسليمهم إلى الميليشيات العراقية.

* التغييب القسري للناشطين العراقيين وانقطاع اخبارهم عن ذويهم، وهذا ما يتنافى مع التزامات العراق الدولية، ويشكل انتهاكا للاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من التغييب القسري عام 2006، والتي صادق عليها العراق عام 2010.

* عدم تقديم أي من قتلة المتظاهرين اللذين تجاوز عددهم اكثر من 600 شهيد إلى العدالة وإنزال الحكم العادل بهم والامتناع لغاية الان عن الكشف عن الجهة التي أصدرت الأوامر بالضرب بالرصاص الحي ضد المتظاهرين السلميين الا في حالات محدودة طال العقاب فيها صغار الضباط.

* الاستهداف الممنهج للكوادر الطبية والمسعفين الذين يقدمون الخدمات في ساحات التظاهر وهذا يشكل انتهاكاً لقواعد القانون الدولي وفقا للمادة 21 من اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 والتي تجرم الإعتداء على المؤسسات والكوادر الطبية.

* استخدام العنف المفرط ضد المتظاهرين في تفريق المظاهرات وذلك باستخدام القنابل الدخانية بأوزان ثقيلة وغير

مخصصة للتظاهرات السلمية وتوجيهها بشكل مباشر إلى رؤوس المتظاهرين وتم سقوط عدد من الضحايا نتيجة هذه الطريقة.

الاعتصام والإضراب العام

بدأت الاحتجاجات عفوية في بداية تشرين الأول العام الماضي، وكذلك بدأت الاعتصامات بذات الطريقة، قادها الشباب المنتفض في المحافظة الذي هيأ بتماسكه مستلزمات البقاء في ساحات الاحتجاج والتمسك بمطالبهم المشروعة.

بقيت الساحات مهددة وكذلك التظاهرات رغم ان المباديء التوجيهية الدولية في حقوق التجمع السلمي تضفي حماية خاصة على التجمعات العفوية التي لا يتسنى فيها اخطار السلطات المختصة، فحيث ينص القانون على الإخطار المسبق ينبغي أيضاً ان تحدد قانونا الاستثناءات عن هذا الشرط في الحالة التي لا يكون فيها الإخطار المسبق عملياً، فمثل هذا الاستثناء لا ينطبق الا في الظروف التي يستحيل فيها التمسك بالمهلة الزمنية المحددة قانوناً، وينبغي على السلطات دائما ان تحمي وتيسر أي تجمع عفوي طالما يجري بالطرق السلمية.

التزمت الاعتصامات بالسلمية وان معنى السلمية واسع النطاق، فمن ناحية يمكن اضفاء سمة السلمية على أي تجمع إذا كان منظموه أو شعاراته العامة أو البارزون في الاحتجاج أو الصوت الغالب الأعم للمحتجين نواياهم سلمية، وهذا ما التزمت به كل ساحات الاعتصام. هذه الحقيقة تؤيدها تصرفات وسلوك المحتجين طوال هذه الفترة، حيث كان الالتزام بالسلمية حتى في اشد فترات القمع؛ اذ واجه المحتجون الرصاص والقنابل المسيلة بالدموع بصدور عارية.

وفي المواثيق الدولية أيضا ينبغي تفسير معنى السلمية تفسيرا واسعا من ناحية أخرى، بحيث تشمل كل السلوكيات التي تزعج أو تسيء للأشخاص المعارضين للأفكار والآراء المرغوب في ترويجها، ويشمل حتى السلوك الذي يعيق بشكل مؤقت أو يعرقل أنشطة أطراف ثالثة، وهكذا على سبيل المثال في المواثيق الدولية فقد اعتبرت التجمعات التي تنطوي على مقاومة ''خاملة'' بحتة تجمعات سلمية.

بينما تفسير ''العنف'' يجب ان يفسر تفسيراً ضيقاً.

أما الإضراب السياسي فهو ''الاضراب السياسي ومع اشتراك الموظفين والعمال فيه فلن تكون غاياته فئوية أو ذاتية ترتبط بحقوقهم ومصالحهم المهنية، بل إن الهدف منه ممارسة الضغط على السلطة السياسية والحكومة لإجبارها على اتخاذ موقف سياسي معين أو منعها من تحقيق غايات سياسية معينة، أو الاحتجاج على موقف معين قامت به الحكومة على الصعيد الداخلي أو الخارجي وحملها على التخلي عنه، وغيرها من المطالب السياسية الأخرى''.

الإضراب السياسي لم تنص عليه القوانين العراقية، فهي قد تناولت الإضراب المهني فقط، وان هذا الإضراب يجد مشروعيته في المواثيق والاتفاقيات الدولية ومنها أحكام المادة الثامنة من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي تتضمن عدة فقرات إذ نصت الفقرة

"د" منها على: (حق الاضراب شريطة ممارسته وفقا لقانون البلد المعني)، وإن تصديق العراق على هذا العهد والانضمام إليه وصدور ذلك بقانون نشر في الجريدة الرسمية، يعني أن هذا العهد أصبح قانوناً عراقياً، حتى وأن رجعت عنه الأمم المتحدة، لكونه انضم الى النسيج التشريعي العراقي، وعلى وفق آليات التشريع المتبعة حينئذ. أي إنها تعد جزءا من النظام القانوني العراقي، فيكون له ما لبقية القوانين من قوة الالزام على الأفراد والسلطات كافة.

بهذا فهم المحتجون الإضراب العام الذي استمر في أغلب مؤسسات الدولة، عدا الخدمية والضرورية منها. إذ ان كيان الدولة آخذ بالانهيار وهو غير مؤسساتي. وبسبب تراكم الأزمات بات أمان المجتمع وحريته وكرامته وعيشه مهددا.

ادارة الاحتجاج

ادارة الاحتجاج تستلزم من المعتصمين التعامل مع جانبين:

الأول: هو الالتزام بالشعارات العامة والمطالب العامة الرئيسية التي أطلقتها ووافقت عليها ساحات الاحتجاج في عموم العراق، باعتبار ان مطالب المحتجين تتجه إلى التغيير الجذري الشامل في بنية الدولة والتخلص من الممارسات السابقة في هرم الدولة.

الثاني: التكيف مع المطالب المحلية العاجلة والمُلحة في المحافظة في ظل الواقع الجديد الذي فرضته الانتفاضة ومنها مواجهة الأخطار والأعلام والمكائد التي تنتهجها الحكومة أو أطراف أخرى للسيطرة أو إنهاء الانتفاضة.

هناك واقع فرض نفسه في المحافظة، وهو ما يتعلق بغياب الحكومة المحلية، فمع إلغاء مجلس النواب العراقي تمديد عمل مجالس المحافظات، وقبل نفاذ الالغاء أقال مجلس محافظة واسط المحافظ، وبذلك أصبحت المحافظة حرفياً بلا حكومة محلية. شكل هذا الغياب ذريعة للكثير من القوى المتنفذة لجر المتظاهرين لشكل من أشكال التفاوض والمساومة مع حكومة المركز أو من يمثلها. وكل هذا يجري تحت وطأة أمور حياتية مهمة، يجب ان تقوم بها حكومة محلية، ووعود للمتظاهرين باختيار محافظ وفق ترشيحهم واختيارهم، الا ان قرار المتظاهرين ان لا مساومة مع الحكومة المحلية، وعدم الدخول في اشكالية اختيار حكومة محلية من الساحة، وكان الوعي حاضراً بما يمكن أن تسببه هده العملية من أضرار، يمكن ان تهدد وجود ساحة الاعتصام أو على الأقل تجعلها جزرا متناحرة، لا يجمعها هم أو مطلب وطني عام.

وبما ان محافظة واسط هي لحد ما، تتمتع بأمان نسبي فقد استقرت الأوضاع فيها، دون ان يهدد الساحات خطر وشيك، كما في بغداد أو ذي قار وغيرهما من المحافظات، فقد بدأت فيها مكائد المتضررين من الأوضاع الجديدة مبكراً. واستغل موضوع الاضراب العام لبث الفرقة بين المجتمع والمتظاهرين، وتم استغلال الإعلام الإلكتروني والجيوش الإلكترونية في محاولة لخلق رأي عام ضد المتظاهرين، الا ان الساحة بادرت إلى فتح الدوائر تدريجيا في المحافظة، وكان قرار طلبة الجامعات بالرجوع إلى

جامعاتهم بشروط وهي:

1 - عدم التعرض للطلبة المعتصمين والأساتذة المشاركين في التظاهرات أو اتخاذ أي إجراءات تعسفية بحقهم بسبب موقفهم من الثورة.

2 - عدم الإسراع بانهاء المناهج الدراسية وتكثيفها بما يثقل كاهل الطلبة.

3 - حرية الطلاب في إدامة زخم التظاهرات مكفولة من خلال تخصيص أيام يمكن للطلبة خلالها المشاركة في التظاهرات.

4 - تمديد العام الدراسي للمحافظات المنتفضة.

تبقى الاحتجاجات العراقية في واسط أو في بقية المحافظات مختلفة عن الاطار العام، لأي احتجاج اخر، وحتى المقارنة في هذا الميدان غير منطقية. يعود السبب في ذلك لان المحتج العراقي اذا فرض واقع القمع والتهديد بحياته، فعليه ان يتعامل مع المربع الاول لحقوق الانسان. ان يتعامل وان يطالب بحقه في الحياة.

المصادر:

الدستور العراقي العام 2005.

المشروعية في حرية الاضراب السياسي، هادي عزيز علي، مقال منشور في صحيفة المدى، العدد 4554 في 24 /11 /2019.

مبادئ توجيهية بشأن حرية التجمع السلمي، منشورات مكتب المؤسسات الديمقراطية وحقوق الانسان التابع لمنظمة الامن والتعاون الاوربي. متاح على الموقع الالكتروني www.osce.org.

الثورة الشبابية في المدن العراقية.. بابل انموذجا

سلام حربه/ بابل
قاص وروائي وناشط مدني

منذ العام 2003 وسقوط النظام الدكتاتوري على يد القوات الامريكية وحصول الفوضى في كل المدن العراقية وعمليات السلب والثأر وتخريب وحرق الدوائر والمؤسسات ونهب ممتلكاتها سواء بأجندة داخلية او بتوجيه من بلدان الجوار التي كانت تتحين الفرص للانقضاض على هذا البلد وتخريبه بحيث لا تبقى طابوقة على طابوقة فيه، والحاقه مذهبيا اليها واستقطاع البعض من أراضيه ومياهه البحرية، مستغلة الفوضى التي ساهمت بخلقها، وهذا تم بتدخل مباشر منها وأمام انظار العالم اجمع حين حرّكت عملاءها في الداخل من جواسيس واحزاب سياسية مشبوهة وكذلك تحريض الاحزاب الدينية الشيعية والسنية ان تكون واجهاتها في هذا البلد لسرقة امواله والانتقام من شعبه.. لقد حاولت هذه الاحزاب وخاصة الدينية منها ان تشيع الفتن والكراهية بين ابناء الشعب الواحد كذلك عملت على نشر الاوهام والخرافات وتزييف التاريخ وجعل ترهات وافكار القرون الوسطى وعصر الوسيط العباسي يقينيات لهذا الشعب، في هذا الزمن من الثورة العلمية التكنولوجية، بعد اطلاق الاحكام والفتاوى بأن كل من يعارض هذه اليقينيات شيطان وملحد وعلماني ينتظره عذاب الدنيا والآخرة، من شجعها على الايغال في الخراب البعض من القيادات الشوفينية الكردية حين تحالفت معها لتقسيم المغانم في ما بينها والمساهمة الفاعلة والنشيطة في بث السموم والفتن واشاعة روح العداء الديني ومحاربة المسيحيين والايزيديين وتهجيرهم وقتلهم وتأجيج العداء القومي للعرب وتطهير بعض المناطق المتنازع عليها منهم والعمل على تغيير طبيعتها الديموغرافية.. سيطرت الاحزاب الدينية على مقدرات هذا البلد وكانت مرحلتهم التاريخية التي ما زالت ممتدة منذ 2003 وحتى اليوم اي بعد مرور سبعة عشر عاما، من اسوأ المراحل السياسية، وصفحة

بشعة من الانتقام والانتهاك البشع لكل ما هو عراقي وتمزيق النسيج الاجتماعي وسرقة قوت الشعب حتى ان آخر تقرير حكومي في العام 2020 صدر من لجنة مكافحة الفساد التي أسست من قبل عادل عبد المهدي العام 2019 قد أقرت ان ما سرق من اموال العراقيين يتجاوز الخمسمئة مليار دولار، دون ان يندى جبين الطبقة السياسية الشيعية والسنية والكردية او تشعر بالرهبة والخوف والملاحقة القانونية من هذا العار بل بالعكس ما زال العراقي يعيش اسوأ حياة من ناحية الخدمات وخراب المدن وتهديم الحاضر والغاء المستقبل العراقيين وهدر المال العام قائم على قدم وساق من خلال مكاتب الاحزاب الاقتصادية ووزاراتها المستثمرة من قبل اللصوص.. القوى والشخصيات الوطنية كانت تلمس هذا الخراب ووقفت ضده منذ اليوم الاول لكن كما يقال في المثل العراقي (الشق جبير والركعة زغيرة) فكان صوتها في العراق قاطبة، وفي بابل لا يصل بعيدا، لان احزاب الاسلام السياسي قامت بتخدير المجتمع وحقنه بكل مضادات العلم، والمنطق العلمي التأويلي، واشاعت الجهل والامية والخرافة التي تداعب عواطف ووجدان المواطن البسيط. كما عملت على خلق رموز دينية (مقدسة) لا يأتيها الباطل لا من قريب ولا من بعيد. كلامها الحق بعينه بمنزلة النص الديني، تسلطت على عقول البعض من الناس، وجعلت منه قطيعا يأتمر بأمرها، ويمشي ضمن دائرة ترسم له لا يستطيع الخروج منها، ومن يعصيها فان العذاب والموت ينتظره في الحياة الدنيا، من خلال الاتباع والمريدين المرتهنين بإشارة منها، كما ينتظره عذاب الآخرة لان هؤلاء (المقدسين) هم رجال الله وآياته والمنفذين لرسالته السماوية ومخالفتهم، تعني الخروج من الايمان بالله والوقوع في شرك الكفر والزندقة والرذيلة..

ابتدأ التململ في الشارع البابلي من اليوم الاول لتنصيب الطائفيين الفاسدين انفسهم قادة واوصياء على هذا الشعب من خلال انتخابات صورية مباركة بالفتاوى الدينية التي حرمت الرجل على زوجته ان لم ينتخب مرشحي الاحزاب الدينية وتشكلت الوزارات الحكومية منذ العام 2005 وفق مبدأ المحاصصة الطائفية والعرقية. هذا لك وهذا لي. مما تسبب في تفاقم مشاكل المجتمع وبقاء العراقيين ضمن دائرة الحياة اللاانسانية..

هذا الرفض لهم بدأ يتعاظم في المنابر الاعلامية وفي الصحافة المقروءة وفي الندوات الثقافية والسياسية دون ان يتلفت هؤلاء السياسيون الذين جاءت بهم الصدفة والدبابة الامريكية الى معاناة الناس ومشاكلهم، بل سدروا في غيهم وسرقاتهم واشعلوا الفتن الطائفية والعرقية، وابتدأ النزال مع القاعدة والسلفية والنقشبندية واخرها داعش. هذا الصراع على السلطة بين هذه المجاميع الارهابية والسلطة السياسية الطائفية تسبب في تخريب المدن العراقية وعيش الملايين من العراقيين

كنازحين في مخيمات لا يتوفر فيها ابسط مقومات العيش الآدمي، وما زال الملايين لحد هذه الايام، يعيشون في المخيمات بعيدا عن بيوتهم ومدنهم.. نزل العراقي الى الشارع معلنا رفضه لهذه الطبقة، ولهذا النظام السياسي المقيت، وكان عام 2010 بداية التظاهر والاحتجاج العراقي في كل المدن. وابتدأت القطيعة بالتعاظم في بداية 2011 وفي شهر شباط من ذاك العام فكانت المحافظات في هياج كامل ومنها محافظة بابل، وكانت مطاليب المتظاهرين التخلص من نظام المحاصصة وتوفير الحياة الكريمة والخدمات ومنها الكهرباء الذي بدا عقدة مستعصية على الحل، حتى يومنا هذا، رغم ان ما صرف على هذا القطاع كان بالامكان ان يوفر الكهرباء ليس للعراق فقط بل، لكل المنطقة العربية، ما زال العيش في المدن العراقية هو الاسوأ في العالم حسب تصنيف منظمة ميرسر العالمية وتقاريرها المحذرة منذ بداية الاحتلال وحتى اليوم.. اقتصرت التظاهرات في 2011 والسنين التي تلت ولغاية العام 2019 على القوى الديمقراطية المدنية وقوى اليسار العراقي والبعض من الشباب الملتزم الذي كان يعاني الحرمان والضياع وضبابية مستقبله. كانت التظاهرات في المدن العراقية ومنها بابل في مد وجزر بين قوية تصل الى الالاف وفي أحيان كثيرة لا تتعدى العشرات مع وقوف العديد من فئات المجتمع متفرجا وليس فاعلا في تقويتها ومدها بالدعم البشري والمادي.

كانت الطبقة السياسية يعتريها الخوف احيانا، حين ترى ان اعداد المتظاهرين كبيرة، وان ساعة حسابها آتية، وعن قريب، لكنها على يقين ان من يحاسبها لا وجود له في الوقت الحاضر، فشروط الثورة الموضوعية والذاتية لم تكتمل بعد، والاجهزة القضائية مشلولة وتحت اليد، والقوانين معطلة، ومن يثير اللغط حولها فان الاجهزة الامنية وميلشياتها التي شكلتها طائفيا ومذهبيا مرتهنة بأمرها وبامكانها أن تستخدمها لقمع المتظاهرين السلميين، وهذا ما حصل من اغتيالات وتعذيب وسجون للنشطاء المدنيين منذ اكثر من عشر سنوات. لقد استثمر هؤلاء السياسيون صمت المجتمع الدولي وحتى صوت المرجعيات الخجول، والذي كان يتصاعد في بعض الاحيان، لكن هذا الصوت الذي لا صدى له لا يخيفها، فقد تمادت في غيها، وحسبت ان الامور، ستبقى طوع اراداتها، ولا يستطيع احد ان يربك وضعها، لا سيما ان قادة (مكونات) السنة والشيعة والاكراد اصبحوا امبراطوريات تتحكم بسلطة الدولة، ويجلسون على الخزائن، وقادرين على شراء ذمم الاخرين من علية القوم ورؤساء العشائر ورجال الدين واسكاتهم..

لم يكن في حساب النظام السياسي الطائفي ان ساعته قد دنت، وان الجماهير ستخرج عن بكرة ابيها مطالبة باسقاط نظامهم المحاصصي العنصري، ومحاسبة كل السياسيين، وهذا ما حصل في 1 تشرين/ اكتوبر عام 2019 حيث خرجت محافظة

بابل عن بكرة ابيها، يقودهم الشباب وفي اعمار الخامسة عشرة، وحتى الثلاثين، ووقفوا بصلابة امام مجلس المحافظة، مطالبين باغلاق المجلس وحلّه ومحاسبة الفاسدين من اعضائه. تصدت لهم قوات الشغب بالرصاص الحي والقنابل الدخانية وخراطيم الماء الحارة، وتسببت هذه القسوة بسقوط عدد من الشهداء، ومنهم حيدر القبطان ونوفل حسن الخزرجي وغيرهما، لكن هذا الامر لم يثن من عزيمة الشباب وواصلوا الاحتجاج كل يوم، وعاودوا الكرّة امام مجلس محافظة بابل وبناية المحافظة واصطدموا بالقوات الامنية، وهم لا يملكون سوى اصواتهم المدوية امام بطش القوات الامنية وميلشيات الاحزاب المسلحة، لكن هذه الثورة قد تصاعدت يوم 25 تشرين فكانت ثورة عارمة في مركز المحافظة واقضيتها ونواحيها وهاجموا مقرات الاحزاب والميلشيات العميلة الى ايران وهم عُزّل مما تسبب في سقوط العديد من الشهداء وادت الاحداث الى تضامن ابناء المحافظة مع الشهداء والمطالبة بتقديم قتلتهم الى القضاء، واحالة ملفات الفساد لان الفساد، والارهاب وجهان لعملة واحدة.

وكان التضامن الجماهيري متنوعا مع الثوار الشباب والفعاليات كثيرة، ومنها امتناع الطلبة عن الدوام في المدارس والكليات وغلق الدوائر الحكومية من اجل ان يصيب الشلل مفاصل الحياة البابلية كافة. لقد سطر الشباب والشابات صورا رائعة من البطولة التي وقف لها العالم منبهرا على هذا التحدي، وهذه العزائم الجبارة التي لم تلن، رغم الاغتيالات والاختطاف والسجون.

لقد نصب الثوار البابليون السرادقات قرب مجسر الثورة القريب من مجلس المحافظة، لأنه لا توجد ساحة كبيرة في المحافظة أو فضاء رحب، وكل المساحات الخضراء والارصفة والمتنزهات تمت مصادرتها واستغلالها من قبل الفاسدين، وما زالت هذه السرادقات قائمة ونحن في الشهر الثاني من العام 2022، اي بعد مرور اكثر من اربعة اشهر على الثورة، ولم يفكر الشباب برفع هذه الخيم ومنصات الاحتجاج الا بتحقيق مطالب الثوار بالتخلص من هذا النظام الطائفي الفاسد ورموزه السياسية والدينية وقادة كتله، وبناء نظام المواطنة والعدالة الاجتماعية، ولم يكتف الثائرون باستقالة حكومة عادل عبد المهدي وكابينته الوزارية، بل ان يشمل الجميع مبدأ ''الشلع قلع'' الذي راج كمفهوم في الحياة السياسية..

ما ادام هذه الثورة، هو تظافر البابليين جميعا ووقوفهم في ساحة الاعتصام والتبرع بما يملكون من اموال ومواد غذائية وملابس وفرش للنوم، ولم يتخلف عن التضامن مع هذه الثورة الا النفر المستفيد من هذه الاحزاب او الذي يعمل ضمن فلكها ودكاكينها الحزبية وميلشياتها؛ فكانت ثورة تشرين/ اكتوبر ثورة عظيمة للشعب، سيخلدها التاريخ في وسط وجنوب العراق..

لقد اثبتت هذه الثورة ان الشعب العراقي حيّ لا يموت، ويبقى نبراسا لكل شعوب العالم، ليس في الماضي فقط بل في الحاضر وحتى في المستقبل.. كما اثبتت ان جيل الشباب العراقي واع لكل ما يحصل في بلده، ولم يكن غافلا حين تصور البعض غرقه في لعبة البوبجي والتسلية الالكترونية ومقاطعته للكتاب الثقافي واهتمامه الاثير بأجهزة الاتصال الحديثة من موبايل الى كومبيوتر..

لقد كان العراقي راسخا في وقوفه على ارضه، مثقفا وواعيا لما يحصل. هذه الثقافة قد وفرتها له اجهزة الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعي من تويتر وفيس بوك ورغم ان ثقافته صورية تختلف عن ثقافة آبائه، فقد كان تعامله مع اجهزة الاتصال حضاريا، واستطاع ان يطلع على ما وصل اليه العالم من متدن وتحضر؛ فبضغطة واحدة من هاتفه النقال يستطيع ان يصل الى اي موقع ثقافي او فني او سياسي او علمي او او.. وهذا ما حرق امامه مسافات حضارية كبيرة وازمنة موغلة في القدم من البحث والتقصي، وجعل العالم طوع يده، ولن تنطلي عليه بعد اليوم الحجج الزائفة والاراجيف والخزعبلات، بل ان منطقه اصبح علميا ويشك بكل حقيقة يسوقها له الآخر، ان لم تستند الى الاثبات العقلي وتخضع للشك والتأويل..

الشباب العراقي والبابلي لن تهدأ ثورتهم لا اليوم ولا غدا، وان اصابها فتور، لفترة بسيطة، يوما ما فهي كاستراحة المقاتل، لكن ما أن يشعر العراقي ان هناك التفافا على ثورته فأنه يستطيع من خلال منشور واحد على الفيس بوك او على التويتر ان يعيد اشعال فتيل الثورة من جديد، وهذا ما اعطى العراقيون أملا جديدا من ان الحياة في هذا البلد ماضية نحو الافضل، ولن يقبل العراقي بمصير لا يرسمه هو ويختاره سلميا من خلال الانتخابات النزيهة، ودون تدخل او وجود الاحزاب الدينية الفاسدة..

الثورة مستمرة في بابل، وفي كل انحاء العراق، ولن يستطيع احد اخمادها..

الذكاء الاصطناعي .. الخرافات التي تحجب الاخطار الحقيقية (1)

لقاء مع جين غابرييل غانسكا

ترجمة: فؤاد الصفار

طرح عدد من الصحفيين مجموعة من الاسئلة حول الذكاء الاصطناعي على الباحث جين غابرييل غاناسكا المتخصص في هذا المجال وصاحب كتاب (اسطورة التفرد). ادناه ردود الباحث نطرحها للقارئ العربي تعميما للفائدة.

ما هي حقيقة التخوف من موضوعة الذكاء الاصطناعي؟

ان التنبؤات المرعبة حول الذكاء الاصطناعي من انه سوف يحل محل الانسانية هي اكذوبة تخفي حقيقة العالم الذي يحيط بنا.

أثار الذكاء الاصطناعي سحرا وخوفا شبيها بما اثارته القوة النووية في القرن العشرين. ان الاستخدام اليومي من قبل 3,5 مليار من مستخدمي الشبكة العنكبوتية في العالم تحت شكل من الخوارزميات (نظام الحلول الحسابية)، هي ثورة صناعية مطلوبة في كافة انواع انظمة التنبؤ، وفي المجالات الطبية، والاقتصادية وحتى في مجالات منع وقوع الجرائم.

بجانب هذه الاستخدامات فإن الذكاء الاصطناعي الواسع الانتشار وغير المعروف احيانا يسبب مخاوف وآمالا غير منطقية ، كما ان هناك عددا لا يحصى من العلماء ومراكز البحوث التي تعلن عن ظهور عصر جديد يصبح فيه الذكاء الاصطناعي مستقلا ومساويا للإنسانية.

يشار الى هذه اللحظة من التحول بمصطلح (التفرد) (singularité) * ومنذ فترة انشأت كنيسة خاصة بالذكاء الاصطناعي من قبل مخترع الانسان الآلي - انتوني لافنتوسكي (مصمم السيارة ذاتية القيادة - المترجم).

تحول هذا التصوف عند بعض الناس الى توقعات مخيفة. وفي السنوات الاخيرة قام عدد كبير من المختصين في العلوم والتكنولوجيا بعقد ندوات ومنابر عديدة لشرح هذا الخطر حسب رأيهم. وفي العام 2015 ، وقع الف خبير خطابا مفتوحا ينبهون الى امكانية ظهور (اسلحة هجومية مستقلة) روبوتات قاتلة باستطاعتها القضاء على البشرية.

من بين الموقعين على ذلك نجد ستيفن هوكينج وايضا عددا من مسؤولي الشركات الكبرى في سيلوكون فاليه - مدير شركة تسلا الون مسك، مؤسس آبل ستيف وزنياك، ديميس اسبيز مدير شركة ديب مند، واضافة الى مشروع الذكاء الاصطناعي لغوغل.

يدين كثيرون الخطاب المزدوج لعلماء اصحاب مصطلح "التفرد" الذين لا يزالون مستمرين في الاكثار من مشاريع الذكاء الاصطناعي في شركاتهم، وعندما نلقي نظرة متفحصة عن التقدم في هذا المجال، كما تم تخيله في كتب الخيال العلمي نجد انه لم يكن

مثيرا للإعجاب، ان التقرير لبرنامج الرصد الدولي يظهر تواضعا في التقدم المحرز في هذا المجال. وقد اضاف الباحث في جامعة اكسفورد مايكل وولدريدج، وحسب قوله انه لا يتوانى عن مقارنة الافتنان الحالي بفقاعة الانترنيت في بداية سنة 2000.

الذكاء الاصطناعي كيف يمكن شرحه ببساطه؟

نحن بحاجة فعلا الى توضيح تعبير (الذكاء الاصطناعي) الذي لا يعني شيئا بحد ذاته، ولكن يمكن القول انه نظام علمي وضعه اثنان من العلماء الشباب العام 1955، وهما (جون مكارثي) و(مارفن مينسكي)، بمساعدة الباحثين (كلود شانون) و(ناتان روشستر)، خلال عملهم في مشروع لدراسة علاقة الذكاء بالآلة. كان هدف المشروع هو معرفة مدى امكانية توصيف كل خاصية من خاصيات التعلم، او اية خاصية اخرى للذكاء بصورة دقيقة، بحيث تتمكن الآلة من محاكاتها.

دراسة الذكاء مع الآلة كيف يكون؟

في البداية، يجب القول ان الذكاء ليس خاصية واحدة بل تعددية، وان الذكاء الاصطناعي لا يحدد الذكاء، لانه بحكم تعريفه، بل يحاول التقرب منه. ان جميع الخصائص والوظائف التي ساهمت في ما يسمى بالذكاء، سوف نحاول تحليلها ومحاكاتها مع الجهاز، وهذا يتضمن التميز، البرهان، الذاكرة، الاستنباط، اللغة، الى آخره.

يخلق تعبير الذكاء الاصطناعي ارتباكا في الفهم، في الحقيقة هو ذكاء مرتبط بوسائل

اصطناعية مما يخلق كيانا يتمتع بالذكاء. اذن، هناك سوء فهم جوهري بين ما يسمى بالذكاء الاصطناعي وهو علم، والذكاء الاصطناعي الذي تهتم به وسائل الاعلام والكتاب والمخرجين اكثر من شأنه ان يكون كيانا موهوبا بالذكاء.

بشكل ملموس ما هو البحث في الذكاء الاصطناعي؟

الذكاء الاصطناعي باعتباره مجالا للبحث، فانه يلامس جميع المعارف والعلوم.

مثال على ذلك نأخذ وثيقة (De Anima d'Aristote)* دي انيما لأرسطو المُعرفة (الروح) ليس بالمعنى الديني، وانما بالمعنى العقلاني. بالنسبة الى ارسطو فهي احاسيس ومدارك لذا نستطيع بناء بيان وتفسير للمعطيات القادمة من اجهزة الحواس. وبعد هذا العرض البياني يمكن تخزينها وتنظيمها

في الذاكرة. عند ذلك يستطيع اي شخص من القيام بفعل حسب الهدف الذي حدده. نجد نفس هذا المخطط في الذكاء الاصطناعي؛ اذ يوجد جهاز استقبال (استشعار) يقوم باستلام الاشارات القادمة إليه، ويعمل على ترجمتها بما يتطابق مع المعرفة المستمدة من الصور، الشكل، الصوت، حركة العين، وكل ما يمكن استلامه من اشارات. بعد ذلك يمكن بناء كيان معرفي، وتخزينه. ويطلق عليه تمثيل المعرفة. وهذا يتضمن مجموعة من الاسئلة في مجال المنطق. وتمثل نظام معرفة حقيقي، وليس مجرد تخزين وحدات تعداد (خاص بالآلات الكترونية - المترجم)، ايضا نتساءل عن ماهية الذاكرة ومحاكاة ذلك، وأخيرا اتخاذ القرار.

كل هذا يعطينا لوحة واسعة عامة، حول ما يجري من بحوث في مجال الذكاء الاصطناعي . ولكن يجب ان يضاف الى ذلك الاسئلة حول وسائل الاتصال والتعلم، وخاصة التعلم لأنه يعتبر الجوهر في عمل التقنيات او ما يسمى (جهاز التعلم) التي تسمح للخوارزميات بتحسين نفسها، اي الاجهزة من (التعلم). هذا احد مصادر الخوف، لأنه يستند الى فكرة ان الجهاز في استطاعته التعلم. اذن، من الممكن تطورها بشكل مستقل. اذن، هل اصبح جهاز التعلم لا ينفصل عن الذكاء الاصطناعي؟ الجواب: نعم، ولكن قبل وجود مصطلح الذكاء الاصطناعي نشر الباحث (آلان تورنيج) سنة 1950 مقالين، وضح فيهما، ماذا نعني بجهاز الحاسوب الذي يفكر؛ وذكر في أحد المقالين انه توجد مشكلتان اساسيتان، وهما ان تكون هناك اجهزة متطورة، تكون في استطاعتها برمجة برامج لتنفيذ مهام معقدة؛ وتصور ايضا اختبار (تورنيج - test de Turing). لتبسيط المشكلة ادخل (تورنيج) الاختبار المعروف بـ(لعبة التقليد) المبدأ كالتالي: محقق يناقش بشكل اعمى وخطي رجل وامرأة، علما ان الرجل يحاول الادعاء بأنه المرأة. الغرض من النقاش هو طرح الاسئلة لمعرفة من هي المرأة، ثم نقوم باستبدال الرجل بجهاز حاسوب، ليقوم بنفس الادعاء.

السؤال الذي يطرح نفسه، هو كيف يمكن برمجة الجهاز ليستطيع ان يمارس لعبة التقليد. منذ عام 1950 اشار الباحث (تورنيج) الى حاجتنا للكثير من المعارف، مثال على ذلك: تصور ان المحقق يسأل ما هو طول شعرك؟ جواب الجهاز هو نصف قصير، حلقته على شكل شاب. ان اجابة كهذه تتطلب قدرا واسعا من المعرفة حول العالم، وفي هذه الحالة اما ان نزود الجهاز بهذه المعارف، وهو ما يستغرق وقتا طويلا، او نفترض ان الجهاز قادر على التعلم بنفسه.

اذن، منذ البداية، جرى اعتبار فكرة الجهاز القابل للتعلم فكرة جوهرية. في نفس فترة (تورنيج) كانت هناك فكرة التحكم الآلي (سيبرنيتيكش: علم التوجيه يتيح لإنسان او آلة ان يوجها ويبلغا هدفا معينا - المترجم)، تطرح نفس التساؤل، وكانت هناك فكرة اخرى تسمى الشبكة العصبية جرى تخيلها من قبل الباحثين (وارن مكولوك) و(والتر بيتس) سنة 1943، اي قبل ظهور الكومبيوتر. وبعد عدة سنوات قدم الشاب (مارفن مينسكي) اطروحة حول الموضوع وهكذا نتيجة هذه البحوث، ولدت الذكاء الاصطناعي. وتستمر القصة مع باحث اخر من جيل مارفن مينسكي هو (فرانك روزنبلاك) الذي تصور نظاما

يتعلم على مستويين سمى (بيرسيبترون)* Perceptron يعمل على اساس مستوى داخلي ومستوى خارجي. وهذا يعني قدرته على التكيف مع قوى التوازن، وهو فعال جدا ولكنه يطرح مشكلة. اما ان نأخذ مستويين ونحصل على خوارزميات اكثر فعالة ولكنها لا تتعلم الا الاشكال التافهة؛ او نضع اكثر من مستوى ونحصل على خوارزميات معقدة جدا وبتكلفة عالية. لذلك توقفت الابحاث بانظمة Perceptrons حتى سنة 1985. بعد هذا التاريخ جاء عدد من الباحثين ومنهم (فرانسوا يان لوكان) الذي طور تقنية سميت (rétropropagation du gradient)* التي تسمح للخوارزميات بالعمل على اكثر من مستوى، وايضا فتح المجال لما يسمى (الشبكة العصبية)* وادى هذا العمل الى تطوير نظرية احصائية وتطوير نظام التعلم. بعد عدة سنوات، استطاع نفس الباحث من تطوير اجهزة قوية وطور انظمة تعمل على اكثر من مستوى، 12،13،15، ويمكن فصل المستويات التي تتعلم والمستويات التي لا تتعلم، كونها تقوم بدور مرشحات، وبذلك ولدت الاجهزة المسماة (Deep learning) * (التعلم العميق).

الذكاء الاصطناعي ماذا يخدم هذا اليوم؟

عندما نستمع الى النقاش حوله، يتولد انطباع بانه موجود في كل مكان: الانترنيت، الدعاية، التامين، البنك ....، ولكن من الصعوبة التخيل بشكل ملموس كيفية عمله.

يمكن استخدامه في مناحي الحياة الاجتماعية، عدا ان ترغب في احتساء فنجان قهوة في مقهى، فكافة المراسلات عن طريق الإيميل، تويتر، الشراء عن طريق الانترنيت، فكل هذه التبادلات تتحول الى معلومات رقمية، وبما انها تصبح رقمية، اذن يمكن استثمارها عن طريق التكنولوجيا الحالية. بعد ذلك عدد غير محدود من التطبيقات في كافة الانشطة الاقتصادية، نستطيع استخدام هذه المعطيات من اجل التنبؤ او التشخيص، والوقاية من الاخطار التي تهم اساسا البنوك وشركات التأمين. وقد صدر كتاب عنوانه (Weapons of Math Destruction) للمؤلفة (كاثي اونيل) توضح فيه مخاطر هذه التكنولوجيا المتقدمة على المواطنين.

نوع هذه المخاطر: عندما يستخدم الذكاء الاصطناعي في تطوير اخذ صورة لبقعة سوداء (الشامة) على الوجه للكشف عن سرطان الجلد فهذا فعل جيد، ولكن يمكن استخدام نظام التنبؤ هذا بطريقة سيئة. كيف؟ في بداية العصر الحديث ذكر (مكيافيلي) لقد مررنا من التكهن والتنجيم الى التنبؤ، وان السياسي الحديث عليه معرفة كافة الاحتمالات، ومن هنا تكون افعالنا مستندة الى الفعل العقلاني. من وجهة النظر هذه يكون النظام جيدا، ولكن استخدامه على نطاق واسع لا يخلو من عدد من المخاطر، مثل ان يعمل على معايير سيئة او غير عادلة بطبيعتها، وعلى نطاق واسع تستطيع تغيير المجتمع.

لنأخذ مثال التأمين على السيارات لتوضيح الصورة والفكرة؛ اذ يتوجب على اصحاب السيارات ان يدفعوا قيمة التأمين استنادا الى المخاطر التي يواجهونها، وهذا ما يحدث اليوم بالنسبة للسواق الخطرين، ولكن نستطيع العمل بأكثر فعالية، وذلك باستخدام نظام التنبؤ عن طريق دراسة الملف الشخصي للسائق، واحتساب المخاطر الممكن ان تحدث له، ولأجل ذلك نحتاج الى

معايير، واكثرها فاعلية هو الرقم البريدي للمنطقة. فالسائق في هذه المنطقة من الناحية الاحصائية اكثر تعرضا الى المخاطر من منطقة اخرى. وبالتالي فالمعيار عادل من الناحية الاحصائية، ولكن علينا ان لا ننسى ان من الممكن ان يكون السائق جيدا لكنه يسكن في منطقة يكثر فيها عدد السائقين الخطرين، وبالتالي فإن دفعه لتأمين اعلى هو مسألة غير عادلة.

في الحقيقة ان شركات التأمين، لا تهتم كثيرا باحتساب الخطر، قدر اهتمامها بمعرفة الى اي مدى يستطيع الشخص المؤمن عليه ان يدفع، والاكثر من ذلك نجدها ترفع اجور التأمين على الفئات التي يكون احتمال انتقالها الى شركات اخرى ضئيلا. هذا المثال في التأمين ذي الصفة الشيطانية باستخدام نظام التنبؤ. هنا يوجد خطر في الذكاء الاصطناعي، فقد استخدم في الولايات المتحدة الامريكية داخل السجون، لمعرفة اي من المساجين يكرر جرمه (récidive).

هناك الكثير من الاسئلة حول القدرة الفعلية للخوارزميات التنبؤية، فقد اظهرت النتائج التي قدمتها بعض النظم التنبؤية بانها خاطئة في التعرف إلى الوجوه. كما حدث اثناء التطبيق من قبل شرطة لندن اثناء كرنفال اسفرت عن 35 حالة كاذبة، مما ادى الى توقيف اناس ابرياء.

ان نظام الذكاء الاصطناعي له حدود حسب سياق استخدامه، فاذا قمت بتصوير وجهك امام الكمبيوتر مع اضاءة جيدة ولباس جيد، تكون النتيجة جيدة، اما اذا صورت في الخارج مع اضاءة سيئة والصورة من الجانب وليس من الامام، مع وجود كثير من الناس حولك، فسوف تكون النتيجة سيئة.

ما هي حدود الذكاء الاصطناعي؟

يجب اولا ان نطرح المشكلة بشكل واضح وجيد. مثلا، نقول سنترجم والأصح هو هل في المقدرة، ترجمة هذا النوع، وفي السياق المحدد. بعد ذلك، نجد اكثر من معوق حد نطاق استخدام نظام التنبؤ. فمثلا في المجال الاجتماعي، لا نستطيع فعل كل شيء. فلو وضعنا نظام التنبؤ في وسط اجتماعي، فسوف يتفاعل معه، ويكون هناك تأثير بالمقابل. وهذا ما يحدث في البورصة اذ يوجد نظام تنبؤ كفوء على المدى القصير، وبسبب ان هذه الانظمة مستخدمة في كافة بورصات العالم، فسوف يكون له تأثير على اسعار البورصة بالمقابل.

ينتقد الباحث (غاناسكا) بشدّة الباحثين الذين يعلنون عن قرب تصنيع سلاح مستقل له القدرة على محو الانسانية. ويضيف ان هؤلاء الباحثين يتصورون ان الناس كحمقى، فمنذ سنتين، ظهر مقال يتحدث عن امكانية حصولنا على اسلحة مستقلة، تشكل جيلا جديدا في الحروب. كان لدينا سابقا البارود ثم القنبلة الذرية والآن الاسلحة المستقلة القادرة على اختيار هدفها بنفسها. بالتأكيد هذا مرعب وعلينا الوقوف ضد هذه الصناعة العسكرية. ان هذا الطرح من قبل هؤلاء الباحثين يضم في جنباته غموضا مثيرا؛ اذ ان الطائرات بدون طيار، والالغام المضادة للأفراد، بل وحتى اسلحة كشف الحركة او التوقع الحراري، ليست هي المقصودة هنا؛ فالأسلحة التي يتكلمون عنها هي الاسلحة القادرة على اختيار الهدف بنفسها، والقادرة على تحديد من هو العدو.

يقول ايلون مسك* بانه يرتعب من الذكاء الاصطناعي، لأنه سوف يتفوق علينا، ومن

فرط سخائه، يقترح علينا للتغلب على هذه المشكلة، وذلك بانشاء شركة (Neuralink) لتزويد الافراد بأجهزة الكترونية، تسمح لهم منافسة اجهزة الذكاء الاصطناعي، اي بمعنى ادق، هو تطعيم عقل الانسان بقرص معدني الكتروني (disque dur) ورغم كثرة المشاريع من هذا النوع والاعلان عنها فأنها دائما تصل الى طريق مسدود.

من أين جاءت اسطورة التفرد؟

جاء هذا المفهوم مع بداية ظهور اجهزة الكمبيوتر الاولى؛ اذ بدأ عشاق الرياضيات بالتساؤل عما يمكن حدوثه في حال تطور ذكاء الاجهزة، وهم من عرض مفهوم التفرد (singularité) لوصف اللحظة التي يصبح فيها الجهاز متفوقا على الانسان. كل هذا جاء من الخيال ومؤلفي كتب الخيال العلمي من امثال (فيرنور فينج) في سنوات التسعينات، استحوذت عليهم هذه الفكرة والعمل عليها. وفي الوقت الحاضر عمل كثير من المهندسين مستندين الى هذه الفكرة وكأنها حقيقة مؤكده مثل (هانز مورافيك) و(راى كورزويل). وحاليا نرى كثيرا من الشركات بدأت بتمويل هكذا مشاريع مثل غوغول مولت راى كوزرويل وشركة اليون كيسك مولت نيك بوستروم... الى آخره.

يقدم هؤلاء الباحثين حججا لا صلة لها بالموضوع، ويؤكدون انه من خلال التعليم سوف نحصل على حواسيب آلية، تتفوق على الانسان. ومثالهم الحاسوب الذي تفوق على الانسان، في لعبه الشطرنج، ولكن التفوق هنا في مهمة محددة، لا يعني ان الحاسوب اصبح مستقلا بالمعنى الفلسفي، فلأجل هذا يجب على جهاز الحاسوب ان يقرر بنفسه ماذا يرغب فعله، وان تكون رغبته معارضة لرغبتنا.

لا يوجد في الوقت الحاضر اي عنصر يسير بهذا الاتجاه، مع ان البعض يذكر انه سوف نحصل على اجهزة حاسوب، تمتلك (ضمير) هذا يعني انها قادرة على التصرف بنفسها، وحسب ضميرها لمصلحتها، وليس من اجل مصلحتنا. هذه هي قمة السخرية وعلينا كشفها.

ان البحث في الذكاء الاصطناعي، ولد ما يسمى بالخوارزميات التنبؤية المستخدمة اكثر واكثر في تحقيق هدف تجاري او في تحقيق الامن، في الصحة، القانون، وغيرها. هذا التطور الحاصل أقلق البعض على ديمقراطياتنا، فقد استخدمت الباحثة البلجيكية (انطوانيت روفروي) مصطلح "الحكومة الخوارزمية" وهي على حق لأن هنا تكمن المشكلة في خلق هذه الخرافات والخوف وتخفي خلفها حقيقة العالم الذي يحيط بنا.

رقمنة حياتنا الاجتماعية بالكامل، من هنا سوف تكون لدينا انظمة من شأنها اتخاذ القرارات على اساس البيانات والمعطيات التي سيتم تسجيلها وربما التنبؤات. ان ازدياد وضع هذه الاجهزة التي تأخذ قرارات بدل الانسان موضع التطبيق، ولد مشكلة تحديد المسؤولية، ولنأخذ حالة متطرفة ولكن ممكن حدوثها في المستقبل: طبيب يمتلك جهاز حاسوب لتشخيص المرض ووصف الدواء، فاذا قام الجهاز بتحليل المريض ووصف الدواء له، ولنفترض ان الطبيب بخبرته المهنية كان تشخيصه ونوع الدواء يختلف عن رأي الجهاز. هنا المشكلة فاذا قام الطبيب بإعطاء المريض الدواء حسب تشخيصه، وحدثت مضاعفات للمريض، اصبح هو

المسؤول، وفي هذه الحالة سوف يكون هناك ميل للامتثال الى رأي الجهاز.

ان المسؤولية حسب تعريفها هي اخذ مخاطرة، فاذا كان هناك جهاز يستطيع اخذ المسؤولية بدلا عنك، فسوف يحرضك على الامتثال والانحناء الى قرارات الجهاز.

نسمع كثيرا حول منهجية وموضوعية الاجهزة، هذا يعني انها تعمل دائما نفس العمل ولا يوجد ذاتية في عملها، ولكن هذا لا يفسر كونها موضوعية، لان من الممكن امتلاكها ذاتية المصمم لها.

يحيط بنا عالم غريب، والذي يعتمد على الماضي ليصور المستقبل. لديه عيوب متعددة، المسؤولية التي تختفي وبالتالي الحرية. كما ان هناك عيبا رئيسيا وهو بديهية التماثل؛ فاذا كانت كل الاشياء والقوانين متماثلة وكل الاشياء التي رأيناها في الماضي تكونت على نفس التماثل، اي عندما نرى طيور البجع بيضاء، يمكن الاستنتاج والتحريض على ان جميع طيور البجع بيضاء.

الامر اكثر تعقيدا في الفضاء الاجتماعي، لنأخذ قانون مور، إذ يقول القانون: ان التطور يسير بخط تصاعدي، ولكن ليس بالضرورة استمراره بخط تصاعدي، كون الشروط الاولية للتطور تختلف حسب الفترة الزمنية، 5،10،50 سنة، وعليه لا يمكن الثقة الكاملة بالقواعد التجريبية.

نظام التنبؤ له اثار خبيثة، فلو طبقنا هذا النظام في الحياة الاجتماعية، سيأخذ الناس في اعتبارهم هذا النظام في تصرفاتهم الخاصة. فاذا كان لدينا نظام لتنبؤ الجريمة والقيام بنشر البوليس على اساس هذه التنبؤات، سيفهم الجناة هذا النظام ويتصرفوا عكسه.

رغم كل الابحاث في الذكاء الاصطناعي لم يتوصلوا لحد الآن الى انتاج اجهزة او اسلحة مستقلة ذاتيا.

الهوامش

* Singularité: بشكل عام يستخدم لوصف شيء او شخص ما. وله تعريفات اخرى في مجال الفلسفة/المنطق/الميتافيزيقيا وايضا في علم الرياضيات. اما في مجال المستقبل: فيعرف بانه نقطة افتراضية للتطور التكنولوجي.

* De Anima: هي الروح وهو عمل رئيسي لأرسطو على مبادئ الحياة وحركته وجيله وشغفه وترتيباته وسائل معرفته. ويعتبر اول عمل منهجي لعلم النفس ونظرية المعرفة، وقد علق عليها الفيلسوف العربي (ابن رشد).

* Perceptron: هو خوارزمية تعليم تحت اشراف مصنفات ثنائية (امكانية فصل فئتين).

* rétropropagation du gradient: مبدأ يقوم على اساس الخوارزميات التدريجية والتي تستخدم بشكل فعال في الشبكات العصبية لتصيح الاخطاء.

* Deep learning: هي مجموعة طرق التعلم الاوتوماتيكية – تقنيات عالية في تحليل الاشارات الصوتية والضوئية والتعرف إلى اوجه.

* GO: لعبة صينية تلعب على لوحة مربعات من لاعبين، كل يحاول الحصول على اكبر عدد ممكن من المربعات لتشكيل مقاطعة، ومن يحصل على اكبر عدد من المقاطعات هو الرابح.

* ايلون مسك: مهندس كندي يمتلك شركة لصناعة الالكترونيات.

(1) Intelligence artificielle: les mythes qui masquent les dangers réels Par Jérôme Hourdeaux متاح على الرابط التالي:

https://www.mediapart.fr/journal/culture-idees/141217/intelligence-artificielle-les-mythes-qui-masquent-les-dangers-reels

ملف مدني صالح

مدني صالح.. المكتفي بذاته!

د . طه جزاع

يقطع مقبرة الانكليز مشياً من أكاديمية الفنون إلى الآداب، أو العكس، مسرعاً، صامتاً، هائماً، خافضاً بصره، متأبطاً جريدة طواها حتى صارت بحجم علبة سيكائر.. قد يواصل مشيه – قبل أن تتدهور صحته - عبر الوزيرية، مروراً بشارع المغرب، واعدادية الحريري، وساحة عنتر، والأعظمية، عابراً جسر الأئمة مع العابرين.. قاصداً مأرب السيارات العامة في الكاظمية ليركب إلى بيته في الغزالية مع الراكبين. لقد ترك سيارته المرسيدس موديل 75 في مأرب بيته دون أن يفكر بتصليحها حتى نبتت الحشائش تحتها، وتسللت إلى محركها ومقاعدها.. قرر فجأة أن يهجرها في سنوات اشتداد الحصار، بعد أن وجد نفسه "يسوق سكراباً"!

ما زال مدني صالح منذ رحيله الأبدي في تموز 2007 يشغل المشهد الفلسفي في العراق، وما زالت مقالاته ومقولاته ومقاماته وبحوثه وكتبه في الفلسفة والأدب والنقد والثقافة والدرس الأكاديمي، تشغل تلامذته ومحبيه على صفحات الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية، وكثيراً ما كانت حياته وفلسفته ومواقفه مدار الحديث والاستذكار في مجالسهم الخاصة والعامة، فالرجل الذي كان في حياته بعيداً متعففاً عن الاحتفاء والاحتفال بشخصه - مكتفياً بنفسه عن الغير، أنفاً من دون تكبر، متواضعاً من دون ضعف، قوياً من دون طغيان - لم يكن يظن يوماً، بل لم يكن يرغب ويحب، أن يكون موضعاً للاهتمام والتكريم، وموضوعاً لخطب الخطباء، ومديح المادحين.

ولو كان حياً إلى يومنا هذا، فلربما شعر بالإحراج والحياء، وهو يقلب صفحات هذه المجلة الثقافية التنويرية وقد خصصت ملفاً من عشرات الصفحات تكريماً لذكراه، ولعله يتمنى منع ذلك بقدر استطاعته، انسجاماً مع طريقته في الحياة: الاكتفاء بالذات. وذات مرة اعتذر عن حضور مناسبة احتفالية، فكتب لي رسالة جاء فيها: وأرجو منكم أن تقبلوا مني استغلال هذه المناسبة لإعادة الاعلان عن نفسي بأني غير احتفالي غير منبري غير خطابي... الاّ الاحتفال الدائم بالاكتفاء بالذات والاستغناء عن الغير.. لم يخرج عن ذلك – بحسب علمي - إلا مرة واحدة دعوته فيها للكتابة في إحدى الصحف التي ترأستُ تحريرها، وكنا في العام 1998 حين زارني يوماً ومعه مقاله الأول، وطلب مني بوضوح أن أقدمه للقراء بما يشبه "الزفة" احتفاءً وفرحاً بإطلالته على القراء!

ومنذ رحيله، كُتبت مئات البحوث والمقالات والاستذكارات والانطباعات، سواء من تلامذته المباشرين أو غير المباشرين أو من عموم الكتاب والمثقفين والمتفلسفين ممن قرأوه أو سمعوا به أو صادفوه يوماً هنا أو هناك، وكلها تأتي في باب المديح والعجب والتعجب من هذا الرجل - الظاهرة في حياتنا الفكرية والثقافية والأكاديمية والفلسفية الذي تم الاحتفاء به بعد رحيله حين لم يرغب في الاحتفاء به في حياته الا ما ندر، ومما أذكره أنه أُخبر يوماً أن هناك فكرة لإطلاق اسمه على مدرسة في الرمادي، فما استساغها ولا تقبلها ولا شجعها، إنما كان ساخراً متهكماً من هذه الفكرة، رافضاً لها جملة وتفصيلاً، متمرداً على واقع يحتفي شكلياً بإسمه، وهو مهمل في غرفة متواضعة بقسم الفلسفة، شأنه شأن قرندل الذي هو من صنف "الذين يدقون الكبة ولا يأكلون، والذين يلطمون ولا يأكلون، والذين يزرعون ولا يحصدون".

ويعرف تلامذة مدني صالح المقربون، أنه لم يكن في الصف الدراسي خطيباً، ولا متجبراً، ولا عنيفاً، ولا متسلطاً، ولا هازئاً، إلا من أولئك الذين يأكلون من دون أن يدقون، أو يلطمون، أو يزرعون! لذلك قَرَب اليه من تلامذته أولئك الذين كانوا ينتمون إلى الصنف القرندلي يومذاك، وهم أقرب الأصناف إلى نفسه، لأنهم يدقون ويلطمون ويزرعون، بلا ضجيج، ولا مباهاة، ولا ادعاء، ولا تزاحم على المكاسب والمراتب. هم يمثلون (أخوية مدنية) بلا تنظيم، ولا قواعد، ولا اجتماع، ولا تعصب، ولا انغلاق، يحضرون في موسم الزرع، ويغيبون في موسم الحصاد، أو هم من أخوة الحاج عذاب/ فرايدي بمواجهة الصاحب المستر روبنصن كروزو، المتفوق على الحاج فرايدي وعلى قرندل!. "ومثلما يأكل روبنصن كروزو من مال فرايدي ويطعمه منه متفضلاً، يأكل الصاحب المستر من مال الحاج عذاب ويطعمه منه متفضلاً".

وبعد أن غاب مدني عن مسرح الحياة، طفحت بيادرهم في مواسم الحصاد، وفاءً وتبجيلاً لمعلمهم الروحي، الذي ما كان ليسمح للقرندليين وهو حي، بحمل مناجلهم في مواسم الحصاد، تعففاً، وأنفة، وتواضعاً، وزهداً، واكتفاءً بالذات عن الغير، فقد حصد بعد رحيله ما لم يحصده غيره، وحصاده كان بمناجل تلامذته الذين أحبوه بتطرف، والتطرف هو "سيد المواقف كلها في الصدق وأن تصدق الصدق كله، وفي الوفاء وأن تفي الوفاء كله، وفي الإخلاص وأن تخلص الإخلاص كله، وفي الحب وأن تحب الحب كله . وإلا صرنا صيارفة في الصدق وفي الوفاء وفي الإخلاص وفي الحب، وصرنا صيارفة ضد كل طبائع الفضيلة والعدل والجمال ومنطق الاخلاق"، وصَدَق هؤلاء التلاميذ مع استاذهم ومعلمهم، وكانوا مثالاً للحب والإخلاص والوفاء له، فما تركوا فلسفته متناثرة في أرشيفات الصحف والمجلات ودكاكين الصحف القديمة، وفعلوا ما لم يفعله في حياته، أوفوا بعهدهم له، واتفاقهم معه، فجمعوا شتاته، ونظموا مقالاته، ورتبوا بحوثه، وأصدروها في كتب قيمة، منها: "مقالات في الدرس الفلسفي/ جمعه وأعده وقدم له د.محمد فاضل عباس"، و"قرندل ولائحة حقوق الحمار/ جمعه وراجعه وقدم له د. فيصل غازي مجهول"، و"الثقافة

التي نريد/ جمعه وأعده وقدم له د. محمد فاضل عباس"، فضلاً عما كُتب عنه في الندوات العلمية، وما جُمع من مقالاته، أو مقالات الآخرين عنه، ومنها كتاب "مدني صالح بأقلام منصفيه/ أعده وجمع مقالاته د. وليد عبد الحميد الهيتي، وكتب مقدمته د. ريكان ابراهيم"، الذي صدر بإشراف ودعم د. مصطفى محمد أمين الهيتي، ومما يكتب من استذكارات في المواقع الإلكترونية، ومواقع التواصل الاجتماعي، أو مما يكتب من بحوث في مجلات محكمة رصينة، ومنها هذه الباقة من المقالات والبحوث التي بادرت الى الدعوة لها مشكورة، مجلة الفكر العلمي والثقافة التقدمية "الثقافة الجديدة".

وبسبب من نزعته الانسانية، وتفكيره المنطقي، ومنهجه العلمي، فإن "أخوة مدني" لا هي سقراطية افلاطونية: "إلا في التربية وفي الأخلاق وفي الفن وفي الاقتصاد"، ولا هي أرسطية ولا مع الأرسطيين، إنما هي أخوة سوفسطائية: "ويظل السوفسطائيون أقرب من السقارطة إلى جوهر الدين في النظر إلى طبائع النفس وغريزتها الأولى الآثمة المفطورة على الخطيئة والمعصية". وكم من مقالة دبجها مدني صالح في مناقب السوفسطائيين يعلن فيها بلا ريب، أنه سوفسطائي: "مثل الناس جميعاً ولكنهم لا يشعرون"، "وعندي ألف سبب وسبب مدونة كلها عندي في كتاب وكلها تدعوني – لا من تلقاء نفسي – إلى تفضيل السوفسطائيين على السقارطة أينما كان السقارطة السقارطة وأينما كان السوفسطائيون السوفسطائيون".

ولعل الذي ميّز مدني صالح عن غيره من أساتذة الفلسفة والباحثين في مشكلاتها ومباحثها وقضاياها وأعلامها، لغته المتفردة، وأسلوبه الساخر، ومفرداته التي لم يستخدمها أحد غيره، لا قبله، ولا بعده، وتكاد المقالة المدنية أن تكشف لك عن كاتبها بكل سهولة، ولو وضعتها بين آلاف المقالات التي لا تحمل أسماء كُتابها، فقد طوع اللغة الفلسفية للأدب، وطوع اللغة الأدبية للفلسفة، من دون اقحام، ولا ارهاق للقارئ غير المتخصص. ومن هذه المقالة دخل إلى الصحافة، فكانت مقالاته الفلسفية الأدبية الصحفية مثيرة للقراء بمختلف مستوياتهم، حتى قيل: انه أنزل الفلسفة من برجها العاجي إلى جريدة الجمهورية، مثلما فعل أرسطو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض! أليس هو القائل "لو عدتُ لما بدلت ولما اخترت غير الفلسفة علماً وفناً وأدباً، وحرفةً عملاً، وهواية لعباً ... ولو عدتُ لما بدلت شيئاً في الطريقة وفي الاسلوب وفي المنهج.. ولظلت طريقتي تحليلية تعليلية استنتاجية استخراجية تركيبية.. ولظل المنهج تاريخياً تطورياً.. ولظل الأسلوب أسلوبي سراً وسحراً لا أبوح بشيء من أسراره لا في السر ولا في العلن.."!. وهذه الطريقة، وهذا الاسلوب والمنهج، لم تخل منه حتى بحوثه الفلسفية الرصينة؛ ففيها السر والسحر والجرأة في الخروج عن قواعد كتابة البحوث العلمية التقليدية، وانظر مثلاً كتابه "الغزالي ومناهج الارتقاء.. من افلاطون الى ديكارت"، فإنه يبدأ كتابه بالقول: "تعالوا نلعب ونمرح ونجعل الثقافة لعبة جميلة قبل أن يأكلها الذئب وقبل أن يلقيها أخوة نكتل في الجب ويوسف الحسن محاصر مهجور.. وتعالوا نجعل الثقافة لعبة

جميلة ممتعة ولا نتثقف إلا ونحن باللعبة مبتهجون..''. أو يبدأ مبحثاً من مباحث هذا الكتاب هكذا: ''من هو إذا علمت ان الكروي الذي لونه اصفر وطعمه لذيذ وفي داخله لب وبذور حب وله قشر ويكسر بالسكين ويبدأ بالباء بطيخ لا بغداد ولا بيروت ولا بلبل ولا بطة ولا برميل ولا برلين ولا بقلاوة ولا باب الأغا ولا باب الدروازة ولا باب الطوب ... بل بطيخ؟؟''. أو هكذا ''من هو اذا كان في علمك ان موسى كريدي قد قال عنه في مجلة الف باء عام 1987: ''لو كان أمر المكتبة العربية بيد مدني صالح لجعل لصاحب المنقذ من الضلال زاوية، ولصاحب رسالة الغفران زاويتين، وللمعتزلة ثلاث زوايا، ولحرية الفكر ألف زاوية''؟... وهل يمكن أن تتخيل باحثاً غير مدني صالح يمهد هكذا ليكتب عن الغزالي ومناهج الارتقاء؟! بل انه فعل ذلك في أغلب كتبه الفلسفية والأدبية والنقدية، ابتداءً من كتابه الأول ''الوجود'' الذي صدر قبل 65 عاماً، مروراً بـ ''أشكال وألوان'' و''ابن طفيل.. قضايا ومواقف'' و''التربيع والتدوير: منهج وطريقة وتطبيق'' و''هذا هو السياب'' و''هذا هو البياتي'' و''مقامات مدني صالح''.

مدني صالح المكتفي بنفسه عن الغير، يدرك تماماً أنه يمتلك سراً وسحراً في أسلوبه العجيب، ويعرف حق المعرفة أن لا أحد قبله طوع الفلسفة بمثل ما طوعها للمقال الصحفي الموجز القصير.. وفي تاريخنا الأدبي والفلسفي يمكن أن نجد الكثير من الأمثلة حول الأدب الرمزي الفلسفي والصوفي، والكثير من المحاولات التي حشرت الفلسفة في القالب الأدبي، لتكون قريبة إلى الناس، غير أن ما فعله مدني في فن المقال الصحفي المعاصر يبقى سراً.. وسحراً لا ينافسه فيه أحد.. ويكتفي به عن الغير الإكتفاء كله!

(مات مدني صالح بلا صولجان، او مهرجان، او باقات ورد.. وسيشبع حياة في موته، كما شبع موتا في حياته.. على الرغم من انه لم يكن ممسكا بتلابيب الحياة، بل كان يسبق موتا يعرف أنه في انتظاره، و يستشعره في وجدانه، وكان يوغل في جراحه من دون ان يجرح أحدا فهو في صميم قلبه طالب سلام...)

رباح آل جعفر

مدني صالح.. حكيم عراقي معاصر

د.علي المرهج
استاذ الفلسفة - الجامعة المستنصرية

لا أظن نفسي مبالغاً حينما أقول بأن مدني صالح حكيم من ورثة الحكماء والفلاسفة الذين ستبقى أقوالهم تتداولها الأجيال بوصفها من مأثور القول الفلسفي، فمفردة الحكيم عندي تليق به، لأنها تكتنز في مضمراتها الجمع بين قيم (المعرفة والخير والجمال والعدل)، ولفظة فيلسوف تعني (مُحب الحكمة)، ولا يتم معنى لفظة فيلسوف ولا يكتمل من دون أن يتطابق فكر هذا الفيلسوف مع سلوكه، وفي فكر مدني صالح وحياته تطابق وتماثل يعرفهما من عاش بقربه ونهل من علومه.

نعم، إن الفلسفة نظر وتأمل وتجريد وبناء تصورات ذهنية أو عقلية عن العالم وتحديات الوجود الإنساني فيه، ولكنها تظهر بأبهى صورها حينما ترى تحقق الرؤية النظرية في ممارسات الفيلسوف العملية.

وتلك مزيَة ليست متوفرة في جميع الفلاسفة، ولكنها على ما أعتقد هي سجية وطبع وتطبع وتدريب للنفس والعقل ومن ثم البدن عند الكبير مدني صالح.

جزالة في الأسلوب، وغور في لغة الرمز ببيان لغوي أخاذ يكشف فيه عن عظمة اللغة العربية وسحرها في الانتقال من (المُحكم) إلى (المُتشابه) بتعبير مُستعار من أهل التفسير، ليجعلك تكتشف أن في بيان اللغة وبلاغتها واستعاراتها ما يجعلها تظهر وكأنه فاكهة الحكماء - العلماء بما يليق بوصفها أنها لغة اعجاز، وما يدعونا للوثوق بقولنا هذا ما رواه أهل الحديث "أن العلماء ورثة الأنبياء".

إنه مدني صالح مُعرَف لا يُعرَف، تعرفونه من ترسيم اللفظ في كتاباته، وحُسن سبكه لعباراته، ولك أن تحذف اسمه من جميع مقالاته ومؤلفاته، وسيعرف قارئه أن هذا ما كتبه مدني صالح.

إنه مُتنبي التفلسف والحكمة العراقية المعاصرة على قاعدة:

أنا الذي نظر الأعمى إلى حكمتي
وأسمعت كلماتي من به صممُ

لا يصف نفسه بأنه فيلسوف، ولا يتقبل الوصف، ولكنه نرجسي حد العشق لذاته، لدرايته بما يقرأ ولمن يقرأ، وثقته بما يكتب على أنه قول جديد لا تكرار فيه لمقول سبق، وما يشهد له أصيل كتاباته وفيض حكمه المنثورة بين سطور مؤلفاته.

إنه يُزين الألفاظ ويصيغ منها عُقد لؤلؤ بهي وكأنه الدر المكنون (درر الكلم).

هو حكيم وليس فيلسوفاً، لأن الفيلسوف، الفيلسوف في زمانه ـ كما يعتقد عُملة نادرة، وله قول أثير (أعطني دولاراً أعطيك فيلسوفاً).

من يقرأ له عنوان كتابه "بعد خراب الفلسفة" يظن أنه حكيم متشائم، لكنه ليس كذلك، إنما هو يتحدث عن واقع الفلسفة في بلادنا العربية والإسلامية اليوم، فقولك عن شيء ما لوصفه على أن لونه أبيض وهو كذلك لا يُعدَ لا مدحاً ولا ذماً، كما هو الحال عن قولك بأن الأسود أسود، فهذا تشخيص لواقع الحال وما سيكون عليه المآل، إن بقينا نجتر الفكر ولا نعمل على المشاركة في انتاجه، وغير ذلك سنظل نعيش (بعد خراب الفلسفة) و(ما بعد الطوفان).

مشاهد من حياة مدني صالح

المشهد الأول:

مدني صالح يدرس الابتدائية في هيت مع يوسف نمر ذياب الكاتب والناقد والشاعر والصحفي المعروف، زميل عمره في هيت وكلية الآداب بجامعة بغداد.

المشهد الثاني:

مدني صالح يدرس المتوسطة والثانوية في مركز المدينة (الرمادي) وأحد مُدرسيه هو الشاعر (بدر شاكر السياب) في ثانوية الرمادي للبنين ومعه يوسف نمر ذياب.

المشهد الثالث:

مدني صالح يكتب ديوانه الشعري (بقايا التجربة) متأثراً بالسياب الذي كتب عنه فيما بعد كتابه (هذا هو السياب)، ولكن مدني صالح هجر الشعر منذ ذلك الحين، فسألته أستاذ لماذا تركت الشعر وهجرته وأنت من يمتلك معجمية لغوية خاصة، فأجابني علي: وجدت في شعر السياب والبيات ما يُغنيني عن كتابة الشعر، فأستحي أن أكتب شعراً لا يصل لمستوى شعريتهم!

المشهد الرابع:

مدني صالح يُقبل في كلية الآداب فيختار عن رغبة دراسة الفلسفة.

المشهد الخامس:

مدني صالح ينال درجة (الامتياز) في الفلسفة ويُعضد بحث التخرج ليُطبع في مطابع جامعة بغداد بعنون (بحث في الوجود) وهذه نادرة من نوادر الأكاديميات أن تُبادر جامعة لتعضيد وطبع بحث تخرج لطالب بكالوريوس، فكان كتابه (الوجود بحث في الفلسفة الإسلامية)، (طبع ببغداد عام 1955) بحث التخرج الذي ندم على كتابته بعد أن نمت معارفه وصلب عوده في الدراية بخبايا المعرفة الفلسفية، فوجد قيمة لها خارج اشتغالات الفلاسفة التأمليين والمثاليين، فكشف عن (خراب الفلسفة) لأن أصحابها انشغلوا في الوجود، وتركوا الموجود، وهو انساق معهم في ذات التوجه الميتافيزيق، ولكنه عاد لينشغل في الموجود، ليترك البحث في مسائل الوجود، وبعبارة بارمنيدس التي يستشهد بها أستاذنا كثيراً (الوجود موجود ولا يُمكن أن يكون غير موجود)، لذا فالأحوج للفهم والدفاع هو الموجود وأرقى الموجودات هو الإنسان، لنجد كل كتابات مدني صالح المتأخرة تدور حول محور واحد، أثير عنده ألا وهو الإنسان بوصفه قيمة عُليا.

المشهد السادس:

مدني صالح في كامبردج لدراسة الفلسفة الإسلامية:

ذهب لكامبردج وكان يظن أنه ذاهب لدراسة الفلسفة فأخبرني أنه ذهب بأبهى صورة، فلبس القميص ماركة كذا، والرباط ماركة كذا، والقاط ماركة كذا، والقُندرة كما يرغب بنطقها هكذا، ولا يقول الحذاء ماركة كذا، وهي جميعها ماركات معروفة آنذاك في العراق، على أنها من أفضل الماركات العالمية، ولكنه تبين له بعد مدة قصيرة من زمن الوجود في المملكة أنها ماركات من الدرجة السفلى، إن لم تكن غير معروفة عندنا، ولكننا نتباهى بها في العراق! وتلك صدمة أولى، عرف منها أن ليس كل شائع متداول هو الأفضل!

صدمة أخرى:

دخل أروقة جامعة كامبردج لغرض تسجيل موضوع أطروحته للدكتوراه، فقيل له ينبغي عليك أن تتفق مع مشرف، وأحيل الى قسم في الجامعة للدراسات الشرقية، وهو جاء لبريطانيا لدراسة الفلسفة لأنه قرأ من قبل لكبار فلاسفتها وعلى رأسهم (برتراند رسل)، ولكنه لم يجد لا رسل ولا غيره، فقيل له أن هناك أستاذاً معروفاً في اهتمامه بدراسة علوم أهل الشرق الإسلامي هو المستشرق المعروف (آربري)، فذهب يبحث عنه، فإذا به يجد طابوراً، فقيل له قف بهذا الطابور، فجميع هؤلاء يقفون في الطابور ليقابلوا المستشرق والمحقق ومفسر القرآن الكريم (آرثر جون آربري 1905 - 1969)، وهذه صدمة كبرى بالنسبة له! لأن المعرفة لا تُقدر بالبيتنجان بعبارة عادل إمام، فكيف يمكن لشغوف بالعلم، أن ينتظر بطابور ليلتقي بعالم! فوصل (السره) له، وتمكن من مقابلة (آربري) الذي اعتذر له عن الإشراف على أطروحته، لأنه يروم تعلم اللغة الثالثة عشرة في الجزيرة الفلانية!

الغريب العجيب الذي التفت له مدني صالح أن هذا المركز يمنح دكتوراه فلسفة في العلوم الشرقية لكل من هب ودب، فقد ذكر لي أنه وجد أطباء ومهندسين وغيرهم من موريتانيا والسودان وبعض دول الجزيرة العربية يحمل كل واحد منه (كصكوصة) = (مخطوطة) يروم تحقيقها ليعود لبلده، وهو يحمل دكتوراه فلسفة! وقد أشار لذلك عبدالرحمن بدوي في مذكراته، حينما وجد الكثير من المستشرقين يشرف كل واحد منهم على أكثر من خمسين أطروحة ورسالة باختصاصات متعددة في علوم وأنثربولجيا أهل الشرق، ولا يفقهوا في أغلبها سوى فقههم لابتذال الحال في بحثهم، لا عن اعلم بقدر انشغالهم بكسب المال.

نصح (آربري) أستاذنا مدني صالح بالذهاب لمستشرق معروف هو (دوكلاس دنلوب)، فذهب إليه لبيته، فطرق الباب وبعد انتظار فُتح باب البيت، فإذا برأس كلب ينبح فاستغرب ابن هيت الذي تعود أن الكلب صاحب صاحبه، ولكنه يُربط خارج البيت لا داخله!، وهذه صدمة أخرى!

بعد الكلب تراءى له جسد بشر، ألقى التحية عليه، فتبين له أنه (دوكلاس دنلوب 1888 - 1922) وهو قس أسكتلندي، نُصِب أميناً عاماً في وزارة المعارف المصرية، أيام الوصاية البريطانية على مصر. وبعد

ترحيب من (دنلوب) حدثه مدني صالح عن حاجته، وتحاورا كثيراً فأعجب مدني صالح بدماثة خلق (دنلوب)، ولكنه لم يجد عنده من العلم في علوم أهل الشرق الإسلامي، ما يفوق معرفة أستاذنا!

ولكن (دنلوب) فرح بقدوم مدني، ورحب بالاشراف عليه، وبعد حين تكونت صداقة بينهما.

أخبرني أستاذي الكبير (مدني صالح) أنه حين أراد تسجيل أطروحته للدكتوراه، وهو الذي يُجيد اللغة الإنكليزية بامتياز، فكان يتباهى أنه من العراقيين القلائل الذين يعرفون نُطق كلمة التاريخ بلفظها الإنكليزي (هيستري) وليس (هيستوري)!

عمل أستاذنا بكد وتعب لاختيار موضوع للدراسة الدكتوراه، فأخبرني أنه بعد سنتين من القراءة المستمرة، وجد عنواناً لأطروحته، فذهب لمكتبة (أكسفورد) ليبحث عن مصادر ومراجع لعنوانه، فإذا بموظفي المكتبة يجلبون له (عربانة) مليئة بالكتب عن هذا العنوان! فرجع خائباً، وبعد أكثر من سنتين قراءة، عاد لهذه المكتبة بعنوان جديد، فإذا بموظفي المكتبة يجلبون له (عربانتين)، كتبها أهل الغرب عن هذا العنوان. ولم ييأس فعاد وقرأ وتمعن، فزار مكتبة (كامبردج) و(أكسفورد) فزادوا في (عربات الكتب) حول وفي عنوانه! فتعجب، وأدرك منذ تلك اللحظة أن الإتيان بشيء جديد هو من قبيل المُستحيل، فلم يترك السابقون، للاحقين الشيء الكثير في علوم التاريخ والفلسفة لاكتشافه!

أظن أن هذه الخيبات والقناعة في عدم القدرة على ايجاد جديد في عوالم الفكر الفلسفي هي التي سقلت مدني صالح لتصنع منه مُفكراً مُغايراً، له أسلوبه الخاص ومعالجته المائزة لموضوعات الحياة برؤية فلسفية نابهة، بل وجعلت له معجمية خاصة، وباعتقادي أن كل كاتب يروم وضع بصمة له في عالم الفكر والفلسفة، عليه أن يخلق له لغة خاصة واصطلاحات ومفاهيم، لها طاقة تفسيرية تُسعف اللاحقين له بالاستعانة بها، وتوظيفها على وفق سياقات تاريخية ومعرفية نافعة في الاصلاح والتغيير.

المشهد السابع:

مدني صالح مُغرم بفلسفة ابن طفيل، بل ويعدَه ''أعظم فيلسوف'' ويجد في رسالته (حي بن يقظان) بالإضافة إلى كتاب الفارابي (آراء أهل المدينة الفاضلة) خير خلاصة لكل ما جاءت به الفلسفة الإسلامية، وأبدعه العقل العربي في الفلسفة والإيجاز الثقافي. أو ما أسماه بـ''الاقتصاد الثقافي''.

المشهد الثامن:

مدني صالح من محبي الوردي ويرغب بوصفه تلميذا له، فقد كان لهما حوار ولقاء في أروقة كلية الآداب بجامعة بغداد، وبعد طول تواصل بينهما تبين لمدني صالح أن كثيراً من متبنيات الوردي إنما هي مُتبنيات فكرية له، وإن لم يكن يعرف الوردي من قبل! فكانا يلتقيان فكرياً في الدفاع عن قيمة المعرفة النسبية عند السفسطائية، وما تلاها من المدارس الفلسفية، التي نهلت منها رؤيتها لعلاقة الإنسان بالعالم والمعرفة، ويلتقيان في نقد المنطق الأرسطي الذي لا نحصد من نتيجته جديداً، لأن النتيجة محتواة سلفاً في المقدمة الكبرى، (فلا يُفيدك منطق القياس الأرسطي إلَا أمراً

واحداً هو أن الحال حين يكون في وضع لا يُمكن أن يكون في وضع غيره في الوقت نفسه"، (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص25)، أي كقولك الشيء هو هو، ولا يُمكن أن يكون غيره، وأن القاعد لا يُمكن أن يكون واقفاً في اللحظة نفسها. لذلك نجده يُشارك الوردي في أن المنطق الأرسطي يصلح للاستخدام من أجل تحقيق الغلبة على الخصوم، بقوله "يظل المنطق وسيلتنا إلى التغالب على الخيرات والأطماع بغير الحق وإلى اقناع أنفسنا والآخرين بغير الحقيقة وإلّا لماذا المنطق؟" (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص25).

الفلسفة والمنهج الفلسفي

الفلسفة عنده "مبحث عقلي يعتمد التأمل العقلي وسيلة للبحث عن الحقيقة ضمن حدود العقل ومنطق الأشياء والضوابط المنطقية: مُتوخية الحقيقة بلا خوف إلا من الخطأ بصرف النظر عن كل ما استقر في الرأس من أوهام وبصرف النظر عن كل ما قد استقر في النفس من أهواء". (مدني صالح/ ابن طفيل وقصة حي بن يقظان/ 1988/ ص14). و"الفلسفة الرصينة" عنده ترادف الحرية "ينطلق فيها الفيلسوف من جميع الجهات إلى جميع الجهات"، ترقى بالعلم وبالنقد الثقافي، "الذي لا خير فيه ما لم يكن منهجاً وخطة لتوظيف الفلسفة الرصينة في خدمة الأدب الجميل، ولتوظيف الأدب الجميل في خدمة الفلسفة توظيفاً نُفلسف به الأدب ونؤدب به الفلسفة والأدب" (مدني صالح/ الثقافة التي نُريد/ ص140).

والمنهج الفلسفي عنده يُبنى على الحوار ومقبولية الإنسان للإنسان وإن كان مختلفاً عنه في الملة أو القومية أو العرق.

لا تأسيس لمنهج في التفكير الفلسفي خارج الاندماج والالتصاق بالمنهج العلمي الذي من متطلباته الملاحظة والتجربة والعيش في خضم الصراع الحياتي عبر تبني رؤية نقدية لا وجود فيها ولا قبول بعقل تسليمي، ومن مقتضيات "المنهج النقدي" قُدرتان:

- أولهما القُدرة على الفهم والاستيعاب.
- وثانيهما القُدرة على الانتقاء.

وأفضل طرق النقد هو القدرة على "الجمع بين الاستقراء والاستدلال في طلب المعرفة، متوخياً (الباحث) من طلب المعرفة رأياً، ومن الرأي قُدرة على الارتقاء بالواقع الراهن من عالم المُمكن إلى عالم المبدأ.."، (مدني صالح/ ابن طفيل.. قضايا ومواقف، بغداد/ 1980، ص27).

ولا أرقى درجات في المعرفة من المعرفتين العقلية والحسية التجريبية.

- مدني صالح سفسطائي من جهة شغفه بالفلسفة اليونانية، فهو يرى كما أستاذه علي الوردي أن المعرفة الإنسانية، إنما هي معرفة نسبية، فـ "ما يبدو لي ليس كما يبدو لك، فأنا إنسان وأنت إنسان"، وهذه مقولة (بروتوكوراس) فيلسوف السفسطائية الأشهر، "ومذهب السوفسطائيين "إنساني" "نسبي" "علمي" يُبرر الوسائل بالغايات.

إنساني يتخذ من الإنسان موضوعاً للفلسفة، ويعتمده غاية،... و"عملي" يعتمد النجاح في التطبيق مقياساً لصواب الفكر،... والسفسطائيون "وضعيون" و"عمليون"... "حسّيون تجريبيون"، يرقون في المعرفة من المحسوس إلى المعقول، ويعتقدون بأسبقية الجزئي على الكلي المُطلق المُجرد...، ولا

يعتقدون بوجود حقائق خارج مدركات الإنسان أو سابقة على التجربة أو الحس"، (مدني صالح/ ابن طفيل/ قضايا ومواقف/ ص27).

وهو لا يقصر الفلسفة على الرجال، إنما:

ـ الفلسفة الإسلامية عنده شرح وتفصيل للفلسفة اليونانية، ولكن ابداعها تمثل عنده في كتاب الفارابي (آراء أهل المدينة الفاضلة)، وكتاب ابن طفيل (قصة حي بن يقظان)، ففيهما تلخيص لعشرات إن لم يكن لمئات من كتب الشرح والتعليقات والتلخيصات لآراء الفلاسفة اليونانيين، ففيها "خلاصة تطور الحضارة والثقافة والإنسان" (مدني صالح/ مقامات مدني صالح/ بغداد، 1989/ ص30).

ـ الغرب عنده غربان: (غرب كولنيالي) استعماري، و(غرب ثقافي) معرفي، وهو وجهه الأبهى الذي لم يُصدره لنا.

ـ الاستشراق عنده نوعان: "الاستشراقية الملائية" (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص29) لا يُجيد صاحبها سوى تسويق رؤية أهل الغرب الكولنيالي. و"استشراق أكاديمي ثقافي" أصحابه "مُستشرقون جهابذة وأحسنوا الاستشراق وقدروه حق قدره" (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص33)، وهذا نادر، مثله: ماسنيون في كتاباته عن الحلاج وآسين بلاثيوس عن ابن عربي، ومونت غمري واط، وآربري، وغولد تسيهر عن علم الكلام والفلسفة الإسلامية وغيرهم.

ـ الفلسفة عنده نوعان: نوع يُستعمل للتبرير والتفسير، وآخر للتعقل والتكبر بعد دليل، الأول (ما بعد خراب الفلسفة) والثاني (صواب الفلسفة)، وخراب الفلسفة حينما صار للتاريخ نهاية، وهام كثير من الفلاسفة بـ "حديث النهايات" (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص39)، وخرابها حينما ساد الفقهاء وانحسر الكلام وحورب الفلاسفة، فصرنا نعيش في عصر "ما بعد الطوفان" بعد أن أصبحت ثقافة العرب ثقافة "انغلاقية" هامشية، تقوقعية، ذيلية، عشائرية، عصبية ملائية. (يُنظر/ مدني صالح/ ما بعد الطوفان/ دار الشؤون الثقافية).

ـ علاقة الغرب بالعرب، علاقة سيد بعبد مثلتها قصة الكاتب (دانيال دوفو) "روبسن كروزو"، (مدني صالح/ ما بعد الطوفان) فظهر فيها (فرايدي) أو جمعة، بترجمة عربية مولى (كروزو) راضخاً مُستسلماً لسيده، لا يرى في نفسه خيرا سوى ما أشار له سيده أنه خير. لذا فالعرب لا يصنعون صورة لهم خارج تصور الغرب، الذي صمم ملامحها، وبقوا إلى يومنا هذا! لذلك نجده ينتقد ما أسماه "الغطرسة الأوربية واحساس الأوربي بالتفوق والانفراد والتفرد في مركز القيادة الحضارية"، (مدني صالح/ مقالات في الدرس الفلسفي/ ص17).

ـ الجمال عنده مثل العدل (نسبيان)، يُشارك الأفراد بمقدار في الحكم على هذا الشيء بأنه جميل، وعلى هذا الشخص بأنه عادل؛ "فإنك لا ترى الجمال، إنما ترى الأشياء الجميلة، وأنك لا ترى العدل، بل ترى العادلين"، (مدني صالح/ مقالات في الدرس الفلسفي/ ص54).

ـ في التربية له آراء وآراء، فهو يدعو للتربية على وفق مناهج العلم والافادة من علوم الطبيعة لدرء المفاسد والشرور في

الطبيعة والأخلاق. ولا تقدم في التربية بلا تطور في المعرفة. ولا تطور في التربية بلا خبرة تاريخية، وأخذ العبر من التاريخ؛ فالتربية أداة التاريخ ومادته، والتربية وسيلة التاريخ في المحافظة على البقاء، كما التاريخ وسيلة التربية في المحافظة على البقاء: "لا يُفنى التاريخ إلَا بفناء التربية، ولا تُفنى التربية إلَا بفناء التاريخ" (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص45 - 47).

- في التصوف يهيم شغفاً بنزعة الأنسنة فيه وربطها بالفلسفة الوجودية، فهو يعشق الجُنيد والبسطامي والحلاج وابن عربي، كما يعشق سورين غيركيجارد أو جبريل مارسيل، وإن بدا أقرب لسارتر وبرناردشو، وانحاز لفلسفتهما والعودة بهما لمكامن التوق للأنسنة؛ فـ "الوجودية فلسفة وجدانية أدبية، والتصوف أدب رمزي مُفلسف.. وأعلى مراحل التطور الثقافي في الوجودية، وفي التصوف أن تكون النفس كبيرة، وأن يكون الفن كبيراً، وأن يكون الرُقي الذي في النفس من الرُقي الذي في الفن، وأن يكون الرُقي الذي في الفن من الرُقي الذي في النفس.. والتصوف وجودية حرفاً وعبارةً ومنىً وحقيقةً واقعيةً ومجازاً بلاغياً، ذلك أن المتصوف يهرع من الموجود إلى الوجود، ومن المجتمع إلى الفرد، ومن الفرد إلى الذات"، (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص355 - 258).

- يميل لتوثيق صلة الفلسفة بالعلم، وأن ندخلها من بابه لا من باب الأسطورة أو الفقه، والدعوة "إلى اعتبار بداية الفلسفة بداية علمية صرفة،... وتحويل بداية الفلسفة من مجال الدرس الفلسفي إلى مجال الدرس العلمي"، (مدني صالح/ مقالات في الدرس الفلسفي/ ص21).

- الدرس الفلسفي عنده نوعان: درس في التاريخ، ودرس من التاريخ، الأول فيه تلقين وتلقي وحفظ وترديد لأقوال سبقت، وفي الثاني يكون التاريخ (مُفكراً فيه) بوصفه أحداثا نستلهم منها العبر والحلول بعد نقد وتمحيص، لا قبول واتباع.

- براغماتي النزعة من جهة تفضيله مصلحة الإنسان بمفهومه الكلي على الخوض في غمار البحث الميتافيزقي (الثيولوجي) الذي لا نصل منه لنتيجة تخدمنا في تحقيق إنجاز علمي وثقافي مهم، لذا نجده ناقما على كل ما كتبه من أبحاث ومقالات في الميتافيزيقيا ونظريات الوجود، لأنه يحسبها نوعاً من أنواع اللغو والكلام الذي لا معنى له بعبارة الفلاسفة الوضعيين المناطقة، "وذلك هو الفرق بين العلم الذي يقف عند صحة التصميم وبين الثيولوجي واللاهوتي الذي ينشغل عن صحة التصميم بسلامة المُعتقد وثبات الإيمان بوجود المُصمم واثبات صفاته"، (مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص33).

- لأنه ينتصر للفقراء والمستضعفين نجد الماركسية حاضرة في آرائه ومقاصده ومراميه، فهو دائم التمييز بين نوعين من البشر (القاروني = الشايلوكي = المُحتكر= الروبنسن كروزوي) وبين (قرندل = صابر = المكاريد = فرايدي).

- حاول أن يفك الالتباس في استخدامنا لمفاهيم في فلسفة التاريخ، أهمها: الثقافة والحضارة والمدنية، فـ (الثقافة حيازة ابداعية وأنها العلم والأدب والفن، والفن الأدب، ولا يجوز عليها الاحتكار، لأنها

أسلوب وتمنيات وأخيلة وتصورات وتصميم وابداع، والثقافة لا تسقط كما تسقط الامبراطوريات، والثقافة لا تكسد كما كسدت المتاجرة بالرماح والسيوف، فالثقافة خالدة لا تفنى.

أما الحضارة فهي عنده حيازة تنظيمية وأنها السياسة والتشريع والأخلاق، وهي أسلوب تعامل وطراز سلوك وإدارة وقانون وتنظيم.

بينما يصف المدنية بأنها حيازة سلعية ملكية مادية، وأنها الزراعة والصناعة والعمارة والتعدين والتدجين، وهي أسلوب بناء وتشييد وانتاج سلعي وتسويق وتجارة وعرض وطلب وبيع وشراء وخزن واحتكار واغلاء للأثمان) (يُنظر/ مدني صالح/ بعد خراب الفلسفة/ ص15 - 17).

هاكم حكماً من مأثور الحكيم مدني صالح

من هو الفيلسوف؟

سأل سائلٌ فيثاغوراس: ما صنعتك؟ قال الفلسفة وإني فيلسوف...فقال السائل: وما هذا؟ فأجاب فيثاغوراس: إنه ''حب الحكمة'' وإني مُحب للحكمة... فقال السائل: وهل من أحد لا يُحب الحكمة؟ فقال فيثاغوراس: أجل خلقٌ كثير يُتاجرون بها ويتكسبون ويُحبون منها الفوائد والعائدات... لكن الفيلسوف يُحب الحكمة حُباً ''أولمبياً'' بريئاً من التطلع إلى النفع الذي ينشده اللاعبون والمراهنون أولئك الذين يحضرون لأغراض التجارة.

ملاحظة: أولمبي، نسبة لآلهة (جبل أولمبيوس) هو أعلى جبل في اليونان، نُسبت إليه أغلب آلهة الحب والحكمة والحرب والزراعة والنار... في اليونان.

مدني صالح: مقالات في الدرس الفلسفي، ص66.

نقد مفهوم الوسط الذهبي الأرسطي

عرف أرسطو الفضيلة على أنها طرف بين رذيلتين، كلاهما افراط وتفريط، فالشجاعة فضيلة بين رذيلة التهور ورذيلة الجُبن.

أما مدني صالح فيرى أن الكرم لا يكون كرماً إلَا على أنه كرم وإن الشجاعة لا تكون شجاعة إلَا على أنها شجاعة، لا على أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن، ولا على أن الكرم وسط بين الإسراف والبُخل، كما يذهب إلى ذلك أرسطو في ''وسطه الذهبي''، لذلك يذهب مدني صالح إلى القول بأن التطرف سيد المواقف في الأخلاق: هذا التطرف سيد المواقف كلها في الصدق وأن تصدق الصدق كله، وفي الوفاء أن تفي الوفاء كله، وفي الاخلاص أن تخلص الاخلاص كله، وفي الحب أن تحب الحب كله.

مدني صالح: مقالات في الدرس الفلسفي، ص150.

الاغتراب

''لا يُهلك الثقافة في المدينة إلا ''غلو'' و''مُغالاة'' المُغتربين، الذين هُم ''باي باي الثقافة'' لا يصير الفارابي كبيراً في عيونهم إلَا إذا صار ''فاربير'' على نحو يُقربه بعض الشيء من ''شكسبير'' وبعض الشيء من ''فلوبير''.

...

ومن يغترب يحسب العدو صديقاً... ولا يحسب الثقافة إلَا نوعاً من الكلام يبدأ

بما لا يُمتع وينتهي بما لا ينفع، أو يبدأ بما لا ينفع وينتهي بما لا يُمتع".

يُنظر: مدني صالح: مقامة الذين يغتربون ويُغالون، (مقامات مدني صالح، ص50 - 54).

الذين لا مناجل لهم ولا هُم يحصدون، وهؤلاء أنواع:

- نوع منهم الذين يحرقون البيادر يتسللون إليها ويشبون النار فيها في غفلة الناطور.

- ونوع منهم يجيئون، ولا تدري من أين يجيئون ساعة القسمة، فينهبون علناً، ويحملون علانية، ويُغادرون جهاراً نهاراً، ولا يجرؤ أحد من عباد الرحمن أن يقول لأحدهم أن فوق العين حاجباً على الجبين.

- وآخرون مرابون، يأتونك من الشرق ومن الغرب.. ومن الشمال ومن الجنوب.. من فوق ومن تحت، ومن كل الجهات! لا تدري من أين يجيئون!!! تنشق الأرض عنهم في كل شبر فيخرجون من شقوقها.. ويتهاطلون عليك من كل جهات الفضاء انهماراً يُذكرك بالطير الأبابيل وبحجارة السجيل.. وينتشرون بين البيادر حاملين دفاتر الديَن...

إنهم الذين لا مناجل لهم ولا هُم يحصدون: إنهم الذين يبيعون الفلوس فتشتريها منهم ويُسجلون الفلس درهماً والدرهم ديناراً...، وتظل لفلوسهم حصة في كُل بيادر الحقول.

يُنظر: مدني صالح: مقامة الذين لا مناجل لهم ولا هُم يحصدون، مقامات مدني صالح، ص86- 88.

احذر الحمل إذا جاع..

لا تحذر الذئب إذا شبع..

والتدجين لا يكون إلَا بحُسن المعاملة والمُداراة وبالإحسان..

تلك هي بداية فلسفة التربية والتدجين في النبات وفي الحيوان، وفي الإنسان داخل تاريخ الهجرة من آبار البرية إلى أحواض الأنهار:

واحذر الحمل إذا جاع..

لا تحذر الذئب إذا شبع.. والأخلاق تربية، والتربية تدجين، والتدجين استعباد، والاستعباد لا يكون إلَا بالاحسان.

يُنظر: مدني صالح: قرندل ولائحة حقوق الحمار، جمعه: د. فيصل غازي مجهول، ص125 - 126.

- "متدافعون يتدافعون ويبيعون أثينا العزيزة للغرباء... وأحزاب لا تتسابق إلَا بخدمة الغرباء وبفتح أثينا = (بغداد) المجيدة للاجئين...

ولا تذكر اسم الحُرية.. لا تذكره.. لا تذكر هذه الكلمة، فإني أخاف منها على كل العشاق المعاميد.. وأخاف على بيتهوفن من طبَال في السيركوس، كُلما ألهانا التخدير بالحُرية عن سيادة العمل والجمال بقانون لا حُرية فيه".

مدني صالح: الثقافة التي نُريد، ص54.

والناس في الملاعب (الحياة) عند مدني صالح أصناف:

"ناجحون يُجيدون اللعبة ويحترمون قوانين اللعب.

وسعداء يحترمون قوانين اللعب ولا يُجيدون اللعبة ولا يلعبون.

وخائبون لا يُجيدون اللعبة ولا يلعبون ولا يحترمون قوانين اللعب.

وآخرون لا يُجيدون اللعبة ولا يحترمون قوانينها ويُصرون على اللعب.

وآخرون يُجيدون اللعبة ويحترمون قوانينها ولا يلعبون.

إنهم الفلاسفة الحُكماء العلماء، الذين لا يسألون الدهر أجراً إلَا المودة في سعادة الناس في الملاعب باحترام قوانين اللعب..

إنهم الذين يبتكرون ويخترعون ويكتشون ولا يحضرون عند المغنم في قسمة، لا في زرع ولا في ضرع، ولا في صناعة ولا في تجارة، ولا يُحبون الفلوس"، (مدني صالح/ مقامات مدني صالح/ ص35).

"إنهم الذين لا كعاب لهم

وأنهم الذين لا تدري من أين يجيء بهم الدهر جراداً كارثة وباء، ينهبون ويُخربون ولا يلعبون..

ولا يُحسنون من فنون اللعب فناً إذا دعوتهم إلى مباهجه.. إنهم الذين لا يلعبون ولا يفرحون ولا يبتهجون..

إنهم الذين لا كعاب لهم

وإنهم الذين يسوؤهم أن يكون للآخرين كعاب ويسوؤهم أن يكون للآخرين لعب ونظام وقانون وخطة في الملاعب بين اللاعبين..

إنهم الذين لا يلعبون ويسوؤهم أن يلعب الآخرون..

إنهم الذين لا يفرحون ويسوؤهم أن يفرح الآخرون..

إنهم الذين لا كعاب لهم

إنهم الذين ينهبون الكعاب ويُخربون الخطة ويُخيفون اللاعبين"، (مقامات مدني صالح/ ص85).

(لذلك، كانت حياة مدني صالح نضالا في وجه الظلم والتعالي والافساد، في وجه الظالمين والمتعالين على المجتمع والمفسدين فيه. وفي كل ذلك ظهر مدني صالح كأنه سقراط بغداد المكافح من أجل حرية الحياة وحرية التفكير بل وحرية العيش الامن والمسالم، والاهم من ذلك دفاعه الاصيل عن الحقيقة ضد مزيفيها ومنتحليها والمتاجرين بها)

د.رسول محمد رسول

فيلسوف كشف الخراب الفكري

د. افراح لطفي عبد الله
استاذ الفلسفة في كلية الآداب/ جامعة بغداد

يحسب لمدني صالح ابتكار مجس لتأشير الخراب على الصُعد الأكاديمية والفلسفية، ولو تصفحنا كتابه بعد خراب الفلسفة سنستنتج في ثنايا الكلام صورتين لهذا المجس: الاولى حدسية ذاتية لكشف الخراب في المؤسسات الأكاديمية. والثانية علمية لكشف خراب الفلسفة، ويمكن توضيح هذين المجسين في النقاط التالية:

1 - المجس الحدسي الذاتي

حاز مدني صالح هذا المجس بعمر مبكر وهو يتنقل في المواقع والمؤسسات الأكاديمية، فطبيعة فكره النقدية المبكرة، ورؤيته العميقة للأمور، وتمرده على المألوف، واسلوبه الساخر، كانت عوامل كافية لأن يتشكل لديه مجس حدسي لتعرية طرق الدراسة والتدريس في الثانوية والجامعة.

ومجسّه هذا قد أشر الخراب ابتداء في الثانوية، حيث هدر الطاقة والجهد بالتكرار، الذي يبرهن دائما على المطلوب إثباته، وشرح ما هو مشروح، وهو ما رآه واضحا في درس الرياضيات والهندسة حيث يقول: إن "البرهنة على تطابق المتطابقات وعلى توازي المتوازيات وعلى تساوي المتساويات كميات وكيفيات وأشكالا وكتلا وحجوما، برهنة نافلة من النوافل التي إذا لم تكن ضارة من جهة الهدر من الطاقة التربوية فإنها من العبث المتسكع والتسكع العابث: لا من الفعل المنتج ولا من اللعب المبهج من جهة إن البرهنة قد اجريت على صحة تطابق المتطابقات وتوازي المتوازيات وتساوي المتساويات مليارات المرات ولا تزال البرهنة مستمرة جارية ولم يتبين إلا صحة المطلوب اثباته صحيحا بعد البرهان كما هو قبله.. ولا يبدو أن برهانا من البراهين سيجيئ في أي من الأزمنة بما لا يطابق المطلوب إثباته ويساويه ويصدقه ويؤيده ويوازيه"[1].

وقد نما هذا المجس عندما ارتاد مدني صالح الجامعة، حيث اكتشف بأن أس الخراب الفكري الحقيقي تقوم به الجامعات وليس الثانويات، لأن التدريس في الأولى يعدم بشكل نهائي الذاكرة العلمية والأدبية التي بنيت في الثانوية، فبتجربته الشخصية رأى صالح أن سبل التواصل المعرفي اصبحت مغلقة في الجامعة، بعد أن كانت مفتوحة في الثانوية، ولهذا رأى بأن حلمه بطلب الثقافة الفلسفية كجاه وزينة وألق، ذهب أدراج الرياح، وحل محله الضرر، ووصف الإستمرار في هذا الضرر بالتجاهل والجهل، إذ يقول: "وأكتم حتى عن نفسي إني متضرر وأتجاهل وتجاهلت حتى جهلت وارتحت بجهلي بأن الجامعة

قد آنستني الكيمياء والفيزياء والجبر والهندسة مستوية ومجسمة وحساب المثلثات والبايولوجي نباتا وحيوانا، والنحو والصرف والبلاغة، والجغرافية والتاريخ والبيان والمعاني والبديع، وخلاصة ثقافة الإنسان منذ البداية حتى دخولي جامعة بغداد متضررا بالدرس الفلسفي على الطريقة الإستشراقية الملائية"[2]. والأخيرة كانت هي الخراب الأكبر، فالضرر آتٍ من الملائيين والإستشراقيين الذين جعلوا الفلسفة تنسي ما تعلمه الطالب من علوم في الثانوية.

ولعل مواصلة الدرس الفلسفي بعد هذا الضرر، لا تكون إلا بالمكابرة، وهو ما فعله صالح لكنه اكتشف بهذه المواصلة الفظائع التي تعزز خراب الفلسفة؛ فمثلا بعد تأليفه كتابه "الوجود"، توصل إلى حقيقة تقول إن "الفلسفة من عالم التقليل والتدليل، ومن عالم النحل والعسل والزهور، لا من عالم الكثرة والوفرة والروبة والجاموس والشعير"[3]... فبالإمكان كتابة مجلدات بشرح المشروح وتوضيح الواضح وتفسير المفسر، لكن هذا اساس خراب الفلسفة، لأن الفلسفة هي من التقليل. هذا فضلا عن إنه قد تبرأ من كتابه هذا، بل ومن كل ما كتب قبل تاريخ 22 /4 /1995 وتمنى لو "إن كتابه الوجود كان في منافع الثوم وفوائد البصل لانتفع به الناس اكثر من انتفاعهم بالوجود"[4].

ويكمن أس الخراب الفلسفي في المؤسسات الأكاديمية في ايصال المعلومة الفلسفية للطلاب وخراب تلقيها من الطلبة. يقول "إن الاساتذة كانوا يحومون في الدرس الفلسفي حول اشياء تشبه الذي كانوا قد سمعوه أو كانوا قرأوه لكنها لا تطابقه ولا تساويه.. إنهم إذن يقرأون اشياء ويفهمون اشياء لا تمت إلى حقبتها بصلة، ويقولون في الدرس شيئا آخر، لا يفهم منه الطلبة إلا شيئا يخالفها حتى إذا ما جاء الامتحان اعادوها إلى الاساتذة في الجواب، بصيغة لا تشبه الأصل ولا تناسب الاسئلة التي لا تناسب شيئا من الدرس، الذي لا يناسب شيئا من الفلسفة في أي من ادوارها في تاريخ الفلسفة الصحيح"[5]، الأمر الذي أكد له بأنه متضرر اشد الضرر.

هذا فضلا عن أن الدرس الفلسفي في الجامعات العربية ومنها جامعة بغداد كان استشراقا، وهذا جعله ينحت مفردة المتورط كدرجة اعلى ضررا من مفردة المتضرر، يقول "انتقلت من دور المتضرر بالفلسفة إلى دور المتورط بها بين المستشرقين، الذي رأيت فيه: إن المستعربين من المستشرقين رأس خراب الفلسفة بين العرب، ورأيت فيه اهوالا أهونها هو أن جميع الراشدين والراشدات كذلك من سكان هذا الكون اصح علما في الكيمياء والفيزياء والبايولوجي وفي الرياضيات وفي السايكولوجي وفي جميع فروع المعرفة إلا الفلسفة من ارسطو ومن افلاطون، وأعم نعمة من هارون الرشيد وشارلمان..."[6].

ولهذا قدم خطة إصلاحية للخراب، تكمن في أن "الفلسفة لا تزدهر بالنفايات بعد خرابها، ولطالب فلسفة واحد قادر عليها، راغب فيها، خير من سكان الارض كلها، وكلهم يساقون إلى الفلسفة، وهم لا قدرة لهم عليها، ولا رغبة لهم فيها، ولكنه مرغم لا فيلسوف"[7]... وإن الفلسفة من عالم التقليل والتدليل وليس التكبير والتكثير والهدر.. فعلينا أن لا ننشغل بما يعتبر هدرا

للجهد ولا هدرا للطاقة التربوية، لأن الواقع يتناسب مع الفعل المنتج، واللعب المبهج، الذي يدخر جهدا لما هو مفيد ونافع ويحقق التقدم والحضارة والمدنية، والذي لا يطبخ الحصى ولا يعلك الماء ولا يصب الماء في الغرابيل، ولا يصيح ويصرخ في فضاء لا هواء فيه، ولا يكرر الأقوال والقضايا لاثبات النتيجة نفسها.

تشخيص الخراب من صلب الفلسفة

في رحلته مع دراسة الفلسفة وتدريسها، دخل مدني صالح إلى عمق الفلسفة وهو يحمل مقولة تقول إن ما يحكم العالم وكل ما فيه هو القارون، وقاس على هذه المقولة الكثير من الموضوعات الفلسفية، ليعلن خرابها بعد أن بين افلاسها امام قوة القارون. ومن اهم هذه الموضوعات المنطق والتاريخ.

فالمنطق الذي أبهر الجميع واعجب به الكثير يحوي الخراب وهذا يتضح من أمرين، الأول، لا يزيد دارسه علما بشيء من حقائق الاشياء ولا يقينا بصحتها كما لا يزيده علما بخطأه بل ولا يصحح له خطأ.. وإلا لصحح لارسطو كيمياءه قبل لافوازيه وفيزياءه قبل غاليلو وكوبرنيكوس وديكارت وفسلجته قبل هارفي"[8]، فضلا عما يسمى بمبادئ المنطق فما هي إلا احوال علمية طبيعية رياضية محتومة يدعيها المنطق انتحالا وينتحلها ادعاء، أي هي ليست منطقية بل حقائق رياضية طبيعية محتومة بطبيعة الرياضيات وبرياضيات الطبيعة التي توخاها عظماء الطريقة والمنهج، الذين منهم ارسطو وافلاطون وديكارت وكانت ورسل"[9].

الثاني، غفل هذا المنطق عما يحكم الواقع من منطق، ويقصد المنطق الذي يقوي الحجة وينتصر على الخصوم، وهو منطق الغنى، فهكذا منطق ينصر حجتك، إذا كنت غنيا قويا غالبا قاهرا سعيدا، ولا يقوي حجتك ولا ينصرك إذا كنت فقيرا ضعيفا مغلوبا مقهورا شقيا، ولا يسعدك ولا يقويك.. بل ولا يصححك إذا اخطأت ولا يدلك على الصواب.. وإلا لأنجزنا بالمنطق ما عجزنا عنه بقوى التاريخ، ولأصبح التاريخ تاريخ سعادة وسعداء بالمنطق والقياس"[10]. فالمنطق لا يزيدك علما بشيء من حقائق الاشياء ولا يقينا بصحتها، كما لا يزيدك علما بخطاك بل ولا يصحح لك خطأ.

فالمنطق الحقيقي وفقا لقاعدة مدني صالح هو منطق القارون، وهو منطق واقعي يحكم العالم ويسوده، وهكذا منطق هو "وسيلتنا إلى التغالب على الخيرات والأطماع بغير الحق وإلى اقناع انفسنا والآخرين بغير الحقيقة، وإلا فلماذا المنطق" [11].

ومن جهة أخرى، يتكشف ضعف المنطق وعدم فائدته إذا قارناه بسلوك البحث العلمي، فبدءا العلم لا يحتاج إلى المنطق للبرهنة على صحته كون بحثه يتجسد بتصحيح الأخطاء، ولو كان المنطق يصحح العلم لصار تاريخ العلم تاريخ تقديس حقائق ولما كان نقدا ولا تطورا، ولا تقدما ولا ارتقاء ولا تصحيح أخطاء. وعليه سيكون المنطق وسيلتنا إلى الانغلاق والتعصب وتقديس الحقائق، لا إلى الاختراع والاكتشاف والتكيف والتطور والتشكيل على غرار تصميم والتصميم، على غرار مثال هو النسبة الثابتة التي تدركها الطبيعة في افعالها بحكم قواعد وقوانين سلوكها ولا يدركها الانسان لا بمنطق، ولا

قياس ولا بأي من القوانين الوضعية، وإلا فلا يوجد الكائن الحي من اصغر اميبا إلى اكبر ديناصور، إلا وهو كائن يحب الحياة والطعام ويحافظ على البقاء والغذاء ويقاوم الفناء" [12].

هذا في المنطق. أما في التاريخ فلم يلتفت الفلاسفة إلى خرابه، بل الى حقيقته، أفليس التغالب للحصول على رضى القارون يمثل خرابا؟ ألم يكن هذا مبيتا في نية هيجل؟

نعم طبعا، فلقد كان هيجل "غافلا مغاليا وعصبيا منغلقا: يدعي النظر في الفلسفة، ولا ينظر إلى المستقبل، ولا يستشف ولا يستشرف ولو أنه نظر إلى المستقبل لاستشف ولاستشرف ورأى افاعيل هتلر، ومن هم أشد هولا من هتلر، وكلهم غربيون اوربيون، مثلما هو غربي اوربي، واغنياء اقوياء غالبون مثلما هو غني قوي غالب، ويأكلون من مال الشرقي مثلما يأكل .." [13] فهيجل "معقد متحذلق وارهابي متدافع، يدعي النظر في التاريخ، ولا ينظر إلى الماضي ولا يتعظ ولا يتدبر.."[14]، والدليل إن رؤية هيجل الغافل لكون التاريخ يبدأ من الشرق ماديا نحو غرب ينتهي إليه التاريخ روحيا ومعنويا.. يكون بلا شك أنه أي – هيجل قد تقاضى الأجر كسبا حراما عليه من مال أو من جاه أو منهما معا-"[15]. "فلا يعلن نهاية للتاريخ واضمحلال الايديولوجيات إلا غني قوي غالب قاهر منتصر منتفع من هذا الاعلان عند اعلى مرحلة من تفوق لا يقدر أن يتخطاه إلى ما هو ارقى منه، ويخاف أن يتخطاه المنافسون كما يخاف على تفوقه من الزوال"[16].. فالقارون يظل هو المصمم "لحوادث التاريخ الكبرى، ومنها دعوى نهاية التاريخ وبلوغه الغاية المثلى وتلاشي الايديولوجيات في ايديولوجية الأغنى الأقوى الأغلب الأقهر ويروج له الغافلون خطأ وخطيئة"[17]. وما هيجل إلا من الغافلين.

وعليه فعند تعاملنا مع التاريخ، سيكون لزاما علينا بلغة مدني صالح أن ندجنه فنروضه ونركبه إلى مقاصدنا واحلامنا الاسطورية وتمنياتنا، وإلا استعبدنا وركبنا إلى مقاصده الفلسفية المنطقية اللاهوتية التجارية الحربية الاحتكارية، وكسر ظهرنا، وهذا يجسده التاريخ السقراطي الافلاطوني الارسطي الديكارتي الهيجلي، الذي يركبه القوارنة إلى مقاصدهم، محمولا على ظهور الادباء والعلماء والساسة والاخلاقيين والمشرعين.

ومن المهم أيضا النظر إلى التاريخ على أنه لا نهاية له، فلا نهايته تتضح إذا نظرنا إليه من جهة الغزو والفتح وتوالي الحملات، ومن جهة قوى الانتاج.. فضلا عن إن رد فعل الانسان دائم التطور ازاء طبيعة دائمة التطور في تاريخ دائم التطور والحركة من جميع الجهات إلى جميع الجهات بلا انفكاك"[18]، فالتاريخ بنظر مدني "كروي لا نهاية ولا بداية لابعاده وتصح كل نقطة فيه أن تكون ماضيا لحاضر، وحاضرا لماضي، تاريخيا من جهة التاريخ الارادي، كما تصح كل نقطة فيه أن تكون شرقا لغرب، وغربا لشرق، وجنوبا لشمال، وشمالا لجنوب. فلكيا جغرافيا من جهة التاريخ الطبيعي، وتصح كل ذرة فيه أن تكون مركزا تكوينيا له، كما تصح كل نقطة فيه ان تكون مركزا كونيا له، وكما تصح كل لحظة فيه أن تكون بداية يبدأ منها التاريخ كل لحظة لا نهائية ولا انتهاء.. وإن

الكون كله بجميع ذراته ولحظات زمانه، يتعاون متطاوعا، ويتطاوع متعاونا على التخصص والنظام والارتقاء بالاختراع وبالاكتشاف من حسن إلى احسن، لا من شرق إلى غرب، ولا من غرب الى شرق، ولا من جنوب الى شمال، ولا من شمال الى جنوب، وإن كل استشراق بالفعل ينطوي على استغراب بالقوة، وإن كل استغراب بالفعل ينطوي على استشراق بالقوة.. فلا تمر لحظة من الزمان إلا والتاريخ كله وبكل قواه يستشرق ويستغرب من اللامتناهي إلى اللامتناهي من جميع الجهات إلى جميع الجهات، في كون كروي لا بداية ولا نهاية له"[19] ولذا عاتب مدني صالح من يجيئون إلى "فلسفة هيجل كما يجيئون إلى الموناليزا بالانبهار وبفروض الرهبة والانخذال والتقديس"[20]، لقد خبص هيجل الدنيا "بقوانين المنطق التي لا تحكم أمرا غير امرها، وبينما قوانين الرياضيات تحكم الطبيعة وقوانينها، كما إن قوانين الطبيعة تحكم الرياضيات وقوانينها"[21].

وكما رأينا فإن نقد مدني للفلسفة وموضوعاتها وبعض فلاسفتها مبني على رؤيته بانه لا غالب إلا القارون؛ فالقارون هو الافعل في الحوادث الكبرى من الاسكندر ونابليون وارسطو وفرعون وهيجل وهتلر وخوفو وخفرع.. فنسبة الغطرسة الهتلرية النازية الجرمانية الحربية إلى الغطرسة الفلسفية الهيجلية إلا نسبة تخدم القارون الجرماني الذي يتستر وراء الغطرسة الهتلرية العسكرية الجرمانية بفعل الهيجلية الفلسفية الجرمانية. والسبب هو ان ارادة القارون اقوى في التوجيه وافعل في الحوادث من فلسفة هيجل وعسكرة هتلر، ومثال على ذلك تكون المطالبة "بحصة المانيا في الاسواق السايكسبيكوية حتما محتوما على الحكومة الالمانية، قبيل اندلاع الحرب العلمية الثانية، حتى لو كان على رأسها يسوع لا هتلر.. وحتى لو كان هتلر معجبا ببوذا لا بفردريك هيجل.. فقد كان القارون لا الفلاسفة في رؤوس تشرشل وروزفلت وستالين وهتلر، كما كان في رأس ارسطو والاسكندر في كل رأس"[22].

وكانت قد تعاظمت هذه القوى الغالبة القاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين، متمثلة بصندوق النقد الدولي وهيئة الامم المتحدة واتحادات المصارف وايديولوجيي نهاية التاريخ.. الخ، حيث احلت "شعار وشعائر يا تجار العالم اتحدوا، محل شعار وشعائر يا عمال العالم اتحدوا، بعد أن اسقطته وجعلت التنظيم العمالي، واتحاد العمال خبرا من اخبار الغابرين"[23].

2 - المجس العلمي: خراب الفلسفة

خلاصة المجس العلمي لمدني صالح، تظهر عندما يقيس كلا العلم والفلسفة على مقولة: "التشكيل يتم على غرار تصميم" المقولة التي يعيها العلم ولا تعيها الفلسفة بشكل صحيح.

لأن التصميم عند العلماء قائم على الرأي، النظرية، القاعدة، القانون، الإدارة، النظام، ولذلك يقفون عند صحة التصميم. بعكس الفلاسفة الذين ينشغلون عن صحة التصميم بسلامة المعتقد وثبات الايمان بوجود المصمم والانشغال بصفاته.

فكل ما كان بعد أن لم يكن هو تشكيل على غرار تصميم وعضو وسيلة للقيام بوظيفة، سدا لحاجة، وحلا لمشكلة لأن التصميم

قاعدة نظام وخطة وقانون والتشكيل سلوك، وهذا يستوفيه العلم وليس الفلسفة.

فالفلسفة رغم كونها بدأت "علما طبيعيا كيميائيا فيزيائيا بايولوجيا، كيميائيا في البحث عن مبادئ التكوين وفي البحث عن مبادئ التصميم التكويني، وفيزيائيا في البحث عن مبادئ الحركة وفي البحث عن مبادئ التصميم الحركي، وبايولوجيا في البحث عن مبادئ الحياة وفي البحث عن مبادئ التصميم الحياتي.. ورغم إنها قد بدأت علما طبيعيا استقرائيا تحليليا تعليليا بحثا عن مبادئ التصميم الذي تجري على غراره تشكيلات التكوين والحركة والحياة والصيرورة والتغير والتبدل والانحلال الدائمة المستمرة بلا انفكاك"[24]، أي رغم كون الفلسفة كانت قديما عامرة إلا إنها قد خربت بعد أن دلنا العلم على الصواب، ما أدى بها إلى أن تكون حبيسة مشاكلها التي تختلف بها عن العلم، ونلحظ هذا في بحثها في "مشكلة وحدة الوجود، مثلا، حيث نجده بحثا فيما هو ليس من طبيعة الحس والاحساس والخيال والتخيل والتصورات والتصور، وبالمقابل فإن الذهن والاحساس والحس والخيال والتخيل والتصورات والتصور ينصرف إلى أن العلم واحد بناءً على وحدة الذرة.. ونلحظه أيضا في بحثها، في وحدة اللامتناهي في العظم؛ إذ نجد إنه ليس من طبيعة الانسان أن يتصوره ذهنا وحسا، بل من طبيعة الانسان تصور وحدة العلم بناء على وحدة التناهي في الصغر.."[25].

"وهكذا انكشف ضعف الفلسفة في تقديم المفيد مقابل العلم، وبدلا من أن تستدرك الفلسفة ذلك راحت تتكاثر عددا في الدارسين والتدريسيين والتكرار والشروح والمجلدات والتأليفات فكان الخراب والطوفان. فالفلسفة لم تعد تستأهل من الدرس الرياضي وأساتذة الرياضيات في القرن العشرين بعد الميلاد شيئا من الذي كانت تستأهله من الرياضيين الذين منهم اقليدس وفيثاغورس وأفلاطون عند الاغريق قبل الميلاد"[26].. لأن الفلسفة إذا كانت عامرة قبل الميلاد، فإنها قد خربت بعد الميلاد، خصوصا مع القرون الاخيرة: قرن تطور العلم.

وإنها - أي الفلسفة - واحدة في جميع مباحثها في الوجود، الكون، اللامتناهي في العظم.. إلخ، لكنها غافلة عن شروط وحدتها فهي جميعا إنسانية، علمية، نسبية، تطورية، دارونية، تقبل من ديكارت الفصل بين مناهج الفلسفة ومناهج اللاهوت، وتقبل من بيكن الفصل بين مناهج الفلسفة ومناهج العلم... وتقبل وتقبل.. إلخ.

وكان الأولى بالفلسفات المعاصرة أن تعي ذلك، لكنها بالحقيقة غافلة أيضا عن شروط وحدتها القائمة في كل منها، "فكل منها انسانية تطرح ثقة عالية بقدرات الإنسان... كما وإنها جميعا علمية بمعنى إنها استقرائية تأخذ بطرائق العلم في البحث وبمعطياته ولا ترفض منه طرحا... وإنها جميعا نسبية بمعنى أن الكائنات جميعها، لا تكون على حال إلا بالنسبة إلى حاصل تحصيل فعل قوى الزمان والمكان.. وإنها جميعا تطورية بمعنى التقدم والارتقاء محكوم بمرور الزمن على انسان في بيئة.. وإنها جميعا بلا استثناء تأخذ بالدارونية والبافلوفية والثورنداكية وبالتحليل وسيلة غير بديلة للتعليل.. وتقبل بسقوط مركزية الانسان ومركزية الارض.. وإنها جميعا

تقبل من ديكارت الفصل بين مناهج الفلسفة ومناهج اللاهوت وتقبل من بيكن الفصل بين مناهج الفلسفة ومناهج العلم"[27].. وتقبل وتقبل ..إلخ، "وإنها جميعها لا تفرض قاعدة قانونا او نظرية او نظاما إلا صاعدة إليه من الفعل، ومن العمل ومن التعامل ومن السلوك، بمعنى إنها ترقى من السلوك إلى النظرية والنظام والقاعدة والقانون.. وبمعنى إنها تفصل القميص على قد يوسف، ولا تفصل يوسف على قد القميص"[28].. كل هذا ينبغي أن تعيه الفلسفة حتى تشكل صورتها المختلفة تماما عن العلم..

الهوامش

1 - مدني صالح، بعد خراب الفلسفة، ص22.
2 - ص29 - 30.
3 - ص30.
4 - مقدمة الكتاب، ص5 - 6.
5 - ص30.
6 - ص31.
7 - ص31.
8 - ص 24 - 25.
9 - ص 25.
10 - ص 32.
11 - نفسه.
12 - ص 25 - 26.
13 - ص34.
14 - ص 35.
15 - ص 37.
16 - ص 95.
17 - ص 101.
18 - ص 95.
19 - ص 36 - 37.
20 - ص40.
21 - ص41.
22 - ص41.
23 - ص 81.
24 - ص31.
25 - ص 20.
26 - ص28.
27 - ص21.
28 - ص 22.

الفلسفة بعد خرابها .. هل من إصلاح؟

الدكتور فوزي حامد الهيتي
قسم الفلسفة - آداب المستنصرية

المقدمة:

يتوهم من يعتقد أن نص "بعد خراب الفلسفة" نص بسيط يعالج قضية فكرية عامة بأسلوب أدبي عالي الجمالية، انشغل كاتبه بالألفاظ والصياغات الشكلية للعبارة على حساب المضمون. لا شك في أن مدني صالح، استخدم مهاراته الأدبية البيانية وأسلوبه المتميز الذي يقوم على الجملة الصادمة غير المألوفة في صياغة فرضيته الفكرية، أو عند عرض آراء الآخرين المخالفين له، وهو بارع في كل ذلك، يذكرنا بأسلوب نيتشه التهكمي، وبلاغة أفلاطون، وبيان الجاحظ وسارتر. بل أن طريقته تكاد تجمع كل هذه الأنماط الأسلوبية مضافاً إليها رشاقة عبارته وأسلوبه في التدوير والتكرار الذي يفيد التاكيد، ليعالج لنا في هذا النص إشكالية فلسفية غاية في الأهمية والخطورة في الثقافة العربية المعاصرة، الا وهي إشكالية (غياب العقل النقدي)، والذي من مظاهره التقليد والتبعية والتبرير ومن مظاهره أيضا الإنشغال بالقشور والامور الثانوية وترك الجوهر واللب والامور الأساسية، وبإختصار كل مظاهر الخراب... الدمار الذي يعيشه الإنسان العربي المعاصر خراب في الثقافة.. وخراب في السياسة .. خراب في الأخلاق والذوق العام. والذي يوجزه مدني صالح بجملة (خراب.. الفلسفة). ماذا بعد خراب الفلسفة؟!! هل من إصلاح؟

إذاً، الاشكالية العامة التي يتمحور حولها مقال "بعد خراب الفلسفة"، هي إشكالية التنوير، وهي إشكالية تختزل جملة من القضايا الفكرية التي واجهها الفكر العربي المعاصر. ويمكن إيجاز الموضوعات التي عالجها المقال بالآتي:

1 - الموقف من الثقافة الغربية. يركز مدني صالح في هذه الجزئية على مسألتين هما:

أ. الاعتقاد بعصمة الفلسفة الأوربية القديمة والحديثة بل والإعتقاد أن الفلسفة هي سمة للعقل الغربي المركب بعكس العقل الشرقي البسيط والإنفعالي. وحاول مدني صالح نقض هذه المقولة من خلال تفكيك مرجعيات هذه القضية والكشف عن تهافتها.

ب- التسليم بالقيادة التأريخية للحضارة الغربية المعاصرة. وهذه المسألة مرتبطة بالمسألة السابقة وناتجة عنها. يحاول

مدني صالح نقض هذه المسألة من خلال تحديد مفاهيم (الحضارة والثقافة والمدنية) والتأكيد أن المنجز الإنساني (حضارة وثقافة ومدنية) هو منجز متفاعل متكامل ساهمت به كل الحضارات الانسانية، والقول أن الحضارة الغربية تمثل نتاج العقل الغربي فقط قول فيه مغالطة كبيرة سوقه العقل الإستعماري الإحتكاري، وجزء من مقولة تفوق العقل الآري والتسليم به سينتج عنه حروباً ودماراً وخراباً كونياً سيتضرر منه الأوربي قبل غيره.

2 - القضية الأساسية الثانية التي يعالجها نص (بعد خراب الفلسفة) تتعلق بمفهوم الفلسفة ووظيفتها في المجتمع . يركز مدني في هذه القضية على جانبين هما:

أ- الفهم السائد لمفهوم الفلسفة والمناهج الملائية في تدريسها. إن الفهم المغلوط للفلسفة عمق حالة الإنقياد والتبعية للفكر الغربي وفَصَل الفلسفةَ عن بُعدِها الإجتماعي وجعل منها نسقاً معرفياً متعالٍ عن الواقع الإنساني غير معني بمعاناة الناس ومعالجة إشكالياتهم الفكرية والثقافية وإيجاد مخارج لشكل الصراع الإجتماعي بما يسهم بخلق حالة توازن تحقق النظام والعدالة المجتمعية. إن تدريس الفلسفة بالطريقة الإستشراقية الملائية والمتمثلة في عرض النظريات الفلسفية والفلاسفة خارج سياقهم التأريخي وفَصّلَها عن بُعدها الإجتماعي والمنظومة المعرفية والعلمية التي تنتمي إليها وتخضع لمنطقها سيُفقِد الدرس الفلسفي وظيفته في تنمية القدرة النقدية للطلبة وتعزز لديهم مفهوما مغلوطا عن الفلسفة، بِعَدّها بضاعة كمالية وترفا فكريا يمارسه الفلاسفة على موائد السلاطين وبين فواصل الرقص وكؤوس الخمر.

ب- اقتراح مفهوم بديل للفلسفة يركز على وظيفتها وفعلها الإجتماعي والمعرفي ودورها في حل الصراع الإجتماعي. وهنا يميز مدني صالح بين تيارين من المدارس الفلسفية هما:

- تيار تبريري تفسيري للواقع، يحاول أن يضفي المعقولية والمنطقية على نسق العلاقات الإجتماعية بتوظيف كل المعارف المتاحة وإعادة بنائها بنسق معرفي نظري يبرر ويعزز الموجود، وأشهر أنموذج لهذا التيار هو الفلسفة الهيجلية ومقولاتها في تفسير حركة التأريخ وكذلك فلسفة فوكوياما ومقولته نهاية التأريخ وقبلهما، تعد فلسفة ارسطو أنموذجا من الفلسفات التي تعزز وتبرر الواقع الاجتماعي وسيادة الإسكندر. وهذا التيار بحسب تعبير مدني صالح ينتمي للأقوى الأقهر، وهي فلسفة سلطانية كسروية سايكسبيكوية تبرر سيادة الشايلوكي القاروني المحتكر.

- تيار يهدف إلى تغيير الواقع ولا يكتفي بتفسيره، وهو تيار يحاول الكشف عن لا معقولية نسق العلاقات الإجتماعية وتناقضها وهو تيار ينتمي بحسب مدني صالح إلى الفقراء والغالبية من المهمشين المسحوقين الفرايدويين. تيار يحلم بحياة كريمة لكل الناس ويبحث عن الحق والخير والجمال. ويعد سقراط أبرز ممثليه قديماً ونيتشه وماركس حديثاً، وينتمي إليه كل المفكرين الأحرار أصحاب الدعوات الإنسانية في التأريخ البشري.

المسألة الأولى: الموقف من الآخر المختلف .. الغرب

الموقف من الغرب وحضارته، يعد أحد أبرز إشكاليات النهضة العربية الحديثة وهي جزء من إشكالية أكبر، الا وهي علاقة الذات مع الآخر المختلف.. الغرب من جهة وتراثنا العربي الاسلامي من جهة ثانية. كيف يمكن للذات الحاضرة أن تتعاطى وتتفاعل مع هاتين اللحظتين التأريخيتين والحضاريتين المختلفتين، ونحافظ في الوقت ذاته على استقلال ذاتنا وعدم غربتها وذوبانها في الآخر؟

يعالج مدني صالح هذه المسألة من زوايا مختلفة، وفي مقالات عديدة، ومنها مقاله المهم (بعد خراب الفلسفة)، حيث يسلط الضوء فيه على مظاهر غياب العقل النقدي، عند التعامل مع المنجز الفكري والثقافي والحضاري للغرب.

اختيار مدني صالح عنوان (بعد خراب الفلسفة) كان فيه استحضار للمثل العراقي القديم (بعد خراب البصرة)، وهو تهكم لوصف مسار العقل العربي في بناء نهضته وشروعه بالحداثة قبل أن يعيد النظر في أدواته (العقل = الفلسفة) ووفقاً لمدني صالح، لا يمكن الحديث عن نهضة وإصلاح وحداثة قبل إصلاح العقل وتنمية قدراته النقدية وتطوير أدواته المعرفية، حتى يتمكن من التفاعل الإيجابي مع المنجز العالمي، وتحرره من حالة التبعية والتقليد إلى حالة الإبداع والابتكار، وبتعبير محمد عابد الجابري تغيير العقل المستقيل الى عقل فاعل منتج. لهذا نرى أن العقل العربي المعاصر، لم يخرج من دائرة سؤاله الأول (كيف ننهض)، ولن يخرج قبل إستكمال بناء عقل نقدي قادر على التحرر من حالات الإستلاب.. الإستلاب من الآخر الغرب.. والإستلاب من هيمنة ماضي وتراث هذا العقل. والبحث عن مرتكزات للنهوض خارج إصلاح العقل لذاته وهم وخراب.

إن تحديد مدني صالح نقطة الشروع بالعقل وإصلاح أدواته النقدية، يعني أنه استبعد وبجرة قلم كل الأسئلة والإشكالات المتولدة عن سؤال النهضة مثل إشكالية الأصالة والمعاصرة والأنا والآخر.. الخ من أسئلة تبحث عن نقطة شروع للنهضة.. هل نبدأ من حيث انتهت الحضارة العربية الإسلامية ونعيد إحياءها؟.. هل نبدأ من العقلانية الرشدية (الجابري) أم من الغزالي (طه عبد الرحمن) أم من ابن عربي؟ أم نبدأ من حيث انتهى إليه العقل الغربي (الآلوسي وعموم الماركسيين العرب)؟

إن طرح مثل هذه الأسئلة الوهمية عند مدني صالح هي صادرة إما عن ضال جاهل بقوى التأريخ وحركته، غير متفقه بالتربية وآليات بناء العقل النقدي، وإما من شطار الثقافة الذين لا يطلبون الحق والخير والجمال في مسعاهم بقدر طلبهم إرضاء السلطان وإيهامه وتضليل العامة والضحك عليهم، وتوجيههم بما يخدم أغراض السلطان، ويعزز من حكمه. والصنف الأخير هم الأخطر على الثقافة من الصنف الأول، لأن الأول صادق مع نفسه، ضال السبيل، أما الثاني فهم لا يبتغون علماً، ولا ينتجون ثقافة، بل وعاظ لخدمة السلاطين، وجزء من بطانته.

ولنا أن نسأل مدني صالح: أين وجه التضليل في طرح هذه الأسئلة النهضوية؟ ألا نحتاج الى تحديد مرجعية ثقافية نرتكز

عليها في بناء نهضتنا؟ ألا نحتاج إلى تحديد ملامح لهويتنا تحمينا من الذوبان الكامل ومسخ ملامحنا عند الانفتاح على الآخر، والتفاعل مع منجزه الفكري؟

يرى مدني صالح، أن هذه الأسئلة الوهمية وغيرها كانت بسبب عدم قدرتنا على التمييز بين الثقافة والمدنية والحضارة والخلط بينها. ولو حددنا دلالتها بوضوح ودقة لتهافتت هذه الأسئلة وفقدت معناها، ولتمكنا من التعامل مع المنجز العالمي ومنه الغربي والعربي الإسلامي بما ينفع حاضرنا، ويعزز قدراتنا العقلية النقدية على الفعل والإبداع. فالثقافة هي غير الحضارة والمدنية؛ تختلف تماماً عن المفهومين الآخرين والخلط بين هذه المفاهيم الثلاثة يعني على حد قول مدني صالح (الجهل ويعني الهدر ويعني البعثرة ويعني اختلاف الألسن في برج بابلي معاصر لا يعني فيه أحد ما يقول ولا يقول فيه أحد الذي يعنيه. ص 17)[1].

الثقافة والحضارة والمدنية:

يقف مدني صالح عند هذه المفاهيم الثلاثة في مقاله (بعد خراب الفلسفة) ويخصها أيضاً بمقال مستقل يفصل فيه القول ويقاربه مع مفاهيم أخرى ذات علاقة مثل مفهوم التربية ومفهوم التأريخ ومفهوم الخبرة. سنكتفي هنا بعرض دلالات هذه المفاهيم، وبما يغني قراءتنا لنصه. يقول مدني صالح (الثقافة هي حيازة ابداعية لا تفنى ولا تستهلك وتزيد وتكبر وتقوى بنسبة زيادة المتداولين في الإستعمال. ص 54)، وهي (مطلقة لا متناهية لا تجوز عليها النسبة ولا تقبل التجارة ولا الاحتكار وليس لها حد في المكان ولا أمد في الزمان. ص 55)، والثقافة هي من عالم المبدأ الواجب، وعلى غرار ما يستطيع التشكيل أن يبلغه بكل قواه على التصميم المثال اللامتناهي، وعليه فإن المنجز الثقافي (يجب أن يظل في أعلى درجات مُثُلِهِ الوجودية حتى لو لم يرق إليه أحد من الشعوب كلها مدة قرون. ص 58)، والثقافة بهذه الدلالة (لا يمكن أن تكون إلا عالمية كونية لا تجوز عليها أحكام الحيازة المُلكية ولا أحكام التجارة والاحتكار. ص 58). والمنجز الإنساني الذي تصدق عليه هذه الأوصاف بحسب تحديد مدني صالح هو (الفن والعلم والأدب). كل المنجزات الإنسانية في هذه الحقول الثلاثة، هي من الثقافة، لا يحد قيمتها الإبداعية مكان وزمان مبدعها، ويجب أن تكون إرثا مشاعا لكل البشر بلا استثناء، تنمو وتتطور بالنقد والإبداع والإبتكار. ويمكن نقلها من أمة إلى أخرى، ومن جيل الى جيل لغرض تنمية الأذواق وارتقاء وازدهار المجتمع، ولأغراض تعليمية. ويشدد مدني صالح على القيمة التعليمية للمنجز الثقافي يقول بهذا الخصوص (إن كل ما هو نقل وترجمة وتقليد فهو نافع في التعليم، لكنه عبث ضار في الإنشاء الإبداعي فناً وعلماً وأدباً. والتقليد في الثقافة كالتجميع من العبث الخادع. ص 62). يمكن بالثقافة التمهيد والتأسيس والتقدم بالتأريخ من خلال تحويل الأحلام إلى واقع، وسد حاجات الإنسان المتنامية بالإبداعات العلمية، والشاهد في ذلك عند مدني صالح ما نراه اليوم من تطور هائل في الثقافة الغربية التي استطاعت تحويل كل أحلام الماضي إلى حقائق بفضلها نحن اليوم نعيش أفضل مئة مرة، عما كان

يعيشه هارون الرشيد وشارلمان في الصحة والرفاهية، وكل ما نحتاجه هو كسر قيود التقليد والإنغلاق ومن ثم الإنفتاح على كل المنجز الثقافي العالمي قديمه وحديثه. ويشدد مدني صالح على عدم تقييد الثقافة (فناً علماً وأدباً) بأغراض الحضارة (سياسة وتشريعاً وأخلاقاً)، وأن لا تُحكم بمنافعها، وذلك لأن تقييد الثقافة يمنعها من بلوغ الكلي المطلق المجرد المثال، ويحولها الى الجزئي النسبي المحسوس (أي الإنحطاط)، وقل مثل هذا بعلاقة الثقافة بالمدنية (زراعة وصناعة وعمارة وتعدين..)، فلا يجوز أن تتقيد الثقافة بأغراض المدنية لأن هذا الارتباط سيقيدها بطموح السياسي والتاجر المحتكر ويمنعها من بلوغ سموها نحو المثال والكلي. وعليه يجب أن تبقى الثقافة من عالم الأحلام والأماني والأخيلة.. هذا العالم الذي لا يزدهر إلا برفع كل القيود التي تحد من نشاط الفكر وتقييده تحت مسميات عديدة منها الواقعية وقدسية فكرة ما، والانغلاق على ثقافة ما. وخلاصة القول إن الانفتاح على ثقافات العالم من أسباب توفير شروط الابداع والبداية الصحيحة، لكل عملية نهوض حقيقي .

الحضارة: يعرف مدني صالح مفهوم الحضارة بقوله (هي حيازة تنظيمية نسبية متناهية) مجالها السياسة والتشريع والأخلاق، ويجوز عليها الجهة والنسبة والاستعارة والتقليد، كما يجوز عليها التبني والتفسير والتبشير، ولا يجوز عليها التجارة والإحتكار التجاري. تتسع مساحة نفوذها وتتقلص بحسب قوة ونفوذ الأمة التي تتبناها. مثل إنتشار الحضارة العربية الإسلامية وانحسارها في القرون الوسطى، بحسب قوة الدولة العربية الاسلامية آنذاك، وكذلك حال حضور الحضارة الغربية اليوم.

المدنية: يعرف مدني صالح مفهوم المدنية بقوله هي (حيازة سلعية ملكية مادية)، مجالها الزراعة والصناعة والعمارة والتعدين والتدجين .. الخ. يجوز عليها التجارة والإحتكار وتزدهر بالتجارة عرضاً وترويجاً. والمدنية وفق هذا التوصيف هي تباع وتشترى وتصدر وتستورد كونها حيازة ملكية تتصف بالشيئية ومتناهية بالزمان والمكان، وتستهلك وتزيد وتنقص ويمكن لكل أمة أو دولة أن تملك ما تشاء من المدنيات إنشاءً وتعميراً وبناءً صناعةً وزراعةً وتعديناً، وحسب إمكاناتها المادية وحسن تخطيطها وتدبيرها.

بعد هذا الفصل وتوضيح الفرق بين المنجزات الإنسانية ثقافة وحضارة ومدنية وبيان الخيط الأبيض من الأسود.. هل من إصلاح ونهضة؟ هل يمكن القول إن العقل صار مستعداً للشروع في بناء نهضته الحقيقية؟

إن حديث مدني صالح حول مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية أراد منه الرد على دعوات العديد من المفكرين العرب الإسلاميين الذين يدعوننا الى الإنغلاق على منتجات الآخر بحجة الحفاظ على هوية الأمة، وكذلك ردّ فيه على توجهات الطرف الآخر من بعض المفكرين الذين يدعون الى قطع الصلة بتراث الأمة السابق. وقال لنا ببساطة إن كل المنجز الثقافي للبشرية يجب أن يكون متاحاً للعقل العربي المعاصر، لا بقصد التبني والتقليد، بل بقصد التعليم وبناء العقل ليتمكن بعدها هذا العقل بالشروع

في إنتاج ثقافته الخاصة، التي تعبر عن خصوصيته هو، لا تقليداً لمنجز آخر. وهذا الإنفتاح هو من شروط كل نهضة، مارسها العقل اليوناني حين تواصل مع ثقافات الشرق، عراقية، ومصرية. ومارسها العقل العربي الإسلامي حين إنفتح بلا قيود على الثقافات القديمة، وقام بترجمتها إلى اللسان العربي، ومن ثم بدأ نهضته الحقيقية. وبعبارة أخرى أن الإنفتاح على ثقافات الآخرين بقصد التعليم يعد الطريق الأفضل لبناء عقل قادر على الإبداع. يمكنك الانفتاح على الغرب وتستورد منه كل منتجاته المدنية، وسيقدم لك كل التسهيلات ويمكنك أن تقلد شكل أنظمته السياسية؛ لكن، كل هذا لا يعينك على الشروع في بناء نهضتك الحقيقية إلا إذا بدأت التعلم منه كيف أنتج ثقافته (فناً وعلماً وأدباً)، ومن ثم تبدأ أنت مشروعك الثقافي الخاص وهذا لن يكون في نظر مدني صالح إلا بتحرير ذاتك من كل سطوة وتحطيم أصنامك. وتحطيمُ الأصنامِ يعني تحرّر الذات من كل تقليد وتبعية سواءَ كانت تبعية الغرب أو النصوص التراثية، وبلوغ الذات هذه المرحلة من التحرر، يعني الرشد والاستعداد لبداية الابداع الفعلي. وهذا يتطلب بعد الوعي بهذه الشروط، البداية الفعلية لإصلاح العقل. وهذا ما سنتوقف عنده في الفقرة الآتية.

المسألة الثانية: الوظيفة الاجتماعية للفلسفة:

يبدأ مدني صالح معالجته لهذه المسألة بطرح سؤال حول جدوى الفلسفة.. سؤال تكرر طرحه عند فلاسفة الوضعية المنطقية وبعض فلاسفة العلم المعاصرين الآخرين: ما المشكلة الفلسفية التي لا حل لها إلا من الفلسفة؟ هل انتهت مهمة الفلسفة ووظيفتها، وأخلت ساحتها للعلوم الطبيعية والإنسانية؟ وصارت جزءا من التأريخ؟ ومكانها الطبيعي هو المتحف كما يقول أوكست كومت؟ أم أن للفلسفة مهام وأسئلة ومشاغل ومناهج تختلف بالموضوع وبطرائق وغايات المعالجة؟ لماذا فيزياء واحد وفلسفتان؟ لماذا كيمياء واحدة وفلسفتان؟ لماذا لا يختلف العلماء في ما بينهم، ولا يدعي أياً منهم أنه أكثر فيزيائية وأصح، ولا أكثر كيميائية وأصح من الاخرين المناظرين له في الإختصاص العلمي، إلا على قدر التجديد والإكتشاف في مجال الإختصاص؟ ولكن كل فيلسوف يستطيع ان يثبت أنه أكثر منطقية، وأصح قياساً من الآخرين؟ بل لماذا لم يختلف أفلاطون وأرسطو إلا في المنطقي، وليس في العلم الطبيعي ولا الرياضي؟

بهذه الأسئلة المنهجية العقلانية حاول مدني صالح تعرية خط ومدرسة فلسفية يراها أس الخراب ورأسه، تضرب جذورها عميقاً في تأريخ الفلسفة؛ وقف عندها وتصدى لها وحاول كشف زيفها وتعريتها فلاسفة كبارا منهم الفارابي الذي أسماها بالفلسفات الضالة الفاسدة، وقال لا توجد سوى فلسفة واحدة صحيحة[2] ومنهم كان اسبينوزا وكانط ونيتشه الذي وصفها بنسيج العنكبوت، وقال (الفلسفة ضحية أكذوبة كبرى، فهي تقوم على المفاهيم، وتعتقد أن هذه المفاهيم هي نتاج العقل في حين أنها ليس سوى استعارات ميتة خادعة، همها الأساس تبرير ما هو قائم وقمع كل ما هو جديد، يعبر عن قوة الفن ونشوة الحياة)[3]. وجون ديوي الذي يرى أن الفلسفة بعامة لم

تنشأ بعيداً عن التحزب والهوى والأصل في نشأتها هو محاولة إعطاء تبريرات عقلية لما كان قائماً وملائماً لوجدان الناس، ولم يعد كذلك. لذلك كان على هذا النمط من الفلسفة كما يقول ديوي (أن تبالغ في العناية بأمر جهاز العقل والبرهان، ولما كانت الأمور التي تعالجها خالية بطبيعتها من الإتساق العقلي، ازدادت تمسكاً بالمظهر المنطقي.. ففي الأمور الواقعية العادية يصح لنا أن نلجأ إلى طرق بسيطة عامة في البرهنة والتدليل... أما إذا كان الأمر أمر إقناع الناس بصدق المذاهب، التي لم تعد مقبولة على أساس أن العادة تقرها وأن السلطة الإجتماعية تؤيدها، كما أنه لا يتسنى في الوقت نفسه، تحقيق صحتها على أساس التجربة، فعندئذ لا يكون مناص من تضخيم العلامات التي توهم بأن الفكرة المسوقة بالغة الدقة)[4].

إن الخطاب الفلسفي كما يؤكده هؤلاء الفلاسفة ومنهم مدني صالح، لا ينفصل عن البنية الإجتماعية والثقافية التي أنشئ فيها متأثراً بمستوى تطور العلوم والأدوات العلمية المساهمة في تطوير معارفنا عن العالم والوجود والإنسان. وحيث أن البنية الاجتماعية والثقافية في نمو وتطور وانفتاح وتغير دائم وتحديات الإنسان ومشكلاته متغيرة، فضلاً عن أدواته المعرفية فهذا يعني تغير خطابه الفلسفي بحسب مشكلاته الجديدة التي يفرزها هذا التغير والتحول.

يجيب مدني صالح على سؤال: لماذا يتعادى الفلاسفة وتتقاتل الفلسفات؟ أليس وظيفة الفلسفات هي حلولا لمشكلات وإعادة توازن لصراع؟ هل الفلسفات هي غافلة عن شروط وحدتها؟ أليست كلها إنسانية بمعنى أنها تطرح الإنسان غاية لجميع قوى الإنتاج بجميع قواه، وإعداده لحياة أكثر عافية وصحة وأمناً وحكمة وعدلاً وجمالاً؟

يستعرض مدني صالح مشتركات جميع الفلسفات التي من المفترض أن تكون واحدة متحدة تنشد الحق والخير والجمال فكل الفلسفات علمية أستقرائية لا ترفض نتائج العلم ولا تتقاطع معه وكلها تبدأ من السلوك والفعل والتعامل الى النظرية والقاعدة والنظام. لكنها تختلف وتتصارع عندما تستخدم المنطق. والمنطق كما يقول مدني لا يصحح لك خطأ ولا يزيدك علماً بشيء من حقائق الأشياء ولو كان كذلك لصحح لأرسطو أخطاءه العلمية في الفيزياء والكيمياء قبل كاليلوا وكوبرنيكوس. وكل مبادئ الفكر الأساسية الثلاثة التي ينتحلها المنطق ويعدها مبادئ وقواعد له ومنها ينطلق، هي مبادئ عقلية رياضية طبيعية لا ينكرها الحس ولا هي حكراً على المنطق. إذاً لماذا تتمسك بعض الفلسفات بالمنطق وتحتكم إليه؟ طالما هو علة إنقسامها وتبعثر جهودها في تحصيل الجميل وبلوغ الحق وتحقيق العدل وإعادة التوازن وحل الصراع.

يجيب مدني صالح صراحة أن المنطق هو (وسيلتنا إلى التغالب على الخيرات والأطماع بغير حق وإلى إقناع أنفسنا والآخرين بغير الحقيقة. ص 25) فالمنطق وسيلة للتعصب والإنغلاق على قضايا ليست عقلية ولا يقرها الحس السليم والبداهة. وبعبارة ديوي أن المنطق يفيدنا بالدفاع عن أنساق ثقافية واجتماعية قد غادرها المجتمع أو في أحسن حال على وشك مغادرتها. يرى مدني صالح أن الوظيفة الأساسية للفلسفة

الحقة هي البحث عن المثال والمتمنى لذلك هي من عالم الحلم الذي ينشد الحق والخير والجمال. وهي لم تبدأ إلا حسية تجريبية علمية حالمة باحثة عن مبادئ الإدارة والتصميم والنظام والبساطة. وهي تختلف عن الديني اللاهوتي في أن الأخير يبحث عن صفات وطبيعة المصمم. وتختلف عن العلم، في أن العلم يسلم بالتصميم ويهتم بالتشكيل الذي كان على غرار تصميم. والفيلسوف يقف أيضاً عند هذه الفروقات ويبين كيف تحصل ولماذا تحصل، ويتطور وعينا حوله بحسب تطور أدواتنا المعرفية. ولكن يختلف الفلاسفة في المسائل (التي ليس لها نسبة ثابتة لا في تكوينها التشكيلي التصميمي الموضوعي خارج الذهن ولا من تكوينها المثالي الوجودي الذاتي داخل الذهن ... وهي القضايا التي تحتمل التغالب والتدافع على الخيرات مادية ومعنوية وفي الأمور التي تجوز فيها المعاندة وشهادة الزور ... ص 19).

إن انتماء الفيلسوف عند مدني صالح يجب أن يكون الى الحق والخير والجمال.. إلى المتمنى في تحقيق الحلم والعدل وتوظيف كل منتجات العقل البشري فناً وعلماً وأدباً (لإعادة التوازن وحل الصراع فردياً اجتماعياً واجتماعيا وطنياً ووطنياً دولياً. ص 19). ولكن تأريخ الفلسفة ومواقف الفلاسفة لم يجسد هذه الرؤية الحالمة لمدني صالح لذلك وصفها بالخراب الفلسفي غير العادل وغير الجميل. بعض الفلاسفة كما يؤشر مدني صالح قد وظفوا الفن والسياسة والتشريع والأخلاق والعلم والأدب لأغراض غير نبيلة بقصد التغالب على المغانم والاستئثار بالخيرات أو التبرير للشايلوكي التاجر المحتكر سلوكه الاحتكاري. ويمكن القول إن مفهوم الفلسفة عند مدني صالح هو بعامة موقف نقدي واعي مؤول وموظف للمعارف (علماً وفناً وحضارة) لتقوية موقع والدفاع عنه في الصراع الإجتماعي الدائر في زمانه، إما بقصد حلّهِ وإعادة التوازن بين الفرد وذاته وبين الفرد والمجتمع.. وبين المجتمع والدولة.. وبين الدولة والمجتمع الدولي بعامة، بقصد تحقيق الحق والخير والجمال، وإما بقصد الإنتصار لفردٍ أو جماعةٍ على حسابِ الآخرين، تجاوزاً على الحق والخير والجمال. وعليه يمكن تقسيم الفلاسفة على وفق تعريفه هذا الى إتجاهين هما:

الأول: اتجاه يسعى لتكريس الأنساق الإجتماعية والثقافية ومنظومة القيم الأخلاقية والسياسية القائمة ومحاولة تبريرها منطقياً.

الثاني: اتجاه يسعى الى تغيير الأنساق الإجتماعية والثقافية ومنظومة القيم الأخلاقية والسياسية القائمة بما يعيد التوازن والتصالح بين الفرد والمجتمع والدولة، ويحقق العدل في توزيع الخيرات ويقضي على حالات الصراع والتوترات بين مكونات المجتمع. وهذا الاتجاه بحسب تفسيرات مدني صالح يمثل محاولة للإقتراب من المثال والمتمنى والحلم الذي راود كبار الفلاسفة. وهو الحلم الذي أقلق التاجر القاروني المحتكر وعرّى وسائل بطانته من فلاسفة الإتجاه الأول وكشف زيف إدعاءاتهم وتهافت مقولاتهم التبريرية. وعلى ضوء هذا الفهم للفلسفة ووظيفتها الإجتماعية وفعلها التغييري عدّها مدني صالح إحدى القوى المحركة للتأريخ، وهما قوتان لا ثالث لهما:

أ- الأولى: مالك قوى الإنتاج وهو التاجر المحتكر الشايلوكي المرابي الذي يدور حول محور الحرب... التجارة... الاحتكار.

ب- الحلم الفلسفي الذي تتحطم عليه واقعية التاجر المحتكر والذي يدور حول محور – العمل للإنتاج واللعب للابتهاج – والذي منه الحلم الافلاطوني ومنه الحلم الروسي الماركسي المبلشف والحلم الصيني الماوي الممركس، ومنه أيضا حلم مدني صالح القائل بالتدويل والتأميم أي تدويل المعرفة بعدّها منجزا إنسانيا ساهم فيه الجميع، ويحق للجميع أن يتمتعوا بخيراته، لا أن يكون حكرا للتاجر بحجة شرائه حق التصرف. وتأميم الاقتصاد داخل الدولة، فالعمل من اجل الإنتاج هو واجب جميع المواطنين إزاء بعضهم ومن حقهم أيضا التمتع واللعب والابتهاج، فالاجتماع الفاضل لا يكون إلا بإحترام حقوق الجميع سواء في العمل أم في توزيع الخيرات.

يحاول مدني صالح تعرية نموذجين من الإتجاه الفلسفي التبريري، هما نموذجان متكاملان في فعلهما وأثرهما السلبي في تعطيل العقل النقدي وتغييب فعل الفلسفة الحالمة وتأثيرها في حياة الإنسان المعاصر. النموذج الأول فلسفة هيجل وأثرها السلبي في تقوية مواقع القارون المحتكر ومحاولة إضفاء المعقولية والمشروعية على برامجه التسلطية الإستحواذية والاستعلائية، والثاني الدرس الفلسفي الملائي المنغلق على قشور الثقافة وهوامشها بِعَدّها لُبابَ العقولِ وخلاصةَ المتونِ.

يرى مدني صالح أن هيجل حاول إعادة تفسير حركة التأريخ بما يلبي أحلام ورغبات التاجر الألماني المتغطرس. فقد عرّف هيجل التأريخ باختصار أنه تقدم الوعي بالحرية فهو يمثل مسار تطور الوعي، وأن سيرورته هي تحقق تدريجي للحرية؛ ومسرح فعل الوعي، جغرافياً هو خط معتدل بدأ مساره كالشمس من الشرق، وانتهى بالغرب، وتحديداً في شكل الدولة البروسية التي تمثل الكمال وتطابق الذات بالموضوع، بها نرى التحقق الفعلي للحرية. وهذه السيرورة للوعي هي حتمية محكومة بالضرورة.

إن هيجل وفقاً لمدني صالح، لم يرجع إلى التأريخ الفعلي ولم تكن مقولاته استقراءً لوقائعه، بل جاءت تصورات كلية مدفوعةً برغبةِ وارادةِ الغني القوي القاهر المسيطر الذي يريد أن يُنهي حركة التأريخ عند لحظةْ تفوقه، ويعيد القسمة على وفق ما يملك من قوة، لا على أساس مشاركته الفعلية بالثروة. وعلى أساس هذا التفسير يرى مدني صالح أن فلسفة هيجل هي من شرعت روح الغطرسة الجرمانية، ومنحت الحق لألمانيا في إعادة حصتها من الأسواق السايكسبيكوية، وصار من الواجب الوطني والديني على ذمة كل جرماني ومنهم هتلر الذي حمل هذه الرغبات القارونية على ظهره، ودخل فيها حروباً، كان ما كان منها من ويلات دفع ثمنها فقراء الالمان، قبل غيرهم من الشعوب المغلوبة المطحونة بهذه الرغبات القارونية. ومثل هذه الفلسفات التبريرية المنغلقة على لحظة تأريخية محددة، تنتمي إلى محور الحرب.. التجارة: الإحتكار الذي يقوده صاحب رأس المال، ويستخدم ضمن أدواته أمثال هؤلاء الفلاسفة والساسة وغيرهم من دعاة الثقافة، وهم أبعد ما يكونون عن أحلام الفلاسفة

الحكماء المعامید الحالمین بتحقیق الحق والخیر والجمال.

أما الشكل الثاني للفلسفة التبريرية التي وقف عندها مدني صالح وحاول تعريتها وكشف زيفها وتضليلها للعقل، فهي الطرائق الملائية في تدريس الفلسفة، وهي طريقة شاعت كما يقول مدني صالح في أقسام الفلسفة في عالمنا العربي، وبعض مراكز الإستشراق العالمية. لم تركز هذه الطريقة في تدريسها للفلسفة على ربط النظريات الفلسفية بالأنساق الثقافية التي ظهرت فيها، ولم تبرّز المشكلات الفكرية التي تصدت لها هذه النظريات وقدرتها على إحداث فعلٍ وتأثيرٍ في المجتمع الذي ظهرت فيه. وبالنتيجة لم تساهم هذه الطريقة التلقينية في تنمية عقل نقدي قادر على التعاطي مع مشكلات الواقع وتقديم حلول لها، بل فقط تنمّي فيه القدرة على الحفظ وتكرار ما يحفظه.

وخلاصة القول أن الفلسفة الحقة التي ينشدها مدني صالح هي من عالم الحلم الذي ينشد صياغة عالم أفضل، لا مكان فيه للإحتكار والحرب.. خالي من كل صراع وتنافس لا يحترم إنسانية الانسان وقدسية كينونته. عالم فاضل يتبارى فيه الجميع مباراة اولمبيادية لتحقيق الحق والخير والجمال.

الهوامش

1 - مدني صالح، بعد خراب الفلسفة. تحرير وتقديم د. محمد فاضل عباس، منشورات دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى 2009، ص 17، وكل إشاراتنا اللاحقة ستكون إلى هذه النشرة لذلك، سنكتفي بذكر رقم الصفة فقط داخل النص.

2 - الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق بيروت 1986، ص 151 وما بعدها.

3 - للمزيد راجع جورج زناتي، عواصف غربية ضد العقلانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، دار الإنماء القومي، بيروت، العدد 64 و65 ، 1989 ، ص 30 .

4 - جون ديوي، تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مؤسسة فرانكلين ص 84 .

مدني صالح الذي علمني الحكمة والحلم والحب

أ.د. قاسم المحبشي
استاذ جامعي/جامعة عدن

استهلال

لم يكن منتميا الا للفكر والمؤسسة الأكاديمية فقط مدني صالح ؛ اسم ينثر اللفظ به كنانة زاخرة بالدلالات والمعاني والأخيلة لاسيما عند من يعرفه، إذ يثير في القلب والذاكرة تداعيات حميمة من الصور والرموز الباذخة بالفرح والجمال والمحبة والحنان. أنه اسم استاذي الراحل مدني صالح الذي علمني الفهم والحلم والحكمة بروح إنسانية بالغة النبل والسمو والمسؤولية الأكاديمية ذلك لأن التشكيل الأكاديمي عنده هو، تشكيل غايته الكمال الأكمل، والتام الأتم والكلي المطلق المجرد، والمثال الأمثل ..وتأبى الأكاديمية النزول بالتشكيل عن أرقى تصميم، فهي نزوع دائم نحو الأكثر حكمة والأكثر عدلاً والأكثر جمالاً والأكثر نفعاً والأكثر صدقاً والأكثر أمانة والأكثر رقياً مهما كلف الأمر، والأمر من أعلى ما تكون الهمم ومن أرقى ما تكون معالي الأمور. هذا هو معنى الأكاديمية عند مدني صالح. فماذا بوسعي أن أكتب عن حكيم بغداد وسقراطها العربي الهيتي؟ فإذا كانت "هيت" قلباً فـ مدني هو نبضها الخالد وإذا كانت بغداد واحة ثقافية فـ مدني شجرتها الوارفة الظلال. وإذا كانت بغداد أكاديمية فـ مدني صالح هو عقلها اليقظ. وإذا كانت العراق مدرسة فكرية ف مدني صالح هو أستاذها الأبرز. وإذا كانت الفلسفة تفكيراً منهجياً نقدياً فـ مدني صالح هو وهجها المتقد. وإذا كانت المعرفة هما إنسانياً عاما فـ مدني صالح هو إنسانها الأجمل. وإذا كانت الكتابة تعبيراً عن الحياة بنظام الإشارات اللغوية فـ مدني صالح هو القلم الذي جعل الكلمات ترقص فرحًا حينما يكتبها. فمن أي الأبواب ينفتح المشهد؟ ومن أي النوافذ يمكن الإطلال على عالم الاستاذ المعلم الفيلسوف والأديب الناقد الواسع الأرجاء والعميق الأغوار والمتزايد التأثير. " يصف بورخس حال أفلاطون وهو يكتب المحاورات واصفا حال أستاذه سقراط :" لم يكن يعرف الصفحة الأخيرة وهو يكتب الصفحة الأولى كان يترك ذكاءه يهيم شاردا ...يخيل إلي أن هدفه الأساسي كان الوهم بأن سقراط مازال يرافقه على الرغم من أن سقراط ... يراودني إحساس أن أقتفي اثر بورخس وهو يقتفي اثر أفلاطون في تخيله أساتذته وكأنهم أطياف حاضرة تحيط به .أتخيل بأن مدني صالح يرافقني كطيف يحيط بي لكن من المؤلم

والمحزن أن يدرك المرء ، بعد فوات الأوان أنه : (ليس بإمكانه أن ينهل من النبع مرتين) فحين يغيض النبع ـ مرة وإلى الأبد ـ دون أن نغرف منه ؛ لا تتكشف الأسئلة الحارقة عن غياب سهولة الارتواء من النبع ؛ بل عن غياب الجدوى التي تضمر فقراً مخيفاً، وذهولا عن الانتباه لعابر هائل مر بنا وكما يقول النفري: (كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة) لقد اتسعت الرؤية لديه ربما تكون حاصرته تلك التأويلات، في هذه العوالم الخرساء، وزمان النكوص (لكم تخذل المرء سيماؤه، ولكم يجهل الناس ما يعرفون، وهل أنت، إلا الذي جهلوه؟) "(ينظر، عامر عبد زيد، أطياف مدني صالح، الحوار المتمدن، 2012).

بعض وفاء التلميذ لأستاذه

لقد أوليت على نفسي منذ عرفته أن اكتب عنه ما استطيع إلى ذلك سبيلاً. حينما كنت في بغداد نشرت عنه مقالا في جريدة الوطن الذي كان يرأسها الاستاذ الدكتور طه جازع، 2004م. كتبت مقالا بعنوان: مدني صالح عاصفة ثقافية نقدية ؛ الأثر دليل عن المؤثر) ونشرت بعض المقالات الصحفية عن الاستاذ مدني في الصحف اليمنية بعد عودتي من العراق، ولكنني ظللت غير مقنعا بما كتبته متربصا أي فرصة سانحة للكتابة عنده بما يستحقه، فاجأتني الدعوة الكريمة من الاستاذ العزيز دكتور طه جزاع، يخبرني أن مجلة (الثقافة الجديدة) ببغداد بصدد إعداد ملف عن حياة الاستاذ الراحل مدني صالح. تلك الدعوة حفزتني على استئناف فكرة الكتابة والشروع بمباشرتها مهما كانت الظروف والأحوال. وها أنا اغتنم فرصة وجودي في القاهرة للوفاء لأستاذي الراحل مدني صالح الذي كان يثق بي ويحكي لي الكثير من أسرار حياته الإبداعية والأكاديمية. وأهداني نسخة من كتاباته غير المطبوعة ومنها؛ مسودة كتاب قرندل وحقوق الحمار، وفي مهب عواصف التاريخ، وفي فلسفة الإدارة وفي فلسفة الفن، وببلوغرافيا كل ما كتبه من مقالات صحفية مرقمة بعناوينها واسماء الصحف والمجلات التي نشرتها وتاريخ النشر. لازلت محتفظا بها في مكتبتي بعدن ولكنها ليست بحوزتي هنا والآن رغم حاجتي الماسة لها فيما أنا بصدده. في الواقع الكتابة عن مدني صالح، ليست كمثل الكتابة عن أي شخص آخر، بل هي أشبه بالمغامرة المحفوفة بالمخاطر، فما بال الحوار معه، انك حينما تود أن تحاوره تحس بتلك الرهبة التي تنتاب المرء الذي يقف على شاطئ المحيط لأول مرة، ذلك لان مدني صالح عاصفة ثقافية نقدية شاملة تجتاح كل أنماط وأساليب ومناهج الكتابة التقليدية، فهو فكر متعدد الأبعاد وقلم متنوع الأساليب وتجربة فلسفية علمية ومنهجية لا مثيل لها.. وهو صاحب الريادات الثقافية بأحد عشر أسلوباً من أساليب التعبير: مقالة ومقامة ومسرحية ونقد وبحث ودراسة وقصيدة وقصة ورواية ومحاورة وعمود صحفي، عشرات الكتب المنشورة ومئات المقالات والكتابات الإبداعية في المجلات والصحف العربية والعراقية التي كتبها مدني صالح منها: كتاب الوجود، وابن طفيل وقصة حي بن يقظان، ابن طفيل قضايا ومواقف، هذا هو السياب، هذا هو البياتي، والفاربي

قضايا ومواقف، والغزالي ومناهج الارتقاء، و"مقامات مدني صالح" ثلاثة اجزاء "ما بعد الطوفان" "ما بعد خراب الفلسفة" "قرندل وحقوق الحمار" فلسفة الادارة" "فلسفة الاحتكار" فلسفة الفن" وغيرها من النصوص والكتابات المنشورة وغير المنشورة. حينما يكتب يثير أمواج عاتية من ردود الأفعال والتساؤلات، ومهما اختلف النقاد في النظر اليه فهو في رأي الجميع نص مدهش يأسر القارئ بفيض خصيب من الاشراقات المبهجة انه النص الذي يدخل القارئ في رحاب وفضاءات مستعرة بالدهشة والفرح والجمال، انه النص الذي ينحدر من بحر زاخر بالثقافة العالية فمنذ الوهلة الأولى تشعر بتلك الروح الحميمة الجامحة التي تلتهب في جسده النحيل، حينما يتكلم أو يكتب تفيض المعاني من الكلمات كفيض العسل من خلايا النحل الناضجة. فمن هو مدني صالح؟ هذا هو السؤال الذي نحاول مقاربته في هذه الورقة.

على مدى أربع سنوات عرفته استاذا في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة بغداد، باب المعظم. كان بالنسبة لي أنا القادم من الجنوب العربي المنسي بمثابة اكتشاف جديد للفكر الفلسفي الجدير بالأهمية والقيمة والاعتبار. ربما عرفت في سنوات دراستي الجامعية الكثير من المفكرين العرب والعراقيين المشتغلين في الدرس الفلسفي من المجايلين للأستاذ مدني صالح (طيب تيزيني، حسن حنفي، جورج طرابيشي، عبدالله العروي، محمد عابد الجابري، حسام الدين الألوسي، أحمد نسيم برقاوي، محمود أمين العالم، زكي نجيب محمود، نمير العاني، وعبد الأمير الأعسم، محمد المصباحي، محمد اركون، عبدالرحمن بدوي، علي الوردي، ناصيف نصار، يمنى طريف الخولي، إمام عبدالفتاح إمام، توفيق الطويل، مصطفى سامي النشار، زكيا إبراهيم، وعبد السلام نور الدين، وطاهر وطار، ونايف بلوز، وفالح عبدالجبار، وفتحي المسكيني، علي حسين الجابري، ناجي التكريتي، أحمد ماضي.. وغيرهم الكثير من مختلف الاقطار العربية الذين لا تحضرني اسماؤهم الآن وهنا؛ عرفتهم بصورة مباشرة أو عبر كتاباتهم التي وصلت الى عدن. وحده الفيلسوف مدني صالح هو الذي لم أكن أعرفه قبل أن التقيه ببغداد منتصف عام 2001م. كنت مبعوثا من جامعة عدن لغرض استكمال الدراسات العليا دكتوراه فلسفة. قدمت اوراقي للقسم وقرر ضرورة استنهاجي للعدد من المواد الدراسية في برنامج الماجستير في السنة التحضيرية للدكتوراه؛ ست مواد دراسية استنهجتها. كان من بينها مادة للأستاذ مدني صالح في نقد الفكر العربي الحديث والمعاصر. وكانت المحاضرة الأولى التي دخلتها مع الأستاذ مدني صالح. دخلت قاعة المحاضرة متأخرا عن موعدها بخمس دقائق. استأذنت الأستاذ بالدخول، فسمح لي دون أن يعرفني. كان عدد طلاب الماجستير في القاعة قرابة عشرين طالبا وطالبة. كانت المحاضرة عن كتاب نحن والتراث للجابري. استمعت اليه وهو يحاور طلابه بصوته الخفيض ادهشتني طريقة محاضرته وادارته الأكاديمية الراقية والفريدة للمحاضر، إذ كان ينصت باهتمام ودود لأسئلة الطلاب ومداخلاتهم،

واثناء المحاضرة لاحظت أن بعض الزملاء اتوا متأخرين بنصف ساعة ودخلوا القاعة دون استئذان ولمحت بعضهم يغادر القاعة دون استئذان منه وقد تعجبت من هذا الحال وسألت زملائي بذلك فعلمت منهم أن الأستاذ مدني لم يكن يعير اهمية لمن يحضر أو يغادر من الطلاب، كما هو حال بعض المدرسين الذين يبدؤون محاضراتهم بتحضير الطلاب. الأستاذ مدني كان معنياً بالحاضرين فقط ولم يحضر الطلاب قط ويهمه كما عرفت منه من يتابع محاضرته بروحه وعقله. و"يجري ذلك كله ولم أره قد فارقته الابتسامة التهكمية أحياناً ، والمحيرة أحياناً أخرى ، ولكنها في جميع الأحيان ابتسامة تشعرك بألفة وحميمية آسرة. كما أنه لم يكن يحمل كتاباً ولا حقيبة حينما يدخل قاعة المحاضرة قط ومع ذلك كانت محاضراته مترابطة متسلسلة مدعمة بالاستدلالات والنصوص التي كان يحفظها بدقة متناهية" بعد المحاضرة التي استغرقت ساعتين، سلمت عليه وعرفته بنفسي ابتسم وقال: (اهلا بيك أهلا بيك!) ثم ذهبت برفقة زميلي الدكتور طارق الدليمي الى شارع المتنبي للبحث عن كتب الأستاذ مدني. هناك وجدت بعض كتبه الصغيرة، الجرم العظيمة الأهمية منها (أبن طفيل قضايا ومواقف، وهذا هو الفارابي، وهذا هو البياتي، والغزالي ومناهج الارتقاء) اشتريتها بدون تردد، وعدت الى سكني في ساحة ميسلون، والفرح يغمرني بحصولي على هذا الباقة الفكرية من حدائق مدني صالح الثقافية الوارفة الظلال، انكببت على قرأتها بحماسة منقطعة النظير لم اعرفها في حياتي مع الكتب والقراءة.

لمحة من حياة الأستاذ مدني صالح

من المؤسف أن فيلسوفا بحجم ومكانة الراحل مدني صالح ليس لديه سيرة ذاتية كاملة تروي قصة حياته وسياقاتها الاجتماعية والتعليمية والثقافية والفكرية منذ ميلاده وحتى وفاته. وحينما بحثت في الشبكة العنكبوتية عن سيرة حياة الأستاذ وجدت شذرات متفرقة عند من كتبوا عن الأستاذ مدني. كتبت في جوجل (سيرة حياة مدني صالح) وطلع لي في الموسوعة الحرة (يوكيبيديا) اسميّ موظف حكومي من تونس وشاعر من السودان ولم أجد شيئا عن استاذنا الراحل الجدير بالأهمية والقيمة والاعتبار لروحه السلام. وتلك مهمتنا نحن تلاميذه لنوفيه بعض حقه من الفضل والوفاء. واتمنى على الزملاء الاعزاء والزميلات العزيزات في العراق أن يجمعوا سيرة حياة استاذنا في كتاب جدير به وبنا وأنا على استعداد للتعاون معه فيما يمكنني عمله.

لقد كنت اعتقد انني اعرف الأستاذ مدني حق المعرفة، قبل أن ابدأ بكتابة هذا المقال، وحينما كتبت مبحث (سيرة حياة مدني صالح) وجدت نفسي في حيرة من أمري، إذ لم تكن بحوزتي معلومات كافية عن حياته وكل ما لدي مجرد ذكريات من السنوات القليلة التي كنتها معه في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة بغداد فضلا عّما بقي بالذاكرة من قراءاتي للكتب والمسودات التي أهداني ايها وهي ليست بحوزتي الآن. مما اضطرني الأمر للبحث عنها في الكتابات التي كتبت عنه والمنشورة في الانترنت. ومعظمها لا تحتوي على سيرة دقيقة ومرتبة لحياته

الجديرة بالتوثيق والنشر بكل تفاصيلها. وبإزاء هذا الجهل المعيب بسيرة حياة استاذنا الراحل تساءلت: من أي الأبواب ينفتح الحضور عن الغياب، من أي النوافذ يمكن لنا أن نطل على ذكر رحيل فيلسوف العراق العظيم، مدني صالح الذي جعل من جسده النحيل شعلة دائمة التوهج والإشعاع في حلكة الظلام العربي الوبيل؟ ثمة ملمح أسطوري في حضرة غياب الراحل المضيء، مدني الذي أسر القلوب والأذهان بسيل دافق من النور والجمال العصي عن النسيان والأهمام في ليل التاريخ والزمان. فإذا كان المرء يموت حينما يكف الناس عند تذكره! فها هو سقراط بغداد يحلق بعد اثني عشر عاماً من الرحيل في كل فضاءات الفكر والأدب المتسامية. حينما ولد الطفل مدني في ليلة هيتية باردة بمحلة (القلعة) عام 1932 على ضفاف نهر الفرات لم يكن يعلم ما كان يخبئه له القدر، ولم يكن يعلم بميلاده أحد غير والديه وذويه ولكنه ابى أن تمر حياته في هذه الأرض مرور الكرام، وأن يموت كما ولد في عالم النسيان، بل جعل من فرصة وجوده رمزا فكريا وثقافياً عربيا خالدا. نشأ وترعرع في كنف عائلة هيتية كريمة ومحافظة دينيا تلقى تعليمه التمهيدي عند (الملا) الذي كان يعلم التلاميذ اساسيات القراءة والكتابة والحساب كعادة أبناء المدينة في ذلك الزمن، ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية في ذات المدينة. بعد أن أكمل الابتدائية بتفوق تطلع إلى الالتحاق بالمرحلة الثانوية، وبسبب عدم وجود مدرسة ثانوية في هيت، ولأنه يحب العلم والتعلم أكثر مما يجب، حزم أمره وحمل حقيبته، ورحل إلى حيث يستطيع الوصول، فحط الرحال في مدينة الرمادي- مركز لواء الدليم- ولا ندري هل هو حظه أم حظهما حين درس العربية على أستاذه الشاعر عبد الوهاب البياتي واللغة الإنجليزية - كما يسميها- على أستاذه، الشاعر بدر شاكر السياب، فبعد أن عرفهما وتعرف عليهما عن قرب ازداد حبا للشعر الذي كان يقرضه في تلك السنوات وتعلق أكثر بالقراءة الأدبية وسعى إلى التفوق فكان له ما أراد فنجح مدني صالح، وكان لابد له أن يرحل إلى حيث الطموح الأكبر إلى حيث عاصمة العلوم والآداب مدى التاريخ والعصور. فنزل مدني صالح إلى مدينة الرشيد وفيها دخل بوابة جامعة بغداد، عبر كلية الآداب والعلوم ليجلس طالبا للفلسفة بكلية آداب جامعة بغداد الدفعة الأولى من طلاب قسم الفلسفة، وحصل على البكالوريوس بتقدير ممتاز والأول على دفعته وتسلم جائزته من امين العاصمة بغداد في احتفال رسمي مع خريجي الكليات الاخرى. نقل من دار الاذاعة عام 1953 وعاد إلى مدينته مدرسا، ولم يدرس موضوعا محددا أو منهجا مقررا، فدرس كل ما طلب منه تدريسه، وفي متوسطة هيت تعلم على يديه الكثير من الطلبة الذين تخصصوا فيما بعد بشتى العلوم. (ينظر، قحطان محمد صالح الهيتي: مدني صالح سيرة وذكريات موقع الناقد العراقي، 4 / 3 / 2015). في معرض حديثه عن نتاجاته الادبية يقول الأستاذ مدني: "بانه بدأ بكتابة المقالة عام 1949 في جريدة الاهالي واليقظة والسجل ويقول بأنني بدأت بكتابة الدراسة والبحث

منذ العام 1952 وأول مقالة ادبية كتبتها نشرت بعنوان (الاستقطاب الاجتماعي في مجلة المعلم الجديد) واخرى بعنوان الفكرة المولدة في اشعار بدر شاكر السياب نشرت في مجلة الآداب البيروتية عام 1967 ومقالة عن البياتي بعنوان البياتي والخيام وحانة الاقدار في شباط 1969 بعدها بدأ بنشر المقالات الاخرى في الصحف العراقية وعندها بدأت اسلوبيته تتكامل مع طلائع الاسلوبية المعاصرة والتي لم تكن كذلك إلا في الذي بدأ يظهر من انشائه المتميز بعد عام 1982 في جريدة الجمهورية وعلى الصفحة الثقافية بالذات (ينظر، سبتي الهيتي سبعة أعوام على رحيل المفكر، موقع جريدة الزمان،26 يوليو 2015). واكمل دراسته العليا في الماجستير والدكتوراه في جامعة كامبريدج في بريطانيا، وعمل استاذا للفلسفة في كلية الآداب بجامعة بغداد، منذ ستينات القرن الماضي. واصدر العديد من المؤلفات التي اهتمت بالفلسفة الاسلامية، والوجودية؛ القديمة منها والحديثة، ومن مؤلفاته: ''الوجود'' عام 1955 و''اشكال والوان'' عام 1956 و''مقامات مدني صالح'' عام 1989. والغزالي ومناهج الارتقاء وهذا هو الفارابي، والتربيع والتدوير، وابن طفيل قضايا ومواقف، وبعد خراب الفلسفة، وقرندل وحقوق الحمار، هذا فضلا عن كتاباته حول المسرح والتحليل النقدي وإصداراته الادبية والنقدية المميزة، وفي مقدمتها ''هذا هو السياب'' و''هذا هو البياتي''. وكان طوال حياته الانتاجية اسماً بارزاً في المجلات والدوريات المتخصصة والصحف اليومية. للأستاذ ولدين، طبيب صيدلي ومهندسة. توفي عن عمر ناهز 73 عاما بتاريخ 20 /7 /2007م. الف رحمة ونور تغشاه.

مدني صالح وجماليات المكان

يبدأ الفن لا من اللحم والدم ولا من العقل والوجدان، بل من المكان، والزمان من الفضاءات الحميمة التي تحتضن الكائن؛ المنزل، الشارع، الحي، البلدة، المدينة، الأرض، السماء، المناخ الليالي الأيام، النجوم الغيوم، المطر، الشمس، القمر، الشجر، البحر، الموج ، النهر، الجداول الرمال، الجبال، الوديان، الحيوان، الأنوار، الظلال، الأشكال والألوان، الغناء، الرقص، النحت، الرسم، الأزياء، الألعاب، العصافير، الأعشاش، الافراح، الاتراح، الألآم والآمال والأحلام. الخ، وكل تلك الأشياء الصغيرة الحميمة المؤطرة في السياق الحي الفوري المباشر لكينونة الكائن التي يعيشها متدفقة لحظة بلحظة من حياته. تلك الاشياء الصغيرة بتفاصيلها الحميمة التي تظل عصية عن النسيان هي التي يستلهمها الإنسان، المفكر، الفيلسوف، الأديب، الفنان، ويعيد صيغتها إبداعياً (فكرة، أغنية أو قصيدة أو قصة أو رواية أو لوحة تشكيلة فنية جميلة أو سيرة ذاتية أو رؤية فلسفية أو مقامة الخ). أنها أغنية الأرض المنتزعة من أرضها رمزياً بما تحمله من رسالة جمالية ذات دلالات ومعاني سيكولوجية وميتافيزيقية واجتماعية ثقافية وجمالية إنسانية سامية تهذب الأذواق والنفوس، والفنان لا يأتي المعجزات؛ بل هو ابن

بيئته وربيب زمانه تمنحه موهبته المرهفة الحساسية القدرة على إعادة صياغة الحياة في قالب فني يسر النظر، ويطرب السمع، ويبعث الشعور بالمتعة والفرح والجمال. من هنا يمكن لنا الاطلال على الراحل العظيم الذي حمل مدينته هيت في قلبه وعقله اينما حل وارتحل، رغم أنه ابى أن يلقب بها كما درجت عادات العرب عبر الأزمنة. كتب "كان مدني صالح يرفض أن يلقب بـ "الهيتي" ويأنف من هذه التسميات والألقاب التي تكرس سياسة التميز وتزيد التفرقة وتثير الضغينة، وفي راي أخر يرى أن رفض الأستاذ مدني صالح للقب الهيتي ليس لأنه يأنف من التسمية والتلقب بمدينته هيت لكنه كان له لقب عائلي مسجل في بطاقته الشخصية ودوائر الاحوال المدنية لم يرد أن يلقب به ولم يرد أن يتركه ويلقب بالهيتي لانه لقب عائلته المثبت في السجلات الرسمية، ولقد سئل يوما من أنت؟ فأجاب "أني ابن مدينة طلي من قيرها سفينة نوح" (ينظر، ناجح فلاح الهيتي، الفيلسوف مدني صالح ومدينته الفاضلة، موقع إيلاف، 22 يناير2008). لقد عرفت هيت ونواعيرها من الأستاذ مدني صالح رغم أنه لم يحدثني كثيرا عنها ولكنني بعد ملازمته والاستماع اليه دفعني الفضول إلى معرفة كل ما يتصل بحياته، فاشتريت كل اصداراته المتوفرة من مكتبات شارع المتنبي وشارع السعدون، وأهداني هو بعضها ومنها: مقامات مدني صالح، وفي مهب عواصف التاريخ وأبن خلدون والحرب، وفي التربية والتمكين وفي فلسفة الفن والإدارة وما بعد خراب الفلسفة وقرندل وحقوق الحمار، وغيرها.

ومن قراءتي لها عرفت كيف عاش طفولته في هيت الحبيبة إلى قلبه وكيف أثر مكان ولادته في كل حياته اللاحقة. ويذكر الدكتور عبد الستار الراوي اشياء عن ذلك من خلال ما كتبه مدني ذاته في مقاماته الاولى والثانية فيقول: "في البدء كان الحب وكان الفرات ومن المياه الاولى انبثقت هيت ومن شواطئها السخية صدرت الموجودات وجرى على أرضها نهر الجنة ومن هيت لا من غيرها حملوا (هُبل) وسارت به وبالهوى الإبل، ومن هذه المدينة لا غيرها خرج البناة الذين شادوا الاهرامات في مصر والسور العظيم في الصين والبرج البابلي المعلق في العراق وقيل إنها قامت وازدهرت قبل أن يكون أحد من السومريين في الوجود؛ نقلوا منها الطابوق والحجارة والأكار والجص وجذوع النخيل. وأن المعماريين قد سافروا منها الى (اريدو) فتفضلوا على أهلها وعلموهم بناء الزقورات أنها مدينة الحب، لا قاتل ولا مقتول، الا قتيل الهوى في اسفار العشاق الفقراء" (ينظر، هادي نعمان الهيتي، مدني صالح بأقلام مصنفيه، الناقد العراقي، 19 /8 /2015). وفي ذات السياق يذهب ناجح فليح الهيتي إلى أن مدينة هيت هي مدينته الفاضلة التي ذكرها في كثير مما كتب وأن هيت كانت معه اينما حل واينما رحل وقد كتب مفضلا اياها على بغداد وعلى لندن وباريس وغيرها من المدن الاخرى، فكتب عن معلميه فيها وسماهم الاعمدة السبعة مع ثامنهم مرشدهم وكتب عن نسائها ورجالها وذكر بساتينها وقراها واستعمل لهجة أهلها والفاظهم في كتاباته حتى في كتبه التي الفها

للأطفال والجدات والحكايات والاساطير.. لقد كانت هيت في قلبه دائما يقضي فيها جميع العطل الدراسية حتى سنة زواجه في 1972 وسفره الى الجزائر منتدبا للتدريس في جامعتها وكان كثير التردد على المدينة بعد رجوعه وقد ابقى السجل المدني له ولعائلته بعد زواجه في هيت ولم ينقله الى بغداد بعد استقراره الدائم فيها، أنها هيت (الرحيق) الذي يغذي قلبه. نفسه، عقله.. ووجدانه.. فذاكرته المتقدة دوماً، لم تبارح ساحة السراي.. تجذبه اجراف الدرستانية ويحن حنين العاشقين الى منازله الاولى، في المجنون، والحنينة والخوضة وبستان الحجي .. تلك مدينته التي احبها حباً جما وقرأ نبضاتها الاجتماعية، نبضاً نبضا، ويذوب شوقاً عشقاً، للرمل والبساتين ويبكيه شجن النواعير.. ينزل الفرات، أو يلج (المجنون) و(الخوضة)، يلتقط افراحه الكبرى، بطلع النخل حتى تصير تمرا، اول ما تنقر منها الطير .. يمتلئ قلبه غبطة بأزهار المشمش والخوخ والرمان وقداح البرتقال... وتجيء ايام الطفولة اليه تجري صحبة فيضانات تصير بها البساتين انهارا، فيجري والصبية بزورق القصدير من نخلة الى اخرى، ومن الرمان الى التين.. ويشرب الماء صبياً، كرعاً من اجواف الشط ومن الترع والسواقي في البساتين.. ينبطح ويمد رأسه في الماء يكرعه كرعاً.. مثلما تفعل الماشية والخيول.

وبرفقة الصحبة الخالدة يخيفون الذئب في البرية. فتنهزم الذئاب متراكضة أول ما يرفع الصبية الدشاديش وما كانت هذه الذئاب الا جدي يبتعد او خروف يقترب او علامة على تل في نهاية الطريق.. أو قد لا تكون الذئاب الا صنفاً من اشجار الطرفاء او الصفصاف. وهكذا يمنح مدني صالح الأمكنة أبعاداً فنية باذخة الجمال والمعنى ويجعلها تحلق فوق أجنحة الخيال في عوالم الإبداع الثقافي. مع مدني صالح ومن مقاماته عرفنا مدينة هيت وازقتها وزقوراتها وحكاياتها وعاداتها وتقاليدها في نصوص لا نمل من قراءتها مرة ومرات "إذ للمكان في عقل مدني صالح وقع خاص، وان ايحاءات المكان قد لا تُدرك من كل ناظر: "جدر أبو عرو" و"حجر باب الغربي" و"الست نفيسة" و"الأربعين" و"بنات نعش" و"الشاقوفة" و"الدوارة" وما الى ذلك، والحال ينطبق على شخصيات تكاد تكون اسطورية: لطيف، جليل، عبد عوينه، نعمان ووو... إن العراق غني بالأمكنة والشخصيات التي أوحت للفيلسوف بالكثير من ابداعه وهكذا ان الماضي "يظل حاضرا ويعمل في الاستعدادات التي أنتجها" (التي تعبر عنها تلك الأيام البعيدة تعيش زمنها الجميل: رياض زهور وغيوم وطيور وأغان، وبساتين نخيل وتوت وبيوت بسيطة حانية تتوسطها مئذنة عتيقة مائلة على النهر، في أرض يتحول فيها التراب والحجارة إلى خلايا حساسة ناطقة" (ناجح فليح الهيتي، الفيلسوف مدني صالح ومدينته الفاضلة، موقع إيلاف، 22 يناير2008) وتلك هي هسهسة اللغة كما عبر الآن بارت في كتابه نص اللذة.

مدني صالح المثقف النقدي العقلاني

إذا أردنا أن نقدر القيمة الحقيقة التي تنطوي عليها حياة مدني صالح ونشاطه

الفكري الثقافي فلا بد لنا من النظر إليه في السياق التاريخي الذي ولد ونشأ وازدهر وفكر في أرضه وفضائه. والسياق هو كامل الوسط الحضاري والثقافي والمدني في الوضعية الاجتماعية المشخصة. إننا إذ نقف اليوم عند مدني صالح ، فإننا نقف أمام حقبة فاصلة في تاريخنا، وحين يجعل البشر من تاريخهم موضع تساؤل فإنهم غالبا ما يتساءلون عن مصيرهم ،أو عن حاضرهم كمصير، ومهما كانت الإجابات متنوعة في صحتها أو خطئها، فإن وعيا تاريخيا يتشكل يحمل في طياته مستوئ وعي البشر العام بكل جوانب حياتهم. من هنا تغدو العودة إلى لحظه يقظة الوعي المستنير في عراق الاربعينيات ليست استعادة حلم استيقظنا على زواله بل عودة إلى تاريخ قريب شكل مرحلة انتقالنا إلى واقعه الحداثة بكل أشكالها المادية والمعنوية، الاستعمارية والتبعية الثقافية الفكرية والأخلاقية وما تثيره من ردود أفعال متباينة وتأويلات متعددة. وعبدالستار الراوي في حياته وسلوكه وأدبه وفكره وأحلامه إنما كان يؤرخ على طريقته لتغيير داهم طرأ في الأفق الروحي للعرب المعاصرين، ألا وهو ولادة طرق جديدة في التفكير تتخذ من واقعة الحداثة في الغرب إحداثية أساسية لها. وكما يقول فتحي المسكيني (أصبحت الحداثة فجأة برنامجا سريا لكل عقول المبدعين العرب في هذه الحقبة... وإنه ضمن أفق الانتظار هذا عمل أجيال من المفكرين العرب منذ فرح أنطون إلى محمد عابد الجابري، وذلك عسى أن يفلحوا يوما في تحويل ذلك الأفق من الانتظار إلى فضاء تجربة فلسفية أصيلة) (ينظر، فتحي المسكيني، دهشة العرب من الحداثة، مجلة دراسات فلسفية، بيت الحكمة البغدادي، 2002).

ويعد الفيلسوف مدني صالح واحدا من بين المفكرين العرب القلائل الذين تصدوا لمشكلة العلاقة بين الذات والآخر، بوعي نقدي عقلاني بلا افراط ولا تفريط ولا تعقيد ولا تبسيط ولا تهويل ولا تهوين. إذ أدرك أنه قبل إطلاق أي حكم نافذ على مجتمع آخر لا بد أن يبلور الباحث موقفا واضحا قدر الإمكان تجاه مجتمعه نفسه. وسرعان ما سيكتشف أن الطريق الوحيد لتحقيق كشف المحجوب عن الذات إنما يتم بالدراسة (المقارنة) لذاته في أثناء انهماكها برصد الآخرين ، وبأن يعي أنماط التشوهات التي ينطوي عليها هذا الموقف بالضرورة ، فرصد الآخرين وتأويلهم هو الوسيلة الناجعة إلى رصد الذات. وهذا هو بالضبط الموقف الذي سلكه مدني صالح، إنه موقف وعي الذات في لحظة اصطدامها بذات أخرى، ونقصد بالذات هنا المستويات المتعددة من الهوية الشخصية الذاتية الخاصة والاجتماعية والسياسية العامة: الانتماء إلى المدينة الحاضرة (هيت بغداد) والهوية الوطنية، والقومية العربية والدينية الإسلامية، والجهوية الشرقية، هذه الدوائر المتداخلة من الهوية التي كانت تتبلور في عقل وضمير ذلك الشاب الموهوب الذي وعي نفسه أول ما وعي على عالم جديد وغير مألوف في التاريخ الشرقي الطويل، عالم الاستعمار الغربي الإنجليزي للعراق العربية الإسلامية الشرقية. هنا يمكن البحث عن جدلية الموقع والموقف في حياة مدني، فكما أن الموقع يفسر الموقف كذلك

يضيء الموقف عتمة الموقع. لقد وجد الشاب المتطلع للحرية نفسه في موقفه العراقي العربي المسلم السني الشرقي وهو موقع لا خيار له فيه ولا قدرة لديه على تغييره أو تبديله، في مقابل حداثة استعمارية حضارية ثقافية مدنية منتصرة، إنجليزية أوروبية غربية مسيحية علمانية عقلية علمية صناعية مزدهرة، فكيف واجه مدني صالح هذا الموقف الإشكالي الخطير. إذ يعد المفكر العراقي مدني صالح الهيتي واحدًا من أبرز المثقفين العرب الذين تصدوا للتحديات الفكرية الكبرى في عصرهم ،وأهميته تكمن في كونه يمثل تجربة فكرية وثقافية أصيلة ومتفردة نشأت وتبلورت في خضم الحياة اليومية المعيشة وفي سياق المجابهة الحية بين الفكر والواقع في علاقة حميمة مع العالم المعاصر وعقلية مستنيرة منفتحة على التاريخ والتراث والمعاصرة. وعلى الرغم من انه تخصص بالفلسفة إلا أنه مثقف متعدد الاهتمامات فالفلسفة لم تكن لديه مجرد معرفة نظرية بل هي مشروع فعل تنوير وتغيير يمارسه المثقف في سبيل تنوير مجتمعه وتنميته والنهوض به والارتقاء بتاريخه ومجتمعه مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون ،أنه مثقف عاش تجربته الثقافية لحظة بلحظة ونبعت أسئلته من موقف شخصي ملتزم ووعي عميق بالذات وبالآخر. وضدا من أولئك المثقفين الذين فضلوا العيش في أبراجهم العاجية، نجد في نصوصه نزوعا متقدا ورغبه جامحة في اقتحام دروب فكرية عسيرة ومناوشة مشكلات فكرية كبيرة، إذ كان مسكوناً بهاجس البحث في الأسئلة التي تستوجب الطرح والنقاش وعن المسكوت عنه بما يستجيب لمقتضيات الواقع العربي والعالمي الراهن. لذا جاءت تجربته الفكرية الثقافية مفعمة بالحياة، إذ هي نابعة من قلب مثقف قلق، حنكته الصعاب وأنضجته التجارب، وصقلته الممارسة وهذبته العلوم والفنون والآداب. وحينما نقرأ تعريف المثقف العضوي كما وصفه الأمريكي (سي رايت ميلز) بذلك الشخص الذي يقاوم ويتصدى لتمثيليات السلطات كلها والطعن فيها وفي شرعيتها والتشكيك فيما يسمى (بالروايات الرسمية) ومداومة نزع الأقنعة وتحطيم الأشكال النمطية للرؤية والفكر المهيمن وتقديم صورة بديلة يحاول المثقف فيها أن يكون صادقا ما وسعه الصدق مع نفسه ومع غيره ومع حقائق الأشياء. وكما هو معروف أن واجب المثقف أو المفكر الحقيقي هو الانحياز إلى صفوف الضعفاء الذين لا يمثلهم أحد في علاقات القوة والسلطة، والضعفاء هنا سواء أكانوا أفرادا أو جماعات أو ثقافات أو شعوبا ودولا صغيرة مضطهدة، فما بالك لو كانت محتلة ومهزومة ومدمرة. بهذا تكون صورة المثقف كما يلح ميلر ”ليس داعية مسالمة ولا داعية اتفاق في الآراء، بل شخص يخاطر بكيانه كله باتخاذ موقفه الحساس وهو موقف الإصرار على رفض ”الصيغ السهلة“ والأقوال الجاهزة المبتذلة، أوالإكليشات العامة الأيديولوجية أو الأفكار الشائعة وأنصاف الحقائق، بل على المثقف أن يمثل ويلتزم التعبير عن معاناة الأفراد والجماعات من أبناء شعبه والشعوب الأخرى، بصدق وأمانة وتجرد“. حينما نقرأ ذلك يتداعى إلى

اذهاننا صوت مدني صالح الذي عاش دون أن يشك بان الفجر صالح لكل الاعمار وأن الشمس تشرق كل يوم من جديد، حينما مات فكّر بالولادة لأنه كان مقتنعا بان الحياة النامية ستزهر بألف وجه ووجه من الجمال الفتان.

فيما يشبه الخاتمة

وهكذا هو الراحل العظيم الفيلسوف مدني صالح بعد اثني عشر عاماً من الرحيل والغياب ينبعث حاضرا في فضاء الفكر والإبداع في بغداد وفِي كل مكان تقريباً من عالمنا المعاصر. إذ من المؤكد أن الفتى مدني كان قد أفزعه أن تنتهي حياته كما بدأت في أي مكان وكيفما اتفق، فغيّر بعبقرية كل شيء، إذ أدرك أن ضربات السيف تذهب أما ضربات القلم فهي آثار خالدة، فصب رحيق حياته في حروف من النور واستبدل ضجيجها كلمات لا تمحى، وأحل محل جسده النحيل الفاني أسلوباً يدل عليه وصوتاً يحمل اسمه، ومنح ذاته جسماً غير قابل للبلى والاهتراء، إذ إنه كتب ليس لمجرد الرغبة في الكتابة، وإنما لينحت من المشاعر والأحاسيس والأفكار والكلمات جسم المجد الرفيع هذا مدني صالح. في 2007/7/20 تتوهج روح مدني صالح وتخرج منها عشرات الفرشات الملونة ستخفق بأجنحتها الباذخة الجمال وتحلق في فضاءات الفكر والثقافة العراقية والعربية والعالمية الإنسانية، وتطير وتهبط فوق رفوف المكتبات وفِي اروقة الجامعات والمدارس والمعاهد والمنازل والمعارض والمدونات وتلك الفراشات الورقية الطائرة هي مدني صالح الرمز الإبداعي الخالد الذي أبى أن يموت فأضحى آلاف الصفحات وملايين الحروف والأفكار المجنحة، إنه يولد من جديد ويصبح أخيراً إنساناً كاملاً متكلما مغنياً مزمجرا يؤكد حضوره الفاعل ضد جمود المادة القاسي، ومكر الزمن القاهر. ويحق لأستاذنا الراحل أن يفتخر بذاته ويحق لنا نحن تلاميذه اليوم أن نفتخر بأستاذنا في حضرة الغياب بلسان حال يقول: ها أنا معكم وفيكم وبينكم وليس ثمة من يستطيع نسياني ولا من يغرقني بالصمت، أنني رمز كبير والرموز خالدة لا تموت، فإذا كان ضميري غائباً فقد تكفلت بي ضمائر أخرى، فأنا في جميع الأفواه لغة عالمية، وأنا في ملايين القلوب والأذهان انتصب فضولاً قابلاً للاتساع، أنا لست موجوداً بعد في أي مكان، أني موجود أخيرا في كل مكان!أنا مدني صالح وكفى.

تلميذ مدني صالح المخلص أ.د. قاسم المحبشي

شيء من مدني صالح والفلسفة

الدكتور محمد فاضل عباس

اختار مدني صالح الفلسفة متمنياً أن تزيده ألقاً كلما ازداد حباً بها، ترجى بها جاهاً وجاهة ألقاً، وأراد منها أن تُهذب نفسه من الشرور والآثام وتنقي عقله من الخرافة والأوهام وتنمي ذوقه وخياله كي يتغزل بالجميل ويتذوقه الذي كلما زدته نظراً ازداد تألقاً، والذي تخاف عليه من الزوال. جاء مدني صالح إلى الفلسفة راغباً محباً عاشقاً لها، لم يأتها جراً وعراً، جاءها متوسلا بها أن تحتضنه ومتوسماً بها حلاً لمشكلة، لا بل حلاً لمشكلات الإنسان من أينما جاء، جاءها من العلم ولم يأتها من الخرافة، جاءها كما جاء إليها طاليس وانكسمندريس وفرنسيس بيكن وديكارت وبرتراند رسل، جاءها من العلم الطبيعي فيزيائياً وكيميائياً وبايولوجياً وفسلجياً، وبعد أن قبلته الفلسفة قدراً لها وما أجمل قدرها، إنه لقدرٌ يعتز به كاعتزاز الراهب بعزلته وكاعتزاز الزاهد بزهده وكاعتزاز المتصوف بمرقعته والعاشق بعشيقته لا يجمعهما إلا الكوخ سقفاً والبارية فراشاً ولا يدفئهما إلا الحطب ناراً ولا يطعمهما إلا ما تنبت به الأرض. تضرر كثيراً منها، لكنه كضرر العاشق الولهان المدنف من معشوقته، كضرر ابن الملوح من حبه لليلى، وكضرر عنترة من حبه لعبلة وكضرر جميع العشاق المعاميد الصعاليك الذي هو منهم حقيقة ومجازاً من حبهم للخير الحق الجمال، تضرر مدني صالح من حبيبته الفلسفة وتضرر من الدخلاء عليها كثيراً كثيراً، تضرر من الذين لا كعاب لديهم ولا هم يلعبون، ويصرون على اللعب إذا ما حان وقته ويخربون الملاعب ومن الذين لا مناجل عندهم ولا هم يحصدون ويصرون على الحصاد وبهم يخرب الحصاد، وأول ما تضرر وتضررت حبيبته من مناهج المستشرقين التي سحبت الفلسفة إلى أوحال التعصب والانغلاق والطائفية، التي أبعدتها عن العلم الطبيعي، الذي نتفق فيه وعليه، عن العلم الذي يجمعنا، وأدخلتها إلى مناطق الاختلاف والنزاع، إلى مستنقعات الخرافة والسياسة والتغالب والتكالب، أراد لها أن لا تقع في أحضان الخليفة الامبراطور الملك الأمير، الأمر الذي جعل منها نديمة تُقدم الولاء للخليفة السلطان الأمير الامبراطور الملك، تنصره إذا أراد نصرة وتسليه إذا كان منزعجاً وتداريه إذا كان منفعلاً، وظل مدني صالح متضرراً من الذين لا نعرف من أين جاءوا إليها، من الذين جاءوا إليها ولا رغبة لهم فيها ولا قدرة لهم عليها، وارتبطوا بها، كالذي يرتبط بمن لا يحبها ولا تحبه، لا يفهمها ولا تفهمه، ولا يقدرها ولا تقدره، لا يحترمها ولا تحترمه، وينقضي العمر بين رجل وامرأة لا يطيق أحدهما الآخر، وتستمر الحياة، فقد أساءوا لحبيبته التي تمسك بها بالصورة التي يراها عليها، تمسك بحبيبته التي أراد منها أن لا تعاند العلم وأن تنحسر إزاء مده وأن

تقف له وقفة تبجيل واحترام وأن تنسحب ولا تجادل أمامه وأن تترك كل الذي تمكّن العلم من حلّه وتفسيره، وأن لا تُجيب عن أسئلة قد أجاب عنها العلم، وأن تبتعد عن الحديث في كل ما قد أسقطه، في الحديث عن فلك القمر والعقول العشرة أو الحادية عشرة وأن تبتعد عن العلم الطبيعي الأرسطي وعن طب أبقراط وجالينوس والرازي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل وعن فلك بطليموس وأن تأخذ بما جاء به هارفي ومندل وكوبرنيكوس وغاليلو ولا فوازيه وأمبير وتيسلا وآينشتين وأن تأخذ بالذي سوف يأتي به العلماء في المستقبل، فالذي بقي للفلسفة كل ما نختلف به وعليه، وكل ما لا نعرفه ولم يقل به العلم قوله الفصل، ومتى ما عرفناه خرج من دائرة الفلسفة ودخل دائرة العلم، فالذي بقي لها أشياء وأشياء في الفن والجمال والسياسة والأخلاق، وفي التربية وتهذيب النفس والذوق وفي التدريب على حب الخير وعلى الاكتفاء بالذات والاستغناء عن الغير وفي التدريب على الدفاع عن العشاق المعاميد الصعاليك وفي الدفاع عن الفقراء الضعفاء المظلومين والمسحوقين وفي مواجهة التاجر الشايلوكي المُحتكر المُستغل، وفي الموقف والسلوك وذلك أضعف الإيمان، بقي للفلسفة أن تدافع عن كل ما هو جميل وخير وعادل، بقي لها أن تُنمي ذوقنا وأن تدافع عن بيتهوفن وموتسارت وأن تُدافع عن أم كلثوم وعبد الوهاب وفيروز تجاه الطبالين الذين ملأوا الدنيا زعيقا نعيقاً وضجة ضوضاء، وأن تدافع عن مايكل أنجيلو ومونيه وعن فائق حسن وجواد سليم تجاه كل من ادعى أن الرسم لا قواعد له ولا ضوابط فيه وأن تدافع الفلسفة عن السياب وقباني والبياتي وشوقي والمتنبي والمعري وطرفة وامرئ القيس بوجه كل من مسك قلماً وأصبح شاعراً، أن تدافع عن الفهم الصحيح لعالمنا وأن تناصر العلم في فهمه لكوننا هذا وأن تقف ضد الخرافة والزيف والتنجيم والمنجمين وقارئي الطالع وأن تدافع عن ما توصل إليه الطب بوجه الدجالين وأن تناصر الأفاضل الأخيار العلماء من الأطباء وأن تدافع عنهم وتقف إلى جانبهم حتى وإن أخطأوا، فالعلم يصحح خطأً ويستفيد منه ليس كالذي يقدس حقيقة، فتاريخ العلم تاريخ تصحيح أخطاء لا تقديس حقائق.

بقي للفلسفة من أمر التربية الكثير الكثير، التربية التي جعلها أفلاطون على رأس فلسفته وصدراً في جمهوريته والتي جعلها مدني صالح على رأس فلسفته قبل خراب الفلسفة وبعدها، إنه هو الذي اعترض على أنكم تهدرون من العمر أرقاه ومن الطاقة أرقاها في تعليم أبنائنا بعضاً مما أراده السايكسبيكويون والذي منه تهدرون من الطاقة أرقاها ومن العمر أرقاه في تعليم اللغات الأجنبية وجعلها فرض عين علينا لا فرض كفاية، ونتخرج ولا نجيد من اللغات الأجنبية ما يتناسب مع عشر معشار سنوات تدريسها لنا ومع عشر معشار ما نهدره من الطاقة والعمر عليها.

ظل مدني صالح معترضاً على أننا لا نزال نَدرس ونُدرِّس ثقافات ساقطة، قد أسقطها العلم الطبيعي، ونهدر بها وقتاً وجهداً وتشغل حيزاً من تفكيرنا وتأخذ مكاناً في عقلنا وتلوث لنا معرفة صحيحة، فلا بأس من المرور بها مروراً سريعاً على أنها جزء من نمط تفكير سالف سابق على العلم الطبيعي الصحيح وأنها نمط قديم لفهم عالمنا، وعلينا

أن نوضح ونحن نمر بها على أنها لا تمثل إلا جزءاً من الثقافات الساقطة التي أسقطها العلم الطبيعي الحديث القائم على مناهج الاستقراء الحديث، والتي منها نظرية الفيض والتي منها مجمل آراء فيثاغوراس وافلاطون في النظام الفلكي والتي منها العلم الطبيعي الأرسطي والتي منها كل مباحث الطبيعة منذ طاليس وحتى كوبرنيكوس وغاليلو وطلائع العلم الحديث، مثلما علينا أن نستفيد من العلم حتى في ميتافيزيقانا المعاصرة، نستفيد منه في أخلاقنا وتربيتنا وسياستنا وفي أسلوب حياتنا، ولا نأخذ بالعلم في فننا وإبداعنا وخيالنا، فالفن من عالم الخيال لا من عالم الواقع، وأن نترك العلم ولا نصغي له في التصوف وفي الوجودية وفي عشقنا لعبلة ودليلة وعزة وميّة، فالعشق من عالم الخيال، من عالم الأمنية الحلم والحلم الأمنية، والعشق كالتصوف كالفن كالوجودية من عالم المثال الكلي المطلق المجرد لا من عالم الواقع الجزئي النسبي المحدود، فالحب أصدقه أكذبه؟

أراد مدني صالح للفلسفة أن لا تسقط في أوحال الأيديولوجيات وظل مدافعاً عن وحدة الفلسفة واتحاد الفلاسفة، فإذا كانت الوجودية استغناء عن الغير والماركسية اكتفاء بالذات فلِمَ الخلاف والاختلاف بينهما؟ وإذا ما علمنا أنك لا تستطيع الاستغناء عن الغير إلا بتحقيق الاكتفاء بالذات وأنك لا تستطيع الاكتفاء بالذات إلا بالاستغناء عن الغير، فلمَ الخلاف؟ وعلى ماذا الاختلاف؟ وإذا كان واجب الوجود الذي إذا تصورته غير موجود ترتب على تصورك مُحال، الكلي المطلق المجرد، مثال الخير الأعظم المحرك الذي لا يتحرك، النزوة الحية، اللا محدود، الذي ليس كمثله شيء فلمَ الخلاف؟!! ولماذا الاختلاف ؟!! فلمَ الخلاف بين الفلاسفة ولماذا الاختلاف بين الفلسفات وهم يدعون إلى مجتمع فاضل تسود فيه العدالة ويعم فيه الخير الحق الجمال ويكون فيه القانون أقوى من المليونير وتكون فيه الدولة أقوى من الفرد التاجر المحتكر ؟!!

إن الخلاف والاختلاف لم يأت للفلسفة ولا للفلاسفة إلا من فهم المستشرقين لها ولهم ومن مناهجهم التي أسقطت الفلسفة في أوحال التعصب والانغلاق والطائفية.

أراد مدني صالح فلسفة واحدة نافعة ممتعة مختصرة مفيدة، بعيدة عن التعقيد مثلما ظل مدافعاً عن البساطة والوضوح وعن الوحدة والجمع والتلخيص والاختصار، حتى أنه كان يلهج باستمرار متسائلاً: ما الذي في الفلسفة الإسلامية من ألفها إلى يائها ولا تجده في كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي أو في كتاب (قصة حي بن يقظان) لابن طفيل، كما أنه دأب باستمرار على أن لا يذكر ولا يُدرس القضايا التي قد أسقطها العلم وهو يتحدث في تاريخ الفلسفة، فإنه لا يتحدث عن نظرية الفيض إذا ما مر بالفارابي كما لا يمر بالطبيعة عند أرسطو إذا ما أراد الحديث عنه، وإنه يلخص فلسفة القرون الوسيطة بجملة واحدة على أنها ظلت أسيرة مناهج اللاهوت.

ينطلق مدني صالح في الحديث عن البداية الصحيحة للفلسفة من طاليس، من الفلاسفة الطبيعيين الأوائل، ويؤكد أنها قد بدأت علماً معهم، لأنهم بحثوا عن الأصل التكويني المشترك لجميع الموجودات بحثاً علمياً طبيعياً فيزيائياً في البحث عن مبادئ الحركة، كيميائياً في البحث عن مبادئ التغير،

بايولوجياً في البحث عن مبادئ الحياة، لأنهم لم يبحثوا عن أصل ميتافيزيقي لهذا العالم، لأنهم بحثوا عن أصل مادي يتشكل ويتركب ويتكون ويكوِّن جزءاً أساسياً من الموجودات في العالم.

كما دعا مدني صالح إلى التمسك بالسوفسطائية فلسفة ومنهجاً في التربية، وسيلة وأداة لفهم النفس البشرية ولفهم الحياة على أساس التغير والنسبية، لكنه سقراطي في الموقف من الحياة وبأسلوب العيش لا بالتربية، أبيقوري في النظرة إلى الحياة وفي الموقف منها، رواقي في الزهد والعزلة واليأس من الناس، أفلاطوني أرسطي في مجمل تاريخ الفلسفة، فلا أعظم في نظره من أفلاطون إلا أرسطو ولا أعظم من أرسطو إلا أفلاطون، إنه فارابيٌ في واجب الوجود وفي الدعوة إلى الموسيقى، سينويٌ في الخلاصة التي توصل إليها ابن سينا: على الفيلسوف أن يُعظِّم الشعائر أمام العامة كي لا تنحل العقيدة عنهم، فلا دين يتبعون ولا فلسفة يفقهون، غزاليٌ في منقذه من الضلال وفي رفضه أن تكون الفلسفة فرض عين على كل مسلم ومسلمة، لم يكن مع الكندي في شيء لا في تناهي جرم العالم عنده ولا في كلامه، ولم يكن معتزلياً مع المعتزلة في شيء ولا أشعرياً مع الأشاعرة في شيء، لم يكن متكلماً ولم يُعجب بمتكلم منذ نشأة علم الكلام حتى الساعة التي رحل فيها، لم يكن إلا حلاجياً سهروردياً بسطامياً، لم يكن إلا مع أخوان الصفا وابن عربي في تسامحهم وفي رفضهم التضييق في أمور العبادة، وفي اعتزالهم الناس ومباهج الحياة وبهرجها، فإنهم الذين يستحون من الله ويخافون الناس، إنهم الذين يحترمون الذات ويقدسونها ويذهبون بها بعيداً عن الآخرين، لكنه ليس مع المتصوفة المعامید الصعاليك تربوياً ولا اجتماعياً، إنه الذي جمع بين التصوف والوجودية من منطلق رفضهم جميع الجوائز إلا جائزة الصعاليك العشاق المعامید الأفذاذ، ومن منطلق الموقف من الحياة من احترام الذات والحفاظ عليها كريمة عزيزة غالية، من منطلق الابتعاد عن المغانم والمكاسب والتغالب عليها، إنه معهم لأنهم ليسوا منبريين ولا احتفاليين ولا خطابيين، غير متدافعين، لا يكسبون إلا رزقاً حلالاً من عرق الجبين وحرائق الأعصاب.

إنه مع جون ديوي في التربية والسياسة لا مع برتراند رسل، وإنه مع برتراند رسل وسارتر وبرناردشو في الموقف من الحياة، في الموقف من السياسة الاستعمارية الاحتكارية، وفي الموقف من السلام العالمي، إنه مع هربرت سبنسر في توظيفه العلم الطبيعي في الفلسفة، إنه مع أن التاريخ يتحرك من جميع الجهات إلى جميع الجهات، لا بداية له ولا نهاية، لا مع هيجل في دعوته لنهاية التاريخ ولا مع فوكوياما، إنه أقرب ما يكون إلى الفلاسفة التجريبيين الإنجليز وإلى الواقعية عامة في النظرة للعالم وأبعد ما يكون عن المثالية الألمانية المتمثلة بفخته وشيلنج وهيجل، أقرب إلى سارتر وألبير كامو في الوجودية منه إلى هيدجر وياسبرز، كما أنه يوصي الفلسفة أن لا تتدخل بشؤون العلم والعلماء ، فمنذ فرنسيس بيكن الذي فصل مناهج الفلسفة عن مناهج العلم وحتى الساعة لا حاجة للعالِم بالفيلسوف ولا بمناهجه. إن كل الذين دخلوا العلم من الفلسفة قد دخلوه مدخلاً خاطئاً خائباً، وأن كل الذين دخلوا الفلسفة من العلم قد دخلوها مدخلاً

صحيحاً، فالعالِم يدخل الفلسفة بمناهج العلم التجريبي الصحيح والفيلسوف يدخل العلم بمناهج المستشرقين الملائيين، فكل الذين دخلوا الفلسفة من العلم كانوا فلاسفة فلاسفة، ومنهم افلاطون الذين دخلها من الرياضيات ومنهم أرسطو الذي دخلها من العلم الطبيعي ومنهم ديكارت ووليم جيمس وبرتراند رسل وهربرت سبنسر.

إنه مع ديكارت في فصل مناهج الفلسفة عن مناهج اللاهوت، وإنه أقرب ما يكون إلى عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود وفؤاد زكريا منه إلى إبراهيم بيومي مدكور وعلي سامي النشار ويوسف كرم، إنه أقرب إلى طه حسين منه إلى العقاد في أغلب آرائه، لكنه ليس مع طه حسين في فهمه للشك الديكارتي وتوظيفه له.

إنه مع أن نقرأ تراثنا بأنفسنا لا من خلال المستشرقين وأن نقرأ مجمل تاريخ الفلسفة بأنفسنا لا من خلال المستشرقين، إنه مع أن نقرأ تاريخ الفلسفة من برتراند رسل لا من الأب كوبلستون – على سبيل المثال – أن نقرأ الفلسفة من الفلاسفة الذين جاؤوا إليها من العلم الطبيعي الصحيح لا أن نقرأ الفلسفة من الذين جاءوا إليها من التعصب والانغلاق والخرافة، من المستشرقين الملائيين، وأن نقرأ تاريخ الفلسفة الإسلامية من عبد الرحمن بدوي وأن نقرأ التصوف الإسلامي من عبد الرحمن بدوي وكامل مصطفى الشيبي لا من آربري ونيكسلون وبراون.

إنه مع التربية الطبيعية لا مع التربية الوعظية، إنه مع جان جاك روسو في التربية لا مع الغزالي في (أيها الولد)، إنه مع المصريين العرب المعاصرين في الطريقة والأسلوب في الكتابة عن الفلسفة وتاريخها لا مع المغاربة الجزائريين التونسيين لا في الطريقة ولا في الأسلوب.

أراد مدني صالح للفلسفة أن تكون معاييرها كمعايير الأولمبياد، وأراد للفلاسفة أن يكونوا كأبطال الأولمبياد، أراد أن تعلمنا أن نصفق للأعلى الأقوى الأسرع من أينما جاء لا على أساس لونه وجنسه وعرقه ودينه، لا على أساس شرقه وغربه شماله وجنوبه، لا على أساس إلا الإبداع في الرأي والتجويد في العمل، لا على أساس إلا المنافسة الشريفة، فإنك تحصل على الميدالية الذهبية إذا قفزت أعلى و ركضت أسرع ورفعت أثقل، إنه الحب الأولمبي، إنه التنافس الشريف واللعب النظيف، والجائزة المُستحقة التي تحصل عليها من التعب والجهد والمثابرة.

وإذا كان لا بد من كلمة أقولها في هذا المقال عن مدني صالح، فإنها بحق الدكتور فيصل غازي مجهول الذي أحلت له المقالة لإبداء رأيه فيها وذلك لأمرين: الأول أنه من الذين يعرفون مدني صالح معرفة ممتازة، والثانية أنه من الذين يجيدون اللغة العربية إجادة الموهوب بها والمخلص إليها، الجاد في إتقانها وتعلمها، الباذل جهداً جهيداً في ترويضها، والذي قام مشكوراً بتنقية هذه المقالة من الأخطاء الإملائية والنحوية وحتى الطباعية منها، كي تليق هذه الكلمات بمكانة مدني صالح، فشكراً للدكتور فيصل غازي مجهول.

خطاب الما بعد عند مدني صالح ونقد الهيمنة الغربية

أ.د. رائد جبار كاظم
أستاذ الفلسفة في الجامعة المستنصرية

ملاحظة في الكتابة عن مدني صالح:

فعلاً هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها في كتابات المفكر مدني صالح، أتفق بها تماماً مع د. قاسم جمعة الذي يقول: بـ (ان الكتابة عن مدني صالح هي ضرب من التحدي. والقراءة التي تروم فحص طبيعة نصه أو خطابه تدخل في متاهات العوالم والفضاءات المتداخلة في نسيج الكيان النصي... والنص الذي يقدمه مدني صالح يؤسس لخطاب فلسفي مغاير. ولأن دلالات أسلوبه الجمالي تفتح آفاقاً لتأويل متجدد. فالكتابة عند مدني هي تأسيس للاختلاف والوعي به ونقل لأفق الفلسفة من الداخل إلى الخارج، أو بالأحرى أنه يؤسس لخطاب فلسفي يعالج بنفس نقدي أموراً ظلت بمنأى عن الإهتمام الفلسفي)[1].

ملحوظة تاريخية عن تحولات مدني صالح الفكرية الأخيرة:

يعد تاريخ 1995/4/22، حدثاً انقلابياً في كتابات مدني صالح، فهو يصرح بأنه نادم على كل ما كتبه ونشره قبل هذا التاريخ، سوى كتابه (المقامات)، لأنه ليس من الفلسفة في شيء، وانما هو من الأدب الخالص، اذ يقول مدني صالح: (هذا واني نادم اليوم، ألوم نفسي على كل ما كتبت قبل 1995/4/22، في كتبي ومقالاتي ومحاضراتي من أقوال منها قولي: ان الأدب يظل هراء ما لم يكن فلسفة، كما تظل الفلسفة هراء ما لم تكن أدباً، الأمر الذي استدرج النقاد الى استعجال أفراح تلقيبي بمؤدب الفلسفة حيناً، وبمفلسف الأدب حيناً آخر، وبالجمع بين اللقبين في جميع الأحايين)[2].

وكما هو ملاحظ في كتابات مدني صالح الأخيرة بعد هذا التاريخ فأنها ذات بعد فلسفي بحت، ولكنها لا تخلو من الأسلوب الأدبي، بعكس كتاباته قبل هذا التاريخ وطابعها الأدبي البحت الذي لا يخلو من فلسفة. وكما يقول د. فوزي الهيتي: (والمتتبع لنتاج أستاذنا ما قبل وبعد هذا التاريخ يلاحظ بالفعل أن هناك اهتماما وانشغالا واضحا في موضوعات محددة، لم يكن قبل هذا التاريخ معنيا بها، حيث نرى أن جل نشاطه الثقافي كان منصبا

على الأدب والنقد الأدبي، في حين تحول اهتمامه في الآونة الأخيرة إلى مجال ثقافي وإبداعي آخر، يقترب فيه من مجال تخصصه الأكاديمي - الفلسفة - واعتقد أن هذا التحول يعد تطوراً في مساره الفكري وإنتقالة نوعية في مجاله الإبداعي، وليس تغيرا في مساره الفكري، بمعنى أن مدني صالح بدا بالدرس والنقد وإنشاء العبارة الأدبية المعبرة عن مذهبه الفلسفي، وبعد أن تطورت أدواته المنهجية، وتحددت ملامح مذهبه الفلسفي، انتقل إلى مرحلة التأسيس والتنظير الفلسفي لهذا المذهب، فأنتج لنا في هذا الإطار مجموعة من النصوص المؤسسة لمذهبه)[3].

وقد سجلت رأياً نقدياً عن وجهة نظر مدني صالح في ما يخص هذا التاريخ، (اي عن ندمه لما كتبه قبل التاريخ المذكور)، لأن موقف صالح هذا يحتمل احتمالين وهما:

الاحتمال الاول: ان مدني صالح فعلاً انه نادم ندما حقيقيا عن كل ما كتبه في مجال الادب، وابتعاده عن الكتابة في تخصصه الدقيق وهو الفلسفة، وانه حرم نفسه وقراءه من متعة التخصص الدقيق الذي كان بالامكان ان يستثمر كل جهده في قراءة وكتابة البحث والنص الفلسفي، لان ما تركه من نتاج في حقل الادب والنقد الادبي كبير جداً يفوق الحقل الفلسفي.

الاحتمال الثاني: ان مدني صالح غير جاد في ندمه هذا، وربما ان التاريخ اعلاه يعد مجرد حد فاصل في تاريخ الكتابة عند مدني صالح في توجهه نحو انتاج النص الفلسفي (اقول النص وليس البحث) لان توجهه الاخير انصب نحو انتاج النص الفلسفي، وهذا واضح من خلال كتاباته، ومنها بعد الطوفان وبعد خراب الفلسفة.

ولكنني ارى ان لا حاجة لمدني صالح لهذا الندم، فالاسلوب الادبي هو الاسلوب الذي طبع مدني صالح وصنع اسمه وبه نشر فكره، وما كان ليكون هذا الاسلوب لولا توجهه الكبير والمبكر نحو الادب وتفرعاته، بل ان شهرة مدني صالح اتت من خلال هذا الاسلوب، فلو انه توجه توجهاً فلسفياً بحتاً منذ بداية حياته لا ندري قد يحقق هذه الشهرة او لا يحققها. هذا من جانب، ومن جانب آخر فمدني صالح لم ينقطع عن ممارسة الفلسفة وهو منشغل في ميدان الادب، فهو يحاكم الادباء والكتاب والمثقفين محاكمة فلسفية. ولكننا نسجل على مدني صالح تأخره عن كتابة النص والانتاج الفلسفي، فكان عليه ان يحرص على الانتباه الى ان لديه: قارئا عاما وقارئا خاصا، او قارئا مثقفا وقارئا فلسفيا، فهو لمدة طويلة يكتب للقارئ المثقف ومدة قليلة كتب للقارئ الفلسفي المختص، وانا اوافقه ندمه ان كان يصب في مصلحة القارئ المختص، فهو فعلاً ابدع في مجال النص والنتاج الفلسفي في السنوات الاخيرة من حياته، ولكنه في الوقت نفسه سجل فلسفته منذ زمن مبكر من حياته عن طريق اسلوبه الادبي الجذاب، الذي تميز به عن الآخرين[4].

خطاب الما بعد بين مدني صالح وما بعد الحداثة:

يمثل خطاب (الما بعد) مرحلة جديدة لخطابات (الما قبل)، وخطاب الما بعد خطاب ثوري نقدي تغييري انقلابي،

في الفكر والفلسفة والعلم والفن والأدب والسياسة والثقافة والتاريخ، وخطاب الما بعد هو نقد ورفض لخطاب الما قبل، الذي ساد ردحاً من الزمن في البنية الثقافية والاجتماعية والفكرية والسياسية والعلمية داخل المجتمعات. ومنه خطاب (ما بعد الكولونيالية) أي ما بعد الاستعمار، الذي تمت من خلاله تعرية الخطاب الكولونيالي السابق وهيمنته على الآخرين، من خلال هيمنة الغرب كقوة وسلطة عظمى فرضت سيطرتها وسياستها وفكرها واقتصادها وثقافتها على جزء كبير من العالم، وخاصة الشرق، الذي يعد الهدف الأساس للهيمنة الغربية (الأوروأمريكية) على الدول (الأفروأسيوية)، وكذلك خطاب (ما بعد الحداثة) الذي عُد ثورة ونقداً وانقلاباً لمرحلة (الحداثة) التي هيمن فيها العقل منذ فلسفة ديكارت على الفلسفات والافكار الأخرى، وهيمنة العلم على مفاصل الحياة منذ عصر النهضة، وعدم ايلاء الأهمية للمجالات الأخرى من دينية وميتافيزيقية وروحية من قبل الفلسفات العلمية بعد أن آمنت بالفلسفات المادية والوضعية المنطقية والتحليلية، وطغيان النزعة المادية على بعض الفلسفات التي أخذت بالانتشار، كالفلسفة الماركسية. وأخذ رواد ما بعد الحداثة بنقد وتفكيك الخطاب الحداثي وبيان العلاقة الوطيدة ما بين السلطة والمعرفة، سلطة السياسة وسلطة العلم، (هيمنة السياسة وهيمنة العقل). ومن رواد الفكر ما بعد الحداثي أمثال جان بودريار وميشيل فوكو وجاك دريدا وجان فرانسو ليوتار وجيل دلوز وغيرهم في الغرب، ممن عمل على نقد وتفكيك الخطاب الحداثي الغربي، الذي عمل على تقوية المركز وترك الهامش، والاعتراف بالأنا ونبذ الآخر، بين ثقافة قوي متسلط وضعيف تابع للقوي، ما ولد لوناً من العداء والبغضاء والكراهية بين الإثنين، وهذا ما أدى أيضاً الى صناعة غرب قوي مهيمن (مركز) وشرق ضعيف تابع (هامش)، من خلال صناعة خطابين؛ خطاب (السيد) وخطاب (العبد)، وثقافة المُستعمِر وثقافة المُستعمَر، ولا بد من تحقيق الانتصار من خلال خطاب وثقافة القوي المهيمن الذي يحتكر ويسيطر على السلطة والمال والمعرفة، وهي بالطبع موجودة لدى الغرب. أما الشرق فهو مصدر الضعف والانحطاط والعبودية، وهذا ما صرح به وتوسع في دراسته أدوارد سعيد في مشروعه الفكري (الاستشراق)، الذي أكد فيه على خطورة الخطاب الغربي على الشرق عامة، وعلى العرب والمسلمين خاصة، من خلال الفكر الكولونيالي الذي يفلسف ويفسر مدى أحقية الغرب في هيمنته على الشرق. ويذهب سعيد الى أن هناك مؤسسات غربية كبيرة اشتغلت على إشاعة هذا الخطاب الهيمني الغربي التوسعي، من خلال الاستشراق والمستشرقين الذين بذلوا جهوداً ثقافية وعلمية ومعرفية من أجل تحقيق ذلك المشروع الخطير، وقد عمل سعيد جاهداً على كشف وتعرية ذلك الخطاب (خطاب الهيمنة وصدام الحضارات)، الذي لا يؤمن بالآخر ايماناً سليماً، ولا يؤمن بالتعددية الثقافية وحق الآخرين باختلاف هوياتهم بحق الحياة وتحقيق المصير؛ حيث أن الاستشراق عمد في القرن التاسع عشر الى تكريس نظرية التفوق العرقي

الغربي، وتخلف الأعراق الأخرى الشرقية كالصينية والهندية والعربية[5].

وهذا ما يذكرنا أيضاً بأرنست رينان وطروحاته العرقية حول أهمية وتفوق العرق الآري على العرق السامي التي ذكرها أدوارد سعيد في كتابه الأستشراق، والتي انتقدها جمال الدين الأفغاني في حينها في القرن التاسع عشر في كتابه (الرد على الدهريين)، في مناظراته مع رينان صاحب تلك النظرية العرقية، التي تأثر بها جمع من الدارسين والمثقفين ممن عملوا على ترويج تلك الفكرة في الوسط الثقافي والسياسي الغربي في نهاية القرن التاسع عشر، والتي عُدت من الافكار الاستشراقية الأولى التي روجت للهيمنة الغربية، والتي يقف بالضد منها أيضاً مدني صالح ويعمل على فضح أيديولوجيا الغرب ونقدها من خلال كتاباته الفكرية والثقافية، وهذا ما صرح به د. علي المرهج في بحثه عن النزعة النقدية في كتابات مدني صالح الفلسفية[6].

لا شك أن هذه المقدمة في البحث لها أهمية بما قدمه المفكر مدني صالح، من طروحات فكرية وفلسفية وسياسية نقدية، سواء في كتاباته البحثية، والتي منها منجزاته عن (فلسفة ابن طفيل) وقصته حي بن يقظان التي أكد فيها على موقفه المعرفي من الغرب، ومن الدراسات الاستشراقية والمستشرقين، والتي أدت الى حرمانه من حصوله على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبردج، أو في كتاباته الأخيرة والتي هي كتابات (الما بعد)، والتي منها (بعد الطوفان) و(بعد خراب الفلسفة)، وهي بالتأكيد تقترب كثيراً من خطابات (الما بعد) التي أشرنا اليها في بداية الكلام، فهي تقترب من أفكار ما بعد الحداثة من جهة، ومن أفكار وكتابات أدوارد سعيد من جهة أخرى؛ اذ أن مدني صالح في كتاباته ينتقد النزعة الفلسفية التقليدية المجردة، الفلسفة التي تستند على أساس الخرافة والأسطورة واللاهوت والأيديولوجيا، ولا تستند على أساس العلم، وينتقد الهيمنة الغربية وفكرة المركزية التي عمل على أساسها الاستشراق الغربي من خلال الاستعمار وسيطرته على شعوب الشرق وثرواته وطاقاته، ومحاولة جعله تابعاً للمركز.

لا شك أن (بعد الطوفان) الكتاب الذي ألفه مدني صالح، هو خطاب أكثر منه كتاب؛ ففيه يضع مدني صالح صورة خطابه الثقافي والفلسفي وموقفه من الغرب من جهة، ومن الشرق والعرب والمسلمين من جهة أخرى، وصورة الصراع الدائر بين الإثنين، بين السيد والعبد، بين (روبنصن كروزو وآله) السيد الغربي من جهة، وبين (فرايدي وآله) العبد الشرقي من جهة أخرى، في ظل الكولونيالية وما بعدها؛ ففي المرحلتين بقي السيد سيداً والعبد عبداً، ولم يتحرر العبد من سلطة وسطوة السيد، ثقافياً وتجارياً واقتصادياً وعقائدياً وفلسفياً، سواء في بداية النصف الأول من القرن العشرين أم في النصف الثاني ونهايته وبداية القرن الحادي والعشرين؛ فتبعية الشرق عامة والعرب والمسلمين خاصة واضحة جداً للغرب، وهو ما يريده الغربي من هيمنته تلك، ولكن مما يؤسف له في نظر مدني صالح أن العرب والمسلمين أتبعوا الغرب في القشور وليس في اللب؛

فلم نتقدم ونتطور كما الغرب، بل تبعناهم في الشكل والمظهر لا في الفكر والجوهر، ومما يؤسف له أيضاً أننا لم نستقل عن الغرب في فكرنا وثقافتنا واقتصادنا، رغم ما لنا من خصوصية ثقافية وفكرية نتمتع بها، بل أننا رأينا أن تحقق نجاحنا هو في تقليد الغرب ومحاكاته في فكره وفلسفته وأدبه، وهذه شراك وقع فيها الكثير من المفكرين والمثقفين في الوسط الثقافي العربي أمثال طه حسين والعقاد وغيرهما، ممن رأوا أن نجاح مجتمعاتنا وتقدمها مرهون باتباع الغرب، وقد عمل نفس الشيء أعداء الغرب من حركات وأفكار اسلامية تقليدية على خدمة الغرب من خلال تعصبهم وانغلاقهم على أنفسهم وعدم مراعاة ما تحتاجه الساحة الثقافية العربية والاسلامية من تقدم وتطور ثقافي وفكري وعلمي، وتمت معاداة الغرب لأنه غرب ليس الا، وهذا ما جعل الانغلاق هو السمة المميزة للعرب والمسلمين في القرن العشرين وما بعده، سواء بالانغلاق على المستقبل، في طروحات التقدميين والعلمانيين ودعاة الاتجاه التغريبي، أو بالانغلاق على الماضي، في طروحات التراثيين والسلفيين من دعاة الاتجاه الديني التقليدي، وهناك نماذج فكرية وثقافية كبيرة مثلت الاتجاهين في الثقافة العربية والفكر العربي الحديث والمعاصر، وما زال هذا الصراع الداخلي بين العلمانيين والدينيين هو الصراع السائد الى اليوم في الثقافة العربية المعاصرة، وهذا الصراع بالطبع ـ من وجهة نظر مدني صالح ـ يخدم القوى الغربية ويصب في صالحها، ما دامت هي بعيدة عن ناره من جهة، ويأتي بثمار كبيرة عليها من جهة أخرى. ويعمل الغرب الكولونيالي على توسيع حالة الشقة والخلاف والصراع بين الإثنين، لأنها منتفعة من صورة ذلك الصراع ونتائجه، التي توسع من حالة الصراع الداخلي والخلاف الفكري في الوسط الثقافي والسياسي العربي، وهذا ما عمل على نقده وكشفه مدني صالح في كتاباته (الما بعد)، ورأى أن الخطر الثقافي هو الخطر الأكبر ما بعد الكولونيالية وأن اللعبة أو الحرب الثقافية والفكرية هي أكبر بكثير، تحقيقاً للربح والفائدة من الحرب العسكرية، ولهذا فإن (بعد الطوفان) ذلك الرمز والاشارة الى طوفان الغرب وهيمنته على الجميع، طوفان لا حدود له ولا سدود، طوفان عابر للقارات والمحيطات، طوفان يبتلع ويقتلع الأخضر واليابس، ومرحلة ما بعد الطوفان هي لعبة غربية أوروأمريكية بامتياز، في مواجهة الدول الأفروأسيوية، من خلال اشاعة خطابات (صدام الحضارات) و(نهاية التاريخ) و(عولمة العالم) والتبشير بالحركات الليبرالية وبدمقرطة العالم، وكأن الخلاص، خلاص العالم أجمع، وخلاص (فرايدي وآله) سيكون على يد (روبنصن كروزو وآله)، وتلك هي لعبة هزلية، وكوميديا تراجيدية، وتراجيديا كوميدية، يعمل على تسويقها الغرب وأمريكا في (النظام العالمي الجديد) وخطاب الهيمنة الذي له آلياته الفكرية والمعرفية من خلال أقلام وكتّاب لهم الباع الطويل في الثقافة والسياسة والاعلام، ولكن كل ذلك إنما هو لعبة، فما علينا اذن فعله في مواجهة ذلك الخطر الذي يهددنا جميعاً في هذا الكون، هذا ما يشتغل عليه خطاب مدني صالح

(الما بعد)، في كشف خباياه، وتحليل مضمونه، والتحذير منه، وهذا ما سنقف عليه في هذا البحث.

بعد الطوفان.. نقد ثقافي للاستشراق والهيمنة الغربية

قلنا أعلاه ونؤكد أن بعد الطوفان لمدني صالح يعد خطاباً فكرياً وثقافياً وفلسفياً، بثه في كتابه صغير الحجم وعظيم الجرم (بعد الطوفان)، الذي كتبه صالح على هامش أطروحته للدكتوراه، التي أحيطت بأسرار لم يحط بها كتاب من قبل ـ كما يقول مدني صالح ـ [7]، وفي هذا الكتاب عرض فيه صالح موقفه من الغرب عامة ومن العرب والمسلمين خاصة، في الثقافة والمدنية والحضارة، و(ان ما بعد الطوفان يرتكز على خطاب نقد الغرب وكشف آليات السيطرة العالمية وفضح ألاعيب وعيوب العقل الغربي)[8].

وقد أتخذ مدني صالح من الرمز الأدبي والفلسفي وسيلة له في بيان أفكاره وفلسفته، وهناك من القصدية الشيء الكثير في صياغة هذا الأسلوب من قبل صالح، وذلك لبيان انتمائه للحضارة العربية الاسلامية وأدبها الساحر، حضارة الشرق العظيمة التي كانت محط أنظار الانسان الغربي في مرحلة همجيته وما قبل الحضارة الغربية، حيث كان ينظر الى حضارة الشرق وحضارة العرب والمسلمين نظرة اكبار واجلال، تم تقليدها وترجمتها الى الحضارة الغربية في فترة من فترات التاريخ، وقد صنعت هذه الحضارة أمجاد وتاريخ الحضارة الغربية الحديثة وعصر النهضة الأوربي مع دانتي الايطالي وروجر بيكون الانكليزي وفولتير الفرنسي، وغيرهم الكثير، الذين هاموا بسحر الشرق وعظمة حضارته. هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن مدني صالح يعتز بذاته وثقافته وتاريخه وحضارته العربية الاسلامية، التي فيها الشيء الكثير من المنجزات والمآثر العلمية والثقافية والمعرفية والفكرية، ما جعل الغرب يقلد تلك الحضارة ويترجم منجزاتها الكبرى للغرب. ومن جهة ثالثة فأن مدني صالح لم تبهره حضارة الغرب وهو كما يقول عنه د. فيصل غازي مجهول: "لم يُبتلَ بعقدة الغرب ولم يقلب الدنيا لأنه درس في كيمبردج ـ بريطانيا ـ ولم يتكئ على مصادفة البعثات الدراسية السعيدة التي لولاها لما بقي لبعض الناس صفةٌ مهمة يتصفون بها"[9].

لا ينظر مدني صالح للثقافة والمدنية والحضارة في صورتها المعاصرة الا من خلال التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي الغربي، الذي يقسم العالم الى قسمين: السيد والعبد، القوي والضعيف، المركز والهامش، روبنصن كروزو وفرايدي، حيث يقول صالح: "لا ننظر الى التاريخ الا من جهة حملات الغزو والتوسع الا ونرى ان الحملة الروبنكروزوية أعظم هذه الحملات وأكثرها خطورة في التاريخ عند مفترق طرق التحولات الكبرى في الثقافة: علماً وأدباً وفناً. وفي الحضارة: سياسة وأخلاقاً وتشريعاً. وفي المدنية : زراعة وصناعة وعمارة، ذلك لأننا لا نرى الحملة الروبنكروزوية الا حملة أدبية روائية رمزية تصور وتمثل حملة الغالبين في جميع الأزمنة الى المغلوبين في كل

مكان، وحملة المتقدمين الى المتخلفين من جميع أقطار الضعف والجهل والفوضى والتخلف، وحملة التجار الباحثين عن احتكارات واستثمارات وأسواق"[10].

اذاً، ينطلق مدني صالح من تلك الرواية الأدبية الرمزية، رواية (روبنصن كروزو) لدانيال دوفو. تلك الرواية التي اتخذها مدني صالح رمزاً أدبياً وثقافياً يشير به الى السيد والعبد، التاجر المنتج والانسان المستهلك. تلك الرواية التي كشف مدني صالح رموزها ومدلولاتها في دراساته الفلسفية المبكرة، حين درس فلسفة ابن طفيل وقصته حي بن يقظان. وأوضح مدى استفادة الأدب والثقافة الأوربية والانكليزية على وجه التحديد من قصة حي بن يقظان، ومن الأدب الرمزي، وقد كان لدانيال دوفو حصة ثقافية وأدبية من هذا التأثر، والتي كانت ـ بحسب مدني صالح ـ رمزاً للتوسع الامبراطوري والسيطرة الامبريالية بصورتها الواضحة في ذهن الانجليزي المبحر الدائم الفاتح للبر وراء البحار... أما "فرايدي" في قصة "دانيال دوفو" فلا يمثل الا الشعب الضعيف في البلاد الكثيرة الخير، السهلة الفتح، الطيبة الاستيطان وراء البحار[11].

وهنا أيضاً يقترب مدني صالح كثيراً من أدوارد سعيد في كتابه الثقافة والامبريالية، الذي يؤكد فيه سعيد على العلاقة الكبيرة بين الخطاب الثقافي وصناعة الحدث السياسي الغربي، ومدى مساهمة الرواية الغربية عامة وخاصة الانكليزية في تحقيق ذلك الغرض في الهيمنة على العالم من خلال صناعة خطاب ثقافي مؤدلج[12].

هكذا ينطلق مدني صالح في فهم وقراءة التاريخ العالمي المعاصر، من خلال حملة الغرب وهيمنته وسيطرته على الشرق. الغرب (المركز) الأوروأمريكي القاروني الشايلوكي الذري الروبنكروزوي العامر الرأس بالحكمة والجيب بالفلوس والبندقية بالبارود. والشرق (الهامش) الأفروأسيوي النفطي المستهلك المطيع الذليل الذي يخر راكعاً ساجداً لسيده ثقافياً ومدنياً وحضارياً.

ولا ينظر مدني صالح الى الحملة الروبنكروزوية الا بوصفها طريقة ومنهجاً، اعتمدها الغرب مع الشرق، من خلال أوربة العالم وآل فرايدي، وعلمنته وتحديثه وتنصيره، والتي هي كالآتي [13]:

1- **الأوربة**: وتعني أن يقوم فرايدي بالعمل وأن يقدم الخدمات بالطريقة الأوربية التي تسر روبنصن كروزو والروبكروزويين في آداب العمل واللعب والسلوك.

2- **العلمنة**: وتعني أن يترك فرايدي الخرافات التي تمنعه من الإقبال على التطبيقات العلمية باستيراد وباستهلاك الأدوية والأطعمة والأشربة والعدد والأعتدة والأدوات والآلات، الخ.. لا بمعنى أن يصبح عالماً أو قريباً من السلوك المحكوم بالطريقة العلمية، بل بمعنى أن يصبح مستورداً مستهلكاً قاصراً مضعضعاً، يجوع اذا منع عنه روبنصن الغذاء، ويعرى اذا منع عنه روبنصن كروزو الكساء، ويموت اذا مرض ومنع عنه روبنصن كروزو الدواء.

3- **التحديث**: ويعني التجديد بقدر ما الأخذ بالجديد من مستلزمات فتح أسواق

روبنكروزوية أو بقدر ما التحديث من مستلزمات رفع مستوى المعيشة مع العلمنة لرفع قدرة فرايدي الاستيرادية الاستهلاكية، نفطي يصدر النفط ويستورد الأسلحة والأعتدة، يستهلكها ويهلك معها الزرع والضرع والناس والحجارة في حروب لا تبقي ولا تذر.

4- **التنصير**: ويعني الدخول في النصرانية دين روبنصن كروزو، بقدر ما التنصير من مستلزمات تطبيع فرايدي وتطويعه، فتدجينه قنية في اصطبلات العبودية بلا تعذيب وبلا إذلال وبلا تجويع في اصطبلات تكبير البطون وتصغير الأنفس والعقول.

هكذا يخطط الغرب الكولونيالي للهيمنة من خلال فرض فكره وأرادته على الشرق وفق ذلك المنهج والمخطط الشمولي المتغطرس، وفرض وصايته المطلقة على شعوب العالم، بقوة الحديد والنار، رغم دعاواه المزيفة في محاولة نشر الديموقراطية والفكر اللبرالي ومبادئ حقوق الانسان؛ فهذه أغطية وأقنعة شكلية يختفي وراءها لتمرير أفكاره وسياسته التوسعية على حساب حياة الشعوب وحريتها.

وقد كان نصيب الفكر والمجتمع العربي والاسلامي من الهيمنة الغربية كبيرا جداً، ثقافياً ومدنياً وحضارياً. وقد كان قدرنا أن نخضع لثقافة الهيمنة الأوروأمريكية، من خلال ذلك المخطط الغربي الذي يروم نهب ثرواتنا ومسخ تاريخنا ومجدنا ومنجزنا الحضاري والمعرفي، من خلال مشروع الاستشراق والمستشرقين، الذين وقفوا في خدمة القارون الشايلوكي، فـ(قوى الاستشراق وهي قوى استطلاعية تجسسية تبشيرية تمثل رأي الأوروأمريكي في الأفروأسيوي وارادته له، وموقفه منه من وجهة نظر التاجر الأوروأمريكي والسياسي الأوروأمريكي، وهي نظرة المتفوق المتغطرس الى المنخذل المستكين)[14].

هذا الذي قلنا في مقدمة البحث ما ينسجم ورؤية مدني صالح مع ادوارد سعيد في الاستشراق، رغم ان مدني صالح لم يصرح بذلك ولم يذكر سعيداً أبداً في أي موضوع أو مناسبة ثقافية، وهذا ما يدعوني للسؤال عن سبب اغفال مدني صالح لمشروع ادوارد سعيد الثقافي الناقد للغرب ولفكره الكولونيالي، الذي أجد فيه الشبه الكبير بين الاثنين، رغم الفارق الكبير بين الاثنين في طريقة الخطاب الا أن نقد الظاهرة الاستشراقية هو ما يقارب بين صالح وسعيد، ورغم أسبقية سعيد في هذا المجال، فأنني أعتقد بتأثر مدني صالح بمشروع سعيد، والتقارب النقدي في ما بينهما في نقد هيمنة الغرب وخطابه الكولونيالي.

ويرى مدني صالح "أن الثقافة العربية قد كانت محكومة بالانغلاق وبالتقوقع وبالهامشية من بداية القرن العشرين حتى مشارفه على القرن الحادي والعشرين، من الانغلاق والتقوقع والهامشية في خدمة السايكسبيكوية الانجليزية الفرنسية في النصف الأول من القرن العشرين، الى الانغلاق والتقوقع والهامشية في خدمة السايكسبيكوية الانجليزية الفرنسية المؤمركة في النصف الثاني من القرن العشرين، فالى الانغلاق والتقوقع والهامشية

والعصبية الطائفية الفرقية القبلية العشائرية العنصرية في خدمة الروبنكروزوية الأوروأمريكية والسايكسبيكوية المؤمركة، ذلك بأن جميع الذين ازدهروا في الثقافة وبلغوا الأوج في النصف الأول من القرن العشرين لم يزدهروا الا حالة من أحوال الانغلاق والتقوقع والهامشية تحت الوصاية الانجليزية الفرنسية لتحويل الولاء الثقافي في البلاد العربية من المنحى الآسيوي التركي العربي الاسلامي القرآني الى المنحى الأوربي الانجليزي الفرنسي الصليبي التوراتي الانجيلي، لا بناء الا على أن هذا التحول ضرورة ثقافية حضارية مدنية لخدمة أغراض التاجر الروبنكروزوي السايكسبيكوي بعد أن أصبحت الروبنكروزوية السايكسبيكوية مؤسسة عالمية في خدمة التاريخ حول محور التجارة، الحرب، الاحتكار، ضد محور العمل للانتاج واللعب للابتهاج"[15].

لقد استطاع مدني صالح أن يفكك الخطاب الثقافي والابستمولوجي الغربي ويصل الى معرفة نواياه الأيديولوجية وأهدافه الاحتكارية، وشراكة خطاب الاستشراق في دعم السلطة والمؤسسة السياسية في الغرب، وهذا ما دعا الغرب لتبني مقولة (المعرفة قوة)؛ فالغرب السياسي والسياسي الغربي لا يقدس المعرفة لذاتها، وانما لارتباطها بالقوة والهيمنة وفرض الارادات والحديث عن تفوق الثقافات وصدام الحضارات الذي بشر به صموئيل هنتنغتون وأطروحة نهاية التاريخ مع فوكوياما، التي روجت لأفكار الأمبراطورية الأمريكية وتحقيق الليبرالية والديموقراطية التي هي الأيديولوجيا السعيدة والفريدة التي سينتهي عندها التاريخ. ولكن مدني صالح يرفض تماماً تلك الأفكار الأيديولوجية التي هي تصب في صالح (روبنصن كروزو وآله) وتريد من (فرايدي وآله) أن يبقى عبداً ذليلاً في خدمة المؤسسة الروبنصنكروزوية، وهذا يذكرنا بمقولة أحد الأدباء الإنكليز وهي (ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبداً)، تلك المقولة التي تستبطن الدونية للشرق، والنيل منه، وتنظر بعين التقدير والعظمة والتفوق للعنصر الغربي، وهذا ما يذكرنا بنظرة أرنست رينان العرقية التي ذكرناها سابقاً.

ومما يأخذه مدني صالح في النقد الثقافي على الثقافة العربية وروادها هو هيامهم وسحرهم بثقافة الغرب، ودعواهم الى تقليد تلك الثقافة والفكر في بلدانهم، حيث يقول: "وأخلص فريق من المثقفين العرب في الدفاع عن الثقافة السايكسبيكوية ودخولها من باب الثقافة الفرنسية مثلما يشتهي الفرنسيون لأنفسهم وللسايكسبيكويين، وأخلص فريق آخر من المثقفين العرب للثقافة السايكسبيكوية وبالدفاع عنها ودخولها من باب الثقافة الانجليزية مثلما يشتهي الانجليز لأنفسهم وللسايكسبيكويين، لا كما ينبغي التاريخ أن يتقدم بدخول جميع الثقافات من جميع أبواب الثقافات بلا استثناء وبلا حدود، بلا تقنين بلا ممنوع"[16].

ومما قاله مدني صالح في بيان العلاقة بين الثقافة والسياسة والهيمنة، أو بين الثقافة والامبريالية بلغة أدوارد سعيد، قول مدني صالح: "وما كان الأمر ليضر الفرنسيين شيئاً أن توهم عباس محمود العقاد انه دخل

تاريخ التقدم والارتقاء من باب الثقافة الانجليزية ما دامت حصة الفرنسيين غير محجوبة بحصة الانكليز في الاستيراد وفي التصدير وفي العقود الاحتكارية. وما كان الأمر نفسه ليضر الانجليز شيئاً أن توهم طه حسين أنه دخل تاريخ التقدم والارتقاء من باب الثقافة الفرنسية، ما دامت حصة الانجليز غير محجوبة بحصة الفرنسيين في الاستيراد وفي التصدير وفي العقود الاحتكارية"[17].

نرى ان مدني صالح يكشف النوايا السياسية من خلال الخطاب الثقافي الغربي، وأن كل حركة يقوم بها الغرب الأوروأمريكي تجاه الأفروأسيوي مدروسة ومخطط لها سلفاً، كما ان مدني صالح يشكك في نوايا الغرب وسلوكهم السياسي وخطابهم الثقافي، ومنها تحقيق النجاح والتقدم المزعوم غربياً تجاه الشرق، فـ"لم تكن الدعوة الى ترك الماضي والتخلف الا قناعاً سايكسبيكوياً للدعوة الى ترك المنحى الأسيوي العربي التركي القرآني، ولم تكن الدعوة الى المستقبل والتقدم الا قناعاً سايكبيكوياً للدعوة الى المنحى الأوربي الانجليزي الفرنسي التوراتي، ولم تكن المساجلات الثقافية بين العرب في تلك الأيام الا مظاهرة أوربية انجليزية فرنسية لاعلان خروج الثقافة العربية من الدائرة الآسيوية العربية القرآنية ودخولها في الثقافة الأوربية الانجليزية الفرنسية التوراتية"[18].

كما ان مدني صالح ينتقد الثقافة العربية وروادها في انشغالهم بالجانب الشكلي والجمالي من الحضارة الغربية ولم ينشغلوا بالجوهر والمضمون، فقد "كان الخلاف الثقافي بين الفرقاء خلافاً لغوياً بلاغياً يمس البيان في اللغة، لا يمس البناء في السياسة وفي الأخلاق وفي التشريع، وظل كل شيء من هذه الأشياء الحضارية على حاله لم يتبدل منه شيء عما كان قبل القرن العشرين، هذا من جهة الحضارة سياسة وأخلاقاً وتشريعاً"[19].

ويرى مدني صالح أن الحرية الثقافية التي اتيحت للعرب في القرن العشرين انما هي تصب في صالح خطاب الهيمنة الغربية، فـ"لم تكن إذن حرية الثقافة في النصف الأول من القرن العشرين الا لعبة مظاهرة، ومظاهرة لعبة ثقافية قاهرية انغلاقية تقوقعية هامشية، كثرت فيها كتب وجرائد ومجلات وطواحين وجعجعات، لم يبررها حتى الآن شيء من طحين. وينتهي النصف الثاني من القرن العشرين مثلما انتهى النصف الأول منه والثقافة العربية ثقافة عصبية معصوبة تقوقعية انغلاقية هامشية مخدرة لا وعي ولا أصالة ولا ابتكار ولا تجديد، لم يبلغ أحد من أهل العراق شيئاً من أمجاد الزقورات والثور المجنح، ولم يبلغ أحد من أهل مصر شيئاً من أمجاد الأهرام وأبي الهول، ولم يرق أحد من العرب الى شيء من أمجاد ملحمة جلجامش في الأصالة والابتكار والابداع والتأسيس الثقافي الرصين بين عالي كلاسيك الآداب والعلوم والفنون"[20].

من خلال هذه النماذج من النصوص النقدية لمدني صالح، وغيرها الكثير مما يطول ذكرها في هذا المقام، نجد كيفية تفكيك الخطاب الثقافي الغربي والعربي معاً تفكيكاً فلسفياً تحليلياً يغوص في عمق الخطاب وبنيته ونواياه الخفية، ونلحظ

كيف أن مدني صالح يؤكد في فكره على ذلك الخطاب المتعالي والاستبدادي المتفوق من قبل الغرب الكولونيالي تجاه الشرق، من خلال نزعة السيد والعبد، التي تسود لغة السلوك والتعامل ثقافياً وسياساً من الغرب الأوروأمريكي (آل روبنصن كروروز) تجاه الشرق الأفروأسيوي (آل فرايدي). فلسفة مدني صالح تلك تذكرنا بخطاب وفلسفة نيتشه في فكرة السيد والعبد، والسوبرمان النيتشوي الذي يتمثل بهيمنة الغرب ومركزيتها المفرطة[21].

الهوامش

1 - قاسم جمعة. المأتم الفلسفي والإستراتيجية البديلة قراءة في كتاب ما بعد الطوفان. بحث منشور في موقع الناقد العراقي.
2 - مدني صالح. بعد خراب الفلسفة.ط1. دار الهادي. بيروت ـ لبنان. 2009 ص 66.
3 - فوزي الهيتي. الصراع الحضاري والحلم الفلسفي : قراءة اولية في فلسفة مدني صالح. الحوار المتمدن ـ العدد: 1999 – 6 /8 /2007.
4 - رائد جبار كاظم. مع مدني صالح. من الذاكرة في ذكراه. صحيفة المثقف العدد: 3240 المصادف: 20 /7 /2015.
5 - ينظر: ادوارد سعيد. الاستشراق. ترجمة: محمد عناني. رؤية للنشر والتوزيع. 2006. ص 212 وما بعدها.
6 - ينظر: د. علي المرهج. النزعة النقدية في كتابات مدني صالح الفلسفية. بحث ضمن كتاب الفلسفة والواقع العراقي الراهن. وقائع مؤتمر الكوفة الفلسفي الأول. ط 1. 2018. ص 309 - 310.
7 - ينظر: مدني صالح. بعد الطوفان. دار الشؤون الثقافية. بغداد ـ العراق.1999. المقدمة. ص 7.
8 - قاسم جمعة. المأتم الفلسفي. بحث في موقع الناقد العراقي.
9 - فيصل غازي مجهول. مقدمة كتاب قرندل ولائحة حقوق الحمار. لمدني صالح. مكتبة عدنان. ط1. بغداد ـ العراق. 2019.
10 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 9.
11 - مدني صالح. ابن طفيل.. قضايا ومواقف. دار الرشيد. بغداد ـ العراق. 1980. ص 175 - 176.
12 - ينظر: أدوارد سعيد. الثقافة والأمبريالية. ترجمة: كمال أبو ديب. ط4. دار الآداب. 2014. ص 138 وما بعدها.
13 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 32 - 34.
14 - مدني صالح. بعد خراب الفلسفة. ص 248.
15 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 143 - 144.
16 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 157.
17 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 158 - 159.
18 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 153.
19 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 161.
20 - مدني صالح. بعد الطوفان. ص 169 - 170.
21 - ينظر : علي المرهج. النزعة النقدية في كتابات مدني صالح الفلسفية. ص 309.

المقامات الثانية لمدني صالح .. قراءة عشوائية للأدب الساخر

د . رحيم محمد الساعدي
باحث وأكاديمي، قسم الفلسفة – كلية الآداب الجامعة المستنصرية
مهتم بالدراسات المستقبلية والخيال والأخلاق التطبيقية

برج المربد والكتابة على الماء في مدائن الندم، وهو الجزء الثاني للمفكر العراقي مدني صالح (1).

ويبدو ان اصدار إضافة أخرى لمقامة اخرى كانت وفق دافع نجاح الجزء الأول، وفي النسختين ينتقي استاذي مدني صالح أسلوبا نجح في تنميته ولكن ببطء وهو يمزج بين المفاهيم الفلسفية والطريقة الشعبية لتناول مفاهيم تعمل على تحريك ذهن المثقف، ويبدو ان صالح انبهر بنجاح مقاماته الأولى ليخوض بشكل ساخر وسردي مغامرة أخرى، وكأنها هروب من الفلسفة ومشكلاتها.

وسوف اتجنب الحديث عن مقاماته الأولى التي كثفها بشكل فلسفي فكانت أكثر نضجا من مقاماته الثانية، ودونت مقامات الجزء الثاني أحوال صابر في حب رباب وافراح التبرجز والكتابة على الماء والمربد والمضروب بالدنقهار ومقامة بداية الاحتلال ومقامة الام. فكانت مدونة رائعة تحدث فيها بعمق وحرية مزجهما بفكر فلسفي وايحاء وتأويل.

ولكن ما هو الدافع لكتابة مدني صالح؟ هل هو الحب ام الندم ام الثقافة ام الشماتة ام الوطنية ام ماذا؟ وهل يمكن تحليل ذلك من خلال العناوين ام المحتوى ام من خلال المعرفة الشخصية لذلك المتمرد المنعزل نوعا ما؟ ام من كل ذلك؟

ما من شك ان مدني صالح احب ذات يوم، وقد اختار هذه الموضوعة في المقامة الأولى، لكنه كتبها ليس بدافع الحب انما بدوافع عديدة، منها رغبته في خوض طريق كتابة القصة التي لم ينجح فيها، ومنها طريقته التي يدمج فيها الفلسفة بالحكايا الشعبية، ومن ضمن ذلك أيضا انسحاب الذكريات القديمة الى كهولة متمردة. هذه الذكريات هي ما نلمحها في مقامة أحوال صابر التي غلب عليها رغبة قديمة وذكريات الشرفات والقصر والبشوات.

وقد يكون مدني صالح متأثرا بنمطية تلك المرحلة من تسعينيات القرن الماضي، وفيها اخرج لنا المنتجون اعمال نجيب محفوظ التي تعنى بهذا النمط الكلاسيكي وأيضا كتب أسامة أنور عكاشة الكاتب المصري، العديد من أجواء هذا المحيط الدرامي العاشق. وقد تحدث عن الأغنياء والفقراء وحساباتهم، الا انني اعتقد انها رغبة بداخل صالح للهرب من الفلسفة بالذكريات والفلسفة. وقد حاول وصف كرامته إزاء عالم البشوات، وذكر رقة الاخر وهي (الموضوع – الذات الأخرى – الحبيبة – المثال الذي كان يطمح اليه)، ولم ينس أيضا وصف نفسه، فقد وصف البطل بانه متمرد، عاشق بطريقة خجولة ماسوشية، يؤذي نفسه ليشاهده العالم، وقد نشر ذاته مزهوا بذاته، وهو يقترب ايضا من الفقراء.

كما انه لم ينس السخرية الأدبية الرفيعة، عندما اخذه ابوه ليشتري له ثوبا بقوله (من أي جهات المغرب ستشرق الشمس، هذا العام، فتكون لصابر ثلاث دشاديش جديدة دفعة واحدة، من احسن القماش ومن ارقى ما يكون).

ما المسه من تلك المقامة، لم يكن تأويلا سياسيا فقط، لأحمل صالح ما لا يحتمل، ولكنه استراحة محارب فلسفي تداخلت منهجيته واسلوبه بذكرياته القديمة، وقد أشرف على الكبر، الا انني وجدتها مخيلة بسيطة تلك التي تحاول نسج دراما لم ترسم وفق كونها حكايات فلسفية، ولم تكن أيضا كلمات عاطفية تقود الى تأثير ادبي رومانسي مهم ولافت. بل انها لم تحو نهجا فيه لحظة جنس، ولم نلحظ له إشارات تحمل لذة عارمة، وهذا ما عودنا عليه مدني صالح، فهو محافظ بطريقته وكتاباته شاء ام ابى، وذلك يعني خجله وحياءه على حد سواء، ولكني احسست بعجز العاشق فهو لم يكن شاعرا ليصف او يتغزل باستخدام مخيلة وكلمات تثير الراي الادبي، ولم يكن قاصا مهما، لذا فنحن نراه ناقدا محللا من الطراز الأول، وقد كتب عن السياب والبياتي وسواهم.

لكنك تعرف أحيانا شخصية المرء من كتابته او مشروعه، فمدني صالح هو حي بن يقظان وليس غير ذلك.

وفي مقامته الأولى بذلك الكتاب، يخلط مدني صالح الجانب الاجتماعي ونقده وبين الذكريات التي باغتته بطريقة ما وساعد على ذلك فترة هدوء العراق بعد الحرب. تلك الذكريات لم تغادره وهو ابن القرية، ويشعر بان لديه من العبقرية ما يمكنه من التنويه لها. وفي اخر المقامة الثانية يصرح مدني صالح بذكرياته بان حساب الصغار للأيام، مثل حساب العصافير لحبات البيادر يستكثر القليل. وكان يكرر كعادته الكثير من الكلمات التي يستحسنها او يعتقد بثباتها، كما في قوله على لسان صاحبة المقامة "قالت لا هذا عيب. امي تقول عيب. جدتي تقول حرام. اختي تقول نلعب مع الأقارب، لا نلعب مع الغرباء...الخ)، وهو دائم التكرار لترسيخ الفكرة أولا، ولالتقاط أنفاسه الأدبية ثانيا، وقد يدور

في ذهن القارئ مصاديق أخرى، وان هذه المقامة ما هي الا نقد للوضع الحاكم في ذلك الوقت، وان الحفاة قد يتبرجزون (من البرجوازية) ويعوضون فقرهم كما يرد بنهاية المقامة، او قد تكون البطلة ما هي الا نفس مدني صالح التي يخاصمها ويصالحها ولا يتركها، وينظر اليها على انها قرينته التي يغار منها.

واعترف انني لم أتمكن من استبطان مقامة الكتابة على الماء في مدائن الملح، فقد كانت خليطا من ندم ربما على حادثة عاشها الكاتب، ومن محاولة أيضا للكتابة الجادة. تلك المحاولة التي تشوشها شخصية مدني صالح، فيتدخل في صيغة فكاهية او مقطعه الذي يتكرر ليثير الانتباه والسؤال معا بقوله (كان مدلكا في حمام العافية في الشتاء اما في الصيف، فهو صياد يبيع السمك المشوي للسكارى على نار حطب الطرفاء ...) وبصرف النظر عن تأويل القصة الا انها تشير الى الندم والاثم سواء للكاتب او البطل. وعنوان المقامة يدل على هذين المفهومين. والملاحظ ان هناك اقحامات أدخلت بطريقة لا شعورية على قصص كان بعضها جادا.

ان الكثير من الاستنتاجات تدل على ان مدني صالح يحاول تطوير اسلوب نجح فيه في الجزء الأول بشكل لافت واعاده لرغبته في الكتابة والبوح، ولكن بطريقة فكرية وادبية وبتماس مع حياته الشخصية؛ فالنجاح الذي أحرزه المفكر مدني صالح في المقامات الأولى، اغراه بمغامرة أخرى لم تكن الا ذكريات مزجت بالرغم منه بالفلسفة وبأسلوبه الساخر الحانق على بعض المظاهر. وكل هذا يصطدم بقدرته على استثمار مخيلة تحاول الخروج من قواعدها وقيودها الكلاسيكية، فلم تكن لها القدرة الا بالتمرد من خلال اليات: -1 اللغة بجميع اصنافها البلاغية – الساخرة – التي تستثمر الفاظا غريبة – التكرارية. -2 من خلال رسم مخطط للفكرة، الا انها تخضع للعديد من أفكار لغوية تداهم الكاتب. -3 استثمار الخزين الفلسفي.

ولم يتقن مدني صالح كتابة القصة او الرواية؛ فكلاهما يحتاج الى مخيلة تركيبية، والى ربط العديد من الاحداث والصور الدرامية، ولم يحسن مدني صالح الكذب المصطنع، والمتمثل بالروايات.

وفي رأيي ان الروايات تمثل الحكايات الكاذبة وهي اختلاق متناسق من الاحداث مطعم بمخيلة واصفة بشكل جميل، وهو اهم ما يحدد نواة الرواية بالإضافة الى تكثيف نهايتها. اما القصص فهي تتحدث بنحو ما عن حقائق، او لنقل ان مصطلح القص او القصص يتوجب ان يتحدث عن حقائق او انصاف الحقائق.

وعلى هذا فان الرواية أقرب للأساطير، فهي اختلاق يمر بموشور ذهنية المؤلف، الذي تؤثر عليه مجموعة من المؤثرات البيئية والنفسية.

وقل لي بان المقامات التي كتبها مدني صالح تمثل هروبا من واقع او تأويلا لمواقف عامة او محاولة للتنظير بطريقة رمزية، سأقول لك نعم. فقد مل من الجدة التي بداها بكتابه الوجود في الفلسفة

الإسلامية عام 1955، ومحاولات لمقالة جديدة عام 1956، ومواضيع في الادب نهاية السبعينيات، وتنقل ليكتب شيئا مغايرا بحكم الشغف الذي لديه، ولكنها كانت اقرب الى الادبية منها الى استحداث نظريات جديدة، وهو ما كان طموحه. والذي يبرز لديه عندما تجده يكثف النقد الى الأفكار والنظريات التي لا يميل اليها. وهذا الشغف يصطدم دائما بالقدرة التخيلية لمدني صالح، التي اقتصرت على تخيل مقيد. كان اقرب الى الادب منه الى منظومة فلسفية مركبة من قواعد واسس فلسفية تقدم نظرية في الفلسفة. وبالتأكيد هو ما يشمل اغلب المفكرين العراقيين والعرب. وعندما كتب عن ابن طفيل في 1988 وحي بن يقظان، انما كتب نفسه، وما يشتهيه او ما فعله خلال حياته، فهو يحاول الاكتشاف والتوظيف. ومال الى صوفية اقرتها الشيخوخة أحيانا. وحي بن يقظان هو حي بن صالح او مدني بن يقظان، الذي كتب نفسه او وجدها، ليسكن الى الهدوء بعد مغامرات صارخة اتسمت بالابتعاد عن الابتذال والممالات السياسية للحاكم الظالم، والاعتزال غالبا، والحفر في جدران الثقافة في اغلب حياته، ومحاولة جر المجتمع الى الفلسفة، وتدجين الفلسفة لتؤكل وتهضم، والعناية بمنظومة من الطلبة يختارهم بعناية، ليكونوا سورا لمدرسته التي لم يحدد أسسها، وقد انبروا فعلا فيما بعد لرد الدين لمدني صالح، لسبب بسيط انه لم يظهر احتقانا لهؤلاء الطلبة، وحاول حمايتهم وتعامل معهم بنوع من الحرية، وأداء الواجب العلمي، فاحبوه.

كانت نهايات الجزء الثاني من المقامات اشبه بالتنبؤ، فهو يتحدث عن احتلال وما يتبع ذلك. واعتقد ان مدني صالح الذي كان يدرس الجانب الاستراتيجي في أحد المؤسسات العسكرية، يعي ان حربا أخرى لابد ان تشعل المكان، وقد يكون أقحمها بنهاية مقاماته بشكل سريع قبل الطباعة فهي مقامة من صفحتين.

في مقاماته هذه يستخدم مدني صالح خارطة تتألف من الاتي:

1 - الفعل الماضي الذي تنوع كثيرا (فرحت، استبشرت، تسلقت، سقطت، جردت، سويت، ادينت، اخذت، خصفت، وضعت، وصلت، خلعت، سبحت ... الخ). وهذا الفعل وفق تنوعاته جاء حركيا ليغطي مدني صالح حالة الركود الجسدي الذي كان عليه وقت الكتابة والتأمل والهدوء ببديل الصبا الذي كان فيه متمردا بجسده واستعاض عنه بتمرد فكري فيما، وربما كان اكثره قوة هو التمرد الذي عاشه في دراسته في السوربون، وتمرده على الواقع السيئ في الثمانينيات باعتكافه وعدم انخراطه بالمنظومة السياسية وقتها.

2 - هناك ايحاء مضمر في المقامات تلخص بإعجاب مدني صالح الشديد بذاته، وهو ما يظهر من خلال استخدامه المتكرر للفعل الماضي او من خلال تكرار الجمل التي يحاول فيها تقديم سرد مشفوع بالحكمة ليثير ذهنية القراء واهل الفلسفة.

3 - الإيحاء الظاهر، وطابعة الأساس

هو الحنين الى الماضي، وفق تغيرات وتقلبات بحياة شخص خاض معتركات اجتماعية متنوعة، وتعب من جدوى الركاض.

4 - الحديث عن شانيات مجتمعية بطريقة تأويلية وساخرة موزعة على ذكريات وقصص، وهي طريقة (الادب الهارب) الذي يبتعد عن دوي السياسة او من عدم القدرة على انتاج مشروع فكري او عدم استطاعة صالح ابهار العالم العربي بنظريات فلسفية مختلفة ومبتكرة.

كان مدني صالح طموحا بتقديم شيء مختلف للساحة العراقية والعربية، وربما قدم جهدا كبيرا للساحة العراقية، الا انه لم يتسع له الوقت لتقديم الجديد ليظهر عربيا بشكل متميز. وسبب ذلك هو طبيعة مدني صالح البطيئة، غير الميالة الى الاعلام المركز المكثف، واعتداده بنفسه مما حرمه من منظومة علاقاتية، ليس لترويج أفكاره فقط، بل لاستمراريتها بالتدفق، فالإعجاب يمنع الازدياد، ومدني كان معجبا بنفسه جدا. ويضاف لذلك اصطدام المفكر العراقي غالبا بعدم المغامرة بتوليد الأفكار، وان ظهرت هذه الأفكار فان عائق اللغة والاعلام هو من يقوم بتأجيل اندفاعها للعالمية.

الهوامش

1 - طبعة شركة المعرفة، بغداد، 1990 م.

(إن افضل ما كتب مدني صالح لا يُشرح، فلا يخرب النصوص غير الشرح، ولا يدمر الرمز غير الافصاح، ولا يحطم السر غير الجهر. ولمدني صالح نص ورمز وسر، ولي أنا عذر في أن أشرح وأفصح وأجهر. ومن الرموز ما اعطانا مفاتيحها ومنها ما بقي مغلقا لا يفتحه الا مدني صالح، عندما يشاء.)

د. فيصل غازل مجهول

فلسفة الكتابة عند مدني صالح

د. قاسم جمعة

راح يتخطى بهدوء، ذلك البحر المتلاطم وأمواجه الهائجة، ليضع أكليلاً من الورد يتنفس من خلاله ذلك البحر هواءً جديداً، وليصدر أنفاساً لم يعهدها. وهكذا بدأت تنسلخ من أهدابها، وترتدي لأجل ذلك جلداً طرياً لا يبتعد عن جوهرها ومضمونها غير البعيد عن سطحها. تلك هي كائنات ذلك البحر، والتي هي ملازمة لذلك الجو الخانق. حمل عصى ملتوية من فرط حكمته، وأخذ يدلل على ساحل الشاطئ. أنه سار من هنا يوماً.

ربما لكي يتعرف القادمون إليه، وربما أنه همس بشيءٍ لتلك الموجودات، والتي تبسمت لأحاديثه الشيقة، رغم أنه لم يكن صارخاً. بل إنه منزوي بعيداً في الركن الأبيض. وكأنها تعرفت إليه بهمساته القليلة، عُرِفْ ساعتها إنه الرجل. لن يُذعْ له سرْ، إلا لتلك البحيرة العجيبة والتي اعجبته، والتي طالما غرق فيها من لم يعرف العوم والحديث الشيق.

فالمألوف يجتاح يوميا دقائق وجودنا، ونحن لا نريح ذهننا المتعطش الا بإنعاش تكراره المخيف.. لكن ما الذي يقابل المألوف؟ والذي بدوره يمكننا من تخطي بطش اذرع عنكبوته.. في الجامعة لا مكان إلا للمألوف.. والبيت والشارع يسكنه المألوف، الوجود يسكن في بيته.

انت تتكلم عنه، ولا تتمكن من اصطياده، هكذا سألني احدهم. قلت انا اخاف من تعريفه، حدوده لا تنتمي الينا، فهو اتى من مكان مجهول؟

فهل يمكن تعريف الفلسفة، مثلا، بانها خيانة للمألوف وهل بالامكان خيانته ووحشه يطاردنان يطيح بكل الصور التي تتخيلها ادمغتنا المقيدة بسلاسل الخوف.

سألت كل الذين صادفتهم، اول ما اعتراني امل الخيانة. الذين تحدثوا عنه وعظمته. وهالني كيف يقدسه هؤلاء، ألا هو مدني صالح..

رجعت ادراجي عرفت ان اجدادي قلدوه كل الاوسمة، ورفعوه الى ما لا يمكن ان اتصوره بمخيلتي القاصرة، وقلت لماذا انا اذهب بعيدا في ماضيه، وارتشف منه حلا، عرفت حينها ان امالي واحلامي سوف تتحقق عندما اتعرف إليه والتقي به.. فلقد اغراني بطيبته وحضوره العفوي المتغلغل بتجاويف الحياة المعيشة

في العراق.

هو قال بصراحة: انت تريدني ان اتبعك. فقلت انا افضل ان ترشدني الى السعادة والامان، بل الى الحب الذي تعرفت إليه في حضن امي، التي توفيت لان دمها عز عليه ان يتدفق الى خارج انفها، فأجاب وبصراحة لا اطيقك ابدا، لانك لا تريد الاعتراف، وتتوسل اليّ ان ارشدك بوصفك واحدا من اتباعي. اتبعني وانا احقق لك ما تصبو اليه. اتبعك اين ومتى وكيف؟

قال لا تسأل لأنك عندما تجادلني، فان جسدي ينتابه المرض، واكون كمن سارت به الارض الى فزع لا ينتهي!

راحت الاسئلة ترتعش امام ركنه المهاب. فقررت ان اتبع المختلف واللامألوف الذي يخاف من الظهور ويعشق التخفي، عله يجد الامان، لكنه احيانا يتجلى هنا وهناك في زوايا يضلل عليها فورة الانتظار، ربما يحين وقت انطلاقه. لكني وجدته لا يخشى الا نفسه ولا يهاب الا ظهوره.

اذا ما تصالح المألوف والمختلف، فتصعب علينا مهمة التفرقة وتسقط كل اقنعة التخالف والتعاطف.

انت تختلف مع من ومن يشبهك؟! كل الذين تعرفت اليهم يشبهوك، وانت تتشابه معهم، فما هذا الادعاء الكاذب.. هكذا خاطبني اللامألوف الذي جسده قلم الراحل مدني صالح.. فلسفته علمتنا ان نسخر من المألوف، ولكنه بعدها يرتدي ثوبا جديدا ينهي به (مألوفيته) الجديدة ويصير مألوفا باختلافه عن نفسه المترقبة للتجديد في الكتابة واسلوبية الكتابة.

الفلسفة تقف مذهولة امام ما تريد قوله امام جيوش الاجتياح من كل خصومها وابنائها البررة.. تصنع اسئلة جديدة ومن هنا تنعش خراطيمها المقفلة على المألوف.

الاقفال والمألوف والباحثون عن غريمه المختلف، تنتظر اليوم اعلان منافيست التغيير الذي تعلنه الفلسفة في يوم استذكارها لعراب الاختلاف (مدني صالح)، لكني في النهاية اشعر ان ممارسة المختلف وحقه تتخلف اليوم كما قبله وبعده، ونتيه نحن في سعادة المألوف ونسافر معه الى كل المدن المقفل خزائن وعيها.

مفاتيح هذه المدن تقع خارج أسواره، وعلى اعتاب المختلف تسقط كل المحاولات الشجاعة التي سطرها هؤلاء، شجاعتهم في شق غلاظة وتفاهة المألوف، ومن بينهم الاب الروحي للنقد الثقافي في العراق (مدني صالح).

ربما نجترح التقابل بين ما ائتلفنا عليه وما اختلفنا فيه، لكننا سنصاب بالدوار، لاننا لا نقدر ان نجري حوارا مع عفريت الاختلاف.. تخيل انك تقلب كل ما تم الائتلاف حوله، ماذا سوف يجري؟

فمثلا، لا تسلم على احد، ولا تأكل مع غيره، ولا ترتدي ملابسك، وتختار العري او تمشي عكس السير... الخ، فانك سوف تعرض نفسك لسؤال محرج لماذا؟ وما السبب..؟

لكنك عندما تفكر فيه، وما الداعي لكي يكون قانونا، تصطدم مع تابوهاته، بل انه يشعرك بأنك محاصر هناك.. تغتالك العيون، وهنا تغتالك نفسك المراقبة من نفسك، لكنك تشعر بانه من المألوف ان نبكي ونضحك متى ما اردنا لكن يتبين من بعد ذلك، انك لا تختار ان تكون الا ان يختار لك الاخرون حاملو عرش المألوف.

ربما لا يحق لك ان تختار، ولكن تبقى انت رهن الاختيار، ولا ينبغي ان تختار الا ما يألفه الناس، ولا تختلف بائتلاف الجمع.. الجميع يحتفل ويبكي، لا بد ان تتبع، ولا تنفك الا انقيادا لهذا الجمع.

الفلسفة تسجل على حائط مبكى خوفها ارتدادها امام ما يحصل، فالقتلى يتوسلون ان يدفنوا والاطفال يريدون مأوى يخلصهم من عزلة السماء وبرودها..! وهناك من يرغب في ان تلتئم جراحه، لكي يبصر طريقه للعيش، ويوفر طعاما لبطون جاعت.

تقف الفلسفة اليوم حزينة وتتفرج على مرآة انحيازها الى عزلتها الخائبة، تخاف من الكتابة وهي تمتلك الحبر. انها تخون مدني صالح في لحده، بعدما كانت طيعة بقلمه، تنقد ثقافيا المألوف، وتصير الثقافة عنده فضاء للعبة الخروج من الكتابة فيه او عنه.

هكذا قالت احدى الروايات، وانا لم اصل بعد الى نهاية احداثها. الواقع اعترفت الفلسفة دوما انها في ديمومة طالما بقيت تخون المألوف، وهو رغم ذلك ينتصر، لانه لا يكلم الناس لاقناعهم، بل انه يحتضن كل شيء بدفء ونحن المشردون وعطاشى التحرر نتلمس السبات علاجا للعقل المألوف، لكي ننعش دمنا بالاختلاف باستذكار رجل الثقافة ومحرر الخطاب الفلسفي من مألوفه في تدريس الفلسفة او الكتابة فيها، او قل في كل ما خطت يداه العاشقة لمنطق الاختلاف.

الكتابة بالمنظور المدني تطرح بروح وبِنَفَسٍ خلاق وإيقاع أدبي مرمز، بديلاً إستراتيجياً، لا تبقى حبيسة جماليات النقد أو النقد الجمالي، بل أنها تكشف بعين ماكرة حلول المأزق الوجودي للإنسان، والذي يعيشه وفقاً لسياسة الاستغلال والاستلاب الرأسمالي والكوني للآخر، أي كانت هوية هذا الآخر ومسخا لهوية وكينونة ذاك الفرد المغاير.

وتتضح راهنية خطابه الفلسفي، من خلال اقتراح البدائل الإستراتيجية، لفك أسرار الصراع بعد معرفة أسبابه وعلله، وانتهاج اللعب للابتهاج والعمل للانتاج.

فالمهم الإنسان وتحقيق سعادته، ورفع الضرر عنه، وتقريب وسائل تحقيق الخير له، وتطبيق العدالة الاجتماعية. فلا روبنسن كروزو، يظلم فرايدي، ولا يستلبه حقوقه، ولا السيد سيستغل العبد، ولا يضطهده نظام اجتماعي قاروني احتكاري متعسف. هنا يُعْرَف التوازن والتحقيق المستمر للعدالة. فلا يُظْلَمْ ولا يَظْلُمُ أحد شخصاً غيره.

والعمل واللعب هما وجهان لتقنية

مدني الاستراتيجية في فض الجدل الحضاري، وفهم طبيعة الصراع البشري. مع الأخذ بوجه الاعتبار، النظرة العقلانية ـ الإنسانية الشاملة في الطرح الفلسفي. يحدوه في ذلك تجاوز ذلك النسق الفلسفي الجنائزي، والذي يسميه بالمأتم الفلسفي.

مع الإشارة الى أن الأفكار التي يبثها في نصه الفلسفي المرمز أدبياً ـ وكما نرى ـ هي عملية مزيج نقدي بين أفكار تابعة لتيارات فلسفية، ومذاهب مختلفة من ماركسية ووجودية وبراجماتية، تحاول أن تتجاوز الرؤية الواحدية لتنتقل إلى رؤية فلسفية توفيقية إنسانية، تجعل من الإنسان بهويته وقيمه الإنسانية، محورا للتفكير الفلسفي، وخلق حالة التوازن العالمي بين عناصر الصراع التاريخي ـ الحضاري.

والتاريخ والحضارة والثقافة، مقولات أساسية في نص مدني. والاحتكار والحرب والتجارة مفاهيم يركز عليها في كشف أصل الصراع والعنف بين محاور الصراع بين فرايدي وكورزو، بين الشرقي والغربي، بين بالعامل والمنتج، بين القاروني المرابي، وبين الفقير المسكين العبد الذليل فرايدي.

ويروم مدني من وراء استخدامه الاجرائي النقدي لهذه المقولات والمفاهيم، تصحيح المسار التاريخي، وكشف عيوب القراءات الإسقاطية الإستراقية الملائية. وكل فكر جنائزي، لا ينطلق من مقدمة اللعب للابتهاج والعمل للإنتاج، والقضاء على كل الثنائيات السائدة ومفاهيمها الكلاسيكية المسيطرة على التفكير الفلسفي، والتي جعلته متمحورا نحو فهم تقليدي لطبيعة حركة التاريخ، لا سيما بعد حدوث الطوفان.

ولكن ألا ينشئ (مدني صالح) ثنائيات تحكم نسيج خطابه النقدي، وتبقى المسيطرة على كشف أسرار الطوفان وأسبابه وعوامل الخلاص منه؟!

ولا ينسى مدني أن يفتح السجال الثقافي في خطابه النقدي، على مجالات عدة تشمل فلسفة التاريخ والحضارة وتاريخ الفلسفة من ألفها إلى يائها، بروح مبدعة وبنفس ابن طفيل الفلسفي المرمز، لا سيما في قصته الرائعة ـ حي بن يقظان ـ التي جاءت عامرة بدلالات ورموز خالدة، تشمل قصة الإنسان وحضارته ومراحل مسيرته الروحية وعلى سبيل المثال لا الحصر!! والعلاقة بين أناس يدينون لأفكار وأيديولوجيات مختلفة ومتنوعة تكشف عمق الفيلسوف الإسلامي في كشف العلاقة بين الإنسان والحقيقة.

نصوص قديمة

بواكير الحركة الوطنية والتقدمية في العراق*

في لقاء مع الاستاذ حسين جميل

القسم الثاني

اذا كان التاريخ اكبر معلم للانسانية، فلانه خزين هائل لتجارب الشعوب والامم، لتجارب الإنسانية في درب الحرية والانعتاق، وخزين ثر العطاء في نضالها من اجل اهدافها السامية. لذلك كان الإنسان، ولما يزل، يعود الى التاريخ من ابواب متعددة ومتباينة، ويحاول الدخول فيه من نوافذ يختارهذا المفكر وذلك السياسي.

وهيأة تحرير (الثقافة الجديدة) في سياق لقاءاتها التي عقدتها مع المعنيين من الساسة والاختصاصيين لاستيضاح بعض جوانب بدايات وتطور الحركة الوطنية والتقدمية العراقية، التقى ممثلها الرفيق الدكتور صفاء الحافظ مع الأستاذ حسين جميل، الشخصية السياسية المعروفة، اطلالا منها على صفحات من تاريخنا المعاصر، واستطلاعنا لمختلف الآراء، التي ليست بالضرورة تعبيرا عن وجهة نظر المجلة... انها نوافذ من الحاضر على الماضي، تستحث آراء الآخرين من الساسة والمفكرين المعنيين، ليجري التفاعل ويكتمل التناول الشامل الموضوعي، فتجري الافادة في بناء الغد الذي نطمح به.

(الثقافة الجديدة)
آب 1978

س- استاذ حسين جميل، الى أي حد وصلنا بحديثنا في المرحلة الماضية؟

ج- وصلنا بحديثنا الى الوقت الذي تعينتُ فيه حاكما في المحاكم المدنية العراقية، وكان ذلك في شهر تموز سنة 1933. والذي عينني هو الاستاذ محمد زكي الذي كان وزيرا للعدلية في وزارة رشيد عالي الكيلاني.

وبالمناسبة ومادمنا بصدد اعطاء صورة عن مجتمع العشرينات والثلاثينات. فيجب أن اقول كلمة عن محمد زكي. انه كان يختلف عن بقية زملائه، اكثرية أعضاء حزب الإخاء الوطني. كان في حزب ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، ولكنه كان يتميز عليهما وعلى الكثيرين من اعضاء حزبه وعن زملائه الوزراء الآخرين، بأنه كان يؤمن بالديمقراطية وبحقوق الشعب، وبالحريات العامة. طبعا كان ايمانه بالديمقراطية بمفاهيمها السائدة حينذاك، الديمقراطية الليبرالية. وفي ذلك الوقت كان يعتبر (تقدميا) بالنسبة لزملائه. وكان يتعاطف مع جريدة الأهالي. وعرفتُ

بعدئذ من الاستاذ كامل الجادرجي بانه كان يدافع عن جريدة الأهالي في مجلس الوزراء، عندما كانت تقف موقفا شديدا في المعارضة. وكلما كان تقدم اقتراح بتعطيلها، ينجح في الحيلولة دون ذلك. كما علمتُ من كامل الجادرجي بعد أن انضم إلى (جماعة الأهالي) واصدر جريدة (صوت الأهالي)، أن محمد زكي ساعد جريدة الأهالي مرة في ازمة مالية مرّت بها، وان كان المبلغ الذي دفعه ليس كبيرا فقد كان خمسين دينارا. ان محمد زكي هو الأخ الكبير للسيد عبدالوهاب محمود (نقيب المحامين السابق) وقد توفي بمرض عجز الكلية في سنة 1937 وهو اقرب الى الشباب، فقد كان عمره حوالي 43 عاما.

نأتي إلى نقطة مهمة، يمكن القول أنها نقطة تحول كبيرة في مسيرة (جماعة الاهالي) بوجه خاص، وبمسيرة الحركة السياسية بوجه عام، هذه النقطة هي انضمام الاستاذ كامل الجادرجي الى (جماعة الاهالي).

الاستاذ كامل الجادرجي ـ كما تعلم ـ كان من اعضاء حزب الاخاء الوطني مع ياسين الهاشمي. وربما كانت تربطه به رابطة شخصية ايضا، بالاضافة الى الرابطة السياسية، فقد كان السكرتير الخاص بياسين الهاشمي بصفته وزير المالية في سنة1927 . ثم صار نائبا في سنة 1928 عن لواء الدليم.

بدأ تحول كامل الجادرجي عن ياسين الهاشمي بعد صدور جريدة الأهالي، وهي قد صدرت كما نعرف في اول سنة 1932. وانا بدأ اتصالي بالاستاذ كامل الجادرجي في السنة ذاتها (1932) ففي تلك السنة اتخذ كامل الجادرجي مكتبا للمحاماة في سوق دانيال (خان جغان سابقا). وانا ايضا كان لي مكتب محاماة في نفس البناية، فكنا متجاورين في المكاتب، وكنا نلتقي معه انا وعبد القادر اسماعيل. وفي الواقع اتخذ الأستاذ كامل الجادرجي مكتب المحاماة لا للعمل في المحاماة بصورة جدية وانما ليلتقي فيه مع من يعنيه أن يلتقي بهم، ولا اذكر الآن الأستاذ محمد حديد او الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم كانا يأتيان للقاء الأستاذ كامل الجادرجي في هذا المحل أم لا. لكن الذي اعرفه انه كان يلتقي بهما وربما في اماكن اخرى.

من جملة ما سمعناه من كامل الجادرجي في هذه اللقاءات انه كان يقرأ جريدة الاهالي منذ بدأت تصدر في أول سنة 1932، ويجد انها اقرب الى تفكيره من جريدة (الإخاء الوطني) وهي جريدة حزبه.

كانت البداية في ابتعاد كامل الجادرجي عن حزب الإخاء، تعيين رشيد عالي الكيلاني رئيسا للديوان الملكي، حيث اعتبر ذلك تعاونا مع وزارة نوري السعيد، لأن وزارة نوري السعيد هي التي عينته بعد تصديق معاهدة 1930. واعتبر هذا انحرافا عن معارضة المعاهدة واتصالا بالحكم، ومدخلا الى الاشتراك فيه. وشعر أن حزب الاخاء الوطني غير جاد في مطالبيه الوطنية، ولا في العمل من اجل تبديل المعاهدة.

اما الخطوة الحاسمة في موقف الاستاذ كامل الجادرجي عندما استقال من حزب الاخاء الوطني فلبيان ذلك نحتاج الى

الاشارة الى واقعة التآخي بين الحزب الوطني وحزب الإخاء الوطني، ذلك أنه في سنة 1930 عندما عرض نوري السعيد مشروع المعاهدة مع بريطانيا - وهي المعاهدة التي عرفت بعدئذ باسم معاهدة 1930، حصل تآخي بين (الحزب الوطني العراقي) برئاسة جعفر ابو التمن، وبين (حزب الاخاء الوطني) برئاسة ياسين الهاشمي. وكانت وثيقة التآخي تتضمن في احدى موادها (أن أيا من الحزبين لا يقبل الاشتراك في الحكم إلا على اساس تعديل المعاهدة تعديلا يضمن مطامح العراق وحريته واستقلاله).

وبعد أن صدقت المعاهدة في سنة 1930، وبعد ان دخل العراق في عصبة الأمم في سنة 1932، وبعد أن استقالت وزارة ناجي شوكت التي خلفت وزارة نوري السعيد، عهد الملك الى ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة. وهذه سياسة اتبعها الملك فيصل مرتين، مرة في سنة 1924، ففي اواخرها وبعد ان صدّقت المعاهدة الأولى من قبل المجلس التأسيسي، عهد الى زعيم المعارضة في المجلس التأسيسي ورئيس اللجنة التي رفضت المعاهدة، وهو ياسين الهاشمي برئاسة الوزارة، حتى يقوم بتنفيذ المعاهدة التي رفضها. وفعلا تم ذلك. وتكرر ذلك في مرة اخرى في سنة 1933. الحزب الذي يرفض المعاهدة، يعهد اليه بالسلطة، بعد تصديق المعاهدة، ويقوم بتنفيذها. حتى يبدو وكأن المعاهدة مقبولة بشبه اجماع. بعض الساسة قبلوها رسميا، والذين عارضوها شكليا في المجلس نفذوها بوجودهم في الحكم.

س- ماذا تستنتج من هذا استاذ حسين؟ فهذا النوع من المعارضة التي تعارض المعارضة من جهة، ومن ناحية اخرى تقبل السلطة؟

ج- باعتقادي انها معارضة شكلية وغير حقيقية، يقومون لكسب شعبية أمام الناس، لكن حقيقة افكار واهداف اولئك المعارضين الشكليين، انهم مع الحكم القائم وهم من نفس المجموعة السياسية التي تتولى الحكم، ولكنها ادوار تتوزع بين الحاكمين. وكان فيصل الأول - بالمناسبة ونحن نستعرض كافة الجوانب - يشجع هذا النوع من المعارضة التي هي غير مؤذية وغير مدمرة لسياسته، وعلى العكس من ذلك كانت اللعبة السياسية تتطلب هذا التنوع في الأدوار السياسية، لمنع الأزمات الحادة في الجو السياسي، ولإضفاء شيء من الحوار الديمقراطي والجدل السلمي بين القوى في الحدود التي لا تسيء إلى النظام. ومن اهداف هذه السياسة كان امتصاص المعارضة الشعبية، لتصبح معارضة شكلية غير مؤذية وغير محطمة لأهداف الحكم.

وفي سنة 1924 وبعد أن رفض ياسين الهاشمي المعاهدة العراقية البريطانية الأولى في المجلس التأسيسي، وبعد أن صادق المجلس على المعاهدة. عهد الملك إليه بتشكيل الوزارة، وقام بذلك ونفذ المعاهدة وفي عهد وزارته هذه منح الانكليز والشركات النفطية المشتركة مع الشركة البريطانية امتياز النفط. وفي سنة 1930 عارض ياسين الهاشمي المعاهدة، وبعد تصديقها عهد الملك الى حزب الاخاء بتشكيل الوزارة فتألفت الوزارة برئاسة

رشيد عالي الكيلاني، والرئيس الحقيقي لها ياسين الهاشمي وزير المالية، وحيث اننا نذكر هذه الأحداث، لنبين السبب الذي من أجله استقال من حزب الاخاء وانضم الى (جماعة الأهالي). نتحدث الآن عن هذه النقطة .

عندما تشكلت وزارة رشيد عالي الكيلاني في شهر آذار سنة 1933 وكان ياسين الهاشمي يشغل فيها وزارة المالية، جاء في منهاج الوزارة (احترام المواثيق الدولية والسعي الى تحقيق الأماني الوطنية). وواضح ان تعبير (احترام المواثيق الدولية) المقصود به احترام المعاهدة. ترتب على هذا أن الحزب الوطني (برئاسة جعفر ابو التمن اعلن عن انفصام التآخي مع حزب الاخاء الوطني) الذي قبل الحكم على اساس المعاهدة البريطانية خلافا لوثيقة التآخي التي ترفض الحكم إلا على اساس تعديل المعاهدة تعديلا يحقق استقلال العراق ويحقق امانيه الوطنية والقومية. واعتبر الحزب الوطني قبول حزب الاخاء الحكم وبيانه عن احترام المواثيق الدولية خروجا على وثيقة التآخي، فاعلن أن التآخي بين الحزبين لم يعد قائما.

هذا من ناحية الحزب الوطني، وبالنسبة للاستاذ كامل الجادرجي فإنه استقال من (حزب الإخاء الوطني) للسبب نفسه. وحيث انه كان على صلة مع (جماعة الأهالي)، وكان له مع عناصرها لقاءات متصلة، والطرفان تحدثا معهم في كافة الأمور العامة ولمسوا توافقا في الأفكار والاهداف، فان كامل الجادرجي انضم الى (جماعة الأهالي) وكان ذلك في أوائل سنة 1933. وجاءت ظروف في وقت قريب من انضمامه إلى الأهالي، دعت لان يصدر كامل الجادرجي جريدة (صوت الأهالي) لتحل محل جريدة (الأهالي)، التي عطلتها السلطة في هذه الظروف، هي انه في سنة 1934، قامت حركة معارضة قوية في العراق ضد الوزارة القائمة على الحكم حينذاك، وضد اسلوب الحكم السائد بوجه عام. وكانت تلك الحركة اشد حركات المعارضة حتى ذلك الوقت، قد اخذت المعارضة شكلا عقائديا ذا مضامين اجتماعية واقتصادية بالاضافة الى الجانب السياسي الذي كان طابع المعارضة قبل ذلك. في هذا الجو عطلت وزارة جميل المدفعي جريدة الاهالي، واوقف عبدالقادر اسماعيل المدير المسؤول للجريدة ونسب اليه أنه مسؤول عن منشور وزع حينذاك يحتوي على مضامين ضد الوزارة وضد الملك. فقد كان فيه تعبير (ان السمكة تجيف من رأسها)، اشارة الى ان فساد الحكم يشمل الملك الذي هو رأس النظام.

وبعد تعطيل (الأهالي) عرض كامل الجادرجي أن يصدر جريدة تحل محل (الأهالي) وقد نفذت هذه الفكرة وصدرت (صوت الاهالي) وكان صاحب الامتياز لها كامل الجادرجي.

ولبيان علاقتي بالجريدة في هذه المرحلة اذكر لكم، اني بقيت على صلة بجماعة الأهالي بعد تعييني في القضاء، وكنت اكتب في الاهالي، ولكن في مواضيع اجتماعية وقانونية ولم اكتب في السياسة العراقية. وكان محل عملي في محاكم الحلة، وهي كما تعلم مدينة قريبة

من بغداد، تبعد عنها مائة كيلو متر، لذلك كنت كثير التردد على بغداد، وآتي اليها كل اسبوع، واتصل بجماعة الاهالي.

أخذ كامل الجادرجي في عمله مع جماعة الأهالي، دورا قياديا فقد كان متفرغا للعمل السياسي، في حين أن جميع الاخرين لم يكن بوسعهم ترك اعمالهم الاخرى حيث لم يكن لهم اي مورد غير عملهم. محمد حديد في وزارة المالية وعبد الفتاح ابراهيم في التعليم الثانوي ثم في الميناء في البصرة وعبد القادر اسماعيل في المحاماة، وانا في المحاماة اولا ثم في القضاء. فهو - اي كامل الجادرجي - كان الوحيد المتفرغ للعمل السياسي. هذا بالاضافة الى ان الدور القيادي الذي اصبح له ليس غريبا بالنظر لتجاربه في العمل العام اكثر من الآخرين، فقد كان يزيد في العمر على جميع الاخرين تسعا وعشرا وأحد عشر عاما، وبالإضافة إلى هذا ليس أقل من أي من الآخرين في المزايا والصفات المطلوبة في الرجل العام وذلك في نواحي الايمان بالعقيدة والصلابة في اتخاذ المواقف والوطنية والتضحية من أجل الصالح العام.

لقد استعملت في كلامي وانا اتحدث إليكم تعبير (جماعة الأهالي) للاشارة الى مؤسس جريدة الأهالي، ومن انضم إليهم بعد ذلك، وعمل في الجريدة ثم تطور عملهم الى تأسيس (جمعية الاصلاح الشعبي) بعد ذلك في سنة 1937. وكانوا نواة الحزب الوطني الديمقراطي الذي تألف في سنة 1946. وقد جاءت هذه التسمية من الناس مع مرور الوقت، اقصد ان (جماعه الاهالي) ليسوا هم الذين أسموا انفسهم هذه التسمية وجماعة الأهالي بعد دخول الاستاذ كامل الجادرجي، يمكن أن نقول أنها دخلت مرحلة جديدة تختلف عن المرحلة السابقة.

س- هل ان سياسة جريدة الأهالي تغيرت قليلا عن السابق بدخول الاستاذ كامل الجادرجي، أم انها استمرت على نفس النهج؟

ج- حدث تغيير، ولكن انا لا أعلم هل السبب هو دخول الاستاذ كامل الجادرجي، ام ان الاحداث والظروف او مسيرة العمل السياسي استوجبت هذا التغيير. غير أن التغيير الأساسي الذي حدث، هو أن (جماعة الاهالي) منذ بدات العمل سنة 1932 باصدار جريدة الأهالي، ونشر بعض الكتب كانت تقوم بدعوة فكرية عقائدية، بعد انضمام كامل الجادرجي اليها، تحولت تدريجيا الى جماعة تتعاطى العمل السياسي اليومي، وتشارك في الاحداث ودخلت حلبة الصراع السياسي مع الجماعات الأخرى، ولم تعد جماعة الدعوة والتبشير ونشر الأفكار التي تريدها أن تسود المجتمع، ولو كان ذلك في المستقبل غير القريب. واقول لك الشيء المهم الذي حدث وكان للاستاذ كامل الجادرجي الدور الأساس في حدوثه، ذلك هو قبول القيام بانقلاب بكر صدقي في سنة 1936. والاحداث التي تطورت وادت الى القيام بانقلاب سنة 1936 كانت على الوجه الاتي:

اعتزل المرحوم جعفر ابو التمن في سنة 1933 - 1934 العمل السياسي، اثر تولي حزب الإخاء الوطني الحكم بتشكيل

وزارة رشيد عالي الكيلاني، وتسجيلها في منهاجها (احترام المواثيق الدولية) على الوجه الذي سبق الحديث فيه، الأمر الذي سبب اعلان الحزب الوطني انتهاء تآخيه مع حزب الإخاء. هذا بالاضافة الى ان جعفر ابو التمن صدم بواقع عدد كبير من الساسة الذين عمل معهم، ولاسيما من اعضاء الهيئة الادارية لحزبه الذين رفضوا قرار مقاطعة انتخابات المجلس النيابي التي أجرتها وزارة ناجي شوكت في اول سنة 1933 وقبولهم العضوية في المجلس المذكور.

وكانت بين جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي صلات وثيقة تقوم على قواعد من اطمئنان احدهما الى الاخر والثقة به. وفي اواسط سنة 1934 اقنع كامل الجادرجي أبا التمن بان يعود الى العمل السياسي. وقبل جعفر ابو التمن الفكرة. وكتب عن ذلك في الصحف وقد رحب بهذه العودة كثير من الناس ونشروا في الصحف عن فرحتهم بذلك. وللحقيقة يجب أن نذكر ان جعفر ابو التمن شخصية فذّة في تاريخ العراق في العشرينات والثلاثينات الى وفاته في سنة 1945، شخصية قل نظيرها في السياسة العراقية.

الخطوة الثانية في المسيرة الى الانقلاب، ان الاستاذ كامل الجادرجي قرّب بين جعفر ابو التمن وحكمت سليمان، وحكمت سليمان - كما تعلم - احد رجال الحكم ممن شارك في وزارات متعددة وانتخب مرة رئيسا لمجلس النواب. وكان وزير الداخلية في وزارة رشيد عالي الكيلاني في سنة 1933 وكان من اقطاب حزب الاخاء الوطني، ولم يبتعد عن هذا الحزب الا في أوائل سنة 1935 عندما تشكلت وزارة ياسين الهاشمي في الشهر الثالث من هذه السنة، أما سبب تركه حزب الإخاء، فألخصه على الوجه الاتي:

بعد تشكيل علي جودت وزارته في آب سنة 1934، حلت الوزارة مجلس النواب، واجرت انتخابات مجلس جديد. وعلى اثر ظهور نتائج الانتخابات في شهر كانون الأول 1934، اجتمع رشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان وبعض رؤساء القبائل وبصورة أساسية، عبد الواحد الحاج سكر والسيد محسن ابو طبيخ وعلوان الياسري وسماوي الجلوب وشعلان العطية، اجتمعوا في دار حكمت سليمان في الصليخ، لذلك عرفت هذه الحركة بـ (مؤامرة الصليخ) وقرروا في اجتماعهم هذا معارضة وزارة علي جودت لغرض اسقاطها بالوسائل السلمية اولا، فان لم تسقطها هذه الوسائل اسقطوها بالقوة. كما كتب ذلك السيد محسن ابو طبيخ في كتاب اصدره بعد ذلك بعنوان (المباديء والرجال) ثم انضم إلى الحركة بعد بدايتها ياسين الهاشمي. وكانت نتيجة الحركة استقالة وزارة علي جودت في اواخر شهر شباط 1935. وتألفت على اثر ذلك وزارة برئاسة جميل المدفعي، تطورت المعارضة في عهده الى تمرد مسلح ادى الى استقالة الوزارة بعد اثني عشر يوما من تأليفها. وعهد الملك الى ياسين الهاشمي تأليف الوزارة.

عرض ياسين الهاشمي على حكمت سليمان وزارة المالية، ولم يقبل حكمت سليمان هذا العرض، وطلب أن يعهد إليه بوزارة الداخلية، الأمر الذي لم يوافق

عليه ياسين الهاشمي، وعهد بوزارة الداخلية الى رشيد عالي الكيلاني، وتألفت وزارة ياسين الهاشمي دون أن يشترك فيها حكمت سليمان، وكان ذلك في شهر آذار سنة 1935.

وبمناسبة ماذكرته قبل هذا عن مسعى كامل الجادرجي التقريب بين جعفر ابو التمن وحكمت سليمان منذ اواسط سنة 1934. هذا المسعى الذي تحقق وقبل جعفر ابو التمن العمل مع حكمت سليمان. بمناسبة هذا الحديث، وما سوف نصل إليه في حديثنا بشأن اشتراك حكمت سليمان في العمل مع جماعة الأهالي، وما اعقب ذلك من احداث ادت الى قيام انقلاب سنة 1936 واشتراك جماعة الاهالي (فيه)، اقول بهذه المناسبة أرى من المفيد أن أقول كلمة مختصرة عن حكمت سليمان. لتفسير عمل (جماعة الاهالي) معه من جهة ولتعريف اجيالنا الجديدة. حكمت سلمان من الشخصيات الوطنية، لا تشوب وطنيته اية شائبة، وهو شخص صريح وواضح ومستقيم ونظيف في حياته العامة والخاصة، شديد الرغبة في خدمة مصالح الشعب. اهتمامه الأول نشر التعليم العام واقامة الدولة العصرية في العراق.

نعود الى الحديث عن المسيرة التي أدت الى الانقلاب. وقد ذكرت قبول جعفر ابو التمن العمل مع حكمت سليمان، وحكمت سليمان كان يرحب بالعمل مع جعفر ابو التمن.

وهكذا انضما كلاهما الى (جماعة الأهالي) وكان ذلك في أواسط عام 1934 كما سبق ان ذكرت. وسبق أن ذكرت ايضا ان كامل الجادرجي أصدر جريدة (صوت الأهالي) وحلت محل جريدة (الأهالي)، التي كانت قد عطلتها السلطة، بعد مدة – لا اذكرها الآن ولكنها على كل حال ليست طويلة.

وعُطِلت جريدة (صوت الأهالي) فاصدر جعفر ابو التمن جريدة جعل اسمها (المبدأ) ووضعها تحت تصرف جماعة (الأهالي)، فكانت تحرر من قبل محرري (الأهالي) متبعة نفس سياستها طبعا، وطبعت في مطبعة الأهالي. وصدر من جريدة (المبدأ) حوالي ثلاثين عددا وعطلتها السلطة. وبعد ذلك حصل حكمت سليمان على امتياز جريدة باسم (البيان) لتصدر عن (جماعة الأهالي)، وهيئت مادة العدد الأول منها وكان بصورة أساسية في نقد اتفاقية السكك الحديدية التي توصلت اليها وزارة ياسين الهاشمي مع الحكومة البريطانية، وقبل أن ينتهي طبع العدد، داهمت الشرطة (مطبعة الأهالي) وكانت في محلة البقجة في الميدان، قرب المدرسة الثانوية المركزية، وضبطت العدد واغلقت المطبعة، ووقفت الشرطة بالباب تمنع الوصول الى المطبعة، وقد اخذ الاستاذ كامل الجادرجي لهذا المنظر صورة فوتغرافية - وانت تعلم أنه من هواة التصوير الفوتوغرافي ويتقنه مثل احسن المحترفين. وقد نشرت الصورة بعدئذ عندما تغيرت الظروف وتغير الحاكمون.

حكمت سليمان، كانت له صلة وثيقة ببكر صدقي، نشأت وتوطدت في حوادث الآثوريين سنة 1933. ففي هذه السنة كما نعلم تمرد الآثوريين في الشمال، وكان حكمت سليمان وزيرا للداخلية في وزارة رشيد عالي الكيلاني، وبكر صدقي قائد

الجيش في المنطقة الشمالية. وقررت الوزارة سحق التمرد عسكريا، وأودعت هذه المهمة الى بكر صدقي .

وقد كان هناك اعتقاد سائد بأن وراء الحركة جهة اجنبية، مما عكس انطباعا بأن قمع التمرد كان عملا وطنيا، ولانهما قاما بهذه المهمة دون ان يهتما بالاعتراضات التي قدمتها الجهة البريطانية ضد استعمال الشدة من قبل الحكومة العراقية في قمع التمرد، فقد توطدت علاقة وثيقة بين الاثنين (حكمت سليمان وبكر صدقي) واستمرت العلاقة بينهما تتوطد مع الايام.

ولكي نوضح تطور العلاقات بينهما في عهد وزارة ياسين الهاشمي حتى نصل الى الانقلاب الذي عرف باسم (انقلاب بكر صدقي في سنة 1936) يجب ان نرجع قليلا الى الوراء، لنشير باختصار الى الظروف التي جاء فيها ياسين الهاشمي الى الحكم، ثم ماوقع في عهده من حركات تمرد عشائرية مسلحة. وقد تحدثنا قبل هذا ولكن باختصار عن اجتماع الصليخ ومعارضته وزارة علي جودت واستقالتها. وتأليف وزارة الاثنى عشر يوما برئاسة جميل المدفعي والتي تطورت المعارضة في عهدها الى تمردات عشائرية مسلحة، ادت الى سقوط الوزارة. هذه التمردات قام بها عبدالواحد الحاج سكر في الفيصلية والمشخاب (لواء الديوانية)، وشعلان العطية في الدغارة، والسيد محسن ابو طبيخ (في الديوانية ايضا)، وسماوي الجلوب في الهندية. وحبيب الخيزراني في ديالى.

س- ماهو واقع هذه الحركة؟

ج– بدأت الحركة بمعارضة سلمية لاسقاط وزارة علي جودت، التي كانت قد تألفت في شهر آب سنة 1934 ليتسلم حزب الاخاء الوطني الحكم، وقد حققت هذا الغرض واستقالت وزارة علي جودت في اواخر شهر شباط 1935، ولكن لم يخلفها في الحكم قادة حركة المعارضة التي اسقطتها، بل الف الوزارة جميل المدفعي، وفي الأيام الأولى لهذه الوزارة انقلبت حركة المعارضة السلمية الى تمرد مسلح، فاحتلت قوات عشائرية مسلحة تتبع الحاج عبدالواحد الحاج سكر الجسور والطرق في منطقة الفيصلية والمشخاب في قضاء (أبو صخير- لواء الديوانية) واحتلت قوات تتبع الشيخ شعلان العطية، ناظم الري في صدر الدغارة (لواء الديوانية ايضا) واحتلت قوات تتبع الشيخ حبيب الخيزران، المنصورية في لواء ديالى. وعجزت وزارة جميل المدفعي عن ايجاد حل لانهاء هذا التمرد لا سلميا ولا عسكريا، وقد واجهها الملك بهذه الحقيقة، فاستقالت الوزارة بعد اثني عشر يوما من تشكيلها، وعهد الملك الى ياسين الهاشمي زعيم الحركة التي اسقطت الوزارتين المتتاليتين بتأليف الوزارة. وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك وعن اعتذار حكمت سليمان عن قبول وزارة المالية التي عرضها عليه الهاشمي، واصراره على اشغال وزارة الداخلية. وقد تألفت الوزارة دون ان يشترك فيها حكمت سليمان. ومن المعلوم ان اصرار حكمت سليمان على اشغال وزارة الداخلية سببه ما لهذه الوزارة من أهمية خاصة لأن

الأجهزة المسؤولة عن الأمن الداخلي وعلى الجمعيات والنوادي والأحزاب والنشاط السياسي والصحافة والعشائر وممارسة الحريات، كل تلك الأجهزة وغيرها تتبع وزارة الداخلية، وانه لمكسب كبير لكل حركة سياسية أن تكون مسؤولة او مشرفة على وزارة الداخلية، حتى تنشط وتمارس العمل بحرية اكثر. الى هذا يرجع سبب طلب وزارة الداخلية من قبل حكمت سليمان والجماعة الذين كانوا يعملون معه.

تألفت وزارة ياسين الهاشمي في 17 آذار سنة 1935.

رد الفعل لدى رؤساء القبائل والعشائر المناوئين لأولئك الرؤساء الذين أوصل تمردهم ياسين الهاشمي وحزبه (حزب الإخاء الوطني) الى الحكم، كان شبيها بالفعل الذي اوصل الهاشمي الى الحكم، فكما جاء بتمردات عشائرية، فكروا هم - اي خصوم الرؤساء المؤيدين للهاشمي - والذين شعروا بالخطر على مصالحهم لاسيما في موضوع المنازعات على الأراضي - اقول فكّر هؤلاء وهم ايضا اعوان الوزارتين اللتين سقطتا، فكروا هم بان يقوموا بتمردات عشائرية تسقط وزارة الهاشمي، وهكذا وقعت في عهد وزارة ياسين الهاشمي، سبع حركات تمرد مسلح في كثير من انحاء العراق، وامتد ذلك منذ اوائل ايام الوزارة الى اواخر ايامها، بدأت في منطقة الرميثة (لواء الديوانية - منطقة السماوة - محافظة المثنى الآن) ثم في الدغارة (لواء الديوانية محافظة القادسية) وفي سوق الشيوخ (لواء المنتفك - محافظة ذي قار الان) وفي الشمال في سنجار. عدة حركات عشائرية قُمعت بعنف وقسوة في ظل احكام عرفية اعلنت قانونها وزارة الهاشمي.هذا القمع القاسي وتكرر اعلان الاحكام العرفية وقمع المعارضة، تحت شعار اعادة الأمن، جمع اسباب الاستياء والتذمر من الوزارة لدى الناس وتكون رأي عام مناوئ للوزارة. هذا بالاضافة الى الأسباب الاعتيادية لتذمر الناس من الحكم بسبب استمرار عجزه عن تلبية مطاليب الناس وبسبب الفساد والمظالم التي تقع. ويجب أن لا نهمل دور المعارضة في بلورة الحركة الشعبية في انتقاد الحكم واساليبه، فقد كان هناك المعارضون من داخل نظام الحكم، وهي في اساسها تدور حول محور الصراع على السلطة ومعارضة اعوان الوزارات السابقة، لا سيما الوزارتين اللتين سقطتا. ثم معارضة (جماعة الأهالي) القائمة على أساس مناهجهم في الشعبية. ويجب أن نذكر انه قبيل هذا الوقت كان الحزب الشيوعي العراقي، قد تكوّن في سنة 1934، وبدا عن طريق منشوراته وجريدته السرية، في بلورة معارضته الاوضاع السائدة بمفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة. وبهذا دخلت المعارضة في عهد جديد. واذا اردنا أن نلخص الأدوار التي مرت بها المعارضة، يمكن أن نقول أنها كانت قبل 1932 تدور بصورة اساسية بين فئات الحكم او بين أفراد عائلة الحكم، ومن اجل السلطة، باستثناء الصوت الذي كان يرفعه الحزب الوطني برئاسة جعفر ابو التمن، فقد كان خارج عائلة الحكم، ولم تكن معارضته من اجل السلطة، انما كان صوتا وطنيا مناوئا للانتداب البريطاني.

ودخل المعارضة عنصر جديد يختلف في جوهره عن تلك المعارضة بصدور جريدة الأهالي، ودعوتها (الشعبية) وتبشيرها بمبادئ جديدة لا من أجل الوصول إلى الحكم في وقت قريب، انما العمل على صعيد الشعب، ومن اجل المستقبل، والى مدى ربما يكون بعيدا نسبيا. وكان ذلك منذ أول سنة 1932 – كما هو معلوم – وبتأليف الحزب الشيوعي العراقي في سنة 1934 حدث تغيير كبير في مجمل الحركة السياسية في العراق، سواء على صعيد المعارضة او على صعيد الحكم. واستمر ذلك الى قيام ثورة 14 تموز سنة 1958 ونجاحها بعد ذلك ايضا. أما هذا التغيير الكبير فأشير اليه بتلخيص شديد:

على الصعيد الشعبي ارتفع صوت جديد، قوي وواضح بمفاهيم جديدة لأوضاع المجتمع في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، دعوة الى تغيير شامل في الأوضاع السائدة، تغييرا جذريا. وعبرت عن هذا الصوت جريدة الحزب السرية، ونشراته السرية ايضا، وكذاك عن طريق الاتصال بالناس. وكنا نطلع على كثير من هذه النشرات، فنجد فيها كشفا عن اوضاع سيئة قائمة، ودعوة الى ما يجب الأخذ به من أوضاع في ضوء مبادئ الحزب وآرائه.

وعلى الصعيد الحكومي، كان رد الفعل عنيفا، فلست بحاجة الى ان اذكر مدى الخطر الذي شعرت به الفئة الحاكمة بمجموعها، وعلى اختلاف كتلها ومجموعاتها، فانهم ادركوا أن دعوة هذا الحزب تنطوي على خطر جذري على مصالحهم، لذلك وبقدر ما كان في هذه الدعوة من خطر على كيانهم كحاكمين، وعلى مصالحهم الجسيمة التي حققها لهم الحكم، بقدر ذلك، كانت قسوتهم في محاربة الحزب الشيوعي والشيوعيين، حتى امتدت المكافحة والمحاربة ضد من كانت تشتبه أجهزة الحكم الأمنية والقمعية بانه شيوعي، او يتعاطف مع الشيوعيين. وضد من كان يعتبر يساريا بوجه عام او تقدميا بمعنى من المعاني. وان كانت الإجراءات ضد هؤلاء اخف، اذا ما قيست بالإجراءات ضد الشيوعيين. وهذا يفسر لنا المحاكمات التي جرت في السنتين 35 و36 ضد العناصر التقدمية بمختلف فصائلها وانتماءاتها، وكان ذلك في عهد وزارة ياسين الهاشمي. ويفسر لنا التشريعات التي صدرت بعد ذلك في سنة 1938 في عهد وزارة جميل المدفعي، والتي تعاقب على الشيوعية والشيوعيين بعقوبات شديدة وقاسية تصل الى الاعدام. واذا كنت قد اشرت الى محاكمات السنتين 35 و36 فنجد أن المحاكمات التي جرت بعد ذلك ولاسيما في سنة 1938 وبعد ذلك الى نهاية العهد الملكي كانت أكثر بكثير، والأحكام التي صدرت في فيها اقسى بكثير، وقد كان من بينها احكام عديدة بالاعدام اصدرتها المجالس العرفية العسكرية.

استاذ صفاء، نحن في جلساتنا هذه نستعيد ذكريات الماضي في ما يتعلق بالحياة العامة، لذلك اذكر انه مع بدء تأليف الحزب الشيوعي العراقي، اوقف عدد من الشباب والمثقفين وارسلوا إلى مركز شرطة الناصرية، واجرى التحقيق معهم هناك وكان من بينهم

قاسم حسن، ولم يكن حينذاك قد انضم الى جماعة (الأهالي)، واحمد جمال الدين وكان قبل توقيفه يكتب في جريدة الأهالي عن أوضاع الفلاحين السيئة في لواء الناصريه (محافظة ذي قار الآن)، وعن النكشه والسركلة والعلاقات الاقطاعية، وبقيا موقوفين مع الاخرين ستة اشهر، ولم تثبت عليهما جريمة ما، حتى افرجت عنهما المحكمة. ولم تكن حينذاك قد اعلنت الادارة العرفية.

وحتى نكمل صورة الأوضاع العامة في أواسط الثلاثينات، وحيث وردت الاشارة الى ياسين الهاشمي في حديثنا، عدة مرات، وستأتي الإشارة إليه ايضا، فيجب ان أبين ان ياسين الهاشمي كانت تحت تصرفه اراضي زراعية واسعة وفي أماكن متعددة، لذلك كانت مصالحه الشخصية مع مصالح المالكين، بالاضافة الى أن رعاية مصالح المالكين وحمايتها، هي سمة النظام حينذاك، لذلك كان ياسين الهاشمي هو الذي اصدر (قانون حقوق وواجبات الزراع) في سنة 1933 في عهد وزارة رشيد عالي الكيلاني.

وهذا القانون جعل الفلاح (قنا) مرتبطا بالارض، لا يقدر أن يترك الزراعة لدى ملّاك إلا بعد أن يأخذ براءة ذمة من المالك السابق. يعني ان الملاك الذي يريد ان يشتغل فلاحا في ارضه، يمنعه القانون من أن يفعل ذلك، إلا بعد أن يقدم الفلاح براءة ذمة من الملّاك الذي كان يشتغل عنده. وقد هاجمت (جريدة الأهالي) هذا القانون وكشف عن عيوبه ورجعيته وهدره لانسانية الفلاح.

س- بالمناسبة هل أن قسما من الشيوعيين او المتعاطفين مع الشيوعيين كانوا يكتبون في الأهالي عن بعض المشكلات في تلك الفترة؟

ج- نعم، المرحوم يوسف سلمان (فهد) كان قبل تأليف الحزب الشيوعي العراقي في سنة 1934 يراسل جريدة الاهالي من الناصرية. ومراسلته لم تكن في حدود ما جرت العادة بان يكتبه المراسلون في انحاء العراق الى جريدتهم التي تصدر في العاصمة، فقد كان المألوف أن يرسل المراسل اخبار البلد، وعادة كان اكثرها اخبار السلطات الحكومية والدوائر واخبار الموظفين وما كانوا يقومون به من اعمال. اما رسائل المرحوم يوسف سلمان، فقد كانت من نوع آخر، كان لها طابع متميز، فهي احيانا مقالات في مواضيع تهم اكثرية الناس، وكانت احيانا تعقيبات على الأحداث وتعليقات واراء اقرب الى المقالات فهي تمثل آراءه وأفكاره.

وكان يكتب في الاهالي المرحوم قاسم حسن، ولست متأكدا هل انه كان في اول عمله وعندما تأسس الحزب الشيوعي العراقي منتميا الى الحزب، او انه كان متعاطفا معه ومع الشيوعيين فقط. وهو قبل أن يكتب في (الاهالي) كتب ردا على رسالة نشرتها جماعة الاهالي عنوانها (مطالعات في الشعبية)، كان قد كتبها الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم، تضمنت هذه الرسالة آراءه في (القومية)، لم يرتح اليها القوميون، ونشروا ردا عليها. كما لم يكن الشيوعيون مرتاحين لآراء معينة وردت فيها، تضمنت ما تختلف به (جماعة الأهالي) مع الاشتراكية ولا سيما الشيوعية.

إنما أريد أن اقول ان قاسم حسن كتب ردا على كراس (مطالعات في الشعبية) وطبع رده في رسالة علم بها الاستاذ كامل الجادرجي، واطلع على نسخة منها قبل ان تنزل الى السوق. واتصل بقاسم حسن واجتمع به، واقنعه بعدم نشر رده. ويبدو لي انه اتصل مع أقطاب الحزب الشيوعي، واقنعهم بعدم نشر الرد على كراس (مطالعات في الشعبية) لجماعة الاهالي، لأن رد قاسم حسن لم ينشر. ولدي نسخة من رسالة قاسم حسن اذا كنت ترغب اعطيها لك لتصورها وتعيدها لي. وبعد ذلك انضم قاسم حسن الى جماعة الأهالي وبدأ يكتب في الأهالي، وعندما تطورت الجماعة الى حزب تولى مراكز قيادية في الحزب.

والآن نعود الى اكمال الحديث، عما سألت عنه، عن من كان يكتب في جريدة الأهالي في الثلاثينيات من الشيوعيين والمتعاطفين معهم. وقد ذكرت قبل هذا اسم المرحوم يوسف سلمان (فهد)، ثم قاسم حسن، واضيف الآن اسم الأستاذ (يوسف اسماعيل) فقد كان يكتب في الأهالي، وفي كل عدد تقريبا. وكان يكتب في الاهالي ايضا (يوسف متي). وكان يكتب في الاهالي كتاب آخرون تقدميون، لا أعلم اذا كان لهم انتساب او اتصال بالحزب الشيوعي العراقي ام لا؟ فالحزب كان في العهد الملكي سريا لا نعرف المنتسبين إليه - عدا بعض قادته واقطابه - هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نسبة الأشخاص الى الشيوعية او الى الحزب الشيوعي، كانت واسعة ومبالغا فيها. وعلى كل حال فقد كتب في (الأهالي) كتاب تقدميون كثيرون من غير كتابها الدائميين او ملاك المحررين فيها.

نعود الآن الى الحديث عن المسيرة الى انقلاب سنة 1936. فقد تحدثنا عن انضمام جعفر ابو التمن وحكمت سليمان الى جماعة الأهالي، وعن طريق حكمت سليمان انضم بكر صدقي الى هذه الجماعة. وهذه نقطة مهمة في تاريخ العراق الحديث، لأن تطور الأحداث بعد هذا الانضمام، قاد إلى انقلاب سنة 1936، هذا الانقلاب الذي سمي بانقلاب بكر صدقي.

كان جماعة الأهالي يلتقون مع بعضهم للمذاكرة في الشؤون العامة، وتنظيم المعارضة، لا سيما بعد تشكيل ياسين الهاشمي وزارته في الشهر الثالث من سنة 1935. وانا لم اكن حينذاك معهم في هذا النشاط، فقد اخبرتك بأني كنت اعمل في القضاء، الا اني علمت بتفاصيل نشاطهم هذا، بعد وقوع الانقلاب الذي سمي بانقلاب 29 تشرين الأول سنة 1936. وعلمتُ أن جماعة الأهالي ألفوا في سنة 1935 جمعية سرية وقد كتب المرحوم كامل الجادرجي عن ذلك في مذكراته التي طبعت في سنة 1970، كما مارسوا نشاطا سياسيا، تحت ستار مؤسسات علنية، ألفوها مثل جمعية السعي لمكافحة الأمية، ونادي الشباب.

كان الحكم الذي مارسه ياسين الهاشمي في السنتين 1935 و1936 حكما مطلقا، وان كان تحت مظاهر دستورية، ولكن هذه المظاهر شكلية، فمجلس النواب اختاره هو واقطاب وزارته واعضائه. ونفوذ الملك تضاءل الى ادنى مستوى، ويخيل لي ان

ياسين الهاشمي كان اقام نفسه في العراق شبيها لموسوليني في ايطاليا. وكان دور الملك اشبه بدور الملك عمانوئيل. وقمع الهاشمي المعارضة لحكمه.

بدأ اولا بحل الأحزاب، حتى حزبه (حزب الاخاء الوطني) حله، ليكون مبررا لمنع الأحزاب الاخرى من العمل.

وياسين الهاشمي هو الذي أصدر مرسوم الادارة العرفية، وأعلن الأحكام العرفية مرة بعد اخرى، كلما وقع تمرد، وتحت شعار الأحكام العرفية المعلنة في منطقة الحركات كانت تقع اجراءات القمع بمنتهى القسوة، وكان هذا الحكم العرفي يمتد الى معارضي حكمه، حتى من كان منهم في العاصمة، بحجة ان لهم علاقة بما يقع في منطقة الادارة العرفية. ولما اسكت كل معارضيه، خطب في البصرة يشير الى ما سيكون عليه العراق بعد عشر سنين. مقدرا لنفسه أن يحكم العراق هذه المدة، وتحقق للعراق الاصلاحات التي يفكر فيها.

قد يخطر بالبال سؤال - كيف يقوم حكم مطلق والى جانب الوزارة مجلس نواب منتخب، المفروض أن تكون الوزارة مسؤولة امامه؟ أجيب على هذا السؤال بانه منذ قيام اول مجلس نيابي في سنة 1925 كان انتخاب النواب من قبل الشعب بالاسم فقط، او بالشكل، أما في الحقيقة فإن اختيار النواب كان يتم من قبل قمة الحكم، الملك ورئيس الوزراء ووزير الداخلية (اذا كان شخصية قوية في الوزارة)، والمندوب السامي البريطاني في عهد الانتداب الى اواخر سنة 1932، ثم كان السفير البريطاني، اما يتدخل او يستشار مستغلا معاهدة التحالف لسنة 1930. كانت قوائم بأسماء النواب تنظم من قبل قمة الحكم وتبلغ الى المتصرفين، أما يسلمها لهم باليد، او يتم تبليغهم اياها بالتلفون، حتى بلغ عدم التحفظ أو عدم المحافظة على الشكليات، انه كانت تكتب باسماء النواب برقيات ترسل الى المتصرفين. انا مثلا رأيت واحدة من هذه البرقيات، وكان في سنة 1935 وكنت حاكما في الحلة، وكان المتصرف المرحوم عارف قفطان، وكان يربط بيننا ود وصداقة، وأراني رحمه الله، البرقية باسماء النواب الذين سوف (ينتخبون) غدا!

اشرت فيما تقدم الى ان ياسين الهاشمي اقام حكما مطلقا، كان هو على رأسه، وقد اسكت هذا الحكم كل صوت للمعارضة، بل لكل المواطنين عدا صوت مؤيدي الوزارة وانصارها. وسد ذلك الحكم كل ابواب العمل السياسي لغير الحاكمين، واصبحت المؤسسات التي نص عليها الدستور شكلا بدون مضمون حقيقي، والحقوق والحريات صارت نصوصا على الورق، سدت امام المواطنين وسائل ممارستها، وبذلك تعطلت الإرادة الشعبية التي هي اساس الحكم الدستوري. وكان كل خروج على هذه الأوضاع التي ارادها الحاكمون، تقابل بالمنع والإسكات او القمع حسب جسامة النشاط واهميته.

ان غلق الوزارة منافذ التعبير عن الرأي وسد طرق ممارسة العمل السياسي أمام المواطنين بالوسائل المقررة في الدستور، حمل اصحاب الاراء المخالفة لاراء الوزارة ومسيرتها واعمالها، ولنقل حمل المعارضين للحكم، غير المرتضين

بوسائله واساليبه واجراءاته، على أن يفكروا بتغيير الوضع بوسيلة شبيهة بالوسيلة التي مارسها الحكم، اي عن طريق العنف والقوة.

واعتقد ان اسلوب وزارة ياسين الهاشمي في الحكم في السنتين 1935 و1936 هو الذي دفع الى التفكير بقلب حكمه عن طريق انقلاب عسكري. اي ان ياسين الهاشمي هو الذي فتح الباب امام الانقلاب العسكري. هذا ما تم في 29 تشرين الاول لسنة 1936.

س- هذه اول مرة يتدخل الجيش فيها بالسياسة؟

ج - نعم، لأول مرة يتدخل الجيش في السياسة بصورة مباشرة وعلنية، ويقوم بانقلاب عسكري عن طريق بكر صدقي وبموافقة (جماعة الاهالي)، والطريق الذي سار فيه القائمون بالانقلاب، حتى حققوه، ارويه حسب معلوماتي وتحقيقاتي بعد وقوع الانقلاب، فاني لم أكن في بغداد في التسعة اشهر السابقة للانقلاب. اشرت قبل هذا الى النشاط الذي مارسته جماعة الأهالي في عهد وزارة الهاشمي. وبعد أن تعطلت صحفها (صوت الأهالي) - صاحبها كامل الجادرجي - و(المبدأ - صاحبها جعفر ابو التمن) و(البيان صاحبها حكمت سليمان) ثم تشكيلهم جمعية سرية سياسية، واتخاذ بعض الشعارات العملية لمارسة النشاط السياسي مثل جمعية (السعي لمكافحة الأمية)، وقد كنت عضوا فيها، واشرك جماعة الأهالي معهم في هذه الجمعية بعض السياسيين والرجال العامين من خارج (الجماعة)، مثل نصرت الفارسي.

وقد كان مقر هذه الجمعية دارا استأجروها في بستان كبه (بين فندق بغداد ونصب الجندي المجهول). واشرت ايضا الى نادي الشباب وقد كان رئيسه الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم، وقد انتميت إليه ايضا، وقد اتخذ مقرا له دارا في شارع السعدون (مقابل سينما السندباد الآن) على ما اذكر. واشرت قبل هذا ايضا الى أن بكر صدقي انضم الى (جماعة الاهالي) عن طريق حكمت سليمان. وفي جلسة عقدها جماعة الأهالي في دار كامل الجادرجي، كان المفروض ان يحلف فيها بكر صدقي يمينا كانوا متفقين على حلفها من قبل المنظمين للجمعية السرية التي تحدثت عنها. واكرر لزيادة الايضاح بأني لم اكن حاضرا هذه الاحداث. وقد حضر بكر صدقي الاجتماع، وان بكر صدقي لم يحلف يمينا، وقد ترك الاجتماع قبل انتهائه، والذي عرفته بعدئذ ان عبدالفتاح ابراهيم، سأل عن سبب عدم حلف بكر صدقي اليمين، وأن حكمت سليمان قال أن بكر صدقي حلف اليمين امامه قبل هذا، والذي أعلمه أن عبد الفتاح ابراهيم، لم يرتح الى مسيرة العمل على هذا الوجه، فلم يعد بعد يحضر اجتماعات (جماعة الاهالي) والذي اعتقده أن من المستحسن الرجوع الى الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم، ليتحدث لكم عن هذه الاحداث، وهي احداث مهمة في تاريخ العراق الحديث. كما أن المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي كتب عن هذه الوقائع في مذكراته ويستحسن الرجوع اليها.

والذي أعلمه في هذا الموضوع أن حكمت سليمان اخبر بقية شخصيات (جماعة الأهالي) عن (الانقلاب العسكري)

الذي يعتزم (بكر صدقي) القيام به وان يوافق على ذلك وطلب موافقتهم، وكان ذلك قبيل موعد الانقلاب بحوالي اسبوعين. والذي اعلمه ايضا ان حكمت سليمان قال ان الانقلاب سوف يقع، سواء وافقوا عليه واشتركوا فيه وتولوا الحكم الذي سيعقبه أم لم يوافقوا، وانهم بعد تقليب الاحتمالات وتبادل وجهات النظر، قبلوا الفكرة وتم الانقلاب بموافقتهم، وباشتراكهم وقبولهم الحكم بصورة رئيسية، وان هذه الموافقة تمت بعد أن فهموا ان بكر صدقي لا يتولى الحكم ولا يتدخل فيه، وان ما يهمه هو الاهتمام بالجيش وتقويته وتسليحه بأحدث الأسلحة، وانه سيقوم بذلك عن طريق توليه (رئاسة اركان الجيش). وقد تم الانقلاب في صباح يوم 29 تشرين الأول سنة 1936 - كما تعلم، وقد استقالت وزارة ياسين الهاشمي، اثر نجاحه، وتألفت الوزارة الجديدة بتكليف تحريري من الملك الى حكمت سليمان - بطلب من قائدي الانقلاب - فقد اشترك مع بكر صدقي في القيام به (عبد اللطيف نوري، قائد الفرقة الأولى. وقد تولى فيها حكمت سليمان، بالاضافة الى رئاسة الوزارة، وزارة الداخلية، وتولى جعفر ابو التمن وزارة المالية، وكامل الجادرجي وزارة الاقتصاد والمواصلات، وكانت حينذاك من أهم الوزارات وهي تضم تسع مديريات عامة).

وحيث اني اعرف المرحوم حكمت سليمان جيدا، واعرف اسلوب تفكيره وطريقة عمله، وقد بقيت صديقا له الى وفاته رحمه الله، فاني اسوغ لنفسي ان اتحدث عن تصوري للكيفية التي فكر بها حكمت سليمان، ووصل الى القيام بانقلاب عسكري، ويقلب به وزارة ياسين الهاشمي. ومقدما اقول اني لم اسمع هذا من حكمت سليمان، انما هو تصور مني - كما قلت - أن حكمت سليمان اشترك مع رشيد عالي الكيلاني، ثم انضم اليهما، ياسين الهاشمي بتنظيم الحركة العشائرية التي اسقطت وزارة علي جودت اولا في شباط 1935، ثم لمّا تألفت وزارة جميل المدفعي، سقطت بعد اثني عشر يوما من تأليفها نتيجة لتمرد عشائري، قام في عدة أماكن من العراق، لم يتدخل الجيش لقمعه.

اما التمردات العشائرية التي وقعت في عهد الهاشمي، وهي سبعة تمردات فقد قمعها الجيش. التمردات العشائرية لم تعد اذن مجدية، وهي عاجزة عن اسقاط الوزارة، فلماذا لا يسقطها الجيش وقائد الجيش (الفريق بكر صدقي) صديقه، وبينهما صلات ولكل منهما ثقة في الاخر، وامكانيات التعاون بينهما وقيامهما بعمل مشترك قائمة هذا هو تصوري لاتجاه حكمت سليمان الى الانقلاب العسكري.

س- انقلاب 1936، هل كان لـ (جماعة الاهالي) برنامج مسبق له، هل كان لديهم تصور للبرنامج السياسي. وهل ان البرنامج السياسي مدعوم من قبل الاحزاب الأخرى ومن ضمنها الحزب الشيوعي العراقي؟

ج- برنامج (جماعة الأهالي) الذي تصوروا انهم يستطعون تنفيذه عن طريق الحكم وهو البرنامج الذي كانوا قد نشروه قبل ذلك في سنة 1932 في

رسالة صغيرة بعنوان (الشعبية - المبدأ الذي تسعى الأهالي لتحقيقه)، وهو منهج يتناول كل ما يمكن أن تستهدف حركة سياسية تحقيقه، بالنسبة لنظام الحكم وعلاقات المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتصور جماعة الأهالي انهم كهيئة أقرب الى الحزب، لهم انصارهم واعوانهم في أوساط الشعب والمثقفين والمتعلمين والطلاب، يستطيعون ضبط الأوضاع اذا تولوا الحكم، لاسيما ووزارة الداخلية لهم، وكذلك وزارة المالية ووزارة الاقتصاد والمواصلات. ووزارة المعارف يتولاها اقرب الأشخاص لهم وهو (يوسف عز الدين ابراهيم)، ولم يشعروا بخطر من ناحية بكر صدقي، فهو فرد ليس له حزب، وقد طمأنهم انه لا يعنيه سوى العمل في الجيش وتنميته وتقويته وانه سيقوم بذلك عن طريق توليه رئاسة اركان الجيش. وتولى زميله الفريق عبد اللطيف نوري وزارة الدفاع.

وفكر (جماعة الأهالي) انهم يستطيعون تنفيذ برنامجهم السياسي بالتعاون مع جميع العناصر التقدمية، ومنهم الشيوعيون، او الحزب الشيوعي العراقي. فقد كان الشيوعيون يتصلون بـ(جماعة الاهالي) قبل وقوع الانقلاب اي في عهد الهاشمي، عن طريق كامل الجادرجي وعبدالقادر اسماعيل، وعن طريق جريدة الأهالي والجرائد التي حلت محلها بعد تعطيلها والكتابة فيها. وقد ايد الشيوعيون الانقلاب في يوم وقوعه، وربما اخبروا بموعد وقوعه - هذه نقطة لست متأكدا منها وتتطلب تحقيقا - ولكن الواقع انهم منذ القي البيان الأول من الطائرات في صباح يوم 29 تشرين الأول 1936 خرجوا مع الآخرين من مؤيدي الانقلاب، يطالبون باستقالة وزاره ياسين الهاشمي، واشتركوا مع الآخرين بارسال برقيات إلى الملك بهذه المطالبة. وبالمناسبة فان الشيوعيين تعرضوا لحملة قمع في عهد وزارة الهاشمي، وشهدت المحاكم والمجالس العرفية محاكمات كثيرة لهم. وكان في تفكير (جماعة الاهالي) التعاون ليس مع الشيوعيين فقط، بل مع جميع العناصر الوطنية والتقدمية واقامة جبهة وطنية، تتفق على المبادئ المشتركة لهم، لكون (جماعة الأهالي) في الوسط، وعلى يسارها الشيوعيون، وعلى مسارهم العناصر الوطنية الأخرى. ومن التعاون السابق بين الشيوعيين مع (جماعة الاهالي) في جريدة الأهالي واتصالهم المستمر بالمرحوم كامل الجادري، ومع عبد القادر اسماعيل، ومن نشاطهم في تأييد الانقلاب مذ القي بيانه الأول من الطائرة، وقبل ان ينجح ويسقط وزارة الهاشمي واستمرارهم على تأييد وزارة الانقلاب، يدل على أن الحزب الشيوعي العراقي، قام بدور واضح في العمل السياسي منذ اليوم الأول لفجر الانقلاب.

س- بأي شكل؟

ج- اشرت قبل هذا الى عمل بعض الكتاب الشيوعيين في جرائد الأهالي، والى اتصالهم بعبد القادر اسماعيل وكامل الجادرجي، والى دورهم في اليوم الأول من الانقلاب، وبعد أن نجح الانقلاب واستقالت وزارة الهاشمي، وتألفت وزارة

حكمت سليمان سمح لهم بممارسة نشاطهم والعمل، وان لم يكن ذلك تحت اسم (الحزب الشيوعي) حيث لم يجز الحزب، ولكن لم يمنع احد من العمل او يلاحق لأنه شيوعي. واستمر بعض الشيوعيين في الكتابة بجريدة الأهالي مثل (يوسف اسماعيل) و (يوسف متي).

وبالمناسبة اخبرك ان تقارير كتبت الى بكر صدقي تضمنت تحريضا ضد الشيوعيين وكان هذا التقرير جزءا من (حملة واسعة) شنت ضد وزارة الانقلاب من قبل خصومها ومعارضيها بوسائل متعددة، ومن زوايا مختلفة، ولكن الحوادث كشفت انها كانت تستهدف في مرحلتها الأولى العمل على ابعاد بكر صدقي عن تأييد (جماعة الأهالي) في الحكم لابعادهم. وكان استهدافهم بكر صدقي، لأنهم نظروا الى الأمر على انه سند الحكم والقوة التي تقف وراءه، فاذا حملوه على الوقوف ضد (جماعة الاهالي) وخرج هؤلاء من الحكم، فان الحكم سوف يضعف كثيرا، ومن ثم يستطيعون تنفيذ خطتهم بالاستيلاء على السلطة.

ولا يتسع المجال لنتحدث في هذا الموضوع بالتفصيل، ولكني اذكر الخط الذي اتخذوه محورا لحملتهم، أو بالأحرى الخطوط العريضة لتلك الحملة. كان احد تلك الخطوط اتهام (جماعة الأهالي) بالشيوعية - واحيانا اشخاصا معينين منها - والخط الاخر نسبة اتخاذ مواقف لا تخدم الدين الإسلامي، والخط الثالث عدم قيام الحكم بما يجب من العمل من اجل القومية العربية وقضاياها، وفي هذا الخط اتخذوا جرائد تصدر في خارج العراق لشن حملتهم هذه، وكون وزارة الانقلاب تراجعت عن الخط القومي، الذي كانت تتبعه وزارة الهاشمي. ولم يوفر مهاجمو (جماعة الأهالي) تهمة الشعوبية ضد بعض عناصر (الجماعة الأهالي) والعاملين معهم، واستغل القائمون بهذه الحملة كل مناسبة لاثارة ضجة ضد (جماعة الاهالي) او ضد الحكم القائم، بسبب اشتراك (جماعة الأهالي) فيه بصورة اساسية. واضرب امثله على هذا؛ النائب السيد صادق كمونة، وهو من (جماعة الأهالي) تكلم في مجلس النواب، معقبا على خطاب العرش، وطالب بأن تستغل الدولة الأراضي الأميرية التي تستصلحها وتهيئ لها وسائل الري وتنشئ فيها مزارع تعاونية واسماها (كوليكتف فارس) واذا بنائبين كانا قد لاذا ببكر صدقي، يحرضانه ضد (جماعة الأهالي)، هما سلمان الشيخ داود ورفائيل بطي، يهاجمان الاقتراح، ويصفانه بأنه مقتبس من روسيا، وبمعنى آخر أنه اقتراح شيوعي. والدكتور كامل عياد، وهو استاذ سوري تقدمي، كان يعمل في التعليم، نشر مقالا في مجلة (المعلم الجديد) التي تصدرها وزارة المعارف، ولان وزير المعارف (يوسف عز الدين ابراهيم) كان محسوبا على (جماعة الأهالي)، وان لم يكن منتسبا للجماعة، آثار نفس النائبين ضجة في مجلس النواب بأن في المقال (أفكارا خطيرة ضد الدين) و(دعايات مخلة بالقومية العربية)، وان في المقال (ما يناقض مبادئ الحكم والدستور) و(كيف تسمح وزارة المعارف بنشر مقال في مجلة رسمية تفسد افكار الناشئة)، ولم

يكن في المقال في واقع الأمر شيء مما ادعاه النائبان. وفي موضوع الشيوعية، استغل العاملون لاحداث فجوة بين بكر صدقي وجماعة الأهالي وكان من اثر ذلك أن روفائيل بطي - وقد كان يصدر جريدة البلاد قابل الفريق بكر صدقي - وهو رئيس اركان الجيش - واخذ منه حديثا سياسيا يهاجم الشيوعية، وقال فيه "ان العراق ليس تربة صالحة للشيوعية مثل عدم صلاح ارض السويد لزرع النخيل فيها"، ونشر الحديث على عرض الصفحة الأولى مع صورة كبيرة لبكر صدقي، وهو في زيه العسكري، ممتطيا صهوة جواد ابيض.

وامتدت الدسائس الى منهاج جمعية الإصلاح الشعبي التي اسسها جماعة الأهالي واصبح سكرتيرها العام المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي، فادعوا أن في منهاجها مبادئ شيوعية. مع انه كان معتدلا وواقعيا ويتماشى وحاجات المجتمع في العهد الذي صدر فيه. هذا الاتهام حمل بكر صدقي بان يطلب اعادة النظر في المنهاج من قبل هيئة مشتركة يختار هو من يمثله فيها، وقد أختار فعلا لهذه المهمة سلمان شيخ داود، غير أن مسيرة الاحداث بعد ذلك بمدة قصيرة بما ترتبت عليه استقالة وزراء جماعة الأهالي من الوزارة أنهى هذا الموضوع، بان انهيت حياة الجمعية.

وفي هذه الحملة جاءني أكثر من مرة بعض رجال الدين يعترضون على قصر المدة التي يقرأ فيها القرآن الكريم في الإذاعة. وقد كنت بصفتي (مدير الدعاية والنشر) عضوا في لجنة الإشراف على الإذاعة، وقد كانت تتبع وزارة المعارف. ونشطت في بث الدعاية ضد الوزارة بعض الجرائد في سوريا وفي لبنان، وحتى بعض جرائد مصر. وانا لا استطيع ان اتهم تلك الجرائد بنسبة أسباب غير سليمة لحملتها، فقد كان لبعض تلك الجرائد اسباب نعتقد بصحتها لحملتها، لكن لا شك انه كانت وراء حملة بعض الجرائد دوافع شخصية ومصلحية. فأنا طيلة مدة وجودي في مديرية الدعاية والنشر، لم نصرف فلسا واحدا لأي صحفي في داخل العراق او خارجه. وقد وصلتني رسائل من صحفيين من خارج العراق، تطالب بمبالغ. ولكن تلك الرسائل اهملت.

ومن الجرائد التي كانت تضطلع بالحملة ضد الوزارة في العراق في الخطوط سابق الاشارة اليها جريدة البلاد لصاحبها رفائيل بطي. (ومجلة المثنى) لصاحبها المحامي عبدالرحمن الخضير. ومجلة (الهداية الإسلامية) التي تصدرها جمعية الهداية الاسلامية. وقد كان رئيس تحريرها المرحوم الشيخ كمال الدين الطائي - هذا ما اذكره الآن من اسماء الصحف في هذا الموضوع.

يرد على البال، سؤال كيف ان نائبين المفروض أن الوزارة اختارتهما للنيابة في قائمتها طبقا للأسلوب المتبع في اختيار النواب، والذي لم تخرج عليه وزارة الانقلاب - السؤال الذي يخطر على البال، كيف أن نائبين اختارتهما الوزارة للنيابة، يقومان بدور اساسي في حركة الشغب على الوزارة، أو على الوزراء الرئيسيين فيها. وللاجابة على هذا السؤال ابين: ان نواب المجلس النيابي في عهد

وزارة الانقلاب تم اختيارهم بالاتفاق بين حكمت سليمان وجعفر ابو التمن وكامل الجادرجي وبكر صدقي. فكان منهم من اختاره كل واحد من هؤلاء واقره الاخرون، والنائبان اللذان تحدثت عنهما، كانا من الذين رشحهم للنيابة بكر صدقي.

الحملة سابق الاشارة اليها، اثمرت بالنسبة للقائمين بها من خصوم (جماعة الأهالي) ومعارضي الوزارة بوجه عام، أن أحدثت فجوة بين بكر صدقي من جهة و(الجماعة الأهالي) وبوجه خاص كامل الجادرجي من جهة اخرى. واخذ كل واحد من الطرفين يتخذ مواقف لا يرتضيها الطرف الآخر. اما حكمت سليمان فانه كان في هذا الصراع يميل الى جانب جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي، ولكنه كان يشعر بل يعتقد ان سند الوزارة وسند الحكم القائم هو الجيش، وعلى راسه بكر صدقي، فلم يكن يستطيع أن ينحاز اليهما ضد بكر صدقي، وأراد التوفيق بين الطرفين، وكانت الخلافات تهدأ قليلا، ليأتي حدث جديد، يعيد جو الشك والريبة بين الطرفين، ونتيجة لهذا الوضع فكر كامل الجادرجي بالاستقالة في الوزارة، قبل ان يفكر فيها جعفر ابو التمن، فقد رأى كامل الجادرجي ان تدخل بكر صدقي في الحكم وشؤونه، وفي المواقف السياسية اخذ يتسع يوما بعد يوم، وانه اصبح مرجعا لخصوم الاتجاهات التقدمية في الحكم، وستارا لنشاطهم مما يدل على أن بكر صدقي، يتجه الى ان يحكم هو العراق، خلافا لالتزامه قبل القيام بالحركة، بأن لا يتدخل في الشؤون السياسية، وأن يقتصر عمله على الجيش. ولما عرض الجادرجي فكرة الاستقالة على جعفر ابو التمن، طلب منه ابو التمن التريث في تقديم الاستقالة، فقد كان ابو التمن ينظر الى الموضوع على انهم مسؤولون عن النظام القائم، ويجب ان لا يتخلوا عنه، لدى اول صعوبات تواجههم، وعليهم بذل كل جهد لتقويم المعوج، الى ان يأسوا من الإصلاح. وبطلب جعفر ابو التمن اجّل كامل الجادرجي تقديم استقالته.

ان هذا الموضوع مدون في مذكرات كامل الجادرجي، ولا مبرر لان اطيل الكلام فيه. ولكن لاكمال الصورة ابين باختصار الأحداث التي تلت ذلك:

في شهر مايس سنة 37 رفعت الحصانة عن عبد الواحد الحاج سكر (نائب الديوانية) وعن السيد علوان الياسري والسيد محسن ابو طبيخ عضوي مجلس الأعيان؛ حيث نسب اليهم تحريض عشائر السماوة على القيام بثورة مسلحة ضد الحكومة، وادخال اسلحة الى المنطقة. وابعدوا الى الشمال. وانت تعلم أن هؤلاء من اعوان ياسين الهاشمي وهم الذين اشتركوا بصورة أساسية في حركة المعارضة التي اسقطت وزارة علي جودت (شباط 35) ثم بالتمرد الذي أسقط وزارة جميل المدفعي (آذار 35). وكانت للحاج عبدالواحد وللسيد محسن قضايا اراضي حسمتها وزارة الهاشمي لصالحهم، ويبدو أن وزارة حكمت سليمان، لم تقر تلك الإجراءات.

بعد ابعاد عبدالواحد الحاج سكر وعلوان الياسري والسيد محسن ابو طبيخ الى الشمال، وفي شهر حزيران قام تمرد مسلح في منطقة السماوة قمعه الجيش بقوة واستعملت الطائرات بقصف منطقة

المتمردين. ونسب الى هذا القمع ان قد رافقته قسوة لا مبرر لها.

وجد جعفر ابو التمن أن القيام بهذا القمع دون أن يشارك في اتخاذ القرار بشأنه، يترتب عليه أن يستقيل بسببه من الوزارة، فاتصل بكامل الجادرجي، واجتمعا. قال ابو التمن للجادرجي ان الاستقالة التي كنت تعتزم تقديمها وطلبت منك تأجيلها حان وقتها. واتفقا على تقديمها. واقترح كامل الجادرجي أن يفاتحا يوسف ابراهيم (وزير المعارف) بقراريهما، ووافق ابوالتمن ولما عرضا عليه الفكرة، وافق على الاشتراك معهما بتقديم الاستقالة. ثم اقترح كامل الجادرجي أن يفاتحوا صالح جبر (وزير العدلية)، فهو يعتقد أن صالح جبر يوافق على الاستقالة، وان كان ذلك لأسباب اخرى غير اسبابهم. وقبل جعفر ابو التمن اقتراح الجادرجي بمفاتحة صالح جبر ثم عرضوا عليه رأيهم بالاستقالة فوافق على الاشتراك معهم في تقديمها. ووقع الوزراء الأربعة استقالة واحدة، كتبها المرحوم جعفر ابو التمن، وكان ذلك بتاريخ 19 حزيران 1937.

دعني اقول لك الآن، الى ماذا اشار كامل الجادرجي؛ أن الأسباب التي تحمل صالح جبر على الاستقالة هي غير اسبابهم. ولمعرفة هذه الأسباب يجب أن نعود الى يوم تأليف وزارة حكمت سليمان، في يوم الانقلاب (29 تشرين الأول 1937). كان صالح جبر في هذا اليوم، متصرفا للواء كربلاء. وفي مساء اليوم المذكور، اجتمع حكمت سليمان وجعفر ابو التمن وكامل الجادرجي في غرفة وزير الداخلية لتأليف الوزارة وفي اثناء المداولة، اقترح جعفر ابو التمن اسم (احمد زكي الخياط)، استبعده كامل الجادرجي واقترح (صالح جبر) واتصلوا به بالتلفون الى كربلاء، وطلبوا منه المجيء وحضر، وعرضوا عليه وزارة العدلية. طلب منهم أمهاله ليستشر، ووافقوا على ذلك. خرج صالح جبر وذهب الى ياسين الهاشمي ليستشيره قال له (ياسين الهاشمي)، أقبل وأدخل الوزارة حتى تستطيع أن تحد من اندفاعات الوزارة، وتحمينا وتحمي اصدقاءك. وقبل صالح جبر الاشتراك بالوزارة، وكان وزير العدلية فيها. لذلك فإن كامل الجادرجي عندما قال ان الاسباب التي تحمل صالح جبر على الاستقالة غير اسبابهم، كان يشير الى ان علاقة صالح جبر بالهاشمي هي التي تحمله على فك ارتباطه بوزارة اسقطت وزارة الهاشمي بانقلاب عسكري.

بعد تقديم الاستقالة حضر الفريق بكر صدقي الى ديوان وزارة المالية، وقابل جعفر أبو التمن، وحاول اقناعه بالعدول عن الاستقالة، فلم يقبل ابو التمن اي تراجع، وواجه بكر صدقي بحقيقة الأوضاع القائمة المخالفة لما كانوا يخططونه للحكم، قبل القيام بالانقلاب، وكان مما قاله جعفر أبو التمن لبكر صدقي ”اني لا أقبل ان احمل الطبل وانت تضرب فيه“، اشارة الى انه لا يقبل أن يتحمل مسؤولية الحكم، في حين أن الذي يحكم فعلا بكر صدقي. لقد كان بكر صدقي حريصا على ان يقنع جعفر ابو التمن بالبقاء في الوزارة، فإن جعفر ابو التمن، لم يكن وزيرا اعتياديا، يترك الوزارة ولا يترك ذلك اثرا مهما، بل كان زعيما له شعبية واسعة، غير انه فشل في اقناعه بالعدول عن الاستقالة.

س- هل الضرب بقسوة مارسه بكر صدقي؟

ج- نعم، ان بكر صدقي هو الذي قمع حركة التمرد العشائرية في منطقة السماوة والتي استمرت وكانت السبب المباشر لاستقالة الوزراء الأربعة، تلك الأسباب كانت تتجمع اسبابها من وقت سابق بتصرفات بكر صدقي في اتجاهه، الى ان يقيم من نفسه دكتاتورا. بالاضافة الى تصرفات بعض مرافقيه واعوانه المحيطين به - وهم بعض الضباط - من اعمال عنف عدوانية. ودعني اقول لك أن بكر صدقي بدأ منذ اليوم الأول للانقلاب باعمال عنف لا موجب لها، بل لا مبرر لها، بدأ ذلك بقتل جعفر العسكري وزير الدفاع في وزارة ياسين الهاشمي، الذي توجه ليقابل القوة التي يقودها بكر صدقي متجها الى بغداد. وكان قتله دون علم حكمت سليمان او جعفر ابو التمن او كامل الجادرجي المتفقين معه على الحركة، ودون موافقتهم. وعندما اجتمع هؤلاء في وزارة الداخلية مساء يوم الانقلاب لتاليف الوزارة وحضر اليهم بكر صدقي اعربوا لبكر صدقي عن عدم رضاهم بل عن استيائهم من قتل العسكري. قال بكر صدقي إن ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد، يجب أن يقتلوا ايضا. اجابه حكمت سليمان أنا لا أوافق علي هذا واذا كنت تعتزم القيام بشيء من هذا القبيل، فانا لا اشكل الوزارة، وفتش عمن يوافق على تشكيل الوزارة. وايّد جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي موقف حكمت سليمان. وتجاه هذا الموقف تراجع بكر صدقي (لا بأس نتركهم يغادرون العراق، وانا عندي من الأرمن في بيروت من يقتلهم)، سمعت هذا من كامل الجادرجي، وهذا يفسر لماذا لم يقم كامل الجادرجي في بيروت بعد استقالته وتركه العراق، حيث أقام في قبرص، وحتى لم يتوقف في بيروت، وركب الباخرة الى قبرص من طرابلس الشام. وكان قد اخذ بطاقة السفر عليها من كوك في بغداد.

وبالنسبة لي، وقد ذكرت اني عُينت مديرا للدعاية والنشر في اول ايام وزارة الانقلاب، يجب ان ابين كيف تركت هذا العمل. ذكرت قبل هذا اني عندما عينت لهذه المهمة، كنت حاكما في المحاكم المدنية. وفي شهر مايس 1937 عندما ساءت اوضاع الحكم باتجاه تدخل بكر صدقي في الشؤون السياسية واحتضانه خصوم (جماعة الأهالي) وتشجيعهم وتصريحاته الى الصحف تصريحات سياسية ونشر الصحف لها دون أن أستطيع التدخل بصفتي مدير المطبوعات، ليس فقط عدم استطاعتي التدخل بتصريحات رئيس اركان الجيش، فهذا واضح، لكني لم أكن أستطيع التدخل فيما ينشره بعض الكتاب في التعقيب على تلك التصريحات وتأييدها. سوى تشجيعي الرد على تلك الكتابات. ومجالات الرد كانت ضيقة لأن الجانب الاخر كان محميا من قبل بكر صدقي. لما وجدت الأوضاع تسير بهذا الاتجاه، راجعت حكمت سليمان، وقد كان وزيرا للداخلية، بالاضافة الى رئاسة الوزارة، ومديرية الدعاية والنشر تتبعه، وطلبت الموافقة على عودتي الى القضاء، وكان ذلك في شهر مايس، فلم يوافق اولا، حتى اقنعته واجازني في أن اراجع وزير

العدلية، واطلب منه ان ينظم ارادة ملكية بتعييني في القضاء، وتم ذلك، وعينت حاكما في محكمة بداءة بغداد، وباشرت عملي مرة ثانية في القضاء في٢٢ مايس، سنة ١٩٣٧، قبل استقالة الوزراء الأربعة بحوالي الشهر.

س- هل استمر جعفر ابو التمن يعارض؟

ج- جعفر ابو التمن، بعد الاستقالة بقي في بغداد، لم يغادرها، وكان قد خصص يوما في الأسبوع - هو يوم الاربعاء - يقابل فيه الزائرين، وكان يتكلم في مجلسه بما يراه ويعتقده وكان ينقد بعض الأوضاع، ويعقب على الأحداث، كما كان يذهب كل يوم الى محله التجاري في خان خلف سوق الصفافير، ويقابل الناس. ولم يكن أحد في الحكم يستطيع ان يمس جعفر ابو التمن، فان شخصيته ومركزه في الحياة السياسية وماضيه الوطني وشعبيته، كانت كلها ضمانات له بعدم المساس به.

س- ما هو رأيك في موقف الملك غازي وعلاقته بالانقلاب؟ ومن جهة ثانية الانكليز ودورهم في دفع أو استغلال الحوادث. اذا كانت لديك اية معلومات؟

ج- انا قناعتي ان الملك غازي لم يكن يعرف بوقوع الانقلاب، قبل وقوعه، لكنه رحب به بدون شك.

س- لماذا ؟

ج- كان ياسين الهاشمي قوي الشخصية، ومن ابرز سياسيي العراق في الوقت الذي نتحدث عنه. وقد جاء الى الحكم في سنة 1935 بحركة قادها هو واسقطت وزارتين. في ظروف تلك الأحداث، وجد الملك نفسه مرغما على تكليف ياسين الهاشمي بتأليف الوزارة، دون قيد او شرط. واقام ياسين الهاشمي مجلسا للنواب اختارهم هو. واسكت المعارضة. في حين كان الملك غازي ضعيف الشخصية، مشغولا بهواياته التي هي ركوب السيارات وقيادة الطائرات والصيد، وادارة محطة اذاعة خاصة به، نصبها في قصره. فكان الهاشمي هو الذي يحكم، تاركا الملك لهواياته. فكان الملك شبه محجور. وجاء حادث هروب الاميرة عزة اخت الملك وزواجها في خارج العراق، فاصدر ياسين الهاشمي (مرسوم الأسرة المالكة) شكل فيه، مجلسا خاصا من رئيس الوزارة ورئيس مجلسي النواب والأعيان ووزيري الداخلية والعدلية ورئيس الديوان الملكي، ينعقد برئاسة الملك او رئيس الوزراء، وينظر المجلس في الأمور التأديبية المتعلقة بافراد الاسرة الملكة، وفي قضايا الأحوال الشخصية التي يكون فيها طرف او الطرفان من الاسرة المالكة. لم يرتح الملك الى هذا المرسوم، لكنه قبله مرغما تحت ضغط الظروف. لذلك كان ترحيب الملك بوقوع انقلاب عسكري، طوح بوزارة ياسين الهاشمي الذي وقف منه المواقف سابق الاشارة اليها. لا سيما وان الذي قام بالانقلاب بكر صدقي الذي عرفه اثناء احداث الاثوريين، وتعاونا سوية بقمع تلك الحركة، ونشأت عن ذلك، بينهما علاقات خاصة.

شعور الناس - والمهتمين منهم بالشؤون العامة - بان الملك ارتاح من اقصاء ياسين

الهاشمي عن الحكم، فسره بعض الناس بان الملك كان يعرف بحركة الانقلاب قبل وقوعه، وانه تم بموافقته. وساعد على انتشار هذه الفكرة جملة وردت في البيان الأول لحركة الانقلاب، وهو البيان الذي القته الطائرات على بغداد والموقع بتوقيع بكر صدقي وفيه جملة (طلب الى الملك ان يقيل الوزارة) (طلب بصيغة المبني للمجهول. قرأها الناس فعلا ماضيا) و(الى حرف جر- لكن الناس قرؤها "إلي"، كما لو كانت طلب الملك مني). ولا اعلم هل الذي كتب البيان، قصد احداث هذه الفكرة لدى الناس، أم أن ذلك كان مجرد صدفة.

اما موقف الانكليزا من الانقلاب. فالحقيقة أنا لا أعرف موقفهم في أول وقوعه، ولا بعد ذلك مباشرة. ولم اطلع على الوثائق البريطانية، عن هذا الحادث، وربما سوف اطلع عليها في وقت آت. ولكن الذي استطيع ان اقوله ان الانكليز في النصف الثاني من عهد وزارة حكمت السليمان، كانوا ضد الوزارة. وذلك لأن هذه الوزارة التي كسرت طوق الحصار عن شراء السلاح من غير انكلترا، فقد اشترت وزارة حكمت سليمان الطائرات من ايطاليا. في وقت كانت تتأزم فيه العلاقات بين دول الغرب، ودولتي المحور (المانيا وايطاليا)، وكانت النازية في عنفوان اجراءاتها نحو التوسع، وممارسة القوة في العلاقات الدولية، وايطاليا قد قامت باعتدائها على الحبشة.

هذه الأوضاع التي كانت تمهد لقيام حرب عالمية. في هذا الوقت تزوج بكر صدقي من (نمساوية)، واسكنها داره في الكرادة الشرقية في بغداد.

ثم ان وزارة حكمت سليمان وقفت موقفا قويا ضد تقرير لجنة بيل الانكليزية، التي قدمت تقريرا أوصت به بتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها. واضيف الى قناعاتي بأن الانكليز كانوا ضد وزارة حكمت سليمان. وضد بكر صدقي - ربما بوجه خاص - ماعرفته بوقت متأخر كثيرا، من ضابط قومي، أن الانكليز كانوا يخططون لقتل بكر صدقي. ولكن الواقع ان الذي انهى حياة بكر صدقي في الموصل في 11 آب سنة 1937 تنظيم قومي كان يرأسه القادة المرحومون صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان. وفيه الضابط الطيار محمود هندي (من شهربان وليس الضابط محمود هندي - من سورية)، وكان على راس التنظيم الذي قتل بكر صدقي فهمي سعيد. ولا علاقة او اتصال بين عمل القوميين لقتل بكر صدقي، مع المسعى الذي كان يقوم به أعوان الانكليز وبعضهم كان في الجيش ايضا.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 108/ آب 1978**

نصوص مترجمة

إلى الأمام.. ولا ننسى
أهمية كارل ماركس لسياسة اليسار اليوم

بقلم: زابينا لايدغ
ترجمة: رشيد غويلب

أنا لا أكتب كمختصة في العلوم السياسية، تحمل لقبا أكاديميا، ولكن كسياسية و"مثقفة عضوية"، اكتسبت خبرة عملية في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية. ولجتُ عالم السياسة في اطار مجموعات شبابية وثقافية - مستوحاة من "لاهوت التحرير"، وبعد عام 1968، (اشارة الى تاثير الانتفاضة الطلابية - المترجم)، نشطت في حركة السلام. وفي الثمانينيات كنتُ ناشطة شابة في الحزب الشيوعي الالماني، وتلقيت أساسيات الماركسية، وعملت كمساعد فني في مركز بحوث السرطان. وكنت وعلى مدى عقود ناشطة نقابية، ولاحقا كادرة نقابية متفرغة. ومنذ العام 2000، نشطتُ في الحركة المضادة للعولمة (اتاك) واصبحت المديرة التنفيذية للشبكة. وفي العام 2009، اصبحت عضو كتلة حزب اليسار في البرلمان الاتحادي الالماني. ويشمل نشاطي البرلماني مجالات التحول الاجتماعي - البيئي، وسياسة النقل والحركات الاجتماعية.

ان توصيف "سياسة يسارية" يشمل عندي كل قوى اليسار المجتمعية. ويعني اليسار بالنسبة لي: العمل بما يمليه عليك ضميرك في سبيل مجتمع الحرية والتحرر والاستقلالية، المساواة او العدالة والاخوة او التضامن، ويشمل ذلك كامل البشرية وفي جميع انحاء العالم.

ترك لنا ماركس وانجلس اسسا جوهرية، وليس "وصفة جاهزة". لقد انجزا عملا متنوعا وعظيما، ولكنه غير مكتمل، ورشة عمل عالجا فيها مختلف النظريات والمعرفة العلمية. وهذا هو بالضبط ضروري اليوم للسياسة اليسارية:

"الماركسية ليست نظرية بين اخريات، ضمن نطاق النظريات السياسية والاجتماعية والفلسفية المتنافسة اليوم. إنها شكل من أسس فلسفية، من المعرفة المفاهيمية المتماسكة التي تركز على منظور كامل للمعرفة العالمية هدفها النهائي هو تغيير العالم؛ بمعنى إقامة مجتمع متحرر من الخوف والكراهية والجوع والعنف وناضج للسلام"[1].

لا غنى عن تحليل ونقد الرأسمالية وطبيعتها المرتبطة بالازمات

بعد فشل اشتراكية القرن العشرين، اختفت المنافسة بين الانظمة، وتركز اهتمام السياسة المهيمنة على توفير أفضل الظروف الممكنة لرأس المال (أي المستثمرين)، وادعت عقيدة الليبرالية الجديدة أن النمو الرأسمالي هو المصدر الوحيد للرفاه.

وقد نما النقد النظري والعملي لهذا التطور، من بين صفوف الحركة المناهضة للعولمة، اولا: تم تحليل التراكم المفرط لرأس المال، والكشف، بين امور اخرى، عن ضغوط هائلة لإطلاق العنان للأسواق المالية. وكان في مركز النقد، إلغاء القيود وما يرتبط بها من تخفيض والغاء للحقوق الاجتماعية، بالإضافة إلى التسويق التجاري الشامل (التسليع) عبر خصخصة المؤسسات العامة، وإعادة هيكلة النظم الاجتماعية أو "تثمين" (تحديد قيمة) الطبيعة البشرية وغير البشرية. لقد كان نقد ما يسمى باتفاقات التجارة الحرة صحيحا، باعتبارها حافزا ومسرعا لتراكم رأس المال. وفي نفس الوقت تغيير التوازن السياسي لصالح الشركات فوق القومية. ولاسباب وجيهة، تنظر الحركات الاجتماعية في جنوب العالم إلى النضالات ضد الاتفاقيات والمؤسسات العالمية على أنها استمرار للنضال ضد الاستغلال الاستعماري والإمبريالي. يخطو التشياباسين في ولاية تشياباس المكسيكية مسارات جديدة لحركة "عصر العولمة" عبر احتلال الأرض واقامة الادارة الذاتية، والتشبيك الأممي. لقد ألهم موقفهم السياسي غير جامد الحركة (طرح الاسئلة يقودنا الى الامام). ومع محاولة منظمة التجارة العالمية لفرض اتفاق متعدد الأطراف لحماية الاستثمار، اتسعت الاحتجاجات في إطار الراي العام العالمي. في العام 1997، نشر رئيس تحرير صحيفة لوموند ديبلوماتيك، اغناسيو رامونيه، الافتتاحية البرنامجية: انزعوا سلاح الأسواق! والتي كانت بمثابة الدافع لتأسيس الحركة المضادة للعولمة (اتاك).

سياسة اليسار يجب ان لا تتخلف نظريا وعمليا عن حركة "عصر العولمة"

لكن هذه مشكلة جوهرية في الديمقراطية الاجتماعية - بما في ذلك أجزاء من النقابات. في ألمانيا، تلقت سياسات الليبرالية الجديدة دعماً هائلاً في ظل حكومة المستشار الاسبق (شرودر)، الذي تزعم تحالف الديمقراطيين الاجتماعيين والخضر (تحالف الأحمر – الأخضر). ومع إصلاحات سوق العمل، او ما يعرف بـ "أجندة 2010" التي تهدف إلى تقديم عروض "أفضل" من اليد العاملة لمستثمري رأس المال: أرخص وأكثر مرونة مقارنة بالدول المجاورة. بالإضافة إلى تحقيق تخفيضات ضريبية، وتحرير السوق وخلق مزايا في تنافس المواقع "الدول المتنافسة". ما يعني أن الأزمات التي تعاني منها البشرية اليوم لا تحل بل تتفاقم، وهذه رؤية أساسية لا يمكن بدونها أن تكون هناك سياسات يسارية.

وهذا وحده لا يكفي، فمن الضروري اختراق الظروف الاقتصادية والبيئية؛ والعمليات الملموسة لخلق القيمة والإنتاج والاستهلاك واعادة الانتاج، والتعامل مع القضايا الاجتماعية والنفسية والأخلاقية المرتبطة بها.

وعلى سبيل المثال، بخصوص ملف الرقمنة، فان التعامل معه لا ينتهي بتطوير تدريب العاملين بحيث يلبي المتطلبات الجديدة. وبالنظر للتصاعد الكبير في الإنتاجية، من الضروري تخفيض ساعات العمل، على الأقل، لكي يؤدي تنامي الرباح الى مزيد من الحرية للجميع.

ويجب أن تنظر السياسة اليسارية إلى الشروط العامة التي خلقتها "الرأسمالية الرقمية": من التحول الديمقراطي المفترض

للمجتمع، الوفرة الحرة للمعلومات - وهم تصنيع المنتجات الرقمية المجانية وغير المادية وإعادة تعريف المادة والسلع غير الملموسة -. ان النجاح المذهل لشركات مثل غوغل وفيسبوك يقوم على توفير الخدمات الرقمية، ولا سيما جمع المعطيات. والشيء نفسه ينطبق على شركة أمازون. إن هذا الاتجاه من الرأسمالية الرقمية هو أكثر من مجرد ظروف عمل غير مستقرة ومهينة. ان "مبدأ الأمازون" يؤثر على حياتنا بأكملها. تماما مثلما لا تجزئ الفوردية فقط العمل على الحزام الناقل إلى عمليات منفردة، وتعيد - تحت يافطة الوصول للامثل - تجمعيها ثانية. ومبدأ الأمازون هو أيضا إعادة تنظيم سلوك الاستهلاك واوقات الفراغ مع التأثيرات على الإنتاج والتبادل. تريد أمازون إعادة هيكلة عاداتنا الحياتية بأكملها: الإنسان كمورد يمكن إعادة تدويره وتحفيزه على نطاق واسع: الزبائن والعاملين والمتبرعين بالمعلومات.

التقنيات المستخدمة في ظل هذه الظروف - مثل السيارات ذاتية الحركة - لا تخدم حماية المناخ ولا تسهم في تحقيق عدالة عالمية. وهذا ليس فقط بسبب مشكلة الموارد والنفايات التي تصاحب جميع الإلكترونيات. فطالما يتم تحديد العالم الرقمي من خلال الرغبة في تدوير رأس المال، ولا يتم استخدام الفرص للحصول على أفضل المعلومات والمشاركة والتجهيز، بل قبل كل شيء للإعلان والتلاعب. إنها تؤدي إلى نمو "نمط الحياة الامبريالي".

استخدمُ هذا المفهوم لأنه، كما ارى، يصف بشكل أفضل التحديات التي تواجهها السياسة اليسارية في ذروة عصرنا. لقد كشف (Uli Brand) و[2] (Markus Wissen) عن نقدهما للاقتصاد السياسي والبيئة ونظرية الأزمة في الرأسمالية العالمية في جوهرها، يعتمد الأمر على الطريقة التي تنتج بها المجتمعات الصناعية والاستهلاكية الغربية، مكاسب الرفاه لفئات واسعة من السكان بشكل منهجي من خلال استغلال *العمالة والموارد الطبيعية في جنوب العالم، وأن هذه "الشروط الإمبريالية" تعتبر أمراً مفروغاً منه في تحديد الممارسة اليومية للغالبية العظمى.

ويوضح ذلك جيدا مثال المرور ووسائل النقل. لا يتعلق الامر فقط التلاعب والاحتيال في ملف عادم الديزل وليس بالصراع حول النفط، أو أزمة المناخ التي تجعل مجتمع السيارات مشكلة تهدد الحياة. ان القسم الاكبر من تدمير البيئة بواسطة السيارات، يبدأ حتى قبل ان تقطع اول كيلومتر. تحوي سيارة متوسطة المستوى على 1300 كيلوغرام من المعادن والمواد الخام. تدفع البلدان المنتجة للكثير من مواد الخام هذه، تكاليف عبر تدمير بيئتها وعمالة الأطفال وحياة سكانها، لإنتاج سيارة غولف فولكس فاغن، تزن 1.4 طن، تلوث 4 أطنان من الهواء، وينجم عن ذلك 19 طنا من النفايات الصخرية، ويستهلك 232 طنا من المياه.

وبينما هنا في المانيا يجري، على الأقل بشكل سطحي، احترام حماية البيئة وظروف العمل الجيدة، فإن الجوانب المظلمة للإنتاج تكمن في مكان آخر. في جنوب إفريقيا، على سبيل المثال، يتم استخراج البلاتين، أحد أكثر المواد الخام قيمة في العالم. وهذا العنصر يدخل في صناعة السيارات لصناعة فلتر البيئة، وعادم الغاز. ومنظف الهواء هنا، يلوث البيئة هناك. وظروف العمل في مناجم

البلاتين كارثية. وعندما أضرب الآلاف من عمال المناجم في العام 2012 احتجاجا، أعلنت الشركات تهديدها، وأرسلت الحكومة الشرطة المسلحة: قُتل 37 عاملاً بالرصاص في "مذبحة ماريكانا". وفي مناجم الكوبالت في الكونغو، يكدح 40 ألف طفل، وفي بيرو Peru تدمر أراضي ثمينة جراء استخراج النحاس، وفي البرازيل يسبب استخراج الحديد أضرارا خطيرة. وفي الصين يعاني الناس الذين يحفرون في كهوف الغرافيت من أسوأ الأمراض**.

وأصبحت الظروف المعيشية السائدة في هذا البلد ممكنة، ويمكن الحفاظ عليها فقط، بسبب ترحيل التكاليف والمساوئ والأعباء على جانب آخر خارجي، مثقل ومخفي. وعند الملاحظة على المستوى العالمي، فان الحياة في مجتمعاتنا المادية والحيوية، تجري بمستوى استهلاكي ليس فقط غير "مستدام"، بل مجنون. وهذا المستوى يمكن الحفاظ عليه، لأن الاستهلاك البيئي لمليارات من البشر في هذا العالم، يجري بمستوى أقل بكثير من الاستهلاك عندنا.

وهكذا، تم تشخيص تناقض مركزي يسبب أزمة نمط الحياة الإمبريالية في الزمن المعاصر؛ من ناحية، تدهورت الظروف المعيشية في أجزاء أخرى من العالم بشكل كبير. وفي بعض الأماكن، أصبحت غير محتملة لدرجة أن المتضررين يسعون للبحث عن ظروف أفضل في أماكن أخرى. ومن ناحية أخرى، فإن الرأسمالية العالمية نفسها تشجع انتشار أنماط الإنتاج والاستهلاك كثيفة الموارد والانبعاثات في اوساط أوسع، فيما يسمى بالدول الناشئة. وهذا يزيد من الطلب على المواد الخام، والأراضي (الزراعية)، واماكن طمر الملوثات، والعمال الذين يقومون باستخراج المواد الخام وإنتاج الغذاء الرخيص: "يعتمد نمط الحياة الإمبريالية على التفرد، بحيث لا يشرك الجميع فيه. وفي الوقت نفسه، يوجه نداءً قوياً لجميع الذين حرموا مسبقا من المشاركة فيه، او الذين اضطروا، في المقام الاول، إلى تحمل تكاليفهم. والذين فقدوا عموما اسس وجودهم: وأصبحوا الفناء الخارجي، الذي يعتمد عليه بسبب الاستخدام غير المتناسب للطبيعة والعمالة. يتقلص هذا الفناء، لأن أجزاء من جنوب العالم تتبنى أسلوب الحياة الإمبريالي، وبالتالي لا يتهاوى باعتباره فناء خارجيا بالنسبة لشمال العالم فحسب، بل سيعتمد هو الآخر على فناء خارجي آخر يمكن ان يحمله تكاليفه. ونتيجة لذلك، تتفاقم التوترات البيئية الإمبريالية داخل شمال العالم، وكذلك بينه وبين جنوب العالم"[3].

وبالمناسبة، أشار (كارل ماركس) بالفعل إلى هذا الاتجاه، على الرغم من أنه لم يستطع التنبؤ، بعواقبه الملموسة في كثير من النواحي. لقد اتخذ موقفا نقديا بالضد من الاقتصاد البرجوازي، وكذلك ضد الأفكار الديمقراطية الاجتماعية، التي رأت أن العمل بمفرده هو أساس الثروة: "ان الإنتاج الرأسمالي يطور تقنية وتوليف عملية الإنتاج المجتمعي، وفي نفس الوقت يقوض مصادر الثروة: الأرض والعمال"[4].

وفي إشارة إلى أزمة اعادة الانتاج الاجتماعي والبيئي، كتب الفيلسوف الفرنسي لوسيان سيف (2011): "[...] لا يمكنك إنقاذ البيئة دون الجنس البشري، ولا البشرية دون البيئة!"، ويجب ان لا تتخلف السياسة اليسارية اليوم عن هذه الجدلية[5].

اعتماد منهج التفكير الجدلي

ان أحد مبادئ الديالكتيك المادي هو أن العالم المادي يفهم ككل ديناميكي دائم التغيير، حتى وان بدا ليس من السهل التعرف إليه في حالات ساكنة. كل شيء يتدفق، كل شيء في حركة. والمحرك لهذا النمط من الوجود - من الكون مرورا بالمناخ، ووصولا الى المجتمع البشري - يمثل تناقضات. وعندما تلتقي وحدة وصراع الاضداد، تنشأ الحركة والتطور (في الديالكتيك الكلاسيكي: الاطروحة، والاطروحة المضادة والتوليف بينهما).

تتطور هذه الديناميكية التي يحركها التناقض في العالم المادي بخط مستقيم، ولكن أيضا بطفرات؛ إنها كالقطرات الشهيرة التي تملأ البرميل، اي "تحول الكم الى كيف". وبالنسبة للكثير من العمليات، وخصوصا المجتمعية منها، لا يمكننا ان ندرك مرحلة التغيير، إلا عند مراجعتها. اعتبر ماركس وإنجلز هذه "الوحدة المتناقضة" للأضداد كمبدأ لحركة التقدم؛ وهذا بالتأكيد لا ينطبق على تغير المناخ الناتج عن فعل الانسان: وواضح هنا أن التغييرات المستمرة في نظام معقد - وفي حالة التصاعد، تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي - عند نقطة معينة تؤدي إلى قفزة نوعية مفاجئة (نقاط انقلاب)، مما يضع النظام في حالة مختلفة تماما، ويجعل الأرض غير صالحة لسكن مليارات من البشر[6].

ولسوء الحظ، ليست المواقف "غير الديالكتيكية" قليلة داخل اليسار؛ اعتبار المواقف الخاصة أفضل ما يكون، والتقليل من قيمة المواقف الاخرى؛ وتهدر الكثير من الطاقة في خنادق بين التيارات، بدلا من استيعاب الاختلافات كتعبير عن التناقضات القائمة، وكتعبير عن التنوع الحقيقي للعمل، وأساليب الحياة، وتاريخ الهجرة، والجنس، باختصار: التعددية المجتمعية. وقد لاحظ (انجلس) هذه الجدلية في كتابه "ديالكتيك الطبيعة". هذا الجانب من المنهج الجدلي لا يفكر فقط في التناقضات، بل ينظر إلى الأشياء والعلاقات في ترابطها وقبل كل شيء في تفاعلها الديناميكي.

إن أحد اوجه النقاش اليساري "الدائم والمتقد" هو العلاقة بين المسار البرلماني والإصلاحي والمعارضة الثورية خارج البرلمان. لكن الثورة والإصلاح لا يعارض كل منهما الآخر في حد ذاته. واعتمادا على توازن القوى والسياق الاجتماعي، يمكن أن يكمل بعضهما الاخر، أو أن يؤدي الى التصحيح، وبالتالي يعزز سياسات اليسار. في المجتمعات البرجوازية الديمقراطية، مثل المجتمع الألماني، هناك حاجة إلى الاحزاب البرلمانية، فضلاً عن معارضة قوية خارج البرلمان، تمارس ضغوطا على البرلمانات، وتعزز عمليات التنظيم البديلة للمجتمع.

إن المشكلة الأساسية للأحزاب اليسارية تكمن في استبدال العقلية الجدلية بعقلية الاستقطاب. هنا يريد المرء حل التناقضات الحقيقية للواقع باتجاه واحد، بدلاً من معالجة التناقض نفسه، آنيا وارتباطا بتصاعد الافكار القومية: من ناحية يروج سيغمار غابرييل (قيادي في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الالماني –المترجم)، مفهوما جديدا للوطن؛ وبالمقابل سارة فاغنكنشت واوسكار لافونتيه (قياديان في حزب اليسار الالماني – المترجم) يدعوان إلى المزيد من السيادة الديمقراطية للدولة القومية، وتعزيز دولة الرفاه لمواجهة العواقب السلبية للعولمة. ومن ناحية اخرى،

يطالب "اليسار العالمي" بالإنسانية العالمية، ويعتبر أيضا إنجازات دولة الرفاه امتيازا، مقارنة باوضاع شعوب جنوب العالم.

السياسة اليسارية تحتاج الى انطلاقة جديدة تتغلب على هذه البدائل الخاطئة. ان الصراع بين الدولة القومية والراسمالية العالمية ليس جديدا. فقد سبق لماركس وانجلس ان كتبا في "البيان الشيوعي": "ومع أنّ نضال البروليتاريا ضد البرجوازية ليس قوميا في محتواه، فإنه يتّخذ في البداية الشكل القومي". لقد دعيا لطريق محلي لحل النزاع، ولكن بمنظور يقود الى تضامن عالمي. وبهذا المعنى، يمكن أن يكون النضال من أجل تحسين الأجور وظروف العمل والمعيشة على الأرض - للسكان المحليين والمهاجرين -جزءا من التضامن الاممي إذا لم يحصر بـ"منافسة المواقع" فقط، بل باعتباره جزءا لا يتجزأ من منظور التحول الاجتماعي - البيئي. ولهذا السبب فان النضال من أجل ظروف أفضل والمزيد من العاملين في قطاعات الرعاية والعناية الصحية والتعليم أمر في غاية الأهمية - يستوعب كجزء من "ثورة الرعاية" الضرورية التي تركز على الاهتمام ببعضنا البعض والعلاقات الاجتماعية الجيدة، بدلاً من المنافسة وذهنية الاستهلاك.

ومع ذلك، فإن أشكال النضال "الوطني" و"الاممي" هي اليوم مختلفة كليا، عما كان عليه الحال في زمن ماركس: رسخت "البرجوازية" هياكل سياسية تدير المنافسة بين الدول القومية لصالح الشركات فوق القومية (بالطبع، ليس بلا تناقضات) - تدار من قبل مجموعة السبعة، مجموعة العشرين، الاتحاد الأوروبي، ودور صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والاتفاقات التجارية والأسواق المالية (العالمية) والمؤسسات غير الرسمية مثل المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس أو مؤتمر الأمن في ميونيخ، .... وبالتالي، فإن منظورا أمميا لسياسة اليسار العالمي أمر لا بد منه.

بالإضافة إلى ذلك، ترتبط الأجزاء المختلفة من الطبقة العاملة العالمية على امتداد سلسلة الإنتاج العالمية ارتباطا مباشرا بعملية العمل اليومية، لسوء الحظ دون إدراكها تماماً، حتى لو كانت تتصل وتتبادل المعلومات مع مدن في اقصى جنوب الهند والصين.

ان الامر يتعلق بتمكين العاملين من فهم مكانتهم وتنظيم العاملات والعمال على طول سلاسل القيمة العالمية. وهي مهمة لا تنحصر بعمل النقابات اليسارية.

يجب على السياسة اليسارية ان ترتقي بالطبقة العاملة، وبالوعي العام بالظروف "الخارجية" وفق مقولة "فكر عالميا، تصرف محلياً" تعني اليوم أيضا إيجاد طرق للخروج من "نمط الحياة الإمبريالية". ولهذا يجب علينا تطوير مفاهيم لتحويل الاقتصاد الراسمالي، ومن النضال من اجل الكثير الممكن من زوايا ونهايات مداخل المخارج وتجريبها.

فهل سيتحقق في الحصيلة نوع جديد تضامني، اشتراكي، أم أن "نافذة الفرصة" التاريخية تجعل الطفرات ممكنة، هذا ما لا نعرفه. ولكنها فرصة لإنقاذ العالم؟

المادية التاريخية تتحدانا

التاريخ ليس "سلطة الطبيعة"، ولا ينتهي بفشل اشتراكية القرن العشرين، كما يدعي الليبراليون الجدد. وهو ليس بالضرورة نتاج "التطور إلى الأعلى"، كما يزعم بعض دعاة

هذه الاشتراكية ذاتها. التاريخ يصنعه البشر. إنه نتاج ممارستنا النشطة في ظل ظروف محددة وفي سياق إمكانيات تطور القوى المنتجة.

كان صيف 2018 الأكثر سخونة في العديد من الأماكن، من ناحية ارتفاع درجات الحرارة: ففي لشبونة وصلت الى 47 درجة مئوية في الظل، وعندما احتج النشطاء ضد التنقيب الجديد عن النفط، واصبحت إفريقيا فرنا، لكن ترامب وأنصار حزب "البديل من اجل المانيا" اليميني الشعبوي، يرفضون فكرة ان التغير المناخي من صنع الإنسان، ويريدون استمرار الحال على سابقه، والاستمرار في ادارة الاقتصاد والعيش على حساب الآخرين.

رغم كل الضمانات والاتفاقيات، يزداد استغلال الطبيعة مع ازدياد إنتاج السلع الرأسمالية. لقد تم تدمير الغابات البدائية والتنوع البيولوجي والمياه والتربة ومعها اساس معيشة ملايين الناس. إن نهب عمال مناجم الحديد، الكولتان، الذهب، والبلاتينيوم، ومصانع النسيج، ومزارع الفواكه أو المسالخ في جنوب العالم - التي تصل منتجاتها إلى عتبة منازلنا - ينتمي إلى "مواصلة ما هو قائم". ومهانة الفقراء في بلدنا الغني جزء لا يتجزأ منه، كما هو حال دوران عجلة الهامستر (نوع من القوارض – المترجم) للتجارة والاستهلاك وعبودية العمل الفاقد للمعنى: "ان التغيرات الناشئة في نظام المناخ العالمي؛ ينبغي ان تجهض في الواقع حسابات اليمين الشعبوي الجديد، الذي يهدف ببساطة إلى الاستفادة سياسياً ومالياً من خلال رفضه لتغير المناخ ويأمل في صحة مقولة ان نهاية العالم تأتي بعد زوال الانسان. ومع ذلك، فإن المجتمعات الرأسمالية المتأخرة في مركز النظام العالمي تعاني في الوقت الراهن من عبثية الهوية التي تعود بالفائدة على اليمين الجديد، بدلاً من مناقشة التهديد الوجودي الذي يمثله تغيير المناخ. ويبدو ان البرقع والمئذنة والصليب والسراويل الجلدية، أهم من الارتفاع المتسارع لمنسوب سطح البحر أو الارتفاع السريع لدرجات الحرارة. إن خطاب التنكيل المتزايد، ووحشية المناقشات العامة، التي لا تناقش فيها فكرة هلاك البشرية، تمثل مقدمة للبربرية الملموسة.

وفي نهاية الامر، يجب على شعوب جنوب العالم أن تهلك من شدة الحرارة بدلاً من الفرار إلى شمال العالم -هذه هي النتيجة الضمنية لسياسة العزل اليمينية، التي بدأت تعمل فعليا، مستعينة بمصادر البربرية الخارجية. وهذه هي نتيجة تطرف قوى الوسط التي تؤدي في النهاية إلى القتل الجماعي: إنها محاولة محكوم عليها بالفشل الفظيع، لانها تتشبث بما هو قائم، وتترك العوامل المسببة للازمة تذوب تلقائيا. وسيؤدي اغلاق الحدود في بداية حقبة تغير المناخ إلى القضاء على دول بأكملها، هي الخطوة الأولى الملموسة في الإبادة الجماعية لجميع البشر الذين سيحاولون الهروب من تغير المناخ القاتل في العقود المقبلة.

إن التغلب على فرض النمو الرأسمالي المستعر، الذي يحرق العالم الملموس من أجل تراكم الثروة المجردة هو مسألة بقاء الحضارة العاري على قيد الحياة. يجب ان يفتح وهم الهوية، والخطاب الاقصائي لليمين الجديد ويفتح الطريق لمناقشة واسعة النطاق في المجتمع بأسره لخطاب التحول، الذي يتناول اشكال ما بعد الرأسمالية لاعادة الانتاج المجتمعي.

من الضروري تحرير الإمكانات التقنية والعلمية الناضجة في رحم المجتمعات الراسمالية المتأخرة الميتة، من قيود الإنتاج الرأسمالي، والتدوير اللامحدود لشروط الراسمال. وبدلاً من الإنتاج من أجل اكوام النفايات، فإن الاستخدام الأكثر كفاءة للموارد العالمية وبناء بنية أساسية عالمية لمعالجة تغير المناخ سيكون مركز إعادة إنتاج مجتمع عالمي ما بعد الرأسمالية[7].

وهذه هي الخطوط العريضة للمسؤولية التاريخية لسياسة اليسار اليوم. وبإطلالة على مشهد الاحزاب السياسية، والمنظمات المتنامية، من الاتحادات النقابية، ومرورا بالمنظمات الاجتماعية، وصولا الى اتحادات حماية البيئة - يصبح من الواضح أن إمكاناتنا ليست كافية، وان هناك حاجة إلى أشكال وتشكيلات جديدة على صعيدي النظرية والممارسة للتغلب على النظام الراسمالي. ان معرفة ما تقدم وتسميته وادراجه على جدول العمل وتشبيكه، وتطوير قوة مشتركة فعالة، يمثل مهمة مركزية للسياسة اليسارية تتماشى مع روح العصر.

المطلوب تغيير الظروف وليس السلوك فقط

وهنا من المفيد القاء نظرة على ''السياسة الخضراء'' في هذه المرحلة: يشير خطاب الاستدامة المهيمن المتكرر إلى قلة أو عدم كفاية الوعي، كما لو كان المستهلكون يضعون اليد على ما ينتج وكيفية انتاجه. ''سلطة المستهلكين'' هي وهم ومزيد من الابتعاد عن الفهم السياسي. ولا يغير من الامر شيئا، اسواق بيع المنتجات الطبيعية، ولا التسوق الواعي بالبيئة، وشهادات نسب ثاني أكسيد الكربون لتهدئة الضمير في الرحلات الجوية، والسيارات الكهربائية ''الخالية من الانبعاثات'' أو حتى علامة ''صديقة للبيئة'' الملصقة على الملابس. وكل هذا لا يغير من حقيقة أن متوسط البصمة البيئية ينمو مع الدخل.

منذ وقت طويل، كانت استراتيجيةً الشركات مبنية على اساس الطلب المستند الى قوة شرائية عالية ''صديقة للبيئة'': ''الغسل الاخضر، اي ان جهود الشركات، كانت أكثر نجاحا من أي وقت مضى، لإخفاء جوهر أعمالها القذرة وراء الوعود البيئية والاجتماعية الجميلة. ولكن وراء هذا العالم الاخضر الوهمي، يستمر الدمار على قدم وساق. لقد تضاعف استهلاك المواد الاولية، النباتية، المعدنية، والاحفورية في سنوات 1980 - 2010 من 40 إلى 80 مليار طن''[8].

إن نمط الحياة ''الطبيعية'' في شمال العالم، والتي تتميز بنمط الانتاج الرأسمالي، تخرج الناس من علاقاتهم التقليدية وتجبرهم على بيع قوة عملهم في السوق، لكي يعيشوا. والوحدات الاقتصادية الصغيرة، مثل المزارع الصغيرة والاقتصاد المنزلي أو تربية الحيوانات، والتي كانت موجودة بكثرة، حتى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، يتم تهميشها وقمعها. ويتم إجبار الناس بشكل روتيني على اتباع نمط الحياة الإمبريالية، لأن عملية الإنتاج التي يكسبون فيها دخلهم والسلع التي يحتاجونها تعتمد على مصادرة غير متكافئة لقوة العمل والطبيعة في مكان آخر. وينطبق الشيء نفسه على ''هياكل التقييم'' النفسية – الاجتماعية في مجتمع يكون فيه حجم المنزل أو السيارة، الموضة الاحدث، السفرات السياحية البعيدة، رموزا للمكانة الاجتماعية،

مدعومة ضمن امور اخرى، من صناعة دعاية عالية الكفاءة. ولكن هناك اختلافات في درجة تاثير العامل الخارجي وهناك مساحة في السلوك يجب تسييسها لتغيير التوازنات. ومن المهم أن يتنازل المزيد والمزيد من الشبيبة بوعي عن السيارات الخاصة، لأنهم يعون الجوانب السلبية لـ"السفر غير المقيد". تشجيع الدرجات الشعبية، وتشجيع المبادرات لتغيير المدن، او للمطالبة بوسائل النقل العام المجانية في العديد من الأماكن، ستكون نجاحا على طريق تحقيق امكانيات نقل أكثر عدالة. ويجب على السياسة اليسارية أن تدعم بقوة هذه الجهود الاجتماعية – البيئية، وفي نفس الوقت تناضل من أجل الإطاحة بالمساهمين الرئيسيين في "الصناعة المحورية": يجب أن يتقلص قطاع صناعة السيارات. وبمساعدة خبرات العاملين، يمكن انشاء شركات نقل، يكون هدفها، توفير الظروف لتحجيم سعة وحركة النقل.

وينطبق الشيء نفسه على التغذية: فالعديد من النباتيين أو الذين لا يتناولون المنتجات الحيوانية اطلاقا (معظمهم من الشباب)، ومبادرات مشاركة الأغذية التي تخرج الأغذية القابلة للاستخدام من حاويات النفايات، لا يعطلون عمل شركات نستله ومونسانتو باير، سلسلة افران المعجنات الكبيرة، واسواق التخفيضات العمالقة. ومع ذلك، فإن سلوكهم مستوحى من روح العدالة الاجتماعية – الإيكولوجية، ويجب عدم الاستهانة به. ان على السياسة اليسارية التحريض القوي ضد تربية القطعان الضخمة من الماشية، ومعونات التصدير، والغليفوسات (مادة تستخدم في عملية تهجين النباتات، وتكون مقاومة للمبيدات، ولكنها تضعف التمثيل الغذائي – المترجم)، وفي الوقت نفسه تطوير رؤية عن تحقيق الغذاء الصحي للجميع بواسطة الزراعة التضامنية. والمشاريع الراهنة تعتبر شريكا مهما لانجاز هذه المهمة.

تتجسد مهمة حزب اليسار في تنظيم النضال من أجل تغيير ملموس في العلاقات الاجتماعية من ناحية، ودعم التغيير في الممارسات اليومية وعكسها من ناحية اخرى. وفي هذا الصراع، من المهم جدا، أن يتغير الناشطون أنفسهم. التحرر لا يمكن أن يتم إلا من خلال الممارسة الشخصية. والنشاط الملموس هو مصدر أساسي لتنمية الشخصية. ان على السياسية اليسارية ان تكون عملية وقادرة في الوقت نفسه على خلق اليوتيبيا. وعليها ان تتجاوز تدريجيا "نمط الحياة الإمبريالية"، وأن تهدف إلى نمط حياة وثقافة تضامنيين. وعلى الساسة اليساريين تجسيد هذا الموقف، على الرغم من كل تناقضاته، وعليهم عكسه حيث ما أمكن.

السياسة الطبقية كممارسة نشطة مترابطة

ومن أجل وقف البربرية وتحريك الظروف المتحجرة، فان هناك حاجة لدى الجميع، كل "موزائيك اليسار"، وجميع اطياف المنشقين، والإنسانيين، ومحسّني العالم، وما يسمى بـ "العاملين الصالحين". وهناك حاجة إلى مفهوم كوني للطبقة، والذي يشمل بالطبع التنوع الثقافي الكامل للعمال الاجراء – من معيلي اطفالهم بمفردهم (الازواج المنفصلين عن بعضهم)، مرورا ببائع الملابس في الشركات الكبرى، والمنحدر من اصول كردية، إلى المبرمج المثلي، الى مساعد

جني المحاصيل الروماني. وبالطبع، يجب أن يكون مفهوم الطبقة العاملة اليوم عالميا، ويشمل المبعدين عن الصراع والمهمشين.

ان تزايد حضور اليمين يمكن ان يكون تعبيرا عن القلق. ولكنه يجعل فتح الطريق للبربرية في المقدمة وواضحا للعيان؛ يتم الدفاع عن الامتيازات (الموزعة بشكل غير متكافئ للغاية) في شمال العالم أكثر وأكثر عنفاً ضد "من لا يملكون". معسكرات الاعتقال على أبواب أوروبا (اشارة الى منع المهاجرين من الدخول الى اوربا – المترجم)، والمزيد من الأسلحة والعسكرة، تجاهل الحرية وحقوق الإنسان، بما في ذلك غوغاء اليمين المتطرف في مدينة كمنتس، وهم ينشرون الخوف والرعب.

وعلى النقيض من ذلك، ينشأ تناقض جديد وشامل، يتظاهر الآلاف ضد التحريض اليميني والعنصرية، ومن اجل حقوق الإنسان غير القابلة للتجزئة وضد قوانين الدولة البوليسية، وسياسات العزل غير الإنسانية. ان شعار "نرجب بكم – متحدون" يجعل اللاجئين حلفاء لقوى التغيير في الشارع. وبانطلاق حملة "جمعة في سبيل المستقبل"، و"تمرد ضد الانقراض" تنشأ حركة ديناميكية، وراي عام مؤثر ضد تدمير اسس حياتنا. وهناك مبادرات المستأجرين ضد سياسات الإسكان المعادية للمجتمع أو إضرابات العاملين في الرعاية والتمريض ضد السياسة الصحية الخاطئة. هذه المبادرات تمثل اشكالا من النضال الملموس من أجل العدالة الاجتماعية. ان أكثر الحركات الاجتماعية نجاحاً في الوقت الحاضر مبنية على ذهنية يسارية ـ بيئية. على سبيل المثال: استفتاءات في سبيل شبكات الطاقة وإمدادات المياه خاضعة للقطاع العام، ومقاومة اتفاقيات التجارة الحرة، والاحتجاجات ضد المشاريع الكبيرة غير المنطقية، والنضال من أجل العدالة المناخية، وضد تربية قطعان الماشية الضخمة، ظاهرة موت الحشرات، والاحتكارات الزراعية، وحصار مناجم الفحم وخطوط الأنابيب، ومبادرات تغيير انظمة النقل. تنشأ إرادة التغيير بشكل خاص عندما يتم الجمع بين فضح الزيف والدفاع عن رؤية العدالة الاجتماعية ـ البيئية. ويجب على السياسة اليسارية في سياق هذه الصراعات وصعود الحركة، مهاجمة السلطة المدمرة، وعلاقات الانتاج.

ان إعادة التوزيع مهمة، لكن التحول الاجتماعي والبيئي للاقتصاد أمر لا غنى عنه. ومن نقاط الضعف التي لا يمكن إنكارها في اليسار، عدم القدرة على تقوية القوى العاملة، بشكل يجعلها قادرة على دفع التحول الى امام. من ناحية، فإن "ظروف سوق العمل" تجعل الأكثر قدرة لتطوير قوة النضال، هادئين، لأن فرصة العمل المستقرة في الشركات الناجحة تبدو بمثابة امتياز واستقرار على خلفية رفع القيود عن سوق العمل، وانتشار اشكال العمل غير الثابتة والمضمونة. ومن ناحية أخرى، لم يستطع اليسار حتى الآن من إضعاف القوة الخفية للأسواق المالية. كتب الفيلسوف الفرنسي (لوسيان سيف) في مقال عام 2011: "لقد أدى تثوير الإنتاج الى تدمير العمال الاجراء، وتجعل حصانة القرارات المالية، شبه الدينية والعبثية احباطهم حتميا". ان الرغبة القوية في تغيير كل شيء لا تؤدي، في النهاية، إلى أي شيء. إن العجز السائد وأكاذيب السياسة المؤسسية يغذيان الكآبة السياسية والتعب الانتخابي لدى الناخبين.

وهكذا ينمو مع جنون الارباح، الاعتقاد بحتمية ما هو أسوأ. ان النظام الذي يحمل المفهوم المحوري "الحرية" في المقدمة، ويتبع مقولة مارغريت تاتشر: "ليس هناك بديل"! وبالفعل، كيف يمكن للمرء ان يحرر نفسه من السلطة المطلقة للأسواق المالية ووكالات التصنيف، لو لم تؤد الأزمة الكبيرة في عام 2008 إلى تغييرات كبيرة؟ ان مزاج التشاؤم الراهن في عصر الذرة والانترنيت، يعيد الى الاذهان الزمن الروماني المتأخر، ويمثل مقدمة للكارثة الوشيكة.

لا ينبغي للسياسة اليسارية ان تكتفي بالمطالبة بـ"الحفاظ على فرص العمل" وبالتالي الحفاظ على الوضع القائم! ويجب على هذه السياسة شجب الغاء اهلية البشر واساءة التعامل الهيكلي من قبل الرأسمالية معهم. وهي، (أي السياسة اليسارية – المحرر)، بحاجة ماسة لمناقشة البدائل الجذرية، والتي يمكن تصورها - والمرتبطة بالاحتياجات الحقيقية المطلوبة: معظم الناس يرغبون في تقديم شيء مفيد للمجتمع من خلال عملهم؛ وترغب الأغلبية في الحصول على مزيد من حرية القرار في التصرف بوقت فراغها، دون سلطة لقرار آخر؛ وقرابة 80 في المائة يعتقدون أن مجتمع النمو هذا لا يمتلك الديمومة، ولكن ليس لديهم فكرة عن كيف سيكون البديل "الآخر". يجب ان تتضمن سياسات اليسار خططًا مقنعة لكيفية خروج عمال الصناعات الضارة بيئياً من عمليات التحول اللازمة دون فقدان للرفاه وبـ "رؤوس مرفوعة"، وبتعبير أفضل كيف يتمكنون من بنائها. والى جانب ذلك يجب طرح سؤال الملكية، المطالبة بالديمقراطية في الاقتصاد، واسئلتها المتعلقة بطبيعة النظام.

الأسئلة الأكثر أهمية بالنسبة لي

لا تتضمن المجلدات الأربعون لأعمال ماركس وانجلس الكاملة، نظرية سياسية مبنية بحزم. ولا يجد المرء في هذه الاعمال أيضا، طريقا موصوفة بدقة توصل الى النظام الاشتراكي، او الى شروط ملموسة في المجتمع اللا طبقي المرجو. وكلاهما تحدث بهذا الشأن بعمومية وعجالة. وبما أن المحاولات الأولى في القرن العشرين لم تكن "مستدامة"، فمن الصعب نشر اليقين. ولهذا اود في الختام ان أحاول الخروج بخلاصة وطرح أسئلة أساسية أخرى.

من الواضح أن "الكعكة" التي نتجت بعد نضالات التوزيع الناجحة، والتي خلقت رفاها وامنا لأوساط واسعة من السكان، بالنسبة لنا، لا متعة فيه: ان هذا الرفاه يخفي الحروب والنفط؛ وعمل العبودية في مزارع الفواكه العملاقة. وفي مصانع اللحوم في ولاية "نيدرساكسن" الألمانية، او في مزارع الخضراوات الاسبانية؛ وعشرات الملايين من البشر الذين تسلبهم صراعات المنافسة العالمية على المواد الخام والأسواق أو تحولات المناخ، أسس معيشتهم ويجبرون على الهروب. ولذلك لا يكفي الجدال حول توزيع الكعكة. ان الامر يتعلق بالوصول إلى المخبز (المخابز) لتحديد ماذا وكيف ينتج.

كيف ينجح التمكين الذاتي المؤثر للكثيرين؟

يبدو ان الديمقراطية المباشرة من العناصر المهمة للتأثير السياسي الفعال. ومن الصحيح والضروري ترك العديد من القرارات - على المستوى الفيدرالي أيضًا - للمواطنين أنفسهم، لمواجهة الإحباط السياسي لدى قطاعات واسعة من السكان. ومع ذلك، فإن الممارسة

العملية في سويسرا (حيث يتم التصويت على جميع المسائل، بما في ذلك توزيع موارد الميزانية، مباشرة من قبل المواطنين)، تُظهِر أنه على الرغم من أن تأثير بعض كتل رأس المال محدود، لكنه لا يؤدي تلقائيا لنشوء بدائل اشتراكية.

وهناك أمثلة أخرى على تمكين ذاتي يساري ناقد للنظام: فالى جانب احتلال أراضي والحكم الذاتي في تشياباس (اقليم في المكسيك - المترجم)، ياتي في المقدمة نظام الادارة الذاتية، الذي يتابعه من السجن ابوه الروحي عبد الله اوجلان، والقائم على هيكلية بلدية ومناطقية تعمل على اساس المساواة بين الجنسين، والتعددية الثقافية والاثنية، والتي تسعى لتحقيق عدالة اجتماعية - ايكولوجية. هذه الانطلاقة التحررية المجتمعية، والتي لا تمثلها اغلبية السكان الكردية فقط، ادى الى تغييرات جذرية في الحياة السياسية واليومية في شمال سوريا (كردستان سوريا) وجنوب شرق تركيا (كردستان تركيا)، بعيدا عن سلطة الدولة. وعلى الرغم من أن القمع الهائل والتدخل العسكري لأردوغان يعرقل الكثير، إلا أن سياسات اليسار يمكن أن تتعلم منها؛ وكذلك التجارب المشتركة في اليونان، حيث مثل تنظيم "التضامن من أجل الجميع" دعما حقيقيا للحياة من أسفل، وتحريك الكثير من الناس، ما جعل نجاح سيريزا الانتخابي ممكنا.

ومما يثير الاهتمام أيضا "التعسف" الذي تقوم به مجالس بلديات كوبنهاغن أو باريس بإعادة بناء البنية التحتية لحركة المرور، ضد سيادة السيارات أو تقديم عمد جنوة أو برشلونة موانئ آمنة للاجئين – يتبناها غالبية مواطني هذه المدن، بعيدا عن سياسة الحكومة الوطنية. مدن التضامن أو المدن المتغيرة - ربما البلدية هي التي من المرجح أن تتغير بشكل ملحوظ؟ ستكون هناك شبكة عالمية من المجتمعات الحضرية ذات التوجه الاجتماعي والإيكولوجي والديمقراطي مع مقاهي الإصلاح، وحدائق المدينة، وشركات الإسكان غير الربحية، والمؤسسات البلدية للاقتصاد التضامني.. إلخ، قاعدة قوية لتجاوز الرأسمالية المعولمة؟ كما يمكن تصور كيفية تقويض السوق المالية واقتصاد النمو؟ وبالتأكيد ليس هناك طريق يتجاوز سياسة يسارية ملموسة وقريبة من الهموم اليومية في الحي والقرية والمصانع – تدعم التنظيم الذاتي، والتأثير القوي للناس البسطاء، وربطهم بـ "العناصر المستكشفة"، "الشخصيات الثورية" التي لم يتم احتواؤها، والتي تجرأ على اقتحام الجديد، والذين يساهمون بوعي في نمط حياة تضامني، بغض النظر عن الاتفاقيات السائدة، ودون خوف على أمنهم المادي، والذين يقدمون النصيحة لجيرانهم، بشان افضل السبل للتعاون المتبادل، ما المطلوب من دائرة المدارس (مديرية التربية)، وأي شارع يجب ان يكون خاليا من السيارات (للمشاة)، وأين يجب ان تكون محطة الحافلات ..الخ، ستكون هذه البداية لـ "رابطة الافراد الاحرار" التي حلم بها كارل ماركس (الموضوعة الثالثة من موضوعات فورباخ)؟

هل نحن قادرون على التعلم ما يكفي لتخليص أنفسنا من المجتمع البرجوازي؟ ما هي الشخصيات المطلوبة والتي، بالإضافة إلى التحليل شديد الوضوح للبؤس، تكون في وضع يمكنها أيضا من تحفيز الناس على تغيير تصرفاتهم، لرفع الثقة بالنفس، ولتنسيق

التنظيم الذاتي؟ يجب أن يتم الاعتراف بهم وتأهيلهم. وفي النهاية يجب ان تنشأ ثقافة يسارية تتميز بذهنية الاحترام، تجعل النقد والنقد الذاتي ممكنا، تقوم على التعددية والاجماع. انها ثقافة الصداقة: "إذا لم تساهم الذوات في تغيير العالم الذي تعيش فيه على أساس منظور التحرر الفردي والجماعي، عندئذٍ سيغيرهم هذا العالم وصولا الى اللاإنسانية"[9].

ملاحظات

* "الاستغلال" بالمعنى الماركسي - مصادرة فائض قيمة العمل بواسطة مالكي وسائل الانتاج - يحدث في جميع الانحاء في الراسمالية. و"ارباح الرفاهية" لا تعود، رغم ظروف العمل اللا انسانية، الى معدلات استغلال عالية في جنوب العالم. انها أعلى في المراكز الراسمالية. وهي نتيجة لتقسيم عمل دولي، مدفوع برغبة الشركات متعددة الجنسية في الربح، تنقل بموجبها مراحل سلسلة الإنتاج العالمي غير المحتملة بيئيا، والتي تتطلب عمالة كثيفة الى بلدان جنوب العالم. وبهذه الطريقة، يلتقي في سلسلة الإنتاج العالمي، المحمية نسبيا، عمل المهارات العالية في المصانع المتطورة، والعمالة غير المستقرة، وظروف عمل الرأسمالية المبكرة، وصولا الى عمل الرقيق. ان هذا كله هو مجتمع العمل في الرأسمالية العالمية.

** في برنامج الأسبوع الاقتصادي يعرض عمل حيوي لفريق من الصحفيين لـ "سيارتك". ورغم أن الاستنتاج ("مواد خام مقبولة" مقابل المزيد من المال نسبيا) غير مقنع تماما، لكن العرض ينطوي على قيمة كبيرة، لأنه يسلط الضوء على ما هو مخفي.

الهوامش:

1- Metscher, Thomas (2017): Integrativer Marxismus, Kassel (Mangroven Verlag), p.36

2- Brand, Uli; Wissen, Markus (2017): Imperiale Lebensweise – Zur Ausbeutung von Mensch und Natur, München (oekom).

3- Brand Uli, Wissen, Markus (2018): "Nichts zu verlieren als ihre Ketten"? Neue Klassenpolitik und imperiale Lebensweise, Zeitschrift LUXEMBURG 01/2018

4- Marx, Karl; Engels, Friedrich (MEW): Marx-Engels Werke und Briefe (MEW), Berlin (Dietz Verlag) 1958 ff, p.530.

5- Sève, Lucien (2011) Der Mensch im Kapitalismus", in: Le Monde diplomatique, 11. 11. 2011. https://monde-diplomatique.de/artikel/!220323

6- Konicz, Tomasz (2014) "Die Dialektik des Klimawandels – Wie quantitative Änderungen der Treibhausgaskonzentration zu qualitativen Umbrüchen im globalen Klimasystem führen können". http://www.heise.de/tp/features/Die-Dialektik-des-Klimawandels-3364883.html.

7- Konicz, Tomasz (2018) "Klima für Extremismus". http://www.heise.de/tp/features/Klima-fuer-Extremismus-4127330.html

8- Hartmann, Kathrin (2018): Die grüne Lüge – Weltrettung als profitables Geschäftsmodell, München (Karl Blessing Verlag).

9- Sève, Lucien (2016) Die Welt ändern – Das Leben ändern. Neuausgabe von Marxismus und Theorie der Persönlichkeit, Hamburg (Argument Verlag).

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة)
تحاور الدكتور اثير الجاسور

الدكتور اثير ناظم الجاسور مواليد بغداد 1982. بكالوريوس علوم سياسية جامعة بغداد، 2004. دبلوم عالي ثم ماجستير علوم سياسية 2008 من معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية. دكتوراه علوم سياسية جامعة بغداد، 2014. تدريسي في كلية العلوم السياسية قسم السياسة الخارجية والعلاقات الدولية في الجامعة المستنصرية منذ 2010 ولغاية الآن. من مؤلفاته: التصدع الكبير: استراتيجية حلف شمال الاطلسي تجاه منطقة البلقان (2015) والتحدي العظيم: استراتيجية حلف الناتو تجاه المنطقة العربية بعد احداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

هذا وكانت مجلة (الثقافة الجديدة) قد أجرت حوارا مطولا مع الدكتور الجاسور وأدناه ابرز ما جاء فيه:

الثقافة الجديدة: بعد مرور اكثر من سبعين سنة على نشأة حلف شمال الاطلسي الـ ((NATO، الحلف الذي يطلق عليه الكثير من المتحمسين له، على انه الحلف العسكري الاكثر نجاحا في التأريخ. نجد ان هذا الحلف يواجه خلافات ومشكلات جذرية وحقيقية. فمن مشكلات حول حصص التمويل الى الاحادية الامريكية والمحاولات التركية في التصرف دون الرجوع الى الحلف، الى التضارب في المواقف السياسية في اكثر من مفترق، الى مساعي روسيا الدائمة في تجديد وتعزيز نفوذها في مواجهة التوسع المستمر للحلف على حدودها المتاخمة والدفاع عن مصالحها الاستراتيجية، ثم التناقض الذي ظهر تدريجيا بين مصالح الاعضاء او بين مصالحهم ومصالح المنظمة مثل التناقض بين سياسات الاتحاد الاوربي وتلك المرتبطة بالناتو ومن ابرز تجلياتها في الموقف من ''البريكست'' وكذلك التصريحات بشأن انشاء ''الجيش الاوربي''. وبالتالي يثار التساؤل التالي: هل تمثل هذه الاختلافات صرخات شعبوية هنا وهناك، أو هي وجهة نظر فرنسا الماكرونية أو هي تناقضات جوهرية تجد جذورها في نواة تشكل الناتو والأسس التي قام عليها؟

الدكتور الجاسور: لغاية اليوم، ما زالت الآراء تتضارب حول تأسيس حلف شمال الاطلسي (الناتو)، وذلك بسبب العديد من الملاحظات على كيفية تأسيسه وعمله وقيادته. فحلف الناتو جاء في لحظة تاريخية مهمة من عمر القارة الاوروبية الخارجة للتو من من حرب طاحنة انهكت الجميع. وبالتالي فقد اعتبره البعض طوق نجاة للقارة وهذا ساعد على ان تكون له مقبولية عالية. وبالرغم من ان تأسيس حلف الناتو جاء قبل حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفيتي إلا انه وفي عام 1949 انصبت جهود حلف الناتو على تحقيق هدفين رئيسين: الاول، الحد من توسيع النفوذ الشيوعي -السوفيتي من خلال تطويقه بأحلاف واتفاقيات امنية تقيد حركته الخارجية، وعدم تكرار ما حصل في تشيكوسلوفاكيا بعد ان استولى الشيوعيون على السلطة في براغ وكذلك في اليونان. أما الهدف الثاني، فهو ضمان استمرارية تأثير الولايات المتحدة الامريكية في الشؤون الاوروبية.

لكن الامر الاكثر اهمية جاء بعد انتهاء الحرب الباردة. فطبيعة الحلف عند التأسيس كانت دفاعية، بالتالي من البديهي وبعد ان زال الخطر الذي كان يهدد دوله ومناطق نفوذه الاستراتيجية المتمثل بتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار المعسكر الاشتراكي وزوال حلف وارسو ان يتم حل حلف شمال الاطلسي وذلك بعد ان طوت الحرب الباردة آخر صفحاتها في قمة مالطا العائمة في كانون الاول/ ديسمبر عام 1989. إلا ان الادارة الامريكية وبعض حلفائها في الناتو وجدوا من خلال ترسخ فكرة العدو وضرورة استمرارية وجوده وبقاء الخطر في التفكير الاستراتيجي والمجتمعي لدول

الحلف سبيلا من اجل تعزيز زعامتها على العالم، خصوصا بعد ان تغير من النظام ثنائي القطبية إلى احادي القطبية اي نظام صلب غير مرن. بالتالي توطدت فكرة تطبيق احتواء روسيا الوريثة للنظام السوفيتي وبدأت فكرة توسيع الحلف والتوغل خصوصا في مناطق نفوذ الاتحاد السوفيتي (السابق) اهمها دول منطقة البلقان الضرورية. ومع الكيفية التي ادارت من خلالها الولايات المتحدة هذا الملف وكيف تعاملت معه بدأت المصالح تتضارب بين الدول الاعضاء وقائدة الحلف وصاحبة الانفاق الاعلى في الحلف. ظهرت اولى بوادر الخلاف بين دول اوروبية تحاول ان تعزز قوة الاتحاد الاوروبي وبين رغبة امريكية في فتح باب الانتماء للحلف الذي يعكس درجة اهتمام عالية في تعزيز وجودها وقيادتها للنظام العالمي.

بالرغم من ان دول الحلف تعاونت على تحقيق مصالحها، طوال الحرب الباردة، وكان الحلف بقيادة الولايات المتحدة الامريكية المدافع الاول عن امن الدول الاوروبية في شقها الغربي، إلا ان الاخيرة وعلى وجه الخصوص فرنسا والمانيا حاولت جاهدة على ان يكون لدول الاتحاد الاوروبي استقلالية مالية وعسكرية بعيدة عن الحلف، وتحديداً عن السيطرة الامريكية بعد ان ارهقتها قضية تمويل الحلف خصوصاً وان اغلب الدول الاوروبية تعاني من ازمات مالية كبيرة، وقرار توسيع الحلف مروراً بالتفرد بالقرار من قبل الجانب الامريكي.

ان ضرورة صياغة نظام أمني أوروبي جماعي مشترك تمر اولا عبر تشكيل هيكلية جديدة لقوة عسكرية أوروبية تشترك فيها: فرنسا والمانيا تعملان الان على تأسيس الفيلق الفرنسي – الالماني (علما ان الفكرة ظهرت في 14 تشرين الاول/اكتوبر 1991) تحت قيادة واحدة لتكون بداية لإقامة جيش اوروبي متعدد الجنسيات، ويكون مقره في مدينة ستراسبورغ الفرنسية، ويتكون من خمس دول هي: ألمانيا وفرنسا وبلجيكا ولوكسمبورغ وإسبانيا. لكن البيت الاوروبي ما زال يعاني من تصدعات كبيرة، والولايات المتحدة على علم بذلك، بل انها تعمل على الضغط على الحكومات الاوروبية، وعبر بعض الاحزاب والتيارات السياسية والاجتماعية التي تعدها محركات عمل توجهها في اللحظة المطلوبة. وقرار خروج بريطانيا من الاتحاد الاوروبي خلق اجواء مشحونة بين جميع الاطراف، وكانت الولايات المتحدة المستفيد الوحيد من هذا الخلل البنيوي.

اما في ما يخص تركيا، فبالرغم من نشاطها خارج السرب الاطلسي، في الكثير من الحالات إلا انها وكما يعدها الكثيرون شرطي الولايات المتحدة في هذه المنطقة المهمة، سيما وان الاراضي التركية تحوي اهم القواعد العسكرية التي تعدها الولايات المتحدة رئيسية، من خلال ربطها مع القواعد الاخرى في دول ومناطق مختلفة. من جانب آخر فان تركيا تسلك سلوكا قد يكون معارضاً للسياسة الامريكية في الظاهر، إلا ان هناك تخادما مباشرا من

حيث تحقيق الاهداف والسير نحو تحقيق المصالح، بالتالي فهي من الاعضاء المهمين في الحلف، وتعمل وفق خطوات وآليات مدروسة ومعروفة لدى الادارة الامريكية، لكنها ايضاً تعمل وفق عقلية قومية تحاول من خلالها اثبات وجودها في المنطقة كقوة موازية للقوى الاقليمية والدولية الاخرى، وتمتلك مفاتيح اللعبة في المنطقة. تركيا ايضاً اليوم تلعب دوراً مهما، فهي من جانب تساير التوجهات الغربية من اجل الحصول على موافقة انضمامها للاتحاد الاوروبي بالرغم من علمها الاكيد ان دول الاتحاد لن توافق على ضمها، وهي ايضاً تسير وفق معادلة اللعبة غير الصفرية مع دول منطقة الشرق الاوسط.

اما روسيا فوجدت ان بقاء الحلف تهديداً كبيراً على مصالحها، فبعد ان خرجت ضعيفة داخلياً بسبب تبعات الحرب الباردة التي اخذت منها ثمناً كبيراً، إلا انها كانت مصرة على ان يكون لها دور كبير في مناطق نفوذها السابق التي ترى فيه قوتها وديمومتها، وعلى ان تكون لاعباً رئيساً في المعادلة الدولية، بالتالي فهي واجهت فكرة توسيع حلف الناتو التي عدتها خطوة استفزازية لها، على اعتبار ان الحلف توجه نحو مناطق العمق الاستراتيجي الروسي، بالتالي فهي رسمت سياسات تواجه بها هذه العملية بالشكل الاتي: اولا، حاولت روسيا تسريع مسارات التعاون مع دول كومنولث الدول المستقلة من خلال اقتراح موسكو تشكيل حلف عسكري يضم دول الكومنولث يوازي حلف الناتو. ثانيا توظيف الخلافات بين اعضاء حلف الناتو تحديداً في قرار التوسيع، خصوصا من خلال اللعب على مواقف كل من فرنسا والمانيا. وأخيرا، من خلال التهديد بالانسحاب من الاتفاقيات المبرمة مع الغرب وواشنطن فيما يخص نزع التسلح والحد منه.

القضية الخلافية الاخرى التي واجهتها روسيا، هي مشروع الدرع الصاروخي الذي لم تغفل عن اهدافه الحقيقية خصوصاً في دول اوروبا الشرقية، وقد اصدر البرلمان الروسي بيانا عد فيه نشر نظام الدرع الصاروخي بالقرب من حدودها، سيعمق حدة الانشقاقات داخل اوروبا، مما قد يطلق سباقاً جديداً للتسلح، بالتالي فأنها تعارض هذا المشروع الذي تعده مشروعاً امريكياً، يهدد امنها بالدرجة الاولى، وامن المناطق التي ما زالت مهمة واساسية في التفكير الاستراتيجي الروسي.

الثقافة الجديدة: ارتباطا بالسؤال السابق واستكمالا له، نود الاشارة هنا الى ان العالم قد تغير بشكل جذري، منذ نشأة الناتو، كما ان توازنات القوى السياسية الدولية في تغير وتحول دائم. فعالم اليوم يختلف عن اجواء "الحرب الباردة"، وهو يختلف بالتأكيد عن عالم التسعينيات الذي حصد فيه الناتو ما بدا انه "ثمرة كفاحه". وبالتالي الى أي مدى يؤشر هذا، ان الحلف يعاني من ازمة فعلية، فهي في الواقع ليست ازمة تمويل او ازمة سياسة عامة، بل هي ازمة استراتيجية في الجوهر، على ما يبدو.

وهذا يجرنا الى سؤال اضافي: هل تحول هذا الحلف فعلا الى مجرد اداة هيمنة بيد الولايات المتحدة الامريكية؟ وهل ان توصيف حلف الناتو ''ميت دماغيا'' وصف مبالغ فيه ام توصيف مبرر؟ ام ان استراتيجية الناتو هي التي ''ماتت دماغيا''، وبالتالي يجب التركيز فعلا على اهداف وغايات شاملة ومحددة للناتو؟ وهل المعضلة الوجودية المزمنة للحلف قد تجد حلا لها في الهروب الى الامام، عبر خوض ''حرب باردة'' جديدة، كي يعاد تنشيطه عسكريا وسياسيا؟

الدكتور الجاسور: من المتعارف عليه دولياً ان حلف الناتو هو الأداة العسكرية الموازية للإدارة الامريكية. لكن هذا لا يعني أن هناك دولا اعضاء في الحلف ما زالت تعمل وفق رغبة وتفكير الولايات المتحدة فقط، وقد تطرقنا في الجواب على السؤال الاول، حيث تم التطرق الى ان فكرة وجود عدو جاءت من أجل ديمومة الحلف. فبعد ان اعتقد الاوروبيون أنه بانتهاء الحرب الباردة انتهى عصر التهديدات، جاءت الاستراتيجية الجديدة للحلف بطريقة مغايرة عن التفكير الاوروبي؛ فالتوسع نحو دول البلقان والولوج في تفاصيل تفكيك الدولة والدور الكبير للحلف فيها وبتوجيه من قبل الولايات المتحدة، لا يتطابق مع توجه بعض الدول الاوربية بخصوص الحديث عن تراجع المهمة الاساسية للحلف المتمثلة (بالدفاع الجماعي). بالتالي فإن سعى اعضاء الحلف والولايات المتحدة تحديداً إلى ايجاد وظائف ومهمات جديدة له تتناسب مع حجم التطور الذي سوف يطرأ عليه مع الحفاظ على الارض الاوروبية وتكييفها كي تبقى ساحة لتنفيذ استراتيجية الحلف، وتنفيذ هذه المهمات الجديدة بناءً على التطورات الحاصلة في هذه المنطقة، خصوصا وأن هذه المهمات لم تعد تتحدث عن تهديد الامن، بقدر ما اصبح الحديث يدور حول مخاطر على الامن، إن كل هذا لا يتناغم مع تطلعات بعض الدول الاوربية الاعضاء في الحلف.

لقد اصبح لحلف شمالي الاطلسي وظائف محددة في عالم ما بعد الحرب الباردة: الوظيفة الاولى هي الوظيفة السياسية، حيث يسعى الحلف الى ترسيخ عملية التحول الديمقراطي والسياسي في دول اوروبا الشرقية والوسطى، وقد اشترط في برنامج الشراكة من اجل السلام، ان تقوم هذه الدول بحل مشكلاتها العرقية والدينية والاجتماعية بالطرق السلمية، كي تنال هذه الشعوب حق تقرير مصيرها من خلال اشراف الحلف على هذه العملية، كما اشترط ان تقوم الدول المشاركة بإدخال المفاهيم والقيم الديمقراطية في مؤسساتها العسكرية والمدنية. كما ان الحلف استحدث ما يدعى بـ(الدبلوماسية الوقائية) والتي تختص بعمليات تجميع المعلومات السياسية والاخبارية في المناطق التي تعد بؤراً للازمات في القارة الاوروبية والعالم، وبما يسمح للحلف والامم المتحدة بالتدخل في هذه المناطق واحتواء الازمات الناشبة فيها من خلال العمل السياسي والدبلوماسي، قبل

ان تتحول إلى نزاعات وعمليات مسلحة، تهدد أمن القارة الاوروبية والعالم.

اما الوظيفة الاقتصادية للحلف، فتتمثل بالتنسيق بين السياسات الاقتصادية لأعضائه الاصليين والتخفيف من حدّة التنافس الاقتصادي بينهم، حتى لا يؤثر ذلك على قوة الحلف الدفاعية الاستراتيجية ضد التهديدات والتحديات، وقد اضافت اتفاقية الشراكة بين الحلف والدول المشاركة إلى الوظيفة الاقتصادية ابعاداً جديدة تمثلت في انعاش اقتصاديات هذه الدول ومساعدتها في التوجه نحو اقتصاد السوق، سواء من خلال تزويدها بالمنح والمعونات المالية والاقتصادية التي تمكنها من تجاوز مرحلة التحول، أو بتزويدها بالخبرات الفنية والعلمية التي تمكنها من بناء بناها التحتية، وتحويل صناعاتها العسكرية الفائضة إلى صناعات مدنية من خلال فتح الاسواق امام اقتصادها داخل اوروبا وخارجها، بالمقابل تعد هذه اسواق، الدول سوقاً لدول الحلف، لتصريف بضائعها، وايجاد استثمارات جديدة لها فيها.

وأخيرا، الوظيفة العسكرية للحلف. وهنا نجد ان وظيفة الحلف هي العمل على تهيئة واعداد الدول المنضمة إلى برنامج الشراكة من اجل السلام للقيام بعمليات حفظ السلام في اوروبا ومنطقة الاطلسي. وهذه الفكرة تعمل على تكريس هيمنة الغرب على مناطق مختلفة من العالم. فهذه المهمة تحتم على الحلف تغيير هياكل وانماط استخدام القوة العسكرية لهذه الدول سواء من حيث الحجم والنوع والتفكير الاستراتيجي حتى تستوعب التغيرات التي طرأت على استراتيجية الحلف العسكرية.

وبالرغم من العلاقة الوطيدة بين حلف شمال الاطلسي والبيئة الاوروبية خصوصا بعد ان وضع مجموعة كبيرة من المخططات والاستراتيجيات التي تؤكد دائما ضمان الامن الاوروبي، لكن في الحقيقة أن الولايات المتحدة اشتغلت على ان تبقى استراتيجية الحلف ووظائفه السياسية والاقتصادية والعسكرية، تعمل وفق آلياتها ومصالحها في جميع المناطق التي ترى انها تقع ضمن نطاق المشروع الامريكي واهدافه، وذلك عبر ايكال الحلف مهام جديدة، تتناسب مع التفكير الاستراتيجي الامريكي.

ان الولايات المتحدة تعمل دائما على ترسيخ مكانة الحلف، ومكانتها في العالم من خلال اجهاض اي محاولة لبروز مراكز قوى جديدة. ومن اجل تحقيق هذا الهدف لا بد من وجود القوة العسكرية الامريكية في اي مكان تتعرض فيه الهيمنة الامريكية إلى التهديد.

لقد ركز التفكير الاستراتيجي الامريكي دائما على حماية مصالح الولايات المتحدة في العالم، وتحديداً خطوط امداد النفط الذي يعد مصلحة قومية امريكية، فاذا كان "مبدأ كارتر" قد اعتبر نفط الخليج العربي هو مصلحة قومية امريكية فقد بات كل النفط العالمي، يندرج تحت هذا البند من نفط بحر قزوين إلى نفط افريقيا مروراً بالنفط العربي. ولان مصالح الشركات الامريكية تتطلب فتح الاسواق وبناء مناخ امني

دولي مواتٍ لتلك المصالح، فهذا يتطلب شرعنة لمبدأ التدخل من خلال استخدام القوة والاحتلال. والولايات المتحدة بالرغم من سعيها الى اشراك حلفائها الاوربيين في الحلف في العمليات العسكرية من اجل اعطاء الشرعية لعمليات التدخل في مناطق النفوذ الاساسية، إلا انها تتفرد غالبا بالقرار السياسي والعسكري وتعمل على تحديد مهام الحلف على ضوء تخطيطها الاستراتيجي، مما جعله لمرات غير قليلة مجرد جهاز للتدخل خارج المنطقة المحددة له، وفي عمليات بدت بعيدة عن المصالح الخاصة بالأعضاء الاوربيين.

في النهاية نستنتج ان عملية توسيع الحلف وعمليات التدخل التي تم تأطيرها وفق مسألة التعاون والتدريب العسكري والبناء الهيكلي للمؤسسات العسكرية في العديد من الدول جاءت من منظور ان يصبح الحلف مجرد قوة موازية للقوة العسكرية الامريكية.

الثقافة الجديدة: لا يمكن فهم طبيعة التحولات التي شهدها التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية خلال العقود الثلاثة الاخيرة تقريبا دون ربط الأمر بأحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001. ولا شك أن موضوع التحولات في التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الامريكية بعد 11 سبتمبر 2001 هو موضوع واسع النطاق ومتعدد الأبعاد ومتشابك، هذا اضافة الى انه يعد واحدا من أهم المواضيع التي كَثُر حولها الجدل وتفاوتت بشأنها الآراء والمقاربات، منذ لحظة وقوعها، ولا تزال نيرانها الفكرية والسياسية والاستراتيجية مشتعلة، ويبدو ان أوارها لن يهدأ قريبا.

هل لكم ان تحددوا لنا ابرز معالم التحولات الكبرى في التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الامريكية بعد "زلزال" 11 أيلول/ سبتمبر 2001 واهم الآثار الناجمة عنه، وما طرحته تلك الاحداث من اشكاليات وأعباء على التفكير الاستراتيجي والعقيدة العسكرية الامريكية وما طرأ عليها من تغيرات لمواجهة التحديات الجديدة، وما نجم عن تطبيق مفردات تلك التحولات من تداعيات جيوسياسية واستراتيجية خطيرة في مقدمتها الانتقال من "استراتيجية الردع والاحتواء" الى "استراتيجية الهجوم الوقائي" وما رافقها من انتاج مفاهيم من قبيل: "محور الشر"، "الدول المارقة"، "الحرب الشاملة ضد الإرهاب"... الخ، وتوظيف ما جرى من احداث لتنميط العالم وفق المقاسات الامريكية. هذا اضافة الى ما جرى من "تمارين بالذخيرة الحية" في مناطق مختلفة من العالم لوضع الاستراتيجية "الجديدة" موضع التطبيق العملي واختبارها في كيفية سحق الخصوم!

الدكتور الجاسور: في البداية لم تكن احداث الحادي من سبتمبر 2001 مجرد اعتداء من قبل منظمة ارهابية على الولايات المتحدة، استهدفتها في القلب، ووجهت لها ضربات قوية وموجعة اسفرت عن انهيار برجي التجارة العالمي

وجزء من مبنى البنتاغون، بل كانت لحظة تاريخية كبيرة وفارقة، ساهمت في تحول التفكير الاستراتيجي الامريكي تجاه العالم، بعيدا عن النظريات والمبادئ والمنطلقات التي تبنتها بعد انتهاء الحرب الباردة. فهذه الهجمات هددت الامن القومي الامريكي بالصميم، وانهت مبدأ الدولة العظمى بعد ان كانت تؤكد عليها اغلب نظريات العلاقات الدولية والاستراتيجية. فالتكنولوجيا والقوة العسكرية والانفراد بالقرار الدولي لم يشفع لأمريكا بحماية امنها.

منذ اليوم الثاني من الهجمات سارعت الإدارة الامريكية إلى استغلال كل الفرص التي تجعلها اكثر قدرة على بسط نفوذها، من خلال اعلانها الحرب على الارهاب، فتدرجت بمستويات الاجراءات المتبعة. والرئيس الامريكي وجد نفسه رئيس دولة في حالة حرب، وعليه ان يكون بحجم رئيس اقوى قوة في العالم، التي يجب ان تتصرف بمعزل عن رأي حلفائها، واستغلت ادارته التفاف الشعب الامريكي حولها، والذي شعر انه مستهدف بطريقة مباشرة من قبل اعداء وطنه، وتحديداً الجماعات الارهابية الاسلامية، فبات يخشى على سلامته من هكذا اعتداءات. ومن جانب حلف الناتو، تم تفعيل المادة الخامسة من ميثاق الاطلسي الذي ينص "على ان اي اعتداء على اي دولة من دول الحلف يُعد اعتداءً على دوله اجمع".

هنا، وفي هذه اللحظة التاريخية من عمر الولايات المتحدة الامريكية طرأت تغييرات على التفكير الاستراتيجي والعسكري والامني في مواجهة التحديات والتهديدات الجديدة التي فرضتها هذه الهجمات، لا على الامن القومي الداخلي فقط، انما على المشروع الامريكي الاستراتيجي وهيمنتها كدولة عظمى. وبالتالي اختلفت استراتيجية الولايات المتحدة في فترة (جورج بوش الابن) عن تلك المتبعة في ادارة الرئيس (بيل كلينتون). فإدارة كلينتون اتبعت سياسة "الاحتواء والردع" في مواجهة القوى المعادية لأمريكا بعد ان شهدت تحولاً في دورها الخارجي يختلف عن ذلك الدور الذي تم اتباعه ما بعد الحرب الباردة. لكن هذا لا يعني انها لم تواجه انتقادات كبيرة لغياب النظرة المتناسقة والمتماسكة التي تعد دائما من اكبر نقائص الادارة الامريكية. لكن البعض يرى ان الانتقادات الموجهة الى سياسات ادارة كلينتون، لم تكن في محلها، فهي لم تتعرف إلى الابعاد الاخرى لهذه السياسة التي ربطت الامن القومي الامريكي بالمصالح التجارية، وعندئذ تكون الدبلوماسية الاقتصادية حلاً لمشاكل كثيرة، فقد ركزت الادارة الامريكية في عهد كلينتون على التنمية الاقتصادية والامن الدولي، لكن هذا لا يعني انها اغفلت الجوانب العسكرية والاستراتيجية بالرغم من فقدان الحماس العسكري في ولايتيه الاولى والثانية، سوى ما حصل في البوسنة والهرسك من خلال حلف الناتو.

السؤال المهم الذي راود الكثير من المختصين والباحثين بعد 11 سبتمبر هو: اي من المدارس الفكرية التي ستسيطر على

المشهد السياسي الامريكي؟ بل ان هنري كيسنجر راح يتساءل هل تسترشد السياسة الخارجية الامريكية بالقيم ام المصالح ام المثالية ام الواقعية؟ لكن وبما ان صانع القرار السياسي الخارجي الامريكي وفي هذه اللحظة الحرجة التي تمر بها الولايات المتحدة، لا يمكن ان يتجاهل الظروف التي من الواجب تطبيق هذه القيم والمصالح، لذلك جاءت احداث سبتمبر لتعطي دفعة من القوة لإدارة بوش الابن، للتنصل من الاتفاقيات التي تم ابرامها في عهد كلينتون، مثل اتفاقية المحكمة الجنائية وبروتوكول "كيوتو" وكذلك معاهدة الحد من الصواريخ البالستية.

وتولى ادارة ملف ما بعد سبتمبر المحافظون الجدد والجناح المتشدد منهم تحديداً، ووضعوا منهجاً جديداً تسير عليه الاستراتيجية الامريكية وفق متبنياتهم واولوياتهم. واستغلت الارادة الامريكية قضية التضامن الدولي واستحصلت على تأييد الكثير من الدول بخصوص الاجراءات التي وجدتها مناسبة للدفاع عن امنها القومي وعليه اصدر قرار (1368 في 12 ايلول - سبتمبر2001) والقرار(1373 في 28/ايلول - سبتمبر 2001) لمكافحة الارهاب، وفرضت الولايات المتحدة بموجب هذا القرارات، مفاهيم جديدة للسياسة الدولية، حددت من خلالها قضية الحرب الطويلة والواسعة على الارهاب، عن طريق عمليات عسكرية ضد التنظيمات الارهابية والدول التي تؤوي الارهاب، ثم انطلقت من مبدأ (من ليس معنا فهو ضدنا) وبلورت مفاهيم اساسية تحركت على اساسها مثل "محور الشر" الذي اعلنه الرئيس بوش الابن في كانون الثاني/ يناير 2002. بالمحصلة فان القرارات التي صدرت وموجات التأييد التي عززت من اصرار الولايات المتحدة على شن حروبها ضد الارهاب، كلها انسجمت مع الاستراتيجية الامريكية الجديدة.

اما الخطاب الامريكي السياسي وبعد التعاطف والاندفاع الذي جاء من قبل الامم المتحدة والمجتمع الدولي، فقد باتت القضية بالنسبة له تدور حول بلورة استراتيجية اكثر فاعلية من خلال وضع الاليات التي تساعدها على ضمان تحقيق الهيمنة على العالم، وبالتالي فهي سخرت كل امكانياتها من اجل تحقيق هذا الهدف، ولم تقتصر على برمجة ادواتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، انما عملت على دعم مراكز البحث او كما يسمونها بمراكز التفكير في سبيل وضع الخطط والاستنتاجات التي تساعد صانع القرار السياسي على صياغة سياسة خارجية من حيث وضع الاهداف السياسية، لتكون الحرب هي الوسيلة في النهاية خصوصاً وهي تتوجه لتغيير طريقة التعامل مع المجتمع الدولي، وفق قوانين جديدة تفرضها هي. وعليه انطلقت الولايات المتحدة الامريكية نحو هدفها المنشود من خلال قانون مكافحة الارهاب ودعمها في ذلك حلفاؤها في حلف شمال الاطلسي، بعد ان صنف الاخير، الارهاب ضمن المخاطر التي تهدد امن

الدول الاعضاء، وذلك في وثيقة المفاهيم الاستراتيجية للعام 1990 – 1999. وهذه الوثيقة تؤكد على الدول الاعضاء ان يبقوا على استعداد تام لنشر قواتهم لغرض ردع الهجمات الارهابية واحباطها ومنعها واتخاذ الترتيبات الدفاعية ضدها، في اي مكان من العالم، بغض النظر عن الحدود الجغرافية، وايضاً تقتضي الوثيقة الاستعداد لمساعدة الهيئات الوطنية من الاثار الناجمة عن العمليات الارهابية. اما في العام 2002 فقد اقرت الدول الاعضاء المفهوم العسكري لمحاربة الارهاب؛ إذ يحدد العمليات العسكرية التي من المحتمل ان يقوم بها حلف شمال الاطلسي، والتي تصنف إلى اربع فئات هي: الاجراءات الدفاعية لمحاربة الارهاب، وإدارة عواقب العمليات الارهابية، والعمليات الهجومية لمحاربة الارهاب، واخيرا التعاون العسكري مع الجهات غير العسكرية.

الثقافة الجديدة: ان المتتبع لهذه التحولات الاستراتيجية اعلاه، سيلحظ انها تدور حول القضية الكبرى والخيار الاستراتيجي الاهم والمتمثل ببناء "نظام عالمي جديد" بقوة المدافع والبوارج الحربية بعد ان عجزت "القوة الناعمة" عن تحقيق "نصر باذخ"، وبعد ان غادر مسرح التاريخ "النظام الدولي" الذي كان قد تشكل كنتاج لتوازن القوى الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية، وما تلاها من "حرب باردة" بين القوتين العظميين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، أي في ظل نظام القطبية الثنائية.

لقد دشن "النظام العالمي الجديد" حقبته بتمارين بالذخيرة الحية من كوسوفو الى "عاصفة الصحراء"، ثم لاحقا في افغانستان والعراق ومناطق اخرى من العالم. وكانت الاهداف الكبرى واضحة وفي مقدمتها: التأسيس لمعالم تقسيم عالمي جديد للعمل يفرض بقوة المدفع، علما ان حسابات الحقل لم تتطابق في الغالب مع حسابات البيدر كما يقال.

وبما أنه لا يمكن فصل القانون عن الاقتصاد والسياسة وموازين القوى السائدة في عالم تتداخل فيه المصالح وتتلاشى فيه الحدود بفعل ما تركته العولمة بطبعتها الرأسمالية من آثار، فان المنظومة القانونية والقيمية الدولية "الشرعية الدولية"، تأثرت بشكل كبير بهذه التحولات، وهو ما يصطلح عليه اليوم بـ "أزمة الشرعية الدولية" أو "ازدواجية المعايير" في التعامل مع "الشرعية الدولية".

وسؤالنا هنا هو حول طبيعة واتجاهات التحولات التي طرأت على النظام الدولي، ما بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وهيمنة عالم القطبية الواحدة. وهل نحن الآن شهود على بوادر انبثاق ما يمكن تسميته بالنظام العالمي الجديدة متعدد الاقطاب؛ وانعكاسات كل هذه التحولات على الشرعية الدولية - مفهوما وممارسة - وخصوصا في تعاملها مع قضايا الصراع في الشرق الأوسط وبالاخص القضية العراقية والقضية الفلسطينية، وما يطرح من مشاريع من بينها مشروع الشرق الاوسط الجديد؟

الدكتور الجاسور: أعطت احداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 مبررين؛ المبرر الاول، قانوني من خلال قرارات الامم المتحدة والاتحاد الاوربي لشن الحروب ضد الجماعات المسلحة، في اي مكان كانت، وضد الدول الداعمة والمساندة لهذه الجماعات. أما المبرر الثاني، فهو الشرعية الكبيرة التي اعطاها التأييد الشعبي الامريكي والعالمي للإدارة الامريكية. هذا التأييد ساهم كثيرا في ان تشن الولايات المتحدة الامريكية حربها المفتوحة ضد الارهاب من خلال خطاب مشحون بالحقد والكراهية والتشدد، بعد ان تم تحديد الحرب بين معسكرين: العالم الغربي المسيحي، والعالم الشرقي الاسلامي. بالتالي فهي لم تترك القوة الناعمة في سياستها الخارجية انما اتجهت صوب الاداة العسكرية في تحقيق اهدافها، فكانت افغانستان والعراق. وهذا اكد اطروحة "صماموئيل هنتغتون" التي تتحدث عن "صراع للحضارات".

ان مزاج صناع القرار في الولايات المتحدة بعد سبتمبر 2001 كان يتجه صوب الحروب والكيفية التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع قضية الارهاب، شكلت ذاتها قضية العدو القادم. ان الخطاب السياسي الامريكي استمد مرجعيته من نصوص مشروع "القرن الامريكي الجديد" خصوصا من خلال عمليات التصعيد التي مارسها انصاره امثال "وليم كريستول" و" بول وولفوويتز" و"ريتشارد بيرل" الذين ساهموا في صياغة استراتيجية الامن القومي الامريكي. بالتالي فان الخطاب الامريكي بعد 11 سبتمبر 2001 وبمجمله تميز بالإصرار على التفرد والبناء الامبراطوري من دون الاكتراث للعمل الجماعي الدولي أو الالتزام بقواعد القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة بعد ان فسرت كل ذلك بما يخدم استراتيجيتها للأمن القومي.

ان هذا التحول اكد الانفراد الامريكي بالساحة الدولية، وغيّر مجريات السياسة الدولية، وحدد مفاهيم العلاقات الدولية الجديدة. وذلك من خلال تحديده الأهداف والمناطق الحيوية التي تطمح الولايات الامريكية بالسيطرة عليها. فهي لم تكتف بالتمدد نحو اوروبا الشرقية والوسطى، بل سارعت في التدخل بمناطق تجد انها مهمة وحساسة بذات الوقت، بالنسبة لها، كمنطقة الشرق الاوسط.

لكن هذه التوجهات الجديدة والطموحات الامريكية ـ وبالرغم من تعدد وسائلها وادواتها ـ لم تكن وحيدة، فاليوم يلاحظ بروز قوى سياسية واقتصادية جديدة، تنافس القوة الامريكية خصوصا مع تراجع الاداة العسكرية الامريكية للفترة ما بعد 11 سبتمبر. جميع هذه القوى تتنافس للسيطرة على العالم من خلال الافكار والتكنولوجيا والاقتصاد. فهذه الادوات الاخيرة وخصوصا بعد التحولات الكبيرة الجارية في النظام العالمي، تعد اخطر اشكال الحروب الساعية للسيطرة على الشعوب. فقد اثبت التدخل العسكري عدم فعاليته في حسم الامور، أو في تحقيق الاهداف.

ان سياسة الانفراد التي اتبعتها الولايات المتحدة، وتنصلها المستمر من الالتزامات الدولية خصوصا بعد حربي افغانستان والعراق وما تلاهما، فرضت على الدول والقوى الاخرى اتباع توجهات واستراتيجيات معاكسة لها؛ فهذه القوى تسعى دائما الى سبر كل الخطوات الخاطئة لأمريكا في السياسة الدولية التي تديرها، وتسعى الى تجنبها، والى التخلي عن كل المفردات والمفاهيم الضيقة التي تنادي بها. كما ان اشكال التهديد الخارجي لم تعد تقتصر على الارهاب؛ انما الدول الاوربية تعاني من مشاكل الهجرة غير الشرعية، وروسيا تعاني من تهديد مصالحها ومجالها الحيوي، بسبب التمدد الامريكي متمثلا بتوسع الناتو، اما الصين فهي تحاول من خلال تطوير الاقتصاد، ومن خلال التكنولوجيا المنافسة وفق قواعد مغايرة لتلك التي تتبعها امريكا.

ان عالم اليوم يشهد تحولات واضحة، وهو قد لا يمثل افولاً للأحادية القطبية والسير نحو التعددية، لكن هناك تنافس سريع وخطير نحو تحديد مناطق النفوذ والمصالح والهيمنة من خلال اعادة التحالفات، وتغيير الاستراتيجيات ضمن برامج مختلفة بعيدة عن لغة التدخل بالقوة العسكرية.

الثقافة الجديدة: بسبب من الاهمية الجيوسياسية والاستراتيجية لمنطقة الشرق الاوسط بالإضافة الى اهميتها الاقتصادية، فهي تستمر في كونها واحدة من اهم وابرز عقد الاشتباك الجغرافية والسياسية والاستراتيجية الكثيرة، التي تتجلى فيها مصالح وصراعات الدول المختلفة القريبة والبعيدة بشكل محاولات مستمرة لإقامة محاور وتحالفات متعددة.

مع انقضاء العقد الاول من القرن الحادي والعشرين ودخولنا في العقد الثاني، تبرز المواجهات في المنطقة بنعوتها الطائفية والمذهبية بوضوح؛ ففي مواجهة محور ما يسمى "جبهة المقاومة" "الشيعي" تبرز الجهود السعودية والمستمرة لإنشاء ما يصطلح عليه المعسكر "السني" المعتدل، والذي تعترض عليه تركيا وقطر صراحة وان من منطلقات طائفية ايضا. بينما اللاعبون الدوليون يتخذون مواضعهم في هذه الصراعات، بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم الاستراتيجية، وليس استنادا الى "طوائفهم" او "مذاهبهم" او "اثنياتهم".

في ضوء هذه الملامح العامة هل يمكن ان يكون للعراق سياسة خارجية واقعية تؤسس لعلاقات مع دول المنطقة تقوم على التوازن والمصالح المشتركة، وتتجنب الانخراط في سياسات المحاور والاستقطابات؛ سياسة تقوم على الدفاع عن مصالح العراق الوطنية الكبرى، وتبقي الخطوط مفتوحة مع الجميع، بما يجعله طرفا مهما في حل المشكلات والنزاعات الاقليمية وبالدولية وليس جزءا منها؟

الدكتور الجاسور: تقع منطقة الشرق الأوسط في سلّم اولويات التفكير الاستراتيجي للقوى الكبرى، وان ما تمتلكه هذه المنطقة من مميزات تجعلها

منطقة صراع وتنافس بين هذه القوى. فمن جانب هناك مجموعة من الدول الاقليمية تمتلك الرغبة والطموح والقدرة على بسط نفوذها فيها. ومن جاب آخر هناك مشاريع وسياسات القوى والدول الكبرى. فموقعها الجغرافي يربط القارات في ما بينها، كما ان مساحاتها البرية والمائية تجعل منها منطقة استراتيجية للانطلاق من اجل السيطرة والنفوذ. ثم ان اراضيها تحتضن في باطنها كل ما تتمناه الدول الصناعية، وانها تمثل منطقة امداد بالنفط والغاز. كما ان التجمعات البشرية في منطقة الشرق الاوسط تمثل مجموعة مختلفة دينياً ومذهبياً وقومياً مما يجعلها ساحة تتنافس فيها المشاريع والاجندات الدولية والاقليمية بسهولة. ومن جهة اخرى فان جملة التحولات الجوهرية التي تعرضت لها المنطقة، قد غيرت من خارطتها السياسية كثيرا، وبالتالي فسحت المجال واسعا للقوى الخارجية، في ان تكون لاعبا اساسيا في معادلتها السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية.

بعد ان طوت الحرب الباردة اخر صفحاتها بدأت منطقة الشرق الاوسط تمر بمرحلة جديدة، هي مرحلة بسط النفوذ وفق افكار اضيق من تلك التي كان الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة ينادیان بها في الحقبة السابقة. ومع احتلال العراق للكويت، هذه الحادثة التي اعطت كل المسوغات تحديداً للولايات المتحدة، كي تكون الضامن القوي للعديد من دول منطقة الشرق الاوسط العربية والخليجية خصوصاً. باتت المنطقة تقع ضمن دائرة المشاريع الطامحة لتغيير هذا النظام او ذاك من خلال التعامل مع دولها على انها بحاجة للحماية، وانها تقع تحت التهديد المباشر من قبل دول اقليمية عربية وغير عربية. بعد التغيير الحاصل في العراق عام 2003 بات هناك فراغ اقليمي كبير كان بحاجة إلى ملؤه، فكانت الدول الاقليمية مثل ايران وتركيا تحاولان بشتى الطرق ان تملآن الفراغ من خلال سياساتها الموجهة للدول الاخرى بمسميات الدين والقومية والانتماء.

ايران وبفعل التقارب الجغرافي مع دول تعد حليفة اساسية للولايات المتحدة، اصبحت اكثر تهديداً لتلك المصالح سيما وان الولايات المتحدة عملت ضمن حملتها على الارهاب، على تصنيف دول المنطقة وفق مسميات اعطت مؤشرات لها، على انها تقع تحت طائلة التهديد الامريكي كـ(محور الشر) و(الدول المارقة). هذا عكس صورة واضحة من التعقيد والتشابك الذي تعيشه هذه المنطقة. وبدوره جعل من الدول الاقليمية ان تتخندق ضمن مشاريعها ومحاورها التي تأسست على ضوء المخاطر التي تحيط بها تلك التي جعلت منها محط الاطماع والخضوع للمحاولات للضغوطات الخارجية. وبالتالي فالصراع اليوم بالرغم من انه معلوم الاهداف إلا انه اخذ طابع صراع هواياتي ديني طائفي ضيق، يحاكي فيه التجمعات البشرية الاسلامية التي تنتمي إلى هذا المذهب أو ذلك. فنحن امام معسكرين اقليميين في

الشرق الاوسط، كل منهما يحاول ان يجد له طريقا لبسط نفوذه بشتى الطرق، ولم يجد هذا الصراع طريقا له للتوغل داخل جسد المنطقة غير الاشارات الدينية والمذهبية التي باتت الخط الممهد للولوج في مشاريع هذه الدول التي تعلن العداء لبعضها بين والاخر، بالتالي فان هذه المشاريع بالرغم من انها تنطلق وفق اطر ضيقة باتت واضحة التوجهات، ونتائجها تصب في مصلحة الاطراف الاقليمية التي تتبنى هذه المشاريع، والدول الكبرى الداعمة لها عبر طريقة التخادم غير المباشر.

تبقى التحالفات والمحاور التي تم تشكيلها او تلك المزمع تشكيلها رهينة الاوضاع السياسية في المنطقة وايضا توجهات القوى الكبرى؛ فمحور المقاومة الذي تقوده ايران في المنطقة من خلال حلفائها والجماعات المسلحة التابعة لها تنطلق من فكرة ايديولوجية تبنتها الثورة الاسلامية في ايران تقوم اساسا على محاربة الولايات المتحدة باعتبارها "الشيطان الاكبر"، هذا المحور اليوم يعد من وجهة نظر الاخيرة وحلفائها الخطر الاكبر على دول المنطقة لما يحمله من افكار وتوجهات بعد أن رسخت في تفكير الحلفاء من الدول العربية والخليجية تحديداً ان الخوف من نشر افكار الثورة الاسلامية في مناطقها خصوصاً، وان لإيران مناصرين واتباعا في هذه الدول، وفي مناطق اخرى، تصل حتى الى افريقيا. بالمحصلة فالصراع السياسي في المنطقة اليوم هو صراع سني ـ شيعي بامتياز، بين قطبي الطائفتين ايران والسعودية. بالرغم من ان الاخيرة تمتلك ادوات متنوعة لمواجهة ايران، إلا انها اثبتت في جبهات مختلفة انها ما زالت تعاني من القصور في تلك المواجهة. وكانت حرب اليمن وسوريا امثلة واضحة على ذلك. بالمقابل لن تسمح القوى الكبرى والولايات المتحدة على وجه التحديد، بان تكون لأي دولة اقليمية اليد الطولى على المنطقة، ولن تسمح بان يكون لها القدرة على التحكم في مدخلات ومخرجات القرار في المنطقة، بالتالي هي تحاول اضعاف جميع القوى وفق ما يقتضيه التخطيط الاستراتيجي.

ان اغتيال الجنرال "قاسم سليماني" في مطار بغداد الدولي، دليل على ذلك الصراع، وعدم السماح ان يكون لأي شخص القدرة على ان يخطط وينفذ ما يراه الامريكان مهددا لمصالحهم في اي منطقة من مناطق العالم، وحتى الرد الايراني، كان ضمن تصاعد درجات هذا الصراع، بالرغم من ان ايران والولايات المتحدة يعملان ايضاً ضمن منطقة التخادم غير المباشر، لكن ايران بعد هذا الحادث لن تقوم بتصدير شخصية ايرانية عسكرية كانت ام سياسية، ان يتصدر قيادة محور المقاومة، خارج الحدود الايرانية، بل انها ستعمل على ان تكون مواصفات من يحمل لقب قائد المقاومة من خارج ايران، شرط ان يكون شيعياً ضمن المؤسسة الدينية حصراً. بالمقابل هي تلعب مع حلفائها نفس اللعبة لكن بطريقة مختلفة من خلال الاستمرار في تعظيم دور العدو، الذي يهدد

وجودهم وكيانهم من خلال استنزافهم مالياً، عبر سحب المليارات من الدولارات منهم. وهذه الاجراءات والاحداث وغيرها ستؤزم الموقف الدولي والاقليمي خصوصاً في الاراضي التي تعدها الاطراف المتصارعة هشة كالعراق وسوريا واليمن، لوجود الفصائل المسلحة الموالية لإيران، ولقرب المصالح الامريكية من يد هذه الفصائل. لكن بالمقابل لن يكون هناك تهديد مباشر بين الطرفين، انما ستقتصر بالبداية على حرب باردة بينهما، لحين ان يكون للولايات المتحدة الفرصة للانقضاض سواء عسكرياً او دبلوماسياً.

اما مواقف السياسة الخارجية العراقية تجاه الاحداث الجارية، فهي تتطلب قراراً سياسياً، بعيداً عن التأثيرات الخارجية التي بدورها تلعب دوراً في جعل الاوضاع في العراق، تصب في مصلحتها، واستقلالية القرار تأتي من صياغة استراتيجية عراقية، تكون نابعة من الايمان بالعمل الجماعي التشاركي الذي يبحث في ادق التفاصيل التي يعدها الكثيرون من اساسيات العمل الخارجي، من خلال المبادرات والمعاهدات والاتفاقيات التي تشير الى الحفاظ على السيادة، ومنع التدخل في الشؤون الداخلية، وعدم التدخل في شؤون الاخرين.

ان هذا العمل يتطلب اوضاعا داخلية مستقرة مبنية على التداول السلمي للسلطة وبناء مجموعة من المراجعات التي من خلالها، يتم تقييم العمل السياسي، لجميع الاطراف المشاركة في العملية السياسية.

ان العراق يخضع للتأثيرات الاقليمية والدولية التي باتت واضحة من خلال الاجراءات الحكومية المتخذة في الداخل وحتى في التوجهات الخارجية، وعلى العراق ان يتبع سياسة خارجية مستقلة من خلال استقلال القرار السياسي الخارجي وبعيداً عن التأثيرات.

أدب
و
فن

الجدوى واللا جدوى في الكتابة

حسب الله يحيى

في العراق، تسود ظاهرة بدأ تسويقها يعم وينتشر ويكاد يترسخ في حياتنا الثقافية، وبات البعض من كتابنا ونقادنا يحتفون بمثل هذه الظاهرة السلبية ويعمدون على دعمها وتشجيعها بهدف الاستمرار بها وكأنها حقيقة لا بد من وجودها في هذا الزمن العصيب.

هذه الظاهرة (العراقية) في ثقافتنا الراهنة تكمن في هذا الكم الهائل من الروايات التي تصدر يومياً عن دور النشر الاهلية والرسمية كذلك. روايات ومجاميع شعرية وكم من المقالات الصحفية العاجلة والمرهونة بزمن كتابتها.. سرعان ما تتحول الى كتب بأغلفة جذابة وطباعة انيقة.

وهذا الامر يمكن تحديده في سببين:

- عدم وجود مرجعية فنية جادة ورصينة تقرر نشر الكتب من عدمه، على وفق شروط عملية وعلمية ومعرفية وابداعية وفنية.
- توفر المال لدى البعض بحيث يصبح (اديباً) بماله الذي يتيح له حرية النشر من دون فحص ولا تدقيق ولا مراجعة.
- وجود دور نشر تشجع على طبع هكذا كتب عابرة، الى جانب وجود عدد من (النقاد) الذين يكتبون تحت ضغوط (اخوانية) او منافع شخصية.

لقد توقفنا عند هذه الظاهرة وتعرفنا إليها ملياً عن طريق هذا الكم الكبير من الكتابات الانشائية الثرثارة والتي يتقدم أصحابها بطلبات الانتماء الى عضوية اتحاد الادباء والكتاب في العراق، بوصفه الموقع الذي يعطيها الشرعية والمكانة الأدبية والاجتماعية التي تعزز مكانتهم في الواقع الاجتماعي الذي يعاني من هشاشة كنتيجة طبيعية للأوضاع السياسية والأمنية غير المستقرة.

صحيح اننا على الضد من إيجاد رقابة على المطبوعات والحيلولة دون حرية الفكر وقمع الرأي الآخر، لكننا في الوقت عينه، لا بد ان نحمي القارئ من الكتب الظلامية والمتطرفة والتي تخاطب الغرائز بشكل يخلو من الفن والجمال.

وصحيح اننا نعمد الى تشجيع ودعم حركة النشر واغناء التأليف الفكري والابداعي والعلمي، غير اننا لا ندعو الى طبع ونشر وتوزيع أي مطبوع يخلو من جدوى ومن أهمية وجوده.

وصحيح للمرة الثالثة اننا فرحون تماما بهذا الزخم الذي يتقدم لنيل عضوية اتحاد الادباء، الا اننا نرفض الكم العابر، والعمل على قبول النوعية التي يمكن ان تشكل عطاء تنويرياً وفكرا نيراً وابداعاً مزهراً.

هذا هو التوجه السليم الذي ندعو اليه ونتمناه لجيلنا وللاجيال القادمة، حتى تثرى بالكتابة العميقة والعطاء الفاعل، ويصبح لوجودها جدوى اجتماعية راقية، وبعكسه ستظل اللاجدوى سمة هذه الفوضى العابرة التي تطغى على واقعنا الثقافي الراهن.

ألق الثقافة يضيء خيمات المستقبل

د. صبيح الجابر

منذ خمسة عشر عاما، وثقافتنا الوطنية تتعرض الى أبشع هدر يشهده تأريخ العراق الحديث، فقد شمل هذا الهدر الكثير من المفكرين والأدباء، والكثير من العاملين في حقول الثقافة والفنون، والكثير من الكفاءات الطبية والهندسية، والأكاديمية والتربوية، والعلمية، وهذا الهدر المريع يضاف الى ذلك الهدر، الذي تعرضت له الثقافة الوطنية أيام العهد المباد.

والهدر الثقافي يعني في عراق اليوم اما القتل المباشر على ايدي مجرمين طلقاء ومعروفين أو الابتزاز والخطف، أو الإجبار على ترك العراق والهرب الى البلدان الأخرى، بحثا عن مأمن وحياة كريمة، لحماية أرواحهم وأرواح عوائلهم .

واذا ما بحثنا عن العوامل والأسباب، التي انتجت مثل هذا الهدر المريع، لشغيلة الفكر والابداع الجمالي نجد أن وراءه سلطة، تنمو في قاعها طحالب الاستبداد والجريمة المروعة، المشبعة بأعلى مستويات الجهل والأمية والتخلف.

كل هذا جرى ويجري أمام أعين (سلطات استبدادية) متعددة الهويات والولاءات، والانتماءات المخجلة، سلطات استبدادية

تقودها قوى متمردة على قوانين الدولة وقيمها، قوى تعد قتل العلماء بطولة، والسرقة جرأة وشطارة، والاستحواذ على المال العام غنيمةٍ،مقابل جهادها المزعوم ضد من تعدهم اعداء مشروعها السلطوي، أو ضد من تعتقد أنهم سينافسونها على أموال الدولة التي هي أموالهم كما يعتقدون.

وبهذه السرعة استطاعوا ارجاع العراق الى ماقبل اكثر من الف عام، وهم موقنون، أنهم بسلوكهم وعقولهم الخربة قد وصلوا الى مرحلة الكمال، والى أعلى ضفة من ضفاف المعرفة

فمن منا لم يلحظ ذلك التربوي، وهو يصرخ بوجه الطالبات برعب: (عيب) لا يمكن للفتيات أن يشتركن بالتظاهرات، ويسرن في الشوارع أمام الناس .

هذا هو الانموذج التربوي الخطير بسذاجته في سلطة القمع - تربوي يمثل عقلية السلطة، التي تحكم العراق في القرن الحادي والعشرين، عقلية لاتعرف حتى التاريخ المعاصر للبلد الذي تحكمه، عقلية تجهل أن (فتاة الجسر) هي أول شهيدة عراقية تسقط في تظاهرات وثبة كانون1948.

اذن الثقافة بالتماعاتها الحضارية، لايمكنها أن تنهض، الا بعد أن تتحرر من وحل السلطة الاستبدادية المتخلفة، وقيود جهلها الممتد، في أعماق التاريخ.

ولكي لانظلم التاريخ بمجمله، ولكي لانقطع الصلة بتراثنا الانساني والحضاري، الذي يتفاعل معنا على الدوام، اذ كلما انحسرت سلطات القمع والجهل والتخلف ارتفعت شواهد حضارتنا الانسانية، وفي مقدمتها مستويات الوعي، وتنوعت وتعددت وجوه ثقافتنا استجابة لعصور الرقي الفكري، والعلمي والانساني .

فحضارتنا قد ارتقت، وأصبحت حضارة عالمية حين آمنت السلطات الحاكمة أيام الخليفة العباسي (المأمون) بحرية الرأي والمعتقد، واحترمت عقل الانسان وفكره وتطلعاته، مثلما آمنت بأن الحضارة الانسانية وثقافتها، هي ملك لجميع البشر، متاحة الحركة والانتقال من بيئة مزدهرة الى بيئة أخرى صالحة للازدهار والرقي .

وقد ترتب على هذا الانفتاح العقلي انفتاح على مختلف صنوف المعرفة، الفلسفية والفكرية والعلمية والانسانية، وعندما تضافرت صنوف المعرفة استطاعت أن تشّيد حضارة عالمية، مازلنا نفخر بها حتى اليوم .

واليوم، وبعد هذا الانهيار العظيم في ثقافتنا المعاصرة، حدثت مباغتة غير متوقعة، فقد وجدنا شبابنا، شباب ثورة تشرين قد فاجأوا ثقافة سلطات التخلف، ثقافة فرض الأمر الواقع بمرجعياتها، المعتمدة على قوة السلاح، وقوة المال المنهوب، وقوة التسلط على مؤسسات الدولة، واسناد اداراتها الى الفاسدين والجهلة من المقربين، نسبا وحسبا، وثقافة، ممن يمتلكون السلطة والمال والسلاح .

انّ هذه المفاجأة الشبابية، التي اربكت السلطات، قد تحولت بسرعة غير متوقعة الى ثورة اجتماعية، بأبعادها الثقافية والوطنية، والسياسية والفكرية، وباتجاه تغيير نظام الحكم السائد منذ ستة عشر عاما باتجاه العصر ومنجزاته العلمية والثقافية .

الشيء اللافت بهذه الثورة، الشبابية - الاجتماعية، هو هذا الاصرار العجيب

على حتمية انتصار أهدافها، مهما كلف الأمر من تضحيات جسيمة قدمها الشباب ومازال يقدمها كل يوم، تضحيات تجاوزت الخمسمائة شهيد، ومايقارب ثلاثة وعشرين الف جريح ومعاق.

انّ مصدر هذا الاصرار الشبابي على سلمية ثورتهم، وعلى تحدي الموت المنفلت من وسائل. هما : تجارب التظاهرات السابقة على مدى السنوات الماضية. والى تراكم النقيضين: المعاناة وبؤس الحياة، وتهميش دور الشباب في الحياة العامة، والى التراكم المعرفي الذي أتاحه لهم عصرهم، عصر تطور العلوم وعصر المعلوماتية.

لقد ولّدت المعاناة من الاصرار على تحدي الموت، والتراكم المعرفي، الذي يمتاز به هؤلاء الشباب، مما أتاح لهم فرصة الابتكار والابداع اليومي، الذي تزخر به ساحات التظاهر والاعتصام صباح كل يوم جديد، اذ أنهم في كل يوم يفاجئون الناس بشكل عام، ومجتمع المثقفين بشكل خاص، بابداعات سياسية وثقافية وفنية لم تخطر ببال أحد . مفاجآت مبتكرة، ومن لدن كلا الجنسين، الشباب والشابات، وفي مختلف المجالات .

هذه المفاجآت الابداعية تؤكد للجميع، بأنّ عهدا ثقافيا جديدا قد بدأ، عهدا سيعيد الوطن الى المواطن، وسيعيد الحضارة المدنية الى عصرها، والى شبابها المتسلح بالوطنية والعلم والمعرفة، والثقافة الجديدة .

فمن يدخل ساحات الاعتصام والتظاهر، يفاجأ بهذا الترتيب المبدع لخيم العلم والمعرفة والفكر والسياسة، والفن بمختلف صنوفه، يجد أنّ الق الثقافة وتنوعها يضيء خيمات المستقبل الوضاء، بكل ثقة ويقينية، وهي خيمات تذكرنا بخيمات أسواق الشعر والمعرفة في العصر الجاهلي، التي أنتجت لنا شعرا وخطابة وحكمة، وجدلا فكريا هيّأ لمفاجآت ثقافية جديدة في الأيام اللاحقة.

عباءة قضاة التاريخ.. وعبدالجبار ناجي

أ. د. جواد مطر الموسوي*

يُعدُّ الدكتور عبدالجبار ناجي من المؤرخين الألمعيين بعد الربع الأخير من القرن العشرين والربع الأول من القرن الحادي والعشرين، وكانت له مكانة خاصة بين المثقفين والباحثين في التاريخ الإسلامي لما له من إسهامات علمية جادة وآراء وبحوث جريئة تركت اثراً واضحاً في قُرّائه وطلابه، في بحوثه، وكتبه، وعززت هذه المكانة قابلية المؤرخ عبدالجبار ناجي على فهم الرواية التاريخية وتفسيرها تفسيراً علميّاً رائعاً وسليماً، صقل هذا الفهم منذ بداية حياته العلمية عِبرَ الإلمام بمناهج البحث والدراسة، فضلا عن امتلاكه عقليةً موهوبةً اكتسبها بالفطرةِ منذ الوهلة الأولى لدراسته العلميّة.

إنّ كتابات الدكتور عبد الجبار ناجي وبحوثه تُعدُّ مرجعاً مهماً للباحثين، لما تمتاز به من جودة عالية فهو يحاول قدر المستطاع الإحاطة الكاملة بالحدث التاريخي، مستغلا ميزة استرجاع المعلومات التي يمتلكها بشكل مثير عند الحاجة لها وبموضوعية وحِرفية عالية، هذا يعني أنّه يمتلك ذاكرة متوقدة دائماً (مدّ اَللّه في عمره) فضلًا عن رغبته الشديدة في تناول المجالات البحثية الوعرة التي يبتعد عنها الكثير من الباحثين؛ لامتلاكه قابلية الصبر والجلد في البحث العلمي.

ويكاد يُجمِع الأساتذة والدارسين والباحثين الذين التقيت بهم على مرِّ حياتي فيشيرون بالبنان الى منهجية الباحث عبد الجبار ناجي المتميزة في عرض المادة العلمية، إذ يمتلك القابلية على تنظيم محاور بحثه بشكل منظّم يشدُّ القارئ ويشوِّقهُ؛ لاختياره منهج ملائم يختلف من بحث إلى آخر، ويقوم ببناء الفقرة بإحكام وبإسلوب سليم ولغة من النوع (السهل الممتنع) وهوامش موحدة ومنضبطة منهجياً، وهذا يدلُّ على أنّ فكر عبد الجبار ناجي هو فكر منظّم، ولو درسنا كتاباته ومؤلفاته بكل تأكيد سوف نجد أنّ هناك مَنهَجيّة خاصة به.

أما عن طريقة إشراف الأستاذ الدكتور عبدالجبار ناجي، فقد ذكر لي كثيرٌ من

طلابه؛ ومنهم: الأستاذ الدكتور نصير عبد الحسين الكعبيّ (أستاذ التاريخ القديم في كلية الآداب– جامعة الكوفة) بتاريخ (16/ 1/ 2020م) عندما كنت اتولى رئاسة لجنة مناقشة طالبته: فاطمة عبد الحسين الدجيليّ، فأشار الى جدية عبد الجبار ناجي في الإشراف بحيث يقرأ كل شاردة وواردة، ويعلِّق كثيراً على المادة العلمية، ويطلب من الطالب الالتزام بملاحظاته، وان يأخذ بها كلها؛ لذلك نجد كثيراً من طلبة الدكتور عبدالجبار ناجي يشكلون حضوراً متميزاً في المجال التربوي والبحث العلمي التاريخي.

للدكتور عبد الجبار ناجي اسهاماتٌ كثيرةٌ في هذا المجال، وأذكر منها اشتراكه في كتاب (الدولة العربية في العصر العباسي 132 - 656هـ) الصادر من جامعة البصرة، واشترك معهُ الأستاذ الدكتور تحسين حميد مجيد (الأستاذ المتمرس الآن في جامعة ديالى) والدكتور عماد إسماعيل النعيميّ، والدكتور صلاح عبد الهادي، وقد درس هذا الكتاب في معظم الجامعات العراقية، وأتذكر درسته في جامعة القادسية بين سنة (1992 - 1993م) في كليتي الآداب والتربية، ووجدتهُ يدرس في كلية الآداب- جامعة بغداد (1994 - 2003م) وجامعة واسط- كلية التربية، عندما كُنت رئيسَ جامعتها (2007 - 2012 م).

وقد اشتركت معه في مناقشات علميّة لطلبة الماجستير والدكتوراه في معهد التاريخ العربي التابع لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد، وعملنا معاً في لجان في بيت الحكمة منها: لجنة تحديث التاريخ بعد سنة (2005م) ومنْ يعمل مع العلاّمة عبد الجبار ناجي يحِسُّ براحة؛ فهو جاد في عملهِ ومخلص ويحاول دائماً ان يتوصل الى نتائج ناجحة وصائبة، ولابد لنا أن نذكر دوره الكبير في خدمة التاريخ عندما كان رئيس قسم التاريخ في بيت الحكمة منذُ نهاية التسعينيات ، إذ استطاع أن يستقطب شخصياتٍ كثيرةً الى القسم، وعقد ندواتٍ وجلساتٍ ثقافيةً مهمةَ في التاريخ.

اعتقد أنّ عبد الجبار ناجي قد أنصف من جانب معاصريه من المؤرخين، فكانوا يكنون له كل الاحترام، ويعترفون بعلميته ومكانته، وكان استاذي المرحوم (الدكتور منذر عبد الكريم البكر) يشير دائماً الى علو كعب الدكتور عبد الجبار ناجي في مجال البحث التاريخي، وذكر لي المرحوم الدكتور ناجي حسن (ت 2019م) المهتم بتاريخ الحرة الزيدية: أنّ عبد الجبار ناجي له منهجية خاصة به، ويذكر في هذا المجال أنّ الدكتور ناجي حسن يُعدُّ من المؤرخين المهمين، فقد ترك بصمةً مهمةً في المدرسة التاريخية العراقية، والحال ينطبق على الدكتور عبدالجبار ناجي، ومنْ يقرأ للاثنين يجد تشابها واضحاً

في المنهج وفهماً للرواية التاريخية وتحليلها، وربما يعود السبب في ذلك إلى تخرجهما من مدرسة واحدة هي المدرسة الاستشراقية في أوروبا.

تمتاز شخصية الدكتور عبد الجبار ناجي انها شخصية رزنة هادئة، تفرض نفسها في كلِّ ميادين الثقافة والعلم ولا سيما في المناقشات العلميّة والندوات، فهو يطرح آراءً مهمةً ومكملةً للبحث العلمي والجديد معه دائماً،وكان في كثير من الأحيان يعيد قراءة النصوص التاريخية التي استعملها طالب البحث؛ ليقدم فَهِمَا جديداً من غير تحميل النص أكثر مما يتحمل، ويفككه بذكاء؛ للوصول إلى أدق التفاصيل ويستظهر منه حقائق مهمة، وهذا الفهم للمعلومة يدلل على أن عبدالجبار ناجي ذو ذهنيةٍ ثاقبةٍ في التعامل مع الرواية التاريخية، غايته دائماً التجذير لا التسطيح.

فضلاً عمّا ذكرناه عنهُ من ذكاء واضح في التعامل مع الرواية التاريخية وقدرته على تفكيكها والإحاطة بها ضمن الحيز الزمكاني، وتحليلها بنقدية عالية وبأمانة علمية وبتواضع من غير غرور، فهو يمتلك قوة ملاحظة عالية مستفيدا من مقدرته في الفهم الجغرافي للنّص التاريخيّ، متأثراً كثيراً في أساتذته من المستشرقين، فضلاً عن إتقانه اللغة الانكليزيَّة اتقانا جيداً، ومن اهم كتبه عن الامارات والمدن واعلامها: كتاب الأمارة المزيدية في الحلة (البصرة: 1970م)، ومن مشاهير أعلام (البصرة: 1986م) ودراسات في تأريخ المدينة العربية الإسلامية (البصرة: 1986م) ومن تأريخ البصرة السياسي (البصرة: 1990م) ومقاومة المدن العربية للغزاة (بغداد: وزارة الثقافة والأعلام،1980م) وإسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية (بغداد: 1990م) والعمق التاريخي لجزر الساحل الشرقي من الخليج العربي (بغداد: جامعة بغداد، 1990م) ومن تاريخ الحركة الفكرية في البصرة (1990م) وعلماء العراق بين القرنين السابع والحادي عشر الهجريين (بغداد: بيت الحكمة، 1998م) وغيرها.

ولم يُسجل على كتب الدكتور عبد الجبار أي مأخذ علميّ أو منهجيّ، وربما يُسجل عليهِ من غير المؤرخين العرب، اهتمامه بالتاريخ العربي، ومحاولتهِ إبراز العرب بوصفهم شعباً سجل تاريخا باهراً وحضارةً اثرت في الغرب؛ لذلك نجد؛ مثلا: يوسم كتابهِ المشترك عن العصر العباسي بـ (الدولة العربية) المنشور سنة (1989م) على الرغم من أنّها دولة إسلامية اكثر مما هي دولة عربية، فقد اشتركت فيها أقوام كثيرة من غير العرب، وأعتقد انهُ تأثر او فرض عليهِ وعلى معاصريه اتباع المنهج القومي بشروطه الحزب الحاكم في

كتابة التاريخ ،الذي لا بد للكل آنذاك من اتباعه، فكانت هناك لجنه تُسمّى لجنة (السلامة الفكرية) التي تمرّ عليها الكتب والبحوث والرسائل و الأطاريح قبل النشر، بل وصلَ الأمر بهذهِ اللجنة إلى تفتيش المكتبات وإبعاد الكتب التي لا تتبع المنهج القومي.

ذكرنا سابقاً أنّ شخصية الدكتور عبد الجبار ناجي شخصية هادئة، مكنته من التأقلم مع المواقف المتنوعة بسلاسة، ففي كثير من الأحيان يتجاهل بعض المواقف من غير التوقف عندها، وهذا تطلب منهُ الصبر أو يتعامل معها بدبلوماسية عالية؛ لذلك انا لم أرَ يوماً أنّ دكتور عبدالجبار في حالة غضب أو حزن، فكان يخفي هذهِ الأشياء في داخلهِ؛ لذلك بقيت شخصيتهُ ثابتة وواضحة في نظر كل من زاملهُ، أو عاصرهُ وتتلمذ على يديه.

ولعلّ من أهم الدراسات والبحوث التي قدّمها الدكتور عبدالجبار ناجي، هو اهتمامه بـ (الاستشراق)، ويرجع ذلك الى: اتقانهُ اللغة الإنكليزية ودراستهُ على أيدي المستشرقين؛ فكان أستاذه المشرف المستشرق المشهور برناد لويس Bernard Lewis (ولد في 31 مايس 1916م - وتوفي في 19 مايس 2018م) الذي لعب دورا كبيرا في تشكيل نظرة الغرب إلى الإسلام والشرق الأوسط، كل هذا مكن عبدالجبار ناجي من المعرفة العميقة بالأوساط الاستشراقية، فضلا عن تراكم الخبرة في البحث في التاريخ الاسلامي ومراجعاتهِ للمراجع الاستشراقية؛ لذلك تُعدّ كتاباتهِ رصداً لحركة الاستشراق وانعطافاتهِ، وأثرها واضحا في المتلقي العربي والإسلامي...؛ منها كتابه: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي؛ نشر في سلسلة (الموسوعة الصغيرة) رقم (85) (بغداد: دار الجاحظ،1980م) تضمن الكتاب عرض للباحثين العرب والأجانب الذين درسوا الاستشراق ثم تناول التاريخ العربي الاسلامي والمجالات التي ركز عليها الاستشراق والمراحل التاريخية التي مر بها الاستشراق وتطور الدراسات الاستشراقية والرسول الكريم (ص) وكتاب التشيّع والإستشراق وهو عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن عقيدة الشيعة وأئمتها (بغداد: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2011م) والإمام علي (ع) واشكالية جمع القران ودراسات المستشرقين (بيروت: دار الرافدين، 2015م) وجمع القرآن بين إشكالية النص ورؤية الإستشراق (بيروت: دار الرافدين، 2017م) يتناول مسألة جمع القرآن الكريم في دراسات المستشرقين والإشكاليات التي أثارها هؤلاء المستشرقون استناداً إلى الروايات الواردة في الصحاح والسنن: وتهمة تحريفهم للقرآن ورأي العلماء المسلمين في

الرد على هذه الفرية، وكتاب معارف المستشرقين عن ثورة الإمام الحسين (ع) (1917م) وهو جرد ودراسة لكتابات المستشرقين عن ثورة الطف، وكتاب الاستشراق في التاريخ: الإشكاليات- الدوافع- التوجهات- الاهتمامات (بغداد: المركز الاكاديمي للأبحاث، 1917م) وهو رؤية عربية تعاطت مع الجهد الاستشراقي بمحاوره الايجابية والسلبية والسياقات التاريخية والمؤثرات والظروف السياسية والثقافية وتغيرات العلاقة بين الشرق والغرب، فالأنموذج السلبي او المحافظ في تعاطيه مع المنجز الاستشراقي الذي تمركز حول ذاته وعده نوعاً من التداخل غير المرغوب فيه كان واقعاً لا شعورياً تحت وطأة الآثار الجانبية لانبعاثات ما بعد الحرب العالمية وانبثاق الحركة القومية العربية باتجاهاتها العديدة وما فعلته الجدالات السياسية والأفكار في هذا الميدان الذي عدته بتوصيفاتها جبهة من جبهات التمترس والاستنفار ضد الخصوم وما يرمون فعله وتحقيقه على المستوى الثقافي والفكري، لذا يُعدُّ عبدالجبار ناجي من الرواد المهتمين بالدراسات الاستشراقية.

تعرفتُ إلى الدكتور عبد الجبار ناجي، قبل أن أعرفهُ ،فكنتُ اطلع على كتاباتهِ ونتاجهِ العلمي قبل قبولي في جامعة البصرة- كلية التربية، اذ كان في حينها تدريسياً في كلية الآداب بدرجة أستاذ مساعد، وكان الدكتور منذر البكر يذكرهُ دائماً ويذكر كتاباته، وكذلك الدكتور تحسين حميد مجيد، واتذكر في منتصف الثمانينيات حضرت لهُ مناقشة رسالة ماجستير في قاعة (القبة الفلكية في مجمع الجامعة في ساحة سعد) وفي سنه (1985م) وفي حفلة التخرج كان الدكتور عبدالجبار ناجي يسير في المقدمة وخلفهُ الدكتور منذر البكر، فقد حصل على درجة (الاستاذية) وازدادت العلاقة عندما كان في الهيئة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، وتوثقت أكثر عندما تولى رئاسة قسم التاريخ في بيت الحكمة (1999م) وكنتُ على تواصل معهُ.

ولد عبد الجبار ناجي رحيم الياسري سنة (1938م) في محافظة البصرة، وحصل على شهادة الماجستير من جامعة بغداد سنة (1964م) وبعد إكمال دراسته عين في جامعة البصرة الفتية آنذاك سنة (1965م) فيعد من المساهمين في تأسيسها، ارسل الى جامعة لندن فحصل على شهادة الدكتوراه من معهد الدراسات الاستشراقية سنة (1970م) وأصبح رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب سنة (1976م) واستمر برئاسة القسم حتى سنة (1980م) خلاله حصل على سنة تفرغ علمي الى أمريكا سنة (1977م) تولى رئاسة قسم الدراسات الاجتماعية في مركز دراسات الخليج

العربي سنة (1989م)، بعدها انتقل الى بغداد وفي سنة (1992م) تولى رئاسة قسم التاريخ في كلية التربية بنات ثم تدريسي في كلية التربية ابن رشد، ونائب الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد، ليستقر به المطاف رئيساً لقسم الدراسات التاريخية- بيت الحكمة سنة (1999م).

ومن مؤلفاته المتنوعة؛ أثر الحضارة العربية الإسلامية في الفكر العربي (بغداد: بيت الحكمة، 1997م) وبيت الحكمة .. الماضي والحاضر (بغداد: بيت الحكمة، 1997م) وتبويب الجانب التاريخي والحضاري لمقدمة ابن خلدون (بغداد: بيت الحكمة، 2000م) وتبويب الجانب التاريخي والحضاري لجمهرة خطب العرب (بغداد: بيت الحكمة، 2000م) والأخبار التاريخية في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدنبوري (بغداد: بيت الحكمة، 2000م) ومعاذ بن جبل الصحابي المجاهد (بغداد: 2001م) . والإدارة المدنية في العصر العباسي الأخير (كتاب مترجم) (بغداد: 2002م) وفلسفة التاريخ والنهاية الحتمية للحضارة والدولة (بيروت: 2008م) ، وتربو كتبه عن أربعين كتاباً.

أخيراً... أطال الله في عمر العلاّمة عبدالجبار ناجي الياسريّ، فهو بحق قامة سامقة بين المؤرخين العراقيين والعرب، وهو من الجيل الثاني بعد الرواد من أمثال: الدكتور جواد عليّ (ت:1987م) والدكتور صالح أحمد العليّ (ت: 2002م) والدكتور عبدالعزيز الدوريّ (ت: 2010م).... بقي عبدالجبار ناجي يرتدي عباءة قضاة التاريخ ناصعة البيضاء وهو يقف خارج الحدث بمسافة زمنية واحدة تقيه من مغبة التحيز إلى أيٍّ من أطراف الحدث التاريخي، لا يسعده ولا يغمه ما جرى من حوادث الماضي، وعلى الرغم من الهدوء الذي يتحلى به، لكن يسعده؛ الشك فيما يقرأ ويسمع، فلا يصدق كل رواية ولا يأخذ بكل نص، لذلك بنى له ذهنية خاصة به بخلاف كثيرين من المؤرخين. اطال الله في عمره وشافاه من أمراضه.

*** أكاديمي ودبلوماسي ورئيس اللجنة العلمية في المجمع العلمي العراقي – بغداد**

المُعَلَّمُ!

يوسف أبو الفوز

القاص والروائي والاعلامي يوسف أبو الفوز، من مواليد السماوة 1956، اضطر لمغادرة وطنه لأسباب سياسية عام 1979 الى الكويت واليمن الديمقراطية، وعاد الى الوطن والتحق بقوات الانصار الشيوعيين عام 1982 في كوردستان العراق، وبقي هناك حتى احداث الانفال صيف عام 1988، حيث بدأت رحلته مع التشرد والمنفى، فاعتقل في بلد عربي من دون تهمة وقضى عاما في السجون الاستونية لعدم امتلاكه جواز سفر رسمياً، ثم استقر في فنلندا، منذ مطلع 1995. خلال مسيرته الادبية اصدر العديد من الكتب القصصية والروائية والادبية، ومتواصل في نشاطه الاعلامي والادبي، له قيد النشر مجموعة من الإصدارات الادبية تنتظر النشر.

وفي عام 2000، في هلسنكي، صدرت مجموعته القصصية "طائر الدهشة"، مترجمة الى اللغة الفنلندية من قبل الباحث والاستاذ في جامعة هلسنكي الدكتور ماركو يونتونين ، كما أنه كتب واخرج للتلفزيون الفنلندي افلاما وثائقية عن العراق، اختير فيلمه " عند بقايا الذاكرة " 2006 لتمثيل فنلندا في مهرجان سينمائي في سويسرا. نال عام 2015 جائزة الابداع الفنلندية التي تمنحها المنظمة العريقة للكتاب والفنانين الفنلندية المعروفة باسم "كيلا"..

القصة المنشورة من مخطوط " بعيداُ عن البنادق " معد للنشر، يحاول فيه الكاتب تسليط الضوء على حياة الانصار ما بعد نهاية حركة الكفاح المسلح، ورصد آمالهم وذكرياتهم وخيباتهم وطموحاتهم!

كل شيء كان مدهشا. الفرقة الراقصة التي قدمت رقصاتها بحيوية ومرح وجمال، شدت اليها الانظار، وطغى الاعجاب برقصاتها على كل شيء آخر. ازدحمت القاعة بالكثير من الانصار القدامى واصدقائهم الذين يحملون تقديرا لنضالات الانصار وتضحياتهم. كانت الوجوه مفعمة بالسرور، والانصار يجلسون مزهوين كونهم الضيوف النجوم في الاحتفال والذين سيتم تكريم المبدعين والفنانين منهم. عريف الحفل، رغم قصر قامته، يشعر بنفسه أطول من الاعمدة التي ترفع سقف القاعة، التي ازدهت بالأعلام والشعارات والبالونات

الملونة، مزهوا لنجاحه مع المجموعة المنظمة للحفل، في ضمان مشاركة الفرقة الراقصة. بعض الهمس قال ان المجموعة المنظمة للاحتفال ضمنت ذلك بمكالمة هاتفية قصيرة للمسؤولين المعنين من قبل "الدكتور"، الذي ما أن وصل قاعة المهرجان تحيط به حمايته الخاصة، وثمة من يركض أمامه مؤشرا بيده ان " افسحوا الطريق"، حتى ركض اليه البعض، يدلونه الى مكان جلوسه في الصف الامامي، ليس بعيدا عن قيادات حزبية وسياسية، الذين حضر بعضهم مبكرا واختلطوا مع الضيوف متبادلين معهم احاديثا ودية سادتها ضحكات مرحة، بينما جلس البعض الاخر منهم صامتا بشكل حيادي. لاحظ سالم من مكانه كيف ان البعض من القادة الحزبيين تعكر وجهه من رؤية "الدكتور"، وكيف نهض البعض وصافحه بحرارة، بينما رد البعض التحية مجاملة وهو جالس في مكانه. واذ تفحص سالم وجوه الحاضرين من حوله، عرف الكثير من اصحابه، قادمون من مختلف مدن البلاد، وبعضهم قادم من دول اوربية بعيدة، لكنه انتبه الى غياب معلمه. أيعقل ألا يحضر في مثل هذا اليوم، وهو الذي ظل يسأل عن موعد الاحتفال طوال الاسابيع الماضية؟ ما ان حلت الاستراحة حتى ترك سالم مقعده ووقف جانبا يتفحص القاعة بهدوء. لاحظ اخت الشهيد التي احتضنته قبل عام، في مهرجان سابق، بحرارة وشهقت على صدره حين علمت بانه ساهم بدفن اخيها في أحد أودية كردستان. بعض أصحابه الانصار، وقد التقوا بعد فراق لفترات معينة، ربما شهورا وقد تكون سنينا طويلة، غرقوا، حتى خلال فقرات الحفل، في احاديث عميقة هامسة تقطعها ضحكات مكتومة، يمسحون الدمع بأطراف اصابعهم عن عيون اتعبتها ليالي السهر في الجبل، وخمن بأن الكثير منهم لم يسمعوا كلمة من قصيدة الشاعر، الذي ابتل قميصه المزركش بالعرق في حر تموز اللاهب، وبحت حنجرته وهو يشيد بحماس بنضالات شهداء العراق وشهداء الانصار، الذين نسي منظمو الاحتفال، ان يضعوا ولو صورا لبعضهم ضمن معرض صور الطبيعة التي استأجروها من معرض للوحات والصور القديمة، بعد ان تعالت الاصوات محتجة بضرورة ان يضم الاحتفال معرضا للوحات، فأنتبه منظمو الاحتفال الا انهم نسوا انه كان بين المقاتلين الانصار العشرات من الرسامين البارعين وسيتم تكريم بعضهم هذا اليوم. واخيرا تنبه سالم، وعثر على المعلم جالسا في اخر القاعة، بملابسه المتواضعة وقبعته القماشية، التي صار يرتديها في الفترة الاخيرة كمحاولة لاخفاء صلعه النامي. كان يبدو مثل عامل وصل المكان من موقع العمل مباشرة. كان الجالس بجانبه يهمس له بشيء ما، وهو يبتسم له بهدوئه المعتاد. ذات الابتسامة التي ما فارقت محياه منذ تعارفا في تلك الزنزانة العفنة. في تلك الليلة البعيدة، حين جرجره الفاشست من سرير نومه، واذاقوه العذاب وحين عجزوا عن معرفة ولو اسم واحد من رفاقه، رموه كخرقة بالية على ارضية الزنزانة. أحس بيد حانية، تمسد له جروحه وتمسح دمه

المتخثر، وصوت تحمل نبراته كل حنو العالم يهمس له بكلام لا يفهم منه شيئا. تحدث الصوت معه كثيرا تلك الليلة وظل ساهرا معه، فلقد منعته جراحه من النوم، ومن كل كلامه بقي يتذكر تلك الجملة التي سحرته كثيرا:

ـ بسيطة ... بسيطة.. غدا كل شيء يكون أحسن!

بعد يومين، حين افاق قليلا، ميز جيدا الوجه الفتي الذي لم يتركه لحظة واحدة. بإبتسامة حية، وبعينين متعبتين، تحملان كل حزن العالم وحكمته:

ـ بسيطة ... بسيطة.. غدا كل شيء يكون أحسن!

سأله بحياد:

ـ هل انت معلم؟

ضحك الرجل حتى بانت جذور أسنانه:

ـ هل طريقة كلامي توحي لك بذلك، اتصدق أني بالكاد تعلمت القراءة والكتابة!

ومن يومها قرر ان يسميه "المعلم". فعلى يديه تعلم كيف يمكن ترجمة المحبة الى أفعال:

ـ لا يكفي القول لمن تحب أنك تحبه، عليك ان تجعله يتلمس ذلك!

ـ والكراهية يا معلمي؟

ـ هذه لابد ان نعرفها، لكن يجب ان لا نمارسها!

ـ لكن الذي وشى بك وسلمك للضباع، كيف يمكن ان لا تكرهه؟

ـ سيكره نفسه، حتى لو صار ...!

ـ ماذا؟

ـ الذي وشى بي، يطمح لان يحصل على شهادة الدكتوراه يوما!

ـ وماذا تظن؟

ـ سيحصل عليها، وسيناديه الناس "يا دكتور"، وسيكون له شأن ما، وبدلاً سن الذهب سيكون له إثنان، ولكن ...

ـ ماذا؟

ـ سيكره نفسه قبل ان نكرهه أنا واياك. وغداً حين ننشغل بالمحبة والاحباب وعذوبة حياتنا الجديدة، سوف لن يكون لنا وقت كاف لنكره هذا "الدكتور" وأمثاله!

لم يكن المعلم يحب الكلام الكثير، لذا تعب منه جلاديه. بعد جولات الاستجواب والتعذيب، كان يمسح لهم جراحهم بأبتسامته التي كانت تدفع بجدران الزنزانة ليروا خلفها جمال الايام القادمة:

ـ ترك لي ابي قطعة ارض صغيرة، صحيح انها أصغر من حصة أخي الأكبر، لكنها تناسب امكانياتي جيدا. سأبني لي فيها غرفة صغيرة واجد بنت الحلال التي تشاركني خبزتي، وسازرع الارض بكل ما ينفع الناس. يمكنك ان تزورني الى هناك. سأعطيك العنوان!

حين وجدا نفسيهما خارج السجن بعفو رئاسي مفاجئ، تسللا معا الى كردستان. كان للمعلم خبرة بارعة في معرفة الناس والدروب. في الجبل عاشا لفترة على مقربة من بعضهما البعض. تلقيا تدريبا على عمل الانصار، كان القائد الانصاري العجوز وهو يذرع الارض امامهم، ذهابا وايابا، يحرك اصبعه في الهواء :

ـ عيوني ... تذكروا دائما، ان الجنود هم أخوتنا، والنظام هو عدونا!

اشتركا معا في عمليات انصارية مختلفة، واذ لاحظ المعلم يوما ارتباكه وتردده خلال عملية عسكرية، همس له وهو يحيط كتفه بذراعه:

ـ لا تخاف يا صاحبي من الرصاصة التي تسمع صوتها، فالتي ستقتلك لن تمنحك الفرصة لذلك!

وفي يوم صحو مريع، حين انهمرت القذائف عليهم بشكل مباغت، من طيران العدو، الذي صب حمم غضب النظام الفاشي على المواقع المحتملة للأنصار، أصيب المعلم بساقه، وقرر طبيب الانصار بترها من تحت الركبة. كانت ليلة عصيبة. استخدم الطبيب منشار قطع الخشب وبمخدر موضعي قطعوا العظم. لم تنم القاعدة الانصارية ليلها. كانوا يسمعون زئير المعلم والطبيب يمارس مهمته الشاقة. في اليوم التالي قال الطبيب للأنصار:

ـ هذا ليس رجلا، قلبه من صخر!

ترك القاعدة ليلتها، لم يحتمل سماع الزئير، صعد الى ربيئة المراقبة والاسناد، ربيئة الدوشكا ، اعلى الجبل ، بعد يومين زار المعلم ودفن وجهه في صدره وشهق. وهما يحتضنان بعضهما، قال له :

ـ انا اسف يا معلم!

وحرك عينيه اشارة الى ساقه. لم يستطع أن يقول الكلمة. أبتسم المعلم:

ـ بسيطة ... ماذا كان سيحدث لو أن الشظية اختارت رأسي، ها انت تراني حيا، وبإمكاننا غدا ان نفعل كل شيء، سيكون لي ابناء بسيقان صحيحة، وستكون الارض عامرة بكل ما يسرك، فقط عليك ان تزورنا!

انتهى الحفل، وتدافع الحضور للخروج. حاول سالم ومعه المعلم الانتظار حتى يخف الازدحام. كان سالم يراقب بألم كيف حمل المعلم نفسه مكابرا على ساقه الاصطناعي مستندا الى عكاز خشبي قصير. كان المعلم يسير الى جانبه يحاول اقناعه بزيارتهم الى مدينتهم الصغيرة ليعرفه على من تبقى من أهله وزوجته، حين جرى كل شيء بسرعة، اذ خرج عليهم فجأة جماعة من ممر جانبي يؤدي الى غرفة دورة المياه، وصاح أحدهم بعدائية:

ـ افسحوا الطريق!

واندفع مجموعة من الشباب المتنمرين يبعدون الناس جانبا، مع انه لا يوجد من يسد ممر الخروج الواسع. مد أحد افراد الحماية يده القوية جانبا وازاح سالم الى الخلف. لم يلحق ليقول شيئا. فثمة من قفز يدفع الاخرين ببندقيته ليفتح ممرا أكبر بين بقية الناس:

ـ افسحوا الطريق للدكتور!

مال احد الضيوف الخارجين متحاشيا عقب البنادق المشرعة، ومن دون ان يقصد دفع المعلم، فانزلقت عكازه على الكاشي الاملس. حاول المعلم ان يستند لشخص قريب، لكنه لم يلحق فتكوم على الارض مطلقا آهة حاول ان يكتمها وغطى وجهه حتى لا يرى الاخرين ألمه. اندفع سالم واخرين أليه وهم يشتمون لا على التعيين. وقف الدكتور جانبا وصاح بأحد افراد حمايته:

ـ أعمى، أغبر، ما شفت هذا المسكين!

وألتفت الى سالم وسأله:

ـ أخي، هل كل شيء تمام؟

ثم سأل بسرعة :

ـ من هذا ؟

نظر سالم الى الدكتور ملياً، حدق جيدا الى لمعان سن الذهب في فكه الاعلى، قال له وشيء يخدش له قلبه:

ـ بسيطة دكتور ... هذا نصير شيوعي!

الغرباء

حنون مجيد

المشهد الأول

(بيت في حارة؛ البيوت فيها متشابهة تقريباً وذات شناشيل.. الزقاق المؤدي للبيت زقاق عادي، ليس بالضيق وليس بالواسع، بل يميل إلى الضيق وأشبه ما يكون بأزقة بغداد القديمة. وهو نظيف، تعبيده قديم ولكن لم يتآكل منه شيء كثير. تميل نساؤه إلى الجلوس أمام بيوتهن ساعة العصر. عندما يحلّ المساء، وهنا تكون النساء قد دخلن بيوتهنّ، يتقاطر الرجال عائدين إلى بيوتهم؛ كلّ يطرق باب بيته فيُفتح له ويدخل.

في الليل يغدو الزقاق مقفراً وموحشاً لحظة بعد أخرى، إلاّ من أضواء كابية متفرقة. في هذه الأثناء ينفرد رجل في العودة إلى داره متأخراً بعض الشيء.. يقطع طريقه وئيداً تلقي عليه الأضواء الشاحبة ظلالاً من التفرد والعتمة، ولخطاه وقع خاص له طابع التردد والخوف، إذ يسمع من خلف الأبواب ضجيجاً مبهماً فيخفّ إلى بيته هذه المرة برغم ما يحمل بين يديه من أكياس مكتظة بالفاكهة والخضار.

يقترب من بيته.. يضع كيساً على الأرض ويطرق الباب المغلق طرقة أو طرقتين، ليعود يحمل كيسه من جديد منتظراً من يفتح له الباب.

يفتح

الباب طفل في نحو السابعة من العمر شاحب الوجه يتردد في مساعدة الرجل على حمل أكياسه. يتقدمه إلى داخل البيت عبر مجاز واسع منير. لم يلتفت الرجل للأمر إذ حسبه غفلة من الصغير وخالياً من أي قصد.

يفاجأ الرجل بوجود رجل غريب جالساً وسط العائلة، متربعاً في مجلسه، متخذاً كامل راحته في حركاته وسكناته.)

الرجل: (وقد أخذته المفاجأة واحتمالات شتى) السلام عليكم!

الغريب: (بدهش وبرود معاً) وعليكم السلام. تفضل. (يقول عبارته الأخيرة بصيغة الاستفهام، ويلقي نظرة متعالية على ما يحمل الرجل من أكياس ظلت ملازمة يديه الإثنتين.)

الرجل: شكراً ولكن هذا بيتي. فمن أنت إن لم تكن قريباً لزوجتي، أو قريباً لي لم أكن تشرفت بمعرفته من قبل؟

الغريب: (باستنكار مع بسمة استخفاف) بيتك! ما هذا الذي تقول؟

الرجل: (مذهولاً بالمفاجأة لتسقط الأكياس

من بين يديه وتتناثر محتوياتها على الأرض) نعم بيتي، ولكن ما الأمر (يلتفت حيث زوجته التي أخرستها نظرة الغريب الحادة والمتوعدة).

الزوجة: (تواصل الصمت وتحاذر أن تجيب، وتبدو محبوسة الأنفاس، لكنها تتشاغل بحمل الصحون التي فرغت تواً مما كان فيها من طعام، ثم ما تلبث أن تغيب في المطبخ، حيث يرتفع صوت الغسيل هناك)

الرجل: (يتابع زوجته بصوت عال) تكلمي يا امرأة.. قولي من هذا الذي يتربع على مجلسي، ويلبس ملابسي، ويأكل من طعامي، ويدّعي ملكية بيتي؟

الغريب : (يتناول الكلام) هذه المرأة زوجتي، والأولاد أولادي، والطعام طعامي، والبيت بيتي، وما أحسبك إلاّ ضالاً طريقك يا صديقي!

الرجل: غريب وغير معقول، بل أغرب من الخيال.

الغريب: ما الغريب وغير المعقول، أذلك حين يكون الرجل في بيته مثلاً؟

الرجل: لا أحسبني جننت، ولا أحسب أنني تهت، ولا أحسب البيت غير بيتي، ثم أهذا الثوب الضيق الذي تلبسه هو ثوبك؟ لا أظنك إلاّ جربت ثيابي كلها ولم تجد غير هذا يناسب ثخانة جسدك. أواه..أكاد أفعل شيئاً عظيماً.. ولكن...

الغريب: ولكن ماذا؟ ألم تفكر بما جنيتَ حينما دخلت بيتاً غير بيتك، وعكرت مزاج ناس غير ناسك. ثم ألا يؤلمك ذلك، وأنت تتكلم بكل صوتك؟ وأخيراً، أو وأولاً والله لا أدري، تدعي مِلكيّة بيتي، وزوجتي وأولادي!

الرجل: (ولما يزل واقفاً قريباً من التهاوي والانهيار) يا هذا الغريب الغريب، البيت بيتي، والمرأة التي فيه زوجتي، وأولئك الأولاد أولادي.(يرفع صوته وينادي) أنت يا زوجتي، وأنتم يا أولادي قولوا شيئاً ولا تخافوا، قولوا له من أنا ومن أنتم ، ثم من هو هذا الدعي الأفاك في آخر الأمر.

الغريب: كلا لقد بالغت في الأمر، ولا أريد أن اقول أن صبري بدأ ينفد،، وإنني لا أعرف ماذا سأفعل من بعد. ألا تدري أنك حولت حياتنا إلى جحيم؟

الرجل: لقد تحولتْ. لقد حولتَها أيها المتطاول الغريب. ثم أبعد هذا من شيء آخر لتتحول حياة آمنة إلى جحيم؟ إنما الجحيم هو إنني لا أدري منذ متى وأنت تدخل بيتي، وتأكل من طعامي، وتلبس ملابسي، ولربما تنام مع....(يتأفف ويلفت نظره نحو زوجته المتوارية) أستغفر الله. إن هذا لا يحدث ولن أظنه يحدث.

الغريب: حقاً إنه لشيء محير.. فما بين أن أمارس صلاحيتي الشخصية، لبيان قدرتي على الدفاع عن نفسي وبيتي، وبين أن أصدع لمعروف جبلت عليه، أجدني في حالة لا أحسد عليها، قد أفقد جراءها عقلي.

الرجل: (ينظر إلى هيئة الغريب الجسمانية المفتولة، يحيط بها حزام أسود تعلق به مسدس كبير الحجم بغلاف أحمر.) أترى الذي سلطك عليّ لتتملك بيتي وأهلي، هذا المعلّق بحزامك أم هناك من شيء آخر

غيره؟
الغريب: أووه .. أنت مشاغب، أنت رجل مثير للشغب.
الرجل: من يدافع عن بيته وأهله رجل مشاغب؟ ثم مع من؟ مع هذا الذي أمسى بين ليلة وضحاها، صاحب الحق الشرعي لبيت غير بيته وناس غير ناسه؟
الغريب: وهل حقاً تراني كذلك؟ أنا حتى الآن لم أصدقك. (يضحك عالياً ويصفق بيديه. يحضر أحد الأطفال.) هات كأس ماء للرجل فقد جفت حنجرته وخشن صوته. (يرفض الرجل تناول الكأس من يد الصغير، الذي يلوذ سريعاً ويختفي وقد أربك اللقاء بالرجل خطواته.) حسن إنّ عليك أن تعلم أن أشق ما على الإنسان، هو أن يأتيه من يدّعي مِلكيّة بيته.
نعم هناك فوضى تعمّ عالمنا اليوم، ولكن ليس إلى هذا الحد الذي تمارسه الآن معي. فما زلنا نحتكم إلى عرف وعدل وقانون ، أم ترانا لا نعرف هذا اليوم ونحن الذين شرّعنا كل ذلك للناس! إنني لأغبطك على سعة الخيال هذا، لتعكر ليلي وتحرمني من المتعة في خلوة مع زوجتي وأولادي.
الرجل: (يلتفت إلى المرأة التي حضرت بأولادها على نداء من الغريب ليراهم يرتجفون، وقد عقدت السطوة القاهرة ألسنتهم، وأشاعت الرعب في قلوبهم.) آه.. زوجتك وأولادك. ألديك عقد بذلك؟ وثيقة من نوع ما، أم بفعل لسان مشفوع بقوة ما؟ لا أشك في أن هناك كثير من الوسائل التي تخول الإنسان أن يكون ما يكون، أو أن يكون على غير ما يكون، ولكن أن يحدث هذا معي؛ أنا ربّ هذه الأسرة الأمين فهذا باطل تمام البطلان.
الغريب: إن ما يستفز صبري أن أجدك مصراً هذا الإصرار، ولا أدري ما الذي سيكون عليه موقفك لو كان البيت بيتك والزوجة زوجتك والأولاد أولادك.
الرجل: ها أنت تستفزني وتثير نخوتي على شرفي (يلتفت إلى زوجته وأولاده) أيتها الزوجة الوفية، أيها الأولاد النجباء، لا تذروا هذا الوغد يخرس ألسنتكم ويشلّ عقولكم، أنتم أولى بقول الكلمة الفصل. تكلموا. قولوا الحقيقة. لا تخافوا. (يُسَلّط ضوء ساطع على وجوه الزوجة والأطفال، يكشف رعبهم واضطراب انفعالاتهم وتموج ألوانهم.) إنني على يقين من الكيفية التي دخل بها عليكم واستأثر بمقدراتكم، وإنه لحظ سيء أشد السوء أن نكون ضحية هذا الغدر وهذا الاحتيال. ولست دارياً إن كنت وحدي في هذا، أم هناك غيري وقع عليه مثل هذا القدر الغشوم.
الغريب: (يرفع يده فوق رؤوس الجميع منعاً لمن يريد الكلام) أتعرف أنت من تخاطب بزوجتك وأولادك، ثم أتدرك مقدار بطلان دعواك التي يقف لها شعر الرأس؟ (يلتفت إلى المرأة) هات لنا، هات لنا..، لقد أنسانا هذا موعد تناولنا الفاكهة والحلوى. (يشير بأصبع ثخين إلى أحد الأولاد) ارفع عن الأرض هذه الفاكهة التالفة.. أعدها إلى أكياسها ريثما يستعيدها الرجل وينصرف، أوارمها حيث ينبغي أن ترمى. (يتبادل الأولاد والمرأة بينهم من

جهة، وبينهم والرجل من جهة أخرى، نظراً كسيراً ويجتمعون على لمّ الفاكهة المبعثرة هنا وهناك؛ يعيدونها إلى أكياسها ويضعونها على منضدة جانبية.)

الرجل: (يراقب المرأة والأولاد يزحفون على الأرض؛ يجمعون الفاكهة أو يلاحقونها تحت المناضد والكراسي، فيستبد به غضب عظيم) لن يكون ذلك، ولن يكون لك أن تنام الليلة مرتاح الجسد والنفس، (يرفع صوته، ويلوّح بيده) والله لأعكرنّ الليلة ليلك كما عكرتَ نفسي ويقيني.

الغريب:لا ترفع صوتك قبل أن أقول؛ أغرب عن وجهي، ولكن يا لصبري إنه لطويل الليلة، ولقد تماديت فيه معك، حتى لأفكر بدعوتك إلى أن تشاركنا تناول ما قسم الله لنا، قبل أن تحمل أكياسك وتنصرف.(يضحك قليلاً) أعدوا لنا المائدة رجاءً.

الرجل: (يراقب انصياع زوجته لتلبية طلب الغريب على مضض، فتعود بأطباق من الفاكهة والحلوى؛ توزعها حيث تناثرت مناضد صغيرة وكبيرة، ثم يسمع الغريب يدعوه.)

الغريب: هيا.. هلمّوا. الفاكهة من مديمات صحة الإنسان ومجددات شبابه. (بكرم كاذب ممزوج بسخرية مبطنة، يدعو الرجل) هيا معنا.. شاركنا متعتنا.. لا بأس من هذا لا بأس. ولا تفكر بالسكين إن كانت أسنانك صالحة. إنني أحبذ أكل الفاكهة مباشرة، كما كان يفعل آبائي وأجدادي الأقربون والأبعدون، حيث لم تكن السكين إلاّ لقتل الوحوش أو ذبح البهائم والطيور. وها أنت ترى أسناني صقيلة وصالحة حتى لقطع الحديد.

الرجل: ولعلها أنياب ذئب.. من يدري؟ ولا أدري إن لم يكن في طبقك الذي أتيت عليه قبل ساعة أو ساعات، لحم نيىء فها أنني أشم رائحة لحمٍ من هذا القبيل تكتنف فضاء البيت.

الغريب: (يقهقه خفيضاً ثم يقطع ذلك فجأة، كمن ينتبه سريعاً على ما يسمع أو يرى) أوه يا هذا إنك تقزز نفسي. إنه لحم طازج مطبوخ بطريقة تغري الكبير والصغير. نحن نعرف كيف نأكل وما نأكل ومتى... (يقاطعه الرجل.)

الرجل: ومَنْ تأكلون كذلك، أليس كذلك؟

الغريب: مسألة فيها نظر، هذا إذا أحببت المناكدة، أو المغاضبة مثلاً.

الرجل: ومن هو أجدر مني الآن في ذلك؟ صاحب البيت يدخل بيته، فيجد دخيلاً استباح جميع ما فيه ومن فيه، ثم يدّعي ملكيته.. يدعوه غريباً متطفلاً على وجوده، ثم يتعطّف عليه بدعوته إلى طعام هو من مطبخه ومن زاده، وليس له يد فيه. أثمة أكثر من هذا دعوةً للمناكدة ولا سيما البريئة والمهذبة التي تمارسها معي الآن بذوقك السامي الرفيع؟ إنّ ''عيوني'' تنزّ دماً!

الغريب: لا يا رجل لا.. لن أسمح لك بقول ذلك. بيوت الناس هي بيوت الناس. وبيوتنا هي بيوتنا. عندئذ نكون أحرص على حمايتها بكل ما نملك من رخيص ونفيس. هذه قاعدة تتحكم حتى بسلوك

الحيوان، وهو ما يعرف هناك بنظام المنطقة أو المقاطعة، إن شئت أن تعرف، يكون فيها الحيوان الرئيس، سيد رقعته وحدوده ويقاتل عليها أي دخيل، وغالباً ما ينتصر عليه. المِلْكية يا هذا مصدر قوة، بل قل مصدر إلهام يخلق الأساطير!

الرجل: (مأخوذاً بالحقيقة القاهرة) عجيب.. شيء عجيب أن يخرج الصدق، وتظهر الحقيقة على فم مثل فمك. لعلك يا رجل نطقت بلساني. وهذا ما سيتحقق، وإلاّ فليس من المعقول أن يدافع الحيوان بروح أنبل من روح الإنسان ولو كان سبعاً ضارياً، ولا الطائر كذلك ولو كان نسراً ملكاً.

الغريب: نحن نقول القاعدة. وغالباً ما تكون القاعدة ذهبية لأنها نابعة من وعي جمعي، لا من لا وعي، مهما كانت صفة هذا اللاوعي والجهة التي تنتجه، لذلك فأنا أنقل ذلك بكامل يقظتي الذهنية لتفقه ما نقول، وما هذا الذي ترى إلا وعليه أثر من آثار يديّ وأصابعي.

الرجل: (يصاب بالذهول فكلام هذا الرجل الذي يراه مخبولاً بدأ يفسد عقله، ثم أنه يراه يبسط نفوذاً شاملاً على زوجته وأولاده، فإذا هم على هذا الصمت الذي يسود ألسنتهم وكأنهم مصابون بخرس محكم قديم.) إذاً لا مندوحة من القانون، ففي القانون وحده تتحدد أصول الأشياء، وفيه وحده يحمي الإنسان نفسه ويسترد المغتَصَب منه. وما عدا ذلك فاللسان إذا غاب الرقيب، يستطيع أن يدعي ما يدعي ويقول ما يقول. (يلقي نظرة أخرى على جسد الرجل الغريب.. يطالعه أول ما يطالعه، مسدسه الملتصق بخاصرته وقوته البدنية البادية وعضلاته البارزة، وكل ما ينمّ عن قدرة عاتية. يبحث في الأرجاء القريبة عن سكين أو قطعة حديد، يمكن أن يبادر فيها الرقبة الغليظة أو الرأس الكبير فلا يجد) ولكن قبل ذلك قل لي؛ أين هي آثار أصابعك على هذا الجدار أو ذاك، وأين آثارها على هذا الذي تجلس عليه أو تراه عيناك، من أثاث وديكور وأغراض غصّ بها هذا البيت، كنت أعود بها إليه واحدة بعد أخرى، متجاوزاً رغبات شخصية في الطعام والملبس والسفر مثلاً. (يشير إلى ساعة منضدية، وأخرى جدارية وإلى لوحة معلقة فوق ناصية الباب) وهذه من مشترياتك، من نقودك، ووفق ذائقتك؟ (يتقدم من الساعة المنضدية، يرفعها بيد ويؤشر على عقاربها المتوقفة) منذ شهر اشتريتها، وأمس وضعت لها بطارية جديدة وعدت بها، ترى كيف تعطلت ومن عطّلها؟

الغريب: أو تحب السفر؟ ثم من أي مدينة أنت أو جئت؟ ملامحك لا تشير إلينا أو قل؛ إلى ناس مدينتنا.

الرجل: آه.. ما أصدقك! أنا من مدينة هذا البيت، من هذه الغرف التي تحيط بمجلسك الطارئ، ومن الغرف التي فوق، ومن هذا الفضاء الذي لو تأملته بصدق لوجدته غير فضائك الذي أتيتَ منه.

الغريب: ترى أو تحب الأحلام كذلك؟

الرجل: كلا. لقد قُمعتْ أحلامي منذ زمن بعيد، وها هي تتوج بوجودك الكريم! وإذا

كنتُ حلمتُ من قبل؛ فبهذا البيت وبهؤلاء قاطنيه. أما الآن فبك كيف ترحل وكيف تنزاح، و....

الغريب: (متجاوزاً كلام الرجل بغلظة فاحشة) في الأحلام يرى الإنسان ما يرى، ويدخل ما يدخل، ولكن اللامعقول هو الطابع العام للأحلام. أتعرف لماذا؟ ذلك لأن مجرى الحلم أوسع بكثير من مجرى الواقع الحي.. إنه المتنفس الأرحب للنفس المكتظة بالآلام والخيبات.. في الأحلام نبني قصوراً ونحوز ثروات ونطير فوق رؤوس الناس. ولا أظنك إلاّ دخلت شيئاً من ذلك، وإلاّ فما هذا الذي تهرف به ولا تعيه؟ البيت بيتي منذ أن تسامت جدران هذه البيوت، وهذه عائلتي منذ أن قامت العقود بين الناس. (يقوم من مجلسه يعود من غرفة النوم بعلبة ذهبية اللون، يفتحها برويّة ويُخرج منها عقداً مدوناً عليه اسمه واسم المرأة زوجة الرجل، وتأريخ الزواج.) لكي تطمئن نفسك وتعود أدراجك. (يعيد العلبة إلى موقعها ويأتي بعلبة حلوى من براد هناك، ويبدأ بتوزيع الحلوى على الأطفال بأقدار محسوبة) إنهم يحبون الحلوى كثيراً، ولقد منعتهم من ذلك لأن الحلوى تؤدي إلى السمنة، فضلاً عن أنها تتلف الأسنان، وقد تؤدي إلى الإصابة بالسكر وأمراض القلب.. المهم أننا لا نريد قمع رغبات أولادنا، ولكن من شروطي عليهم تعديل رغباتهم وتفريش أسنانهم قبل النوم. ولست أكيداً في الأخير من نجاح مهمتي، فما عادت برامج التلفاز تدهش المشاهد، ولم تعد تشدّه إليها فينسى نفسه معها، لذلك كثيراً ما ينشغل الأطفال بقرض أظفارهم، أو أكل الحلوى والمكسرات.. إنه لهو متبادل بين ما ترى وما تأكل والكل في الأخير مهلك وضار. ومن المؤسف ألّا تكون لدينا القدرة الكافية للضبط سوى الإستسلام، وهذا ما أراه أفضل علاج لمقاومة ما لا تستطيع مقاومته.. أو قل إنما هي الطريقة المهذبة هذه الأيام، فما عاد الرأس الحديث هو ذلك الرأس الحجري القديم، الذي ربما كانت صلابته سبباً من أسباب الانتصارات في المعارك والحروب.

الرجل: ورأسك من هذا النوع؟

الغريب: (ساخراً) كلا. رأسي رقيق، بل من أرق الرؤوس، ويضم بين جدرانه دماغاً أرقّ، وأشدّ ما يضنيه ويحاول أن يبتعد عنه هو الصداع، أو قل ما يسبب له الصداع. لذا فالمشكلة عندي لابد من أن تنتهي سريعاً وبأسهل الطرق أي بين مقوستين " خذها بسهولة" وباللغة الإفرنجية؛ tak it easy إلا إذا تعلق الأمر بدينك أو مالك أو عِرضك. هنا تكون المسألة إما حياة وإما موت كفانا الله شر ذلك اليوم.

المشهد الثاني:

الرجل: (يكلم نفسه وقد أثاره حديث الغريب الملتهب، عن الدين والعِرض والحلال، وعن الحياة والموت. وهو مشلول بلا إرادة حتى الآن. رجل غريب لا سابقة لي معه يحتل بيتي. تمتد يده بثقة لأشيائي. يسخّر لأغراضه أولادي. يقبل زوجتي أمامي وبلا حياء مني. وقد يقودها

بعد قليل، وهذا ما لا أحتمله لغرفة نومي. أي رأس إذاً رأسك فلا ينفجر حتى الآن، وكيف لم يتداعَ جسدك ولم تُشلّ أطرافك؟. كلا سأطرده، سأشبعه لكماً وركلاً وألقي به بعيداً عني وعن أولادي وزوجتي وبيتي. سأباغته بقوتي وإصراري ودفاعي عن مالي وعرضي وحلالي. فقط لأعرف نقطة ضعفه، ومتى يتجرد من حزامه ومسدسه وهذا هو ما يتقوى به عليّ. لماذا لم أحتفظ في بيتي بسلاح، وماذا تنفع سكين مطبخ، أو عصا ماسحة الأرض إزاء سلاح فتاك؟ يا لغبائي إذ لم أحتط لأي أمر، فأمتلك سلاحاً يأكل مثل هذا الرأس الغاشم في لحظة بسرعة البرق. لقد أكل مسدسه لحم خاصرته وهو معلق بحزامه لا ينفصل عنه. يتوجه إلى زوجته)أيتها الزوجة الوفية المخلصة التي ما شككت يوماً بعفتها، تكلمي. قولي شيئاً. كيف دخل هذا الغريب بيتي.. من فتح له الباب.. من أعدّ له الطعام ومن فرش له الفراش، وكيف سوّلت نفسٌ ما الاقتراب منه وهو الغريب البائس الذي لا ضمير له ولا حياء! أوووواه أيتها المرأة التي ما شككت يوماً بحبها وما ساورني ظن بطهرها، هل أنت الآن أقرب إليه مني؟ أي سحر إذاً أتى به هذا اللعين ليأخذك به مني، وأي قدرة غاشمة له عليك ليقيم هذا الجدار الصفيق بيني وبينك؟ كلا أيتها المرأة الصبور؛ أم أولادي، شريكة حياتي وزينة بيتي، انهضي الآن، قاومي سحر هذا المراوغ الصغير وأعلني براءتك منه وانتماءك إليّ، أنا زوجك الوفي الغيور.. وأنتم أيها الأبرياء المساكين أولادي، ما لأجسادكم خاملة ، ورؤوسكم منكسة، وكأنما على رقابكم السيف؟ كلا أنا لا أصدق ذلك ولا أحسبني إلا في خيال. (يلتفت يمنة ويسرة.. تتجول عيناه في أرجاء البيت، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.. يخاطب نفسه؛ عجيب إنني لا أجرؤ على دخول غرف بيتي، بل إنني أجد أن تغيراً طرأ عليها إذ حوّل سرير النوم من مكانه إلى مكان آخر، واتخذ لجسده الوسخ أزهى ملابسي، وعلّق على الجدران صوره وأزال صوري.. نعم إنه لخيالٌ، أيُّ خيال، وجنونٌ، أيُّ جنون!.. يعود إلى الغريب يخاطبه.) وإنني لأراك أخذت حريتك في ما لا تملك، واستهترت بقيم مَن اغتصبت، وأحللت نفسك محلّ غيرك، وتجاوزت ما لا تملك من حدود إلى حدود غيرك، فاخرج أيها الرجل قبل أن أفضحك وأجمع الناس عليك.

الغريب: إذاً سيكون هذا البيت ساحة قتال هذا إذا أردت، وإلاّ فإنني كما عبرت من قبل لا أهوى صداع الرأس. ومن مشاكل صداعي هذا أنه يقودني إلى صداع آخر، إذا تمادى في الضغط والشدّة. وأحياناً، وأنت مقدم على ما لا تحمد عقباه، تقول مع المثل الشائع؛ ما قادك على المرّ إلا الأمرّ منه، وهذه مشكلة كما ترى. العقلاء غالباً ما يقطعون حبل المعضلة عند أوهى نقاطه، ليستكملوا مشروعهم الأنسب في حياة رخيّة هانئة، لكنهم ولربما كان هذا عيبهم، أنهم إذا اضطروا للمنازلة كانوا أصعب الأطراف.. لماذا؟ ذلك لأن

ضريبتهم على أشيائهم أعظم وخسارتهم عليها أكبر. وها أنت كما ترى تقودني إلى صراع وتحمّل راسي المزيد من الصداع، وإنها لمعضلة شديدة حقاً. وإنني من هنا لأدعوك إلى التعقل في ما تنظر وتفكر.. نعم عليك أن تفكر في ما أنت مقدم عليه لئلا تندم، فقد يغفل الإنسان نتيجة عمله قبل أن يغفل طبيعة هذا العمل، وهنا تحصل الكارثة. لا شكّ في أن في حياة كلٍّ منا خطأ ما مرّ بسلام، أو أخذ ما يستحقه من عقاب.. وقد ينتهي الأمر عند هذا الحد، هذا إذا كان بسيطاً. أما إذا كان جسيماً فالأمر هنا مختلف. (يفكر الرجل أن هذا يفكر بعقله هو وينطق بلسانه، ألكي يشعل قلبه ويلهب وجدانه، وهل جاء لمهمة هي هذه وليس غيرها، وأن تسلطاً عليوياً خلق هذا الشيء ليعذبه .. فقط ليعذبه؟) مختلف تماماً وليس في ذهني على حدّ تجربتي عمل جسيم أخذ طريقه بسلام أو دوما عقبات، بل ثمة أعمال هيّنة سببت هزائم كبيرة، وأخذت من العواقب أكبر بكثير من احتمالاتها. والأمور كما تعلم تُحسب ، بنظر بعض النظريات، بنتائجها. وأظن أننا ننقاد بفعل تطفلك مثلاً إلى نتائج وخيمة لا أحد منا يعرف مقدار ما يصيبه منها.

الرجل: (يقاطعه) لا تهدد رجلاً أولى بموقف القوي منه بموقف الضعيف، ولا تتفلسف أرجوك، فما زلت واقفاً على قدمين جمد الدم فيهما، بينما يغلي في صدري مرجل نار. ثم ها أنت تكلمني بدم بارد عن الأخطاء الجسيمة والبسيطة وعواقب هذه أو تلك، أي هذر هذا الذي تهذر به الآن بل أي هذيان؟ (يلتفت إلى امرأته وأولاده، يخاطبهم بغضب) وأنتم أما زلتم مسحورين، منومين، مسلوبي الإرادة والقرار؟ ألا سحقاً لكم إن لم تستيقظوا الآن.)

الغريب: (يقاطع الرجل هو الآخر) دع العائلة تنعم بالسكينة والهدوء، ولا تكرر على مسامعنا شتائمك المنتقاة. (يوجّه أوامره إلى المرأة والأولاد الذين تململت نفوسهم، وتحركت عيونهم.) اذهبوا إلى غرفكم، لقد أفزع هذا قلوبنا، وها أنا أدعوكم إلى الإنصراف إلى هواياتكم وألعابكم حتى ينجلي الموقف مع هذا الكائن المقيت!)

الرجل: (يهمّ بالهجوم على الغريب، بيد أنه يحجم في اللحظة الأخيرة، إذ يجد يده فارغة وسلاح خصمه جاهزاً ومميتاً. (يعاود الكلام الداخلي.) يا لصبر الشجاع حين تخذله يده، والكريم حين يعجز عن اللئيم، وهذا رجل استنّ لنفسه شرعة النهب والاغتصاب، فلا جدوى من حوار مع أصمّ أبكم، إنما المطلوب هو الفعل المباشر الصادم الذي هو غائب حتى الآن... آه يا إلهي! ولكن علام الخوف مما أخسره من بعد، وهذا كياني كله مسلوب ومنتهك، ثم إلى أي مدى سيبقى هذا جاثماً على صدري يسخر مني ويثير جنوني؟).

الرجل: أخرج أخي من بيتي أخرج وبسلام قبل أن تمرّ عليك العاصفة.. ها أنني أتوقعها بل أسمعها، مدويّة ومخربة وقاصمة.. إسمع كلامي بإذنيك وبقلبك

وكل جارحة فيك، وإلا ستندم وعندئذٍ لات مندم. ها أنني أنصحك بالرغم مما أتلفت وخربت وتماديت.

الغريب: (يتحدث بوجه عام) : وهل يقدر غريب على انتزاع ملكية ما يؤيده الشرع والقانون للناس أصحاب الشأن، معلقة فوق رؤوسهم عقود البيت والمرأة والأولاد، ثم (موجهاً كلامه للرجل) ماذا تريد بعد؟ يمين؟ أقسم لك. شهود؟ بالعشرات، بل بالمئات والألوف، ولا سيما نحن في دولة عدالة وقانون، وما ينضم تحت هذا المسمّى العريض من حقوق وواجبات. ولك أن تتخيل؛ فلا حياة دونما خيال، وإنني لأظنّك غير ذي خيال، فلو امتلكت ذرة منه لبحثت لك عن بيت عائد لك أو يصدق ادعاؤك فيه، يأويك ويلمّ حالك البائس هذا.

الرجل: لك الحق. الخيال عنصر جوهري في الحياة، ولكن ليس الإختلاق والوهم والكذب الصراح. ومن يشهد لك أنني ليس بذي خيال مثلما يشهد لك بأنك صاحب هذا البيت والزوجة والأولاد والأثاث؟ ألأنك بأحبولة ما حللتَ في بيتي وزوّرتَ عقوده وادّعيت ملكيته؟ هل هذا يكفي؟ أليس ثمة من شهود غير شهودك؟ وأين ولّت المواثيق الصحيحة والعقود السليمة، أأقفلت صناديقك عليها وطويت عليها ما تظنه النسيان؟ كلا. إن حبل الكذب قصير، وهو ما تواضع عليه الناس بالتجربة الوثيقة وليس بالكلام الزور. إذن عليك أن تدرك ذلك سريعاً فكلما أبطأت في الإدراك تراكمت عليك النتائج الوخيمة، ثم إنني لا أظن بيتي هذا جاحداً لدرجة أن يتنكر لي أحد فيه أو يفكر بذلك. نعم قد يقف خيالك لحظة أو لحظات على شيء من هذا الذي أنت فيه وتفكر فيه كذلك، لكنه والمحال في الحقيقة سواء. الزوبعة قادمة يا غريب فارحل سريعاً قبل أن تفكر في أمر آخر تكون نتائجه وبالاً عليك.

الغريب: شيء غريب.. لا بد أنّ أمراً جللاً حصل لعقلك دمرّ خلاياه، لكي تهددني بعبارات جاهزة من مثل عاصفة، زوبعة، إعصار، زلزال، وكل هذه لا تحرك ساكننا قيد شبر، بل قيد أنملة. أيها الطارئ المتمشدق الغريب عليك أن تضبط لسانك، وها أنني أحذرك آخر مرة، فلن أغفر لك بعد الآن هذيانك وتقوّلك. (يتحسس مسدسه ويحلحل حزامه) ثم ماذا تراني فاعلاً لو أجبرتني على الشيء الذي لا أود فعله، وقد أفكر الآن فيه.. نعم أنت تجبرني على الفعل المشين وساعتها لن تلوم إلاّ نفسك، هذا إذا سنحت لك فرصة لتفعل ذلك.

الرجل: من يتجاوزْ على حقوق الناس يلقَ ما يلقاه، واعلم أنّ للصمت نهاية كما للباطل نهاية، واعلم كذلك أن للحق بداية لا بد أن تكون أو لا بدّ أن تأتي.

الغريب: (يضحك عالياً، لكنه يصمت فجأة ويلتفت إلى الباب؛ يستطلع بسمعه جلبة خارجية، ثم أنهما، الرجل والغريب، يسمعان جلبة خفية داخل إحدى غرف البيت مصدرها حوار هامس على هيئة نزاع على أمر ما يجري بين الأم وأولادها، ثم طفلان يفتحان الباب بعنف ويلجآن إلى الرجل الذي كان ما يزال واقفاً)

طفلان: بابا.. بابا.
(ثم طفلان آخران يظهران بصورة أشد درامية)
طفلان آخران؛ بابا.. بابا.
(المرأة؛ تسرع إلى الرجل تلوذ خلفه)
المرأة: زوجي العزيز.. زوجي الحبيب.
(يتراجع الغريب للخلف ويسحب مسدسه يوجهه نحو رأس الرجل ثم نحو رأس المرأة، لكنه والجميع يسمعون جلبة شديدة كالعاصفة خارج البيت فيفتحون الباب؛ يشاهدون هناك جموعاً كالمشردين من رجال ونساء وأطفال يبدو أنهم طردوا من بيوتهم فاجتمعوا على اقتحام الأبواب عنوة بالأيادي والعصي.. هناك برغم ما يحصل أولاً من نزاع وعراك تستخدم فيه شتى أنواع السلاح الخفيف، يسقط بيد الغرباء فيستسلمون.. يرمون أسلحتهم ويسلّمون أنفسهم... هناك يجردون من ظاهر ملابسهم ويُخرج بهم شبه عرايا؛ حيث تنتظرهم في ساحة عامة عربات حمل كبيرة أعدت لهم قبل هذا الأوان.)
(جمع غفير من أصحاب البيوت وقد استعادوا بيوتهم): أخرجوا أيها الغرباء.. ما لكم ولنا أيها الطارئون والسراق وغير الأوفياء.)
(لقطات مضاءة لأوضاع مختلفة تظهر فيها العوائل سعيدة وقد استردت بيوتها، فهناك استرجاع أنفاس مبهورة، وهناك استعادات ذكريات مختلطة، وحوارات بين مجموعات من رجال ونساء، هناك بكاء فرح، وهناك صور أطفال يعودون بدماهم التي أخفتها أيادي الغرباء. هناك مسرات خاصة وأخرى عامة وقبل وتهنئات).
رجل: الغرباء رحلوا. بيوتنا الآن آمنة فلنحافظ عليها بأحداق عيوننا، ولن نسمح لدخيل أن يطرقها مرة ثانية. الغرباء لا يصلحون بيوتاً بل يخربون.
رجل آخر: هو ذا شأنهم؛ يسرقون وينهبون. أرأيتم مقدار ما أتلفوا ومقدار ما نهبوا؟ لن تصدقوا.
رجل آخر: كنت أقول ذلك منذ وقت بعيد، ولعلكم كنتم تسمعون!

المجرب الأول/ كاظم حيدر
الانسان: توجه ابداعي ومعرفي ومخيلة

د. نجم حيدر

فكرت مليا في استعمالاتنا لمصطلح (فنان)، واكتشف كم من الاستسهال والمجانية المفرطة التي نتعامل بها مع المصطلحات ومع من نقدم لهم الوصف بمجانية، وتساءلت عن المصطلح وهل من تثبت عليه هذه المفردة يُعتمد ام ان الاختلاف فيه امر طبيعي تمليه اختلافات الفكر وتحولاته؟ فوجدت ان الاختلاف امر تتصف به المعرفة وهو سبب نموها واستمرارها وديمومتها في التفاعل والحراك الجدلي . وتذكرت واقعة لي مع (كاظم حيدر) (الرسام) كما كان يعنون اسمه خلف معظم اعماله ..... كنت معتاداً مجالسته في محترفه الفني وهو ينجز اعماله وانا اتابع دروسي اذ كنت طالب الدراسات الأولية في الجامعة، بعد اكمال احدى لوحاته كتب خلفاها (الرسام) كاظم حيدر ووقعها ،، كان ذلك في أواسط السبعينيات من القرن الماضي، فسألته متعجبا لماذا كتبت الرسام ولم تكتب الفنان كما يفعل الاخرون. فأجابني : (من يقول اني فنان؟ انا امتهن الرسم، يمكن ان اوصف بالرسام، نعم ممكن، لكن الفنان امر لا اقره انا ، قد لا أكون فناناً).

في الاختلافات الفلسفية للتوصيف تقدم فلسفة العلم الاتجاهات الفلسفية الخمس الفاعلة ومريديها، تقدم رأياً يرقى الى مستوى البرجماتية الحديثة ولاسيما ما قدمه الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي 1859 1952). ذلك ان الفن أداء عملي منتج يعتمد غايات مختلفة ومتنوعه وينمو بتحول ذرائعيته وهي الأخرى متنوعه ومختلفة، ولأنه أداء عملي فانه ينطلق من رؤيه، ويقدمها بنسيج ابستيمولجي لا يمكنه الثبات والتوقف . ولكون الفن عمل ورؤية فهو في اعلى مراحل القصد والدراية .

ان للفن مراكز لابد لها ان تفسر معناها . وهي : أداء عملي.. منتج، يعتمد غايات، ينمو بتحول ذرائعيته، ينطلق من رؤية بنسيج أبستمولوجي متحرك .... هو في اعلى مراحل القصد والدراية .... هذه بأجمعها تدل على ان الفن معرفة لا تختلف عن المعارف الاخر سوى بانفتاحه المفرط وقربه الشديد من الحياة . انه تأكيد علمي فلسفي في عد العمل الفني منظومه معرفية

متحركة بخصوصيات لا تنافي بنائها المتجسد في اعلى غايات الوعي، وبذلك فان العمل والتجريب وبناء الخبرة أساس فاعل لتوصيف شخصية الفنان، ويمكن ان يتوجه ذلك بتوجهات فردية خاصة تصنع ما نسميه بالأسلوبية لدى الفنان. فما هو التجريب؟ وما مناطق فعله؟ اهو أداء عملي صرف؟ ام أداء يعتمد المخيلة؟ وهذه التي نسميها بالمخيلة خاضعة للتجريب وقد تكون خارج نطاق الإرادة، كما يشاع عنها بأحكام ميتافيزيقية.

ان التجريب محاولة إعادة تركيب المركب بالإضافة او بالحذف ، او بإعادة تنظيم العلاقات الرابطة بين أجزاء الوحدة التركيبية، وقد يكون في المنطقة التخصصية ذاتها او استدعاء مناطق مجاورة، وتكون المجاورات قريبه ذات علاقة ما، او متباعدة يتحقق التقريب بنتائج الفعل التجريبي، واثبتت العلوم السريرية ومنها علوم الدماغ وفسلجته، ان النمو والتطور بفعل التجريب ونتائجه في منظومه معرفية ما لا يقتصر على الأفعال العملية الادائية بل يشمل الرؤية التنظيرية او التأمل الذهني والمخيلة، حتى بات من الشائع في التداول التخصصي لعلوم الدماغ وجود مخيله تخصصية تمثل اهتمامات الانسان التي تشكل توجهه المعرفي، أي بمعنى ابسط ان المخيلة تخصصت في المعارف من كلياتها الى جزئياتها، وإزاء ما قدمنا تتكون لدى لفنان مخيله تخصصية تنظم الصور الذهنية التي تحال الى أفعال في مواد إظهار النصوص الفنية، وهي التي تقود النتاج الإبداعي وتحقق نجاحه من حيث نوع النتاج ومستوى تأثيره في التلقي ، وهذا النجاح او الإخفاق يرجع الى مستوى المخيلة ذاتها في كم ونوع خزينها من مفردات وعلاقات يمكن ان تحال الى جسد الفن، أواليه تفعيلها وأحالتها الى منظومه جمالية تنتج النصوص. ومن صور نجاحها التنوع والاختلاف، التنوع الناتج عن حراك فكري لا يركن الى الاستقرار، ما يلبث ان يحقق نتائجه حتى يجد في افق يلوح امامه من نتائج أخرى تستدعيه فيها اختلافات حتميه مع ما سبق من انجاز . وهنا يؤشر الابداع بفعل التجديد الذي يعتمد الاختلاف من الذات الى الاخر، او من التموضع في المراكز الى تفكيكها بدراية تعرف بنية القديم وتستشرف البنى الجديدة التي تساهم في إظهارها.

وكاظم الذي ولد في مطلع الثلاثينيات ليجد امه على فراش الموت، وشكلت هذه الواقعة بصمة في اللاوعي تتحرك معه في الكثير من نتاجاته الفنية ولاسيما تناوله للمرأة التي لم تخرج من نطاق الأمومة في معظم اعماله التي تناولت المرأة، حتى انه فشل في ان يتعامل مع من يحب لأنه احالها الى ام اكثر من احالتها الى حبيبة.

جاهد في ان يدرس فن الرسم مجاورا الى دراسته الجامعية في الكلية العالية، كما كانوا يسمون كلية الآداب والتربية في الخمسينات ، اذ انه تخرج في اعدادية التفيض المركزية، وكان من المتقدمين في الإنجاز من حيث تحولاته المشاكسة في نتاجه الفني، يقول الفنان والآثاري المرحوم (د. طارق مظلوم) والذي زامله في معهد الفنون اثناء دراستهما فيه : كنا ننتظر استفزازات (كاظم حيدر) في ان

يفاجئنا بالجديد او المثير الذي يحرك فينا السؤال والاختلاف ، وكانت لوحة (الشهادة) التي انجزها وهو في عمر 22 سنه الامثال على ذلك هذه اللوحة نحتاج الى البحث اولا عن الرؤية المنبثقة من البنية العميقة المحركة للبناء التشييدي للمنظومة المفاهيمية والشكلية واللونية والنتيجة الكلية التي تشكل الهيئة (التكوين الكلي) للبناء النسقي في هذه اللوحة.

واذا ما بحثنا عن البنية العميقة التي تؤطر النظم الكلية وتشكل علاقات تفاعل بين الانساق نجد ان هذه البنية تسترجع فينا واقعة الطف (استشهاد الحسين عليه السلام) لا بصيغتها الدرامية الحكائية بل بإثارة او انفعال أبستمولوجي يتناغم مع الانفعال الجمعي عند متلقي هذا النص الجمالي، وعليه نستنتج ان التلقي لابد ان يتوافق في بنيته الثقافية العقائدية مع بنية المتلقي ذاته الثقافية والعقائدية لأن الوعي بمحايثة الشكل مع الانفعال يحتاج الى هذه التوافقية والفنان في نصه الجمالي نجح في خلق توافق في منظومة الشكل اولا وفي منظومة فعل الشكل في النص كليا وفي بناء علاقات جمالية بين الشكل منفلتا والبناء الكلي للوحة، ولم يغفل في جزئيات انساقه الحدث كواقعة (كحكاية) لنجد مفردات شكلية مرموزه ذات تأسيس واقعي مرتبط بالواقعة ذاتها وهي على سبيل المثال شخصية القاتل (الشمر) شخصية الضحية (الحسين) مظاهر الحرب المادية واختلافاتها مع اعطاء قيمة انشائية للفضاء التشكيلي في المساحات البيضاء المقصودة التي تفصل بنائية اللوحة ، وفي البنية الانشائية نجد ان هذه اللوحة تنقسم الى كتلتين كبيرتين نسبيا في جسد اللوحة: الكتلة الوسطية التي تمثل الواقعة او الحدث مع توازن تشكيلي بحت في اقصى يسار اللوحة وفي اعلاها رموز ايحائية ذات قصد فكري كما هو حال الشمس المقلوبة ، ونجد في تحليل البنى المفاهيمية لهذا النص ان الفنان قد قسم اللوحة الى جزءين رئيسيين الاول يمثل الواقعة كحدث درامي وهو الاستشهاد واحتزاز الرأس المقدس والثاني يمثل ما هو خارج الواقعة كحدث نحو تأويل يعتمد فلسفة الحدث وايحاءاته ويمثل الجزء الايمن من المشاهد الذي شكل شخصية الامام علي (ع) في كسره لسيفه الذي يعد (ايقونة) عند المسلمين وهو سيف ذو الفقار وعملية الكسر هذه تحيلنا الى تأويلات واضحة ومتعددة تتمثل في انكسار الحق والعدل وقوانين الحياة ذات البعد السماوي فضلا عن العلاقة القصدية لخطوط الشمس الذي ارسلت شعاعها الى الرأس حصرا وهي مقلوبة لتعلن موتها (الشمس) .

ان تعالق الانساق المفاهيمية والشكلية تعالقا محايثا مع الحدث كواقعة والحدث كتفاعل مع جموع المتلقين وعليه فأن النسقين الايحائيين هو نسق الواقعة ونسق مفاهيمية الواقعة.

ولو اخذنا المنظومة الشكلية في التحليل في بناء الخطوط والاشكال لوجدنا ان الفنان يوفق بين الرسم الواقعي والرسم الحداثوي المشخص فهو لم يلتزم قصدا بالنسب الذهبية للجسد بل اعطى ايحاءات تضخيم للعضلات كما هو حال رسم شخصية الامام على في اقدامه والايدي فضلا عن رسمه لشخصية الشمر.

ان هذا العلاقة النسقية بين المفاهيمية والشكل حققت نجاحها بل بين المفاهيمية والشكل واللون المائل إلى الحمرة والغالب على كيان اللوحة الذي يأخذ حمرته من الشمس والدم فضلاً عن العزل اللوني بالسواد الذي قدم خدمتين الأولى خدمة ايحائية والثانية خدمة أبرزا وتحسيم الأشكال والمساحة البيضاء التي أعطت تعيين لمراكز البث الشكلي والمافهيمي هكذا شيدة العلاقات بين الأنساق المختلفة إن كانت نسقية شكلية بحته أو نسقية مفاهيمية وحقق الفنان بنجاح نظام من العلاقات المنضبطة بقوانين اللوحة ذاتها معتمداً على خبرته في الرسم وفي الانشاء الكلي وفي ثقافة الظاهرة ذات البعد الاجتماعي الاسطوري .

وخلاصة البحث أن هذا الاسلوب الذي نسجه بمجموعة انساق متفاعلة استطاع ان ينقل البنية العميقة من اغوارها الميثولوجية الاسطورية ذات البعد الديني إلى نظام شكلي متسق حقق كل قيم البث والتحايث مع البنية العميقة لموضوع اللوحة .

استمر كاظم يبحث عن نظم ادائية تحقق صدمه مفاهيمية لدى المتلقي مما اعقب لوحة الشهادة اتي سبقت معرض الشهيد بثمان سنوات وبلوحتين تمثل إضافة خامات غير متداولة على النصوص التشكيلية في العراق وهو لم يسافر في حينه خارجه ، وما لوحة (رقص المغازل) التي جعل من خيوط الغزل الصوف والمغزل الخشبي مفردتي بناء لها وقد اضاف اليها الرسم التقليدي بالزيت، واللوحة الثانية (الحمال) التي رسمها بوعي يستدعي النقد الطبقي بتهكم من البرجوازية المخملية الحاكمة في خمسينيات العهد الملكي، فحصر الحمال الذي يمثل الطبقة الرثة المسحوقة في كل جغرافية الوحه وكانه يريد ان يقول انه محاس حتى على فضاءات عيشه ومن ثم وضع على ظهره جذع نخله عراقية طبيعية وتدرج بالحبال الرابطة للنخلة من بنيتها الطبيعية الى ان تكون مرسومه بيد الحمال. يقول (فريدريك نتشه) في كتابه (إرادة القوة): ان المحرومون يتم تدميرهم فهم معدمون ما لهم الا ان ينفصلوا عن قيم الاخلاقيات الزائفة ، وما عليهم الا ان يتبنوا النقيض، انهم يرغمون جلاديهم على ان يكونوا جلادين بإمعان. وكان كاظم قد قرأ نيتشه وأحال فكرته الى نص من خلال الحمال العراقي البائس الذي جعل من ظهره أداة عيشه ولاسيما عندما يسير امام صاحب الحمولة واذا بالفنان كاظم يحيل الحمولة الى رمزية الخير النخلة التي لم يتح لها ان تشبع أهلها.

هذا قبل سفره الى لندن لدراسة الرسم واليثغراف والسينوغرافيا، في هاتين اللوحتين تكمن بداية التجريب للفنان وكيف كان يستدعي المجاور المختلف ويحقق المتغير في التداول ليخلق تداولا جديدا، واذا كانت هذه الأفعال موجودة في اعمال أوربية تسبق هذه النصوص .. فان الواقع العراقي يقول ان فترة الخمسينات ولاسيما اواسطها لم يشهد تواصلا مع الغرب، حتى ان التلفزيون تأسس في العرق مع سنة 1956، المهم ان تجريب وقلق كاظم حيدر لم ينته فكان سفره للدراسة من 1957 الى 1963 في لندن مرحلة بحث واستكشاف ونمو احاله الى بناء اسلوبية تمظهرت

في معرض الطف او الشهيد في بيروت أواسط 1964، فكان فعل التجريب يشتغل مع الشكل واحالته الى واقعة دراماتيكية، فكانت لوحاته وقائع ممسرحة تثير التأويل بإفراط، فضلا عن بنائه الحداثي الذي يقدم التعبير بانفتاح متحرك وجمالي مبهر في ذات الوقت، ان التطرق من خلال الفن ولاسيما الرسم لموضوع خطر وحساس كما هو حال موضوع الشهادة للحسين (ع)، لما يحمل من اشكالات روحية وتأويلية ، يعد مجازفة يحاول البعض تجنبها ، لكن شخصية الفنان المتصدية دائما استطاعت ان تلج وتقتحم كل المعوقات، وما يميز المعرض في عام 1964 انه ارتبط بقصيدة الفها الفنان وكانت كل لوحة معبرة عن بيت او بيتين منها، على الرغم من القيمة الروحية التقديسية لشخصية الحسين ابن علي (عليهما السلام) الا ان المعرض طرح الموقف بصيغة الثورة لثائر من اجل عقيدته ومبادئه، وكانه يقول ان الحسين وواقعته دائمة ومستمرة.

كانت الفترة التي تلت عام 1964 حبلى بالتحولات السياسية ولاسيما مخاضات حرب حزيران عام 1967، والانتكاسة التي شعر بها الفنان وصدعت روحه، اذ قدم مجموعة اعمال تركيبية اذكر احداها التي استعار لعبة الطاولة بخشبها ونردها وادخل عليها مركبات من لعبة أطفال تحيلك الى أشلاء طفل وبندقية صغيرة وتلصيق صور مع إضافات بالزيت على كل النص لتحيله الى نص فني جمالي يحمل تأويلاً موجهاً نحو الحرب ونكسة العرب الكبرى في حزيران 1967. الا ان تجريبية الفنان وبحثه عن أدوات إظهار جديدة فيها مفاجأة وصدمة للمتلقي فكان معرضه الميثولوجي الذي حقق به عوالم غرائبية ذات منحى سريالي واقعي مفعم بهوية شرقية ميثولوجية، كانت لوحات متنوعة التوجهات في تقنية استدعت النظم الواقعية بتركيب جديد، وفي بداية السبعينيات انجز معرضاً مهماً مع الفنان الخزاف (فالنتينوس)، واعقبه بمعرض مشترك مع النحات (محمد غني)، ومعرض شخصي في قاعة كولبنكيان 1973 كان متنوعاً في تقنيات الاظهار ومتحول واضح عن أسلوب معرض الشهيد.

كان التصوير الفوتوغرافي اكثر من هواية لدى الفنان، كان يعتمد عليه ليكون أداة بحث ومساند لذاكرته التخصصية، فقد صور بعدسة تقريب للصغائر المتناهية من الأشياء كالجوز(عين الجمل) متنوع وكان يقصد تصوير خراب المحتوي على الخيوط العفنة البيضاء، فشكلت صوراً جمالية تجريبية في بنية بعض من لوحاته ، لكن ما قدمه في معرض متخصص في عام 1975، وتعد انتقالة مهمة في تاريخ تحولاته.

والملاحظ ان عمليات التجريب في الاشياءِ والظواهر مدفوعة بنوع من الحاجات او الضرورات، بل حتى ما يكون عارضاً مفاجئاً هو في حقيقتهِ لا يمكن اخراجه او تخطيه للحاجةِ والضرورة، ونجد ان المعرفة البرجماتية ما هي الا صورةً لمنهج التجربة، وبالتجربة تتطور المعرفة وتؤسس النظريات والفلسفات ومن ثم تؤسس افعالها في الاشياء والظواهر وتنتج العلوم والفنون باختلاف انواعها،

والمراكز الاربع في مقاربتنا التفاعلية تؤمن بالتتابعية والتطورية والتراكمية وبخطوات تحقق بناء المعرفة ومنها الفنون والتشكيل منها على وجه الخصوص،

واستلهاماً لأفكار (جون ديوي) فأن الخطوات الافتراضية للبناء توجه معرفي يمكن انجازها بالنقاط الاتية :-

المادة الكيفية التي نشاهدها جميعا، وهي مادة تحدث من تفاعلنا مع البيئة، وتكون معرفة غير يقينية، وهذه المادة هي المعطيات الحسية.

التمييز بين المعطيات الحسية السابقة وبين الأفكار التي نسوقها لتأويلها .

هذه الأفكار، ليست ثابتة ونهائية، بل هي عرضة للمراجعة وافتراض فروض جديدة.

والمرحلة الأخيرة هي المطابقة بين الفروض وبين المعطيات بغية تحسين الفروض وتحقيقها.

وازاء ما ذكر اعلاه فان الافكار تعتمدُ عملية مجابهة بين الانسان بوصفه فرداً او جماعة، وبين بيئتهِ المتنوعة المتجددة ونقصد بالبيئة ليس المكان فقط من طبيعة واشياء، بل البيئة تشمل فضلاً عن المكان طبيعة الزمان والصراعات المنتجة لتفاعل من تفاعلات الانسان القديمة والجديدة، وعليه فأن البيئة التي يجابهها الانسان قد تكون سياسية او اقتصادية او طبيعية ... الخ، وهي متأثرة حتماً بضواغط انثروبولوجية وميثولوجية متنوعة، والمعرفة التي تنتج بواسطة هذا الصراع تحدث بالعلاقة بين الانسان وما يجابهه من مشكلات، فالبيئة ذات المناخ الحار مشكلة جابهها الانسان فأنتج وسائل عدة لتبريد نفسه ومكانة متنوعة من البدائيات الى اعلاها التكنوالكترونك، انها مشكلة قد تبدو صغيرة امام البعض لكنها غير ذلك.. فقد نجح الانسان طوال ازمنة منتجة ان يجابه وينتج، فالتفكير والمعرفة لا يكمنان في ادمغتنا، بل هي بلا شك نتيجةً لاحتكاك وتفاعل مع ما يواجهنا من مشاكل. وقد قدم (جون ديوي) اراءً واضحة في مجموعةِ كتبهِ التي يحاول بها ان يبين وجه النظر البراجماتية في التفكير والفكر وبناء المعارف، واوضح ما قدمهُ الخطوات التي تتألف منها عملية التفكير الكاملة والمنتجة وهي نفسها الخطوات التي يمكن ان تكون في دائرة حل عندما يجابه الفنان ولاسيما التشكيلي مشكلة انتاج عمل فني مثير ومؤثر ومتفاعل مع المتلقي.

أكاذيب

جي أم كويتزي
ترجمة: جودت جالي

عزيزتي نورما
أنا أكتب من سان خوان، من الفندق الوحيد الأوحد هنا. زرت أمي بعد ظهر اليوم حيث تسكن على مسافة نصف ساعة بالسيارة على طريق طويل متعرج. وجدت حالتها بالسوء الذي خشيت أن تكون عليه، بل وأسوأ لأنها لم تعد تستطيع المشي بلا عصا، وحتى مع هذه هي بطيئة المشي جدا، غير قادرة على صعود السلالم منذ عودتها من المستشفى وتنام على الأريكة في حجرة الجلوس. حاولتْ أن يُنقل سريرها الى الطابق الأسفل ولكن الرجال قالوا بأن السرير الذي تم صنعه في مكانه لا يمكن تحريكه إلا أن يفكك قطعا أولاً (ألم تملك بينيلوب سريرا كهذا... بينيلوب هوميروس؟). كتبها وأوراقها كلها في الطابق الأعلى ولا مجال لها في الطابق الاسفل، وأمي تشعر بالاضطراب وتقول بأنها تريد العودة الى منضدتها، ولكنها لا تستطيع.

يوجد رجل اسمه بابلو يقدم العون في الحديقة وقد سألت من يتسوق فقالت بأنها تعيش على الخبز والجبن زائدا ما توفره الحديقة، وهي لا تحتاج أكثر من هذا. قلت لها مع ذلك ألا تستطيع أن تجلب امرأة من القرية لتأتي الى البيت وتطبخ وتنظف؟ إنها لا ترغب بسماع شيء من هذا إذ تقول أن لا علاقات لها مع القرية. قلت: وبابلو؟ أليس بابلو جزء من القرية؟ قالت بابلو تابع لي. لا ينتمي بابلو الى القرية. إنه ينام في المطبخ كما أرى. إنه ليس هنا أو ليس هناك أو ما شئت من التعابير الملطفة، أقصد، أرى أنه بليد، مغفل.

لم أفتح الموضوع الرئيس، أردت أن أفتحه ولكني لم أمتلك الشجاعة، سأفعل ذلك عندما أراها غدا. لا أستطيع القول بأني متفائل فقد كان استقبالها لي باردا، وأشك بأن لديها فكرة غير حسنة عن سبب مجيئي.

نامي جيدا. أخبري الأطفال بأني أحبهم.
جون

-أماه، هل يمكننا مناقشة ترتيبات معيشتك؟ هل نستطيع التحدث عن المستقبل؟
لا تقول أمه كلمة وهي جالسة على كرسيها القديم القوي ذي الذراعين والذي صنعه دون شك النجار نفسه الذي صنع السرير غير القابل للنقل.
-يجب أن تعلمي أني وهيلين قلقان عليك.

لقد وقعت مريضة مرة، وهي مسألة وقت قبل أن تقعي مريضة مرة أخرى. أنت لن تعودي أصغر عمرا والعيش بمفردك في بيت بسلالم مرتفعة في قرية حيث لا علاقات طيبة لك مع جيرانك_ بصراحة، لا يبدو وجودك هنا صالحا، لم يعد صالحا.

تقول أمه له:

-أنا لا أعيش بمفردي. بابلو معي. أنا أعتمد عليه.

-أتفق معك. بابلو يعيش معك. لكن هل تستطيعين الاعتماد على بابلو في حالة طارئة؟ هل كان بابلو ذا عون لك في المرة الأخيرة؟ لو لم تكوني قادرة على الاتصال بالمستشفى فأين كنت ستكونين اليوم؟

يعرف أنه ارتكب خطأ حتى وهو ينطق الكلمات.

تقول أمه:

-أين كنت سأكون؟ يبدو أنك تعرف الجواب فلماذا تسألني؟ أفترض أني كنت سأكون تحت الأرض، وقد التهمني الدود. أهذا ما يفترض بي قوله؟

-أماه، احتكمي الى العقل رجاء. لقد استعلَمت هيلين واستدلت على مكانين ليس بعيدا عن سكنها حيث ستلقين رعاية جيدة وحيث نظن أنا وهي بأنك ستشعرين بأنك في بيتك. هل تسمحين لي بأن أتحدث اليك عنهما؟

-مكانان. هل تقصد بالمكانين مؤسستين للرعاية؟ مؤسستان للرعاية حيث أشعر أني في بيتي؟

-تستطيعين أن تسميهما ما تشائين يا أماه، يمكنك أن تسخري من هيلين ومني، ولكن هذا لا يغير الحقائق_ حقائق الحياة. لقد وقع لك حادث خطير مسبقا أنت تعانين من نتائجه، ووضعك لن يتحسن بل على العكس يبدو أنه كله يتجه نحو الأسوأ فهل فكرت ما يعنيه أن تكوني طريحة الفراش في هذه القرية النائية وليس معك سوى بابلو يهتم باحتياجاتك؟ هل فكرت كيف سيكون موقفنا أنا وهيلين ونحن نعلم أن بك حاجة للرعاية؟ ذلك لأننا لا نستطيع المجيء بالطيارة آلاف الكيلومترات كل عطلة أسبوع، هل نستطيع؟

-لا أتوقع ذلك منكما.

-لا تتوقعي ذلك منا، ولكن ذلك ما سيتوجب علينا فعله، ذلك ما يفعله المرء إذا كان يحب أحدا، ولذلك أرجوك قدمي لي خدمة وانصتي بهدوء بينما أطرح البديل أمامك. غدا أو بعد غد أو بعده سنغادر أنا وأنت هذا المكان بالسيارة الى نيس، الى هيلين. وقبل أن نغادر سأساعدك في رزم كل شيء مهم بالنسبة اليك، كل شيء تريدين الاحتفاظ به. سنرزمه كله في صناديق جاهزة للنقل ما أن تستقري.

ومن نيس سنأخذك أنا وهيلين لتري البيتين اللذين حدثتك عنهما، واحد في (آنتيبيه) والآخر خارج (غراس). يمكنك إلقاء نظرة عليهما وترين شعورك تجاههما ولن نضغط عليك، أبدا. إذا لم يعجبك أيا منهما فليكن. يمكنك البقاء مع هيلين فيما نبحث عن مكان آخر فلدينا وقت كثير. نحن نريدك أن تكوني سعيدة، سعيدة وآمنة وهذا هو الهدف من كل عملنا. نريد أن نكون متأكدين إذا ما حدث لك مكروه سيكون أحد ما قربك وستجري العناية بك. أعرف أنك لا تحبين مؤسسات الرعاية يا

أمي ولا أنا ولا هيلين ولكن يحين وقت في حياتنا علينا أن نجد حلا وسطا بين ما نريده مثاليا وما هو جيد لنا، بين الاستقلال من جهة وبين الأمان من جهة أخرى. أدري أنك لا تتفقين معي ولكن هذه هي الحقيقة القاسية. يمكن أن تقعي مريضة ولا يعلم أحد، وترقدين فاقدة الوعي، أو تكونين بأطراف مكسورة. يمكن أن تموتي.
تقوم أمه بحركة من يدها كما لو كانت تستبعد إمكانية حدوث هذا.
-المكانان اللذان نرشحهما أنا وهيلين ليسا من مؤسسات الزمن القديم فهما جيدا التصميم وجيدا الإشراف وجيدا الإدارة. إن أجورهما مرتفعة لأنهما لا يبخلان بنفقة لمصلحة زبائنهما. المرء يدفع وبالمقابل يحصل على رعاية درجة أولى، وإذا تبين أن النفقة مشكلة فسنكون أنا وهيلين سعيدين لنساهم فيها. ستكون لك شقتك الخاصة وفي (غراس) يمكنك الحصول على حديقة صغيرة خاصة بك، ويمكنك إما تناول وجبات طعامك في المطعم أو تأمرين بجلبها الى شقتك، وفي كلا المكانين قاعة رياضية وبركة سباحة. لديهم كادر طبي متواجد دائما ومتخصصين بالعلاج الطبيعي. قد لا تكون تلك هي الفردوس ولكنها بالنسبة الى شخص في مثل حالتك هي الشيء الأقرب اليها.
تقول أمه:
-حالتي. وما هي بالضبط حالتي وفقا لك؟
يرفع يديه برماً ويقول:
-هل تريدينني أن أقولها؟ أحقا تريدينني أن أقول الكلمات؟
-أجل. لمجرد التغيير، كما لو كان تمرينا، أخبرني الحقيقة.
-الحقيقة هي أنك امرأة كبيرة السن بك حاجة للرعاية التي لا يمكن لإنسان مثل بابلو أن يقدمها لك.
تهز أمه رأسها:
-ليست تلك الحقيقة. أخبرني الحقيقة الأخرى، الحقيقة غير المزيفة.
-الحقيقة غير المزيفة؟
-نعم، الحقيقة غير المزيفة.
عزيزتي نورما
الحقيقة غير المزيفة.. تلك هي ما طلبته مني، أو ربما ما التمسته مني. هي تعرف جيدا جدا ما هي الحقيقة غير المزيفة، وكذلك أعلم أنا، لولا أنه من الصعوبة نطق الكلمات، وأنا غاضب بما يكفي- غاضب لأني جئت كل هذا الطريق لأؤدي واجبا أنت وهيلين وأنا لن نُشكر عليه، ليس في هذا العالم. لكني لم أستطع. لم أستطع أن أقول لها وجها لوجه ما لا أجد صعوبة في كتابته هنا، الآن، لك: «الحقيقة غير المزيفة هي أنك تموتين. الحقيقة غير المزيفة هي أن قدما من قدميك في القبر. الحقيقة غير المزيفة هي أنك مسبقا عاجزة في هذا العالم وغدا ستكونين أكثر عجزا وهكذا يوما بعد يوم حتى يأتي اليوم الذي لن يوجد فيه عون لك. الحقيقة غير المزيفة هي أنك لست في وضع يؤهلك للتفاوض. الحقيقة غير المزيفة هي أنك لا تستطيعين أن تقولي لا. لا تستطيعين أن تقولي لا لدقات الساعة. لا تستطيعين القول لا للموت. عندما يقول لك الموت تعالي عليك أن تطرقي رأسك وتأتين. لهذا إقبلي. تعلمي أن تقولي نعم. عندما أقول لك اتركي خلفك بيتك الذي بنيتِه

لنفسك في إسبانيا، أتركي خلفك أشياءك الأليفة، تعالي وعيشي في.. نعم، عيشي في مؤسسة للرعاية حيث توجد ممرضة من غواده لوبي ستوقظك صباحا وبيدها كأس عصير برتقال وتحية مرحة (يا له من نهار جميل يا مدام كوستللو!)* ، لا تعبسي، لا تعاندي. قولي نعم. قولي موافقة. أنا تحت تصرفك، فافعل الأفضل».

عزيزتي نورما سيأتي يوم سنحتاج أنا وأنت فيه أن تقال لنا الحقيقة، الحقيقة غير المزيفة، فهل يمكننا أن نتعاهد؟ هل يمكننا أن نعد بعضنا بأنه لن يكذب أحدنا على الآخر، بأنه مهما كان صعبا أن تقال الكلمات، فسنقولها-الكلمات هي أن الحال لن تتحسن، وهي ستستمر تسوء وتسوء الى أن يصبح من المتعذر أن تكون أسوأ مما هي عليه، الى أن تكون غاية في السوء؟"

زوجك المحب

جون

المصدر:

Lies by J. M. Coetzee, The newyork review of books, 21 december 2017

***هامش المترجم:**

العبارة بالأصل فرنسية ((Quel beau jour, Madame Costello!)

نشر الكاتب قصة (أكاذيب) سنة 2011 لأول مرة وأعادت ذي نيويورك ريفيو أوف بوكس نشرها سنة 2017 غير إن اسم كوستللو يعود الى تواريخ أسبق من هذا، ففي عام 2003 يصدر كويتزي روايته (أليزابيث كوستللو) حيث الشخصية الرئيسية كاتبة استرالية تدخل سن الشيخوخة وهي تسافر حول العالم وتلقي محاضرات عن حياة الحيوان وعن الرقابة الادبية. هذه الكاتبة تكتب رواية تعيد بها كتابة رواية جيمس جويس (يوليسيس) ولكن على لسان زوجة الشخصية الرئيسية. كذلك نجد كوستللو قبل ذلك شخصية رئيسية في رواية (حياة الحيوان) 1999. وتظهر كوستللو أيضا في رواية كويتزي (الرجل البطيء) 2005.

سيرتُك الأولى

صادق الطريحي

لا صورةٌ لكَ يا صديقي، ..
وجهُكَ المكتوبُ في ورقِ الحكومةِ
ضائعُ.
لا صورةٌ لكَ في الرّقيمِ أو المَسلّةِ ..
ربما دِيسَتْ مع الأنقاضِ ذاتَ سَريّةٍ.
رئتاكَ ضامرتانِ في فحصِ الأشعّةِ ..
إنّكَ المجهولُ في سُررِ المشارحِ ..
والسّياسةِ في البلادْ.
لا بصمةٌ لكَ في المشافي،
والمقاهي،
والمنافي،
والمدارسِ، ساعةَ التّوقيعِ ..
إنّكَ متعبٌ.
بصماتُ جسمِك أتلفَتْ
في الدّورة الأولى من الأنفالِ ..
لا تكتبْ كثيرًا، إنّ وقتَكَ ضيّقٌ
لا تقرعِ الأجراسَ ..

إنّ كنيسةَ الرّحمنِ مغلقةٌ ..
فلا صوتٌ سيسمعُ في العُلا،
أو في البلادْ.
لا تنبشِ الأخبارَ، ..
إذْ لا قاربٌ سيمرُّ في النّهرينِ ..
ينقذُ ظلَّكَ المشلولَ من دودِ الرّمالِ ؛..
فلستَ محظوظًا لكي تُنجيكَ سيّدةُ السّوادْ.
لا وردةٌ لكَ يا صديقي، ..
إنّ مَنْ أحببتَ لن تعطي لصفحتِكَ البريئةِ
وردةً
لا صفحةٌ لك يا صديقي، ..
إنّك المفقودُ مذْ ألفٍ من السّنواتِ ..
مفقودٌ من الدّيوانِ، ..
مفقودٌ من الأرزاقِ، ..
مفقودٌ من الكتبِ المشاعةِ ..
لا مؤسسةٌ سترغبُ فيكَ ..
إنّكَ واحدٌ فردٌ ..

وهمْ متعدّدونَ ..
فلنْ يفاوضَك الغزاةُ ..
سيقتلونَ بنيكَ ..
يغتصبونَ إرثَكَ، ..
يأخذونَ كتابَك المقروءَ، ..
لنْ يتراجعوا.
لا سيرةٌ لك يا صديقي، ..
إنّك المصلوبُ،
والمقتولُ،
والمذبوحُ،
والدّهْريُّ
والمسجونُ،
والمطرودُ،
والمعدومُ
والمنفيُّ،
واسمكَ، ..
هلْ هو اسمكَ يا صديقي
ربما قد صرتَ رقمًا في سجلّاتِ الخَراجِ
..
يفتّشُ الفقهاءُ عنكَ، ..
وربما ما زلتَ رقمًا في سجلّاتِ الفتوحِ ..

يفتّشُ الأعرابُ عنكَ
ونحنُ لا ندري ..
بأنّكَ في سجلّاتِ البنوكِ معرّفٌ
ويقايضُ الكتّابُ سيرتَك الأخيرةَ ..
بالحصولِ على الفوائدِ من معارضَ
للجثْ.
دقيقة دهشة
خضر حسن خلف
في المكان المصلوب تحتي
المُكره على انتظارِ التحديثِ
الموقوف على ذمّةِ الخطى
تقتربُ من وخز سخونته قدمان صافيان
الشمس تشير عقاربُها
الى انحرافِ حِزمِها عن المحور الشاقولي
فأُظللُ بيسراي عيني
أنتظرُ مركبةً تقلني الى حيث أمارسُ
التخيّل
جسدُ الصغيرةِ المغبرُّ بالطواف
يلتصق بي
أُمسدُ بيميني شعرَها الأشعث
تشعر بحنينٍ منسي

فتشبكُ أصابعَها الليّنة فوق كفّي
يمرُّ بنا الوقتُ متثائباً
تشملني بنصف نظرةٍ متوجسةٍ
تستأصلُ عالماً كنتُ قد بنيتهُ
وبصوت متهدجٍ تباغتني:
كم كانَ يحبُّني المعلم!
تطوف بعالمي دونَ أنْ تدري
تتبخترُ تحت كفي وادعةً :
أعرف أرسمُ... هل تعرفُ ترسم؟
تتمردُ على العالم الجاف... تحرر أصابعها:
تفاحةً... أم صورة أبي؟!
تفردُ اصبعين للإمساكِ بحصاةٍ
تمرّرُها برخاوةٍ على سخونة الرصيفِ

لا أَثَرَ للخطوط إلا بمخيلتها
ولا توقفَ يُنهي تماهيها مع الافتراض
أتابع تشكيلها السرابيّ بلهفةٍ
يستحوذ حزنُها الشفيف على غشاوة عيني
فأتصورهُ رجلاً مقعداً وربما أعمى
يُمسكُ بنصف تفاحةٍ
هل رأيتَ كم هو جميل؟
تتوهج في تألقها ويُلجمُ لساني
تنفرطُ كلماتُها مع دمعةٍ على الرمش :
ولكنّني لا أعرفُ،
كيفَ أرسمُ رصاصةً تخترقُ القلبَ
وبقعَ الدّمِ المنتشرة على بدلتهِ..
هل تعرف؟!

الجسد بوصفه سلطة

رنا صباح خليل

(للجسد حضور فكري وبدني في حياتنا . وعن طريقه تمارس السلطة ادواتها القمعية والذهنية . كذلك نرى في الجسد . . اشارات وايماءات ولغة، مثلما يحمل رغبات ومؤثرات شتى . من هنا . . تسلط رنا صباح خليل منظورها الى رواية الراحل سعد محمد رحيم "ظلال جسد ضفاف الرغبة" الفائزة بجائزة كتارا للعام 2015) محرر "ادب وفن" .

ترصد رواية (ظلال جسد ضفاف الرغبة) الصادرة ضمن جائزة كتارا للرواية لعام 2015 و للروائي سعد محمد رحيم حركة الواقع بشخوصه واحداثه المتسارعة ضمن افق الشخصية ومحيطها بعد عام 2003 في العراق، مازجا اياها بخيالاته التي فرضت عليه الاشتغال في مناطق حساسة جدا ومهمة من ناحية اختياره لمشروعه الذي وظفه لتبني الجانب الايروتيكي منذ عنوان الرواية الى ذروتها ونشوء عقدها وصولا الى الحقائق وتبني التساؤلات وهو يغور ويغطس في عالمه وتهويماته وفقا لبناه الدلالية التي يتعامل معها بحرفية عالية.

مرتكزات سلطة الجسد التي تبثها الشخصية في الرواية:

احتل موضوع الجسد في الحركة الادبية والنقدية اهمية كبيرة فقد تناوله الباحثون والادباء في مواضع كثيرة وقدموا فيه كتبا تبرز قيمته، كونه اصبح يعبر عن ساحة صراع بين المرأة والرجل على امتلاكه الامر الذي جعله يحمل شيفراته الخاصة وفقا للاهداف التي بني عليها ادبياً عند كلا الجنسين فقد تحول من مجرد صورة أو شكل الى تأويلات كثيرة تصب في مفهوم الهوية والذات والرغبة والقوة والتسلط والقيادة وهذا ماجعل افلاطون سلفا يتخذ من الجسد تابعا للروح ليأتي من بعده تلميذه سقراط فيعمل العكس بجعل الروح تابعة للجسد فيعلي بذلك من شأن الجسد ويجعل له سلطة الروح تأتمر بإمرته[1].

هنالك اشارات تجعل من العنونة الى المتن الحكائي مرتكزات تنبض غواية وانفتاحا على التأمل اللامحدود؛ مما يتيح لها ان تغرق في فرضيات التورط النصي الملغزة وفي أولى هذه الاشارات نجد ذلك (المارد) في وصف ثلاثة امور تحتويها شخصية (رواء العطار) وهي الشخصية الفاعلة في الرواية وتأتي بعد الشخصية

المركزية الاولى (علاء البابلي) اهمية في مضمرات الروي إذ هي الحاملة الطاغية للجسد المدمر وهي الفعل الايروتيكي الفتاك من دون التماس صيغته المادية وهي مجرمة من نوع خاص، وتلك الصفات يقرّ بتأثيرها الاخير و كل من وقع ضحيتها من الشخصيات الثانوية وهم على كثرتهم يتفقون على ان هناك مفاتيح سحرية تكمن في: ابتسامتها ونظرتها وجسدها.

رواء العطار مركز الحكاية والخيط الرابط الذي يصل كل حادثة بما قبلها وما بعدها بما تفعِّله بشخصيتها من مجال فسيح للتداخل والتفاعل بين مختلف فئات الشخصيات لتنتج صورة لمحبيها وصراعهم مع تفاصيل الذات والجسد وتهويمات واقع منفلت يسعِّر الغرائز دون ان يحقق إشباعها تزامنا مع انفجارات وانتهاكات ما بعد سقوط السلطة والاحتلال الامريكي للعراق الذي استطاع الروائي ان يستثمره في خلق بنية لتلك الشخصية، بجعلها من الشخصيات التي تقسو على قارئها وكاتبها ورواتها بطريقة ما، فهي لا تظهر كوجود متكامل في المشاهد السردية الا قليلا ولا تتحدث الا بالقليل ولكن لها فعلها الايروسي الذي يُكون مادة خاما لصناعة الاحداث وهي بمجملها على ارتباط بها وبألاعيبها التي تنتهي بجرائم قتل لا يسلم منها الا القليل ومنهم (علاء البابلي) الذي يتبنى السرد ويأخذ دور الراوي العليم بوصفه الشخصية المركزية الاولى وهو طالب الدكتوراه في الاقتصاد السياسي والذي له اهتماماته الادبية التي تكون اولى مسببات الوقوع في مطب (رواء العطار) وهي تتقمص شخصية طالبة ماجستير في الادب مثل أية ممثلة بارعة تتنكر بشتى الادوار وبمختلف الاسماء لتوقع من تريد بحبائلها، ولكي يدعم الروائي سرده فنيا أشار ضمنا الى ارتباطها بجهة سرية تقوم باختيار أناس معينين تضيفهم لقائمة القتل لديها باعتمادها على الكذب وخصائص ثلاث كانت اداة طيعة لجذبهم .

تجدر الاشارة الى ان تلك الصفات الثلاث لشخصية رواء العطار لم ترتقِ بتأثيراتها على الشخوص بما يثبت الفعل المادي الملموس، الا ان الروائي استطاع بطريقة ذكية ان يجعل لتلك الصفات دورا باتخاذه الجسد مكوّنا مركزيّا في الرواية، يبوح بوظائفه ورموزه وتضاريسه، فقد تحوّل من لازم مادي محدود إلى موضوع فعّال تتضافر جميع العناصر الروائية، (الأحداث والفضاء والشخصيات واللغة...) لإكسابه خصائصه البنائية مما يجذّر انتفاء قيام البناء البيولوجي أساسا لقيام البناء الثقافي والاجتماعي عن طريق تكريس جدل الرغبة والحظر، فينعقد مسار الحكاية وتقلّبات المغامرة والمقاطع المكوّنة لذلك على شخصية (رواء العطار)، فتتدرّج الأحداث بدءا من تكوين متخيّل سردي للجسد من خلال نظرة عشّاقه إليه وتوقهم إلى الظفر به وصولا الى النهاية التي تُكون مصدات للرغبات تتوج بالحرمان.

تكشف المشاهد السردية صفات الجمال التي تترافق والقدرة على الاغراء، ولكي نبعدها عن قشرية الدلالة وسطحيتها

بوصفها محددة بالرغبات الآنية يجب ان نُقوِّم الفعل الايروسي داخل المتن الروائي بمساءلة منطقية للدلالة فالصفات الثلاث جذبت استاذا جامعيا ومحاميا وطبيب عيون وشاعر وصاحب مطعم وتاجر وامرأة شاذة، وهي صفات اثثت فضاء الرواية بدءاً بالابتسامة التي يصفها الروائي وصفا حسيا دقيقا بلغة مشحونة بالتشبيه والاستعارة وعلى المشافهة والايماءات والايحاءات والرموز لتشكل بذلك صرح لغة جسدانية حداثية تحولت الى شيفرة باقترانها بالممثلة صوفيا لورين التي كان الشباب مهووسين بالنظر اليها.

اما قيام الروائي بتشبيه النظرة في الصفة الثانية بشراسة عيون حيوان بري فهي تنطلق من بنية ذهنية مجردة بمنظورها الايروسي؛ فالفعل الجسدي في جانب من جوانبه يحمل تلك الشراسة المرتبطة بقوة فعل العاطفة المقرونة هنا بحاسة البصر التي تدخل العالم الايروسي من خلال نقل الصورة الحسية الى المخيلة انطلاقا من العالم الخارجي الا انها باقترانها بالشراسة الهادئة تجسد الريبة والشك للمقابل الذي يحيل اليه التشبه بالحيوان البري حالة من الاحتيال والمكر والنظرة الشريرة الاقتحامية التي على الرغم من تحريكها للحواس في كينونة الجسد، تخترق الموضوع المنظور اليه بجسارة الافتراس والخديعة التي اتضحت من خلال اعتراف (رواء العطار) بعدم حبها (لعلاء البابلي) ومن ثم مقتل الشخوص الاربعة الذين تعلقوا بها، بعد ذلك علينا الركون الى اهم خصيصة للجسد بوصفه سلطة في النص وهي تتمثل بانحناءات جسدية. وفقا لوحدات وصفية انفعالية نفسية موجهة للجسد الانثوي بإسقاطات سايكولوجية تشكل مادة خصبة للسرد والتأمل معا بما تثيره من حب وخوف ورغبات .

وقد عمد الراوي الى جعل العلاقة التي تربط رواء العطار بضحاياها ان تأخذ طابع الانجرار وراء هيمنة الرغبة الجسدية التي لا يتم التنفيس عنها لدى الشخوص، ذلك ان اللحظات الحميمية لم تكن متكافئة دائما حيث يشوبها الحب من طرف واحد تمثل بحب الضحايا التي لم تبادله (رواء العطار) الا بالإساءة والغدر إذ ان الخواء الروحي الذي تعانيه الشخصية يجعل الفعل العاطفي يتحول في حاضرها الى معركة اثبات وجود وتحقيق كينونة وبهذا ينتفي الفعل الانساني للجسد وتحل محله سلطة تروم سحق الآخر وتدميره.

شخصيات داعمة لفكرة السلطة والجسد داخل النص:

ان السردية بين الحب وفعل الرغبات كلها مؤشرات توحي بإحساسات عاطفية تجاه الجسد الانثوي المرغوب لتترجم انجذابا وجدانيا يتجلى بالتقطيع الايروتيكي لذلك الجسد على ما يرى وما لايرى من المناطق الايروسية التي تولد مناخا استيهاميا ضمن حركة المشاهد التي يغذيها استحضار الدلالة لفعل الشخصيات التي تُكون بوجودها الثانوي اطارا حرا خارج الاطار التنظيمي الاساس ومن هذه الشخصيات داخل المتن الروائي شخصية (نرمين)

وشخصية (ام تغريد) إذ تُكون الشخصية الاخيرة عوامل جذب لصيغة وجودها الذي كان مرتبطا بجعل بيتها حاضنة للفعل الايروسي الذي تستثمره لإثارة كوامنها الداخلية. اخذت (الأنا) عند الشخصية (فاعلها البديهي، فبالجسد توجد الأنا، وفيه يسكن عدمها، وعليه يقع قمع المجتمع لها، وذلك لسبب واحد ووحيد هو أن الجسد طاقة حرية، ليست الجنسانية غير وجه من وجوهها المتعددة، ومن ثم قامت علاقة التناقض بين الجسد والسلطة تأسيسا على تناقض مبدأ وجود كل منهما: الحرية... مطلق الحرية)[2] وبهذا الطرح استطاع الروائي ان يقوض السائد وينتهكه ويقوم على احلال نموذج مغاير له، وبهذا الخرق والانحراف نجد صداهما عن طريق رفض فعل الكتابة الروائية لعلامات الثبات بحثا عن المتغير والمختلف المحقّق للانزياح عن النموذج والابتعاد عن المألوف.

ولمّا كان مشغل الكتابة الأدبية السائدة يتمثل في تجسيد المألوف وإخراجه في هيأة مناسبة بوصفه القاعدة، فإنّ (نرمين) بممارساتها غير السوية مع (رواء العطار) كانت قد جذبت (علاء البابلي) الى ساحتها وبذلك سعى الروائي الى عدم قلب المفاهيم بجعل الشذوذ قاعدة والقاعدة شذوذا من خلال اختراق المحرم والمدنس واحلاله محل المركز والاساس في بناء الرواية فشخصية نرمين لم تنحرف عن مسارها الطبيعي بدلالة تواصلها مع علاء البابلي ولكن باحكام سلطة الجسد مع كلا الشخصيتين يدعمها في ذلك ان هناك ممهدات شكلت حاضنة استقطاب اشتغلت عليها (رواء العطار) ببراعة ومكر فالجسد الأنثوي، ما لم يتحوّل إلى صورة وإلى شذرات إغراء وتمثّلات حالمة – وهو ما يطمح المؤلّف إلى تحقيقه- فإنّه يظلّ جسدا عاديا ذا "هويّة جنسيّة[3]، على حدّ تعبير رامان سلدن، ومبتذلا ابتذال الحياة اليوميّة.

ولا يخفى ما قام به الروائي من صناعة محكمة للطقوس التي تسبق الحاجات المتعطشة للرغبات على وفق سلطة الجسد، فإننا نتلمس استراتيجية تكشفها المدونة السردية على اساس اعداد شروط وقوانين لعبة استعمال تلك السلطة وشروط قيام العلائق الحميمية، اذ ان تحضير الطعام وطقوسه التي تجيدها (ام تغريد) يشكل عتبة أو بداية مقصود منها تهيئة عناصر توفيقية تراعي حصول انسجام بين الرغبات والحاجات، ولعل ما تستثار به الاولى تدعمه امور عدة ترتبط بما عدّ من طعام وخمر وبعد ذلك يأتي فعل الرقص الذي يشكل عناصر تجريبية تستقدم الحميمية المطلوبة وحرية انبثاق الجسد مهيمناً بسلطته التي يمكننا ان نكشفها في هذه الرواية بشكل جلي، فالاستراتيجيات التي تشكل عتبة ناجحة في استعمال اللذات متمثلة باستراتيجية الحاجة والوقت والوضع الشخصي، ذلك ان الحاجة الى الاشباع الجسدي تسبقه عملية تعطش له من خلال مداعبات الطعام والرقص ولكي يتم الاحساس بالاكتمال فإنه لابد ان تسبقه رغبة جامحة

ومضاعفتها تكون عن طريق تحديد الوقت المناسب فهذه هي الاهداف المهمة والدقيقة في فن استعمال السلطة الجسدية على الذات التي تمكن من طرحها الروائي في متنه السردي كأن يكون الوقت مساءً فالليل لما له من عناصر الخفية والاحتراس من العلنية التي تفضي الى عنصر التشويق والخوف واللعب الحر والابتعاد عن سلطة العقل والرقيب. فالخمر والرقص يجسدان حضور اللاعقل وسيطرة قوة الجسد في خلق سلطة للرغبات وفق احكام الحاجات الانسانية[4].

الهوامش

1 - ينظر: سيموطيقيا الاتصال، د. محمد فكري الجزار، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص74 .

2 - ينظر المصدر السابق ص75.

3 - ينظر: رمزية الاشتهاء(اسطرة الجسد) في رواية سيدة البيت العالي، د. نزيهة الحليفي، مجلة علامات، المجلد 2010، العدد 33، ص91-99 .

4 - استعمال اللذات، ص38، ميشيل فوكو، ترجمة جورج ابي صالح، مركز الانماء القومي، ط1 ،1991، لبنان.

مع الشاعرة والكاتبة المصرية فاطمة ناعوت: الشعر انتصار للحياة، والحياة تبدأ وتنتهي بالكتاب

كريمة الربيعي

تحلمُ بعالم لا ظُلم فيه ولا ظلام. لكنّها لا تملُّ من الشِّعر.. ولا الشعرُ يملُّ منها. جاءت فاطمة ناعوت إلى "واحة الشعر" من "حقل" الهندسة المعمارية ثم ألقت بنفسها في معترك الأدب والترجمات والفكر والنقد الثقافي والمجتمعي وقضايا العدالة والمواطنة. وأجادت فنون المصارعة الفكرية الرصينة في ملعب قضايا التنوير، وراحت تتنقل بين "الحقول" المختلفة، كفراشة هائمة في دهشة الضوء، أو عتمة الليل، حاملة مصباح الحقيقة.

الهندسة عشقُها، والشعر قرينُ حياتها، والتنوير مصباح دروبها. وهي امرأة "متوازنة" لا تطغى مصريتُها على عروبتها، ولا تستلبُ عروبيتُها من مصريتها. لا يصعب استخراج عناوين صحفية من كلامها فهي بليغة كسقراط. وليست مشغولة بالـ "أنا" قدر انشغالها بالـ "الآخر".. مسكونة بفنّ عمارة المباني وهندسة المعاني، ولعلها مصابة "بوسواس الجمال القهري" إذا جاز التعبير. سألتها:

*** من هي فاطمة ناعوت؟ وهل جازفتِ بطهارة الشعر حين دخلت في معترك السياسة؟**

- لا اعد نفسي كاتبةً سياسية على الرغم من أنني أكتب منذ عقدين، أعمدة رأي أسبوعية ثابتة في صحف شهيرة ومجلات ذائعة الصيت. القارئ المتابع سيلمح فورا عدة سمات حيث تنحو الجملةُ نحو الادب وهذه السمّة أدين بها لآبائي من كبار أدباء مصر ونقادها، الذين حذروني من الوقوع في اللغة الصحفية، واضعة صوب عيني الانموذج الأجمل د. طه حسين، الذي لم تُفقده الكتابةُ الصحفية أدبيةَ جملته ورشاقتها. أذكر من أولئك الآباء "المُحذّرين" الناقد الكبير رجاء النقاش، والمفكّر الكبير محمود أمين العالم. لا أعدّ نفسي كاتبة سياسية، بل شاعرةٌ تبحث عن الجمال والعدل وتطاردهما حيثما يكونان. تمامًا مثلما ظل الفيلسوف الإغريقي الأعمى "ديوجين" يسير في وضح النهار حاملا مصباحه باحثا عن الحقيقة.

*** الشاعر هو المتحدث الرسمي باسم أمته.. فما هو منطوق الشعر عن المشهد العربي الراهن؟**

- هبط الشعراء من الأوليمب، لم يعد دور الشاعر تبشيريا رسوليا كما في المدارس القديمة، لم يعد يدعي امتلاك اليقين، بل أصبح يشارك البشر في سؤال الوجود الدائم. تنازل الشاعرُ قانعا عن تلك المكانة الرفيعة التي كانت تفصله عن الناس وانخرط في الكتلة البشرية يتفاعل معهم ومع همومهم. وهذا أدى إلى انخفاض نبرة صوته المميزة للشعر الكلاسيكي والتي كانت تتسم بالنصح والتوجيه؛ وكأن الشاعر يعرف ما لايعرفه البشر، وبما أن ربّات الشعر والحكمة وضعفه في باب المعرفة. انتهى هذا بظهور الحداثة. إذ انتبه الشاعر والقارئ الى أن الشعراء بشر بسطاء. بل هم أكثر ضعفًا عن سواهم. لأن الشعر وإن كان يضفي على قائله بريقا لكنه يشي في ذات الوقت بظلال من الانهزام أمام الواقع. فالشعر يبدأ حين يرفض المرء واقعه أو لنقل حين يفشل في التفاعل معه بشكل سلس. ولهذا كانت الحداثة وما بعد الحداثة هي بداية الدرب الذي أدرك الشاعر فيه أنه يجب أن يبدأ برؤية نفسه من الداخل في محاولة تطهيرية لتنقية الذات من الخطيئة بوصفه أحد الخطائين ككل البشر. والرسالة التي يقدمها للقارئ هنا تكون أكثر صدقا لأنها تقوم على القياس لا على المباشرة. إن الشاعر بوصفه فردا في المجتمع يحيا همومه ويحزن لهزائمه. تجد تلك الآلام تطلُّ بين كلماته ولو تعمد إخفاءها. وأنا بشكل خاص لا أميل للقول المباشر مثل: قوموا وهبّوا وقاتلوا. بل أجنح إلى الدخول للقضايا الكبرى من أركانها الصغيرة الخبيئة. والقارئ ذكي دوما. يلتقط الإشارة ويتعامل معها على نحو أفضل مما لو جاءته كبيان سياسي صريح ومباشر. المشهد العربي الراهن مُحزن وأرى ظلاله القاتمة تدثر كل شيء. ولكنني أيضا أراه رسالة حادة وأخيرة يجب ألا نغفل عنها. ألم يحن الوقت بعد لنصنع استراتيجية اقتصاد عربي وتفعيله كقوة ضاغطة في مواجهة البرابرة؟ وقد اطلقت عبارة ''استعمار ما بعد حداثي'' أي استعمار متفق عليه لكونه استعمارا غير عسكريّ يمكن رؤيته والتعامل معه، لكنه أخطر وأعمق وأخفى و أنكى و أطول أمدًا، بل ومشرّع له من قِبل مجلس الأمن، ولا بنود في معاهدة جنيف تقتص منه، إذ إن الأسرى مأسورون بكامل إرادتهم. انه استعمار ذهني اقتصادي وسياسي أيضا. لنعد الى الشعر فهو انتصار للحياة.

*** جملتك الأنيقة المستفيدة هل تعود الى قراءاتك الأجنبية وترجماتك؟**

- انا مفتونة باللغة العربية التي أراها موسيقا صافيةً في ذاتها. انها شديدة الاختلاف عن كل اللغات من حيث التراكيب اللغوية والصياغة والمعمار والأجرومية النحوية والصرفية، من حيث حقولها المجازية والدلالية على النحو الذي يصعب معها أن تُفيد معرفة لغة أخرى. افتتاني بالعربية يعود إلى أمرين: القرآن وجبران. فأما القرآن فنبهني إلى الموسيقا المخبوءة في الحروف، والإيقاع الشجي الكامن جبلّةً وفطرةً بين ثنايا تراكيب اللغة العربية،

قبل الحاجة للفراهيدي وتفعيلاته. وكما تعامل تشايكوفسكي مع النغم والصوت ليخرج من الكمان زقزقةَ العصفور بكل جمالها وعمقها. أسرني جبران حتى ظننته في طفولتي أن جناحين ينبثقان في الليل من منبت كتفيه فيطير إلى السماء، ثم يعود إلينا عند الصبح!

*** الفكر في الشعر، نجده عندك حالا: تأملاً وأسئلة؟**

- تمرُّ بنا أحداثٌ كثيرة في حياتنا وخلال يومنا. لكننا لا نكتب حياتَنا في الشعر، بل نكتب ما يمكن أن يُعدُّ معبرا عن النفس الإنسانية والجغرافيا والظرف والزمان. يتصيد الشاعرُ من الوجود ومن حياته ومما يرى.. القصيدةُ عابرةً الذات، غير مسوّرةٍ بالطوق الضيق للشخصانية. صحيحٌ أن الفكر لم يبدأ بعد كما قال هيدجر، وصحيحٌ أن الشعرَ ليس فكرا، لكن عقلَ الإنسان بطبيعته يعمل طوال الوقت. أن عقلَ كلّ كائن حي لا يتوقف عن العمل والتفكير والتحليل والتبصّر، بل سيأخذني هوسُ المبالغة وأقول إن الجوامدَ أيضًا تفكّر وتمكرُ، وإلا لما تضامّت الإلكترونات والبروتوناتُ في الذَرّة الصغيرة إلى جوار بعضها بعضًا وقت البرودة، وما تشتت وتباعدت وتفارقتْ وقت الحرارة. الشاعرُ إنسان. يفكّر أيضًا. يبصر الأشياءَ ويُنصتُ إلى العالم. ينظر الى ''داخل'' الأشياء لا ''إليها''، يبحثُ عن جوهرِها النشط المشتعل الموّار، وغالبًا هنالك يكمن الشعر. الفيلسوف أيضًا يفعل هذا طبعا لكنه يصبغ رؤاه بالمنطق والقانون، أما الشاعر فيطّرح المنطقَ ويكسر القانون، ثم يفعّل الخيال. القصيدة التي هي شعورٌ في شعورٍ ونجوى في نجوى وخيالٌ في خيالٍ وعاطفةٌ في عاطفة، هي- بظني- شيءٌ مسطّح أفقيّ أقربُ للخاطرة. نحن نكتب في قصائدنا كل ما (لم) يحدث في الواقع.

*** د. صلاح فضل قال عنك: ''انها تجمع بين الالفة والغرابة''. ماذا تقولين؟**

- أعتزُّ كثيرًا بما كتب عني في بداية مشواري الأدبي منذ عشرين عامًا. ومما قاله عني: (شاعرةٌ شابة تحترف الهندسة المعمارية، وتكتب الشعر بالعربية والإنكليزية، فتخترق حواجز اللغات والثقافات، كي تتواصل مع ذاتها في لحظات صدق حميم وموجع. تترجم رؤيتها إلى كلماتٍ لم يسبق لها الدخول في قاموس الشعر من قبل، تطمح إلى أن تتحقق فيه وتبطل المطمور المخزون عند الأسلاف. ترقص على الحافة الخطرة بين شعرية الائتلاف والاختلاف، وتلعب في تلك المسافة الحرجة بين حرية الإبداع وعقوبات التلقي. نعم، انا اجمع بين الألفة والغرابة - والمزج الجميل بين الأديان واللغات في اتساق وجداني ملحوظ.

*** الرومانسية كانت فاتحة كتاب الشعر عند العرب.. في رأيك هل مازال للرومانسية وجود الآن؟**

- ظهرت الرومانسية كمدرسة شعرية في منتصف القرن الماضي مع جماعتيّ الديوان و أبولو. ومبدأها محاكاة

العالم والطبيعة من خلال الذات. بينما جنحت الواقعية والحداثة إلى توسيع الرؤية ومحاولة الخروج من قوقعة النفس الضيقة، نحو الواقع الحي. فيما اتجهت ما بعد الحداثة - إلى البحث ''عن الخارج'' ''داخل الذات، فالعالم والكون كله موجود داخلك. الإنسان مؤسسة كونية كاملة بكل خيرها وشرها، فضائلها ونقائصها، جمالها وقبحها. وما عليك كشاعر إلاّ الغوص داخلك لحظة الانصهار لاستخراج اللآلئ. وفي عملية الرصد هذه يكمن أجمل الشعر وأصفاه، وعندما قال سقراط : ''أعرف نفسك'' كان يعلم أنه يطلب المستحيل وكان يقولها ساخرا إن التشريح الذاتي هو أقسى المهام البشرية. وصعوبته ليست فقط في طبيعة المهمة ولكن لأنها تنطوي على مقاومة ذاتية. فالجرّاحُ (المُشرِّح) والمريض (المطلوب تشريحه) هما ذات واحدة وهنا تكمن الصعوبة. بدأ الشعر القديم ببدايات كلاسيكية منها النسيب والطللية والخمرية والفخر والمديح والهجاء والغزل و الوصف وغيرها. واليوم اختفى سطوع تلك الخيوط في سجادة الشعر الحديث ولكن بعضها قد يظهر برهافة هنا وهناك كملمح غزلي أو رومانتيكي أو غيره. ولكن الفارق في الشعر الحديث هو محاولة تبني الحياد أو الموضوعية، وعدم إسقاط وجهة نظر الشاعر على الفكرة.

*** تقولين في أحد دواوينك الشعرية إن لك مساحتك الخاصة التي عشقتِها وصاغتها حروفك الشاعرة.. ما هي قسمات وخيوط تلك المساحة ومعالمها؟**

- أنتِ تشيرين إلى إهداء الديوان الأول حيث أقول :(إلى أمي، أودعتني بين دفتي كتاب، فعشقت مساحتي الخاصة حيث لا بديل). كنت أشير هنا إلى سياسة أمي في تنشئتي وأخي. حيث زرعت داخلنا أن الحياة تبدأ وتنتهي عند الكتاب. فعشقت القراءة وأنا أشكرها على ذلك ولكن بالإهداء ظلالَ عتاب خفيف لأنها نسيت أن تخبرني أن بشرًا هناك وحياة ونبضًا و ألمًا خارج الكتاب. لم أكتشف كلَّ هذا إلا بعد أن كبرت جدا فغمرتني الدهشة وفاتني الكثير لأتعلمه. أما مساحتي في الكتابة فهي المعادل للحياة، ففي قلمي ودفتري تكمن حياتي الكاملة التي عشتها والتي لم أعشها، ولولا الشعر لمت وكانت نهايتي. الشعر يجعلك تتسق مع ذاتك ومع الدنيا ويرأب صدوعا وشروخًا نجمت عن رفضك لكل قبيح، وعن بحثك اليائس عن الجمال. في ورقتي يمكنني أن أخلق يوتوبيا خاصة بي. أشيّدها، أدخلها وأحياها. ويمكنني أيضا أن أصنع جحيما أقتص فيه من نفسي حين أغضب عليها. وهكذا أشكل عالما كاملا فوق ورقتي البيضاء: دنيا وبشر حياة وموت جنة ونار ...أليس في هذا بديل وافٍ عن الحياة؟

مطبوعات وصلتنا :

• حنون مجيد (موت الأم) رواية - دار أمل الجديدة سورية - دمشق، 2020.
• د.لطفي حاتم، العولمة الرأسمالية وإعادة بناء اليسار الاشتراكي .دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد، 2019.
• د. مجيد الراضي، الإسلام ..التجربة التاريخية والمعاصرة .دارالرواد الزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد، 2018.
• علي اليساري (ثقافة الفاست فود) . دار الكتاب الجامعي - بغداد، 2020.
• مجلة المورد ، العدد الأول 2018 . دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.
• مجلة المورد، العدد الثاني 2018 . دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.
• الثقافة التركمانية ،العدد 2 - 2017. دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد.
• الثقافة التركمانية ، العدد 3 - 4 ،2017 - دارالشؤون الثقافية العامة - بغداد.
• مجلة رواق التشكيل ،العدد السابع - ايلول 2019 .جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين .